

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (٢)

احكام من القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
عز الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد
(١ - ٢)

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

مركز البحوث والدراسات الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحكمة من القرآن الكريم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، ١٤٢٨هـ

لمهسة مكتبة الملك عبد الرطبية أثناء النشر

لعثيمين، محمد بن صلح

لعكلم من القران والسنة / محمد بن صلح لعثيمين - الرياض - ١٤٢٨هـ

٢ صج

رمسة: ٦-٥-١٩١٨ - ١٩٦٠ - ١٩٧٨ (مجرسة)

٢-٦-١٩١٨ - ١٩٦٠ - ١٩٧٨ (١ ج)

١- القران - لعكلم - ١- العزان

لعوي: ٢٢٦,٢ ١٤٢٨/٨٠٢٥

رقم الإناج: ١٤٢٨/٨٠٢٥

رمسة: ٦-٥-١٩١٨ - ١٩٦٠ - ١٩٧٨ (مجرسة)

٢-٦-١٩١٨ - ١٩٦٠ - ١٩٧٨ (١ ج)

صممع لعقون صمفزة لعمؤنفة
والألمة أراءة طبة لعؤبه صمفزة صمفزة
مؤنفة لعنص، محمد بن صلح لعثيمين لعنص
رمسة لعنص

الملمكة العربية السعودية

عنصرة - ص.ب. ١٩٢٩

ماتة: ٠١/٢٦٤٢١٧ - ٠١/٢٦٤٢٠٨

www.binothaimen.com

info@binothaimen.com

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

دار الوطء للنشر - الرياض

هاتف: ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) فاكس: ٤٧٢٣٩٤١ - ص.ب. ٣٣١٠

فرع السويدية: هاتف: ٤٢٦٧١٧٧ - فاكس: ٤٢٦٧٢٧٧

المنطقة الغربية: ٥٠٤١٤٣١٩٨ - المنطقة الشرقية والرياض: ٥٠٣١٩٣٢٦٨

المنطقة الشمالية والقصيم: ٥٠٤١٣٠٧٢٨ - المنطقة الجنوبية: ٥٠٤١٣٠٧٢٧

التوزيع الخريفة: ٥٠٦٤٣٣٦٨٠٤ - ٢٨٣١٤٥٣ التسويق والعارض الخارجية: ٥٠٦٤٩٥٢٥

Pop@dar-alwatan.com

البريد الإلكتروني:

www.madar-alwatan.com

موقعنا على الإنترنت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلّم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فقد طبع من هذا الكتاب أوّلُهُ عام ١٤١٥ هـ من سورة الفاتحة وحتى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ...﴾ الآية [البقرة: ١٨٨]، واعتنى بتلك الطبعة - مشكورًا - الشيخ / عبد الكريم بن صالح المقرن - جزاه الله خيرًا - .

وقد رأى المؤلف - صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - أن يراجع الكتاب المطبوع قبل إعادة طبعه مرة أخرى، فشرع في ذلك غير أنه وافاه الأجل - رحمه الله تعالى - قبل أن يكمله، حيث بلغ في مراجعته قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٥٦] أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وإنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها صاحب الفضيلة شيخنا محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى - لإخراج مؤلفاته عهدت مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية إلى الشيخ عبدالكريم بن

صالح المقرن بإكمال العمل وإعداد باقي محتوى الأشرطة المسجلة المنتهية بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] وتخرّيج الأحاديث الواردة، وعاونه في ذلك الشيخ خالد بن أمان الله الصاوي فجزاهما الله خيرا.

هذا وقد أدخلت التعديلات التي كتبها فضيلة الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى في مراجعته، وتم توثيق باقي المادة العلمية على الأصول السمعية للأحاديث التي كان يلقيها - رحمه الله - على حلقات منتظمة، وتبثها إذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية، فصدر - بعون الله تعالى وتوفيقه - كاملاً في طبعته الأولى بمجلدين عام ١٤٢٥ هـ.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، موافقاً لمرضاته، نافعاً لعباده، وأن يجزي فضيلة شيخنا المؤلف عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ويسكنه فسيح جناته، إنه سميع قريب، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

غرة محرم ١٤٢٨ هـ

نبذة مختصرة عن العلامة محمد بن صالح العثيمين ١٣٤٧ - ١٤٢١هـ

نسبه ومولده:

هو صاحب الفضيلة الشيخ العالم المحقق، الفقيه المفسر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في عنيزة - إحدى مدن القصيم - في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألقه والده - رحمه الله تعالى - ليتعلم القرآن الكريم عند جدّه من جهة أمه المعلّم عبد الرحمن بن سليمان الداغ - رحمه الله -، ثمّ تعلّم الكتابة، وشيئاً من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبدالعزيز بن صالح الداغ - حفظه الله -، وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلّم علي بن عبدالله الشحيتان - رحمه الله - حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب ولما يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعد.

وبتوجيه من والده - رحمه الله - أقبل على طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - يدرّس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بعنيزة، وقد ربّ من طلبته الكبار؛ ومنهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع - رحمه الله - لتدريس

المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلى حلقة حتى أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدّ فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفةً وطريقةً أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، وأتباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان - رحمه الله - قاضيًا في عنيزة قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ على الشيخ عبدالرزاق عفيفي - رحمه الله - في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرّسًا في تلك المدينة.

ولما فتح المعهد العلمي في الرياض أشار عليه بعض إخوانه أن يلتحق به، فاستأذن شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - فأذن له، والتحق بالمعهد عامي ١٣٧٢ - ١٣٧٣هـ.

ولقد انتفع - خلال السنتين اللتين انتظم فيهما في معهد الرياض العلمي - بالعلماء الذين كانوا يدرّسون فيه حينذاك ومنهم: العلامة المفسّر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدّث عبد الرزاق الأفرريقي - رحمهم الله تعالى -.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبدالله ابن باز - رحمه الله - فقرأ عليه في المسجد من صحيح البخاري ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء

فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويُعدُّ ساحة الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله - هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثر به.

ثم عاد إلى عنيزة عام ١٣٧٤ هـ وصار يدرِّس على شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتساباً في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءاً من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حتى نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسَّم فيه شيخه النجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجَّعه على التدريس وهو ما زال طالباً في حلقاته، فبدأ التدريس عام ١٣٧٠ هـ في الجامع الكبير بعنيزة.

ولمَّا تخرَّج من المعهد العلمي في الرياض عُيِّن مدرِّساً في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٧٤ هـ.

وفي سنة ١٣٧٦ هـ توفي شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى - فتولَّى بعده إمامة الجامع الكبير في عنيزة، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة عنيزة الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه - رحمه الله - عام ١٣٥٩ هـ.

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ - رحمه الله - يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتى كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي على ذلك، إماماً

وخطيباً ومدرّساً، حتى وفاته - رحمه الله تعالى -.

بقي الشيخ مدرّساً في المعهد العلمي من عام ١٣٧٤هـ إلى عام ١٣٩٨هـ عندما انتقل إلى التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بالقصيم التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذاً فيها حتى وفاته - رحمه الله تعالى -.

وكان يدرّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج ورمضان والإجازات الصيفية منذ عام ١٤٠٢هـ، حتى وفاته - رحمه الله تعالى -.

وللشيخ - رحمه الله - أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويُلقي الدروس والمحاضرات بهمة عالية ونفس مطمئنة واثقة، مبتهجاً بنشره للعلم وتقريبه إلى الناس.
آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة - رحمه الله تعالى - خلال أكثر من خمسين عاماً من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء المحاضرات والدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى -.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميّزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل والمحاضرات والفتاوى والخطب واللقاءات والمقالات، وترك ثروة علمية كبيرة، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم والشروحات المتميزة

للحديث الشريف والسيرة النبوية والمتون والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذاً للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته - رحمه الله تعالى - لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاواه ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - بعون الله وتوفيقه - بواجب وشرف المسؤولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناءً على توجيهاته - رحمه الله تعالى - أنشئ له موقع خاص على شبكة المعلومات الدولية من أجل تعميم الفائدة المرجوة - بعون الله تعالى - وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرى:

إلى جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس والتأليف والإمامة والخطابة والإفتاء والدعوة إلى الله - سبحانه وتعالى - كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفقة منها ما يلي:

* عضواً في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام ١٤٠٧هـ إلى وفاته.

* عضواً في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين ١٣٩٨ - ١٤٠٠هـ.

* عضواً في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية في القصيم ورئيساً لقسم العقيدة فيها.

- * وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألف عددًا من الكتب المقررة بها.
- * عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام ١٣٩٢هـ إلى وفاته - رحمه الله تعالى - حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في مكة والمشاعر، ويفتي في المسائل والأحكام الشرعية.
- * ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في عنيزة من تأسيسها عام ١٤٠٥هـ إلى وفاته.
- * ألقى محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية على فئات متنوعة من الناس، كما ألقى محاضرات عبر الهاتف على تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.
- * من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون على أسئلة المستفسرين حول أحكام الدين وأصوله عقيدة وشرعية، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج «نور على الدرب».
- * نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفه ومكاتبه ومشافهة.
- * رتب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.
- * شارك في العديد من المؤتمرات التي عقدت في المملكة العربية السعودية.
- * ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.

* وللشيخ - رحمه الله - أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البرِّ ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكاته العلمية:

يُعدُّ فضيلة الشيخ - رحمه الله تعالى - من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله - بمنه وكرمه - تأصيلاً ومَلَكَةً عظيمة في معرفة الدليل واتباعه ودقة النظر واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنة، وسبر أغوار اللغة العربية معاني وإعراباً وبلاغة.

ولما تحلَّى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبَّه الناس محبة عظيمة، وقدره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من معين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل - رحمه الله - العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤١٤هـ، وجاء في الحثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

أولاً: تحلَّيه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر، وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانياً: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريساً وإفتاءً وتأليفاً.

ثالثاً: إلقاءه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعاً: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

خامساً: اتباعه أسلوباً متميزاً في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة،

وتقديمه مثلاً حياً لمنهج السلف الصالح؛ فكراً وسلوكاً.

عقبه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله،

وعبدالرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

توفي - رحمه الله - في مدينة جدة قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس

عشر من شهر شوال عام ١٤٢١هـ، وصُلي عليه في المسجد الحرام بعد

صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيعته تلك الآلاف من المصلين والحشود

العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودفن في مكة المكرمة.

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلي عليه صلاة الغائب في جميع

مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومنَّ عليه

بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدّم للإسلام والمسلمين خيراً.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين،
وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فإننا نستفتح هذا الكتاب، «أحكام من القرآن الكريم»، راجين الله
- سبحانه وتعالى - أن يكون مباركًا، نافعًا لنا ولإخواننا المسلمين.
وأحكام القرآن العظيم هي ما تتضمنه الآيات الكريمة من الفوائد
الدينية، والدينية، والفردية، والاجتماعية. ولا ريب أن كل آية في
كتاب الله تتضمن فوائد عظيمة يعرفها الإنسان بحسب علمه وفهمه،
ولا ريب كذلك أن الإنسان يؤتى العلم بحسب ما معه من الإيمان،
والهدى، والتقوى، كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ
أَهْتَدَوْا هُدًى ۖ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى
وَأَتَتْهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾، وقال - تعالى -: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَايَةً إِيْمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا
وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۖ ﴾، وكلما كان الإنسان أشد إقبالًا على القرآن الكريم،
وإيمانًا به، وحبًا له، وتدبرًا لآياته - كان به أفهم، وبها يدل عليه من

الفوائد العظيمة، والأحكام أوسع؛ ولهذا، فإني أحث إخواني المسلمين على تدبر كتاب الله - عز وجل -، وتفهم معانيه، والرجوع فيما لا يعرفونه إلى أهل العلم ليعينوه لهم، وإن لم يتيسر ذلك فإلى كتب التفسير الموثوق بها؛ كتفسير ابن كثير - رحمه الله - وتفسير شيخنا عبدالرحمن بن سعدي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني، وغيرها من التفاسير المعروفة الموثوق بمؤلفيها في علمهم ودينهم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - إنما أنزل القرآن لهذا، كما قال الله - تعالى -: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

فالقرآن الكريم لم ينزل لمجرد التلاوة اللفظية، تلاوة الآيات الحرفية، بل نزل من أجل هذا ومن أجل ما هو أتم وأكمل، وهو تدبر الآيات وتفهم معانيها، ثم التذكر بما فيها من القصص، والأخبار، والمواعظ، والأحكام، ولهذا كان الصحابة - رضي الله عنهم - لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً، وكثير من الناس اليوم لا يهتم بهذا الجانب، أعني جانب المعنى وجانب التدبر، وما تتضمنه الآيات من الفوائد والأحكام، ولا يهتمون به.

وهذا قصور بلا شك من الإنسان، وتقصير منه. ومن الناس من يتجرأ ويتكلم في القرآن بما لا يعلم فيكون شاهداً على الله - سبحانه

وتعالى - بما لا يعلم، وهذا محرم، قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي
 الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا
 لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ ﴾، فكل إنسان يتكلم
 في معنى آية من كتاب الله فهو شاهد على الله - تعالى - بأنه أراد بها كذا
 وكذا، وهذا أمر خطير؛ لأنه سيسأل عنه يوم القيامة فيقال: من الذي
 أعلمك بأن الله - تعالى - أراد كذا وكذا؟ ويكون قد قال في القرآن
 برأيه. ومن الناس من يعلم أن القرآن يدل على كذا وكذا، ولكن لديه
 عقيدة سابقة ونحلة يؤمها، ويقتدي بها وتقليده لمن يثق به، فتجده
 يحرف الكلم عن مواضعه، ويصرف آيات كتاب الله عز وجل إلى ما
 كان يعتقد ويبتحله من هذا المذهب، وهذا أشد من الذي قبله؛ لأنه
 خالف الحق عن علم به، فالواجب على كل مسلم مؤمن أن يتقي الله
 عز وجل حين يتكلم في معنى آية من كلام الله، وأن يكون على حذر،
 فلا يقول إلا ما يعلم أنه هو المراد، أو يغلب على ظنه أنه هو المراد، وأما
 مع الشك فلا يجوز له أن يتكلم في شيء، ونحن في هذا الكتاب لن
 نتكلم كثيرًا عن تفسير الآيات، وبيان وجوهها اللغوية من البلاغة
 والإعراب وغير ذلك؛ لأن هذا - والحمد لله - موجود في كثير من كتب
 المفسرين، ولكن يهمني أن أبين الفوائد التي تستنبط من هذه الآيات،
 وأبين وجه ذلك غالبًا فيما يحتاج إلى بيان، وفيما خفيت دلالاته؛ لأن
 الاستفادة من القرآن الكريم بهذه الطريقة يحصل بها علم كثير؛ ولهذا

سئل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: «لا والذي برأ النسمة، وخلق الحبة إلا فهمًا يؤتیه الله - تعالى - في كتابه وما في هذه الصحيفة؛ وهي فكاك الأسير»^(١)... إلخ ما فيها، لكن المهم أنه قال: «إلا فهمًا يؤتیه الله - تعالى - في كتابه»، وهذا يدل على أن الفهم في كتاب الله يحصل به خير كثير، وعلم غزير، ولكن يجب أن يكون الفهم مبنيًا على هذا الأساس كما أشرنا إليه؛ لأن الناس أربعة أقسام: فمنهم من عنده علم، ولكن ليس عنده فهم، ومن الناس من عنده فهم ولكن ليس عنده علم، ومن الناس من عنده علم وفهم، ومن الناس من لا علم عنده ولا فهم، والمراد من هذا الكتاب هو استنباط الفوائد من كتاب الله - عز وجل -؛ ليحصل بذلك خير كثير. واعلم أن الدلالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: مطابقة، وتضمّن، والتزام.

فدلالة اللفظ على جميع معناه دلالة مطابقة، ودلالته على جزء معناه دلالة تضمّن، ودلالته على أمر لازم خارج دلالة التزام، ولنضرب لذلك مثلًا معنويًا ومثلًا حسيًا.

أما المثل المعنوي: فانظر إلى اسم من أسماء الله؛ وهو «الخالق»، تجد أنه دل على صفة الخلق وعلى الخالق نفسه، فدلالته على الخلق نفسه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

وعلى صفة الخلق دلالة مطابقة، ودلالته على الخالق نفسه وحده أو على صفة الخلق وحدها دلالة تضمُّن، ودلالته على العلم والقدرة دلالة التزام؛ لأن الخلق لا بد فيه من علم وقدرة، فمن لم يكن عالمًا لا يستطيع أن يخلق، ومن لم يكن قادرًا لا يستطيع أن يخلق.

أما المثال الحسي فكأن نقول: «هذا بيت» كلمة بيت تدل على جميع البيت، على كل ما يحيط به سور البيت دلالة مطابقة، وتدل على هذه الغرفة، وغرفة ثانية، وغرفة ثالثة، وغرفة رابعة، وعلى الحوش (البراح)، وعلى المجلس، والصالة دلالة تضمُّن، وتدل على أن لهذا البيت بانياً دلالة التزام، هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة إذا استعملها الإنسان استعمالاً جيداً حصل بها فوائد كثيرة، ولهذا تجدد بعض أهل العلم إذا تكلم عن آية، أو حديث؛ لاستنباط أحكامها استخراج منها أشياء كثيرة؛ لاستعماله هذه الأنواع الثلاثة من الدلالة، ومن الناس من يقصر فهمه عنها فلا يستطيع أن يستنبط إلا فوائد قليلة، نسأل الله أن يوفقنا لخدمة كتابه، وأن يفقهنا في دلالاته واستنباط فوائده، وأن ينفع بهذا العمل؛ إنه سميع مجيب.

محمد بن صالح العثيمين

(١) سورة الفاتحة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾

إن الله - سبحانه وتعالى - أنزل على رسوله محمد ﷺ هذا القرآن
العظيم، وأنزل عليه سبعا من المثاني، كما قال - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ
سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ .

«والسبع المثاني» هي فاتحة الكتاب، وهي أعظم سورة في كتاب
الله، ولهذا فرضت قراءتها في الصلوات، فلا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة
الكتاب، افتتحها الله - سبحانه - بالحمد والثناء والتمجيد، والحمد هو
وصف المحمود بالكمال، والثناء تكرار هذا الوصف، والتمجيد ذكر
المجد والعظمة وقوة السلطان؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه
أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله - تعالى - :
قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدني ما سأل، فإذا قال
العبد: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، قال الله - تعالى - : حمدني عبدي،
وإذا قال: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾، قال الله - تعالى - : أثنى علي عبدي، وإذا

قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجدي عبدي [وقال مرّةً: فوض إلي عبدي]، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبي، ولعبي ما سأل» (١).

ففي قوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، دليل على كمال صفات الله - عز وجل -، وعلى كمال نعمه على عباده؛ لأن الحمد لا يستحقه إلا من كان كاملاً في وصفه، كاملاً في فعله، وأعني بالحمد الحمد المطلق الكامل، وإلا فقد يحمد الإنسان حمداً كاملاً على فعل ناقص، أو على كمال ذاتي ناقص.

وفي قوله: ﴿الله﴾ دليل على ثبوت ألوهية الله - عز وجل -، فالله - سبحانه وتعالى - إله الحق، وما سواه فهو باطل، وفي الإتيان باللام دليل على استحقاق هذا الحمد لله وحده، لا يشاركه فيه أحد، فالحمد المطلق الكامل لا يكون إلا لله - عز وجل -؛ لأن كل ما سواه إنما يحمد على شيء معين حمداً يليق بهذا الشيء المعين، ويكافئ هذا الشيء المعين.

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إثبات ربوبية الله - عز وجل -، والرب هو الخالق المالك المدبر، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله،

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

ولا مدبر إلا الله - عز وجل -، وإضافة الخلق إلى غير الله، أو الملك إلى غيره، أو التدبير إلى غير الله - إضافة ناقصة، ناقصة في ذاتها، وناقصة في شمولها وعمومها، أما خلق الله، وملك الله، وتدبير الله، فهو كامل شامل عام، وفي الآية الكريمة إثبات رب ومربوب، مما يدل على التباين بين الخالق والمخلوق، ويكون فيه رد على قول أهل الإلحاد القائلين بوحدة الوجود.

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن العالمين كلهم يفتقرون إلى الله - عز وجل -؛ لأنه لا قيام للمربوب إلا بالرب، فالرب هو المربي القائم على غيره من كل وجه، وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن الملائكة، والرسل، والأولياء، لا حق لهم في التدبير والخلق، ويتفرع على ذلك أنه ليس لأحد أن يدعو هؤلاء، وأن يستغيث بهم، وأن يستنصر بهم؛ لأنهم مربوبون، هم بأنفسهم محتاجون إلى الرب، غير مستغنين عنه، فكيف يمكن أن يكونوا ملجأ للعباد وملاذاً لهم يستعيذون بهم، ويستغيثون بهم، ويسترحمون بهم؟!

وفي قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دليل على أن العالم حادث، وهو كذلك؛ فإن العالم حادث بعد أن لم يكن، كما قال الله - تعالى - يعني نفسه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، قال النبي ﷺ في تفسيرها: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك

شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١).

وفي قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ دليل على أن هذا العالم علم وآية دالة على الله - عز وجل - فإن ما في هذا الكون من الانتظام البديع والاطراد، وعدم التناقض، والإحكام، دليل على كمال موجدته - عز وجل - كما قال - تعالى -: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَبَّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤]، فهذا الكون المربوب المخلوق علم على خالقه - عز وجل -، ودليل عليه، وآية من آياته.

وفي قوله - تعالى -: ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ إثبات صفة الرحمة، والرحمة صفة من صفات الله - عز وجل - الثابتة، قال - تعالى -: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وهي غير الإرادة، وغير الإحسان، بل هي صفة مستقلة ينشأ عنها إرادة الإحسان، وإيصال الإحسان إلى الخلق، ويصف الله نفسه بـ«الرحمن الرحيم»، بعد ذكر ربوبيته العامة، ففي ذلك دليل على أن ربوبيته - عز وجل - ربوبية رحمة وإحسان إلى الخلق،

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم، رقم (٢٧١٣).

بجلب النعم، ودفع النقم، كما قال - تعالى - : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وفي وصفه بـ«الرحمن الرحيم» دليل على سعة رحمته، وهذا مستفاد من «الرحمن» ؛ لأن «رحمان» على وزن «فعلان» ، وهذه الصيغة تدل على الامتلاء والسعة؛ كما يقولون: «غضبان»، و«ندمان»، وما أشبه ذلك للممتلى غضباً وندماً.

وفي قوله: ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ دليل على إيصاله هذه الرحمة إلى من شاء من عباده، ورحمة الله - عز وجل - عامة وخاصة، فأما العامة فهي لجميع الخلق، فكل الخلق مرحومون برحمة الله، ولولا رحمة الله ما أكلوا وما شربوا، وما اكتسوا، وما سكنوا، ولكن الله رحيمهم؛ فهياً لهم ما تقوم به أبدانهم من المعيشة الدنيوية، وأما رحمته الخاصة فهي خاصة بالمؤمنين الذين تستمر رحمتهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا رحيمهم الله - تعالى - بحصول ما تقوم به أبدانهم، وفي الآخرة رحيمهم الله - تعالى - بحصول ما تقوم به أديانهم.

وفي قوله: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ رد على منكري الرحمة الذين يقولون: إن الرحمة ليست صفة حقيقية لله، بل هي إرادة الإحسان، أو الإحسان نفسه، وذلك لأن الأصل في الوصف الحقيقة، فإذا قيل: «الرحمن»؛ أي ذو الرحمة، فالأصل أنه متصف بها حقيقةً، ولا يلزم من

اتصاف الله - تعالى - بالرحمة أن يكون مماثلاً للمخلوق، ولا يلزم من ذلك أن يكون ناقصاً؛ لأن النقص الذي يمكن أن يكون في صفة الرحمة - إن كان - إنما ذلك في رحمة المخلوق التي قد لا تكون عن حكمة، فتكون ناقصة.

* * *

وقوله - تعالى - : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

يوم الدين هو يوم القيامة، والدين هنا بمعنى الجزاء، وكما يكون الدين بمعنى الجزاء يكون أيضاً بمعنى العمل، فمن مجيئه بمعنى العمل، قوله - تعالى - : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، ومن مجيئه بمعنى الجزاء هذه الآية؛ فقوله: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ؛ أي مالك يوم الجزاء الذي يدان فيه كل عامل بما عمل، وأضاف الله - تعالى - الملك إلى يوم الدين، وإن كان - سبحانه وتعالى - مالكاً للعالمين والآخرة؛ لأن ملكيته تظهر جليةً واضحةً في ذلك اليوم، ويعترف بها كل مخلوق، كما قال الله - تعالى - : ﴿ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٥ - ١٧]؛ ولهذا قال - تعالى - : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الملك في ذلك اليوم، يوم

القيامة، لا يكون لأحد لا جزئياً ولا غير جزئي، لا حقيقةً ولا مجازاً؛ لأن الناس كلهم يوم القيامة يحشرون حفاةً عراةً غرلاً^(١). حفاةً: ليس في رجل أحدهم نعال، وعراةً: ليس عليهم ثياب، وغرلاً: ليسوا مختونين، لا فرق في ذلك بين السيد والعبد، ولا بين الراعي والرعية، ولا بين الأب والابن، فكل الناس على حد سواء، وفي قوله: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ - أيضاً - دليل على أن الله - عز وجل - في ذلك اليوم تام الملك والسلطان، كما تدل عليه القراءة الثانية الصحيحة السبعية، وهي ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، فهي قراءة صحيحة سبعية، فينبغي للإنسان أن يقرأ بها أحياناً، لكن لا بحضور العامة؛ لئلا يشوش عليهم؛ فإن الملك له من السلطة والنفوذ ما ليس للمالك، لكن الملك أحياناً لا يملك فيكون ملكاً قاصر الملك، فاجتماع القراءتين يكون الكمال، أن الله - تعالى - «مَلِكٌ» و«مَالِكٌ»: «مَلِكٌ»: أي ذو سلطان، وقهر، وعظمة، وكلمة نافذة، و«مَالِكٌ»: ذو تصرف كامل في ملكوته - عز وجل -.

وفي قوله - تعالى -: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ إثبات اليوم الآخر، وهو حق، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة، فالיום الآخر حق ثابت كما أن الدنيا الآن حق لا ينكره أحد، فكذلك اليوم الآخر المستقبل الموعود

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُ اللَّهُ ابْنَهُ خَلِيلاً﴾،

رقم (٣٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة،

رقم (٢٨٥٩).

حق ثابت ولا بد منه، كما قال - تعالى - : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فلو كان الناس خلقوا لهذه الدنيا يعيشون فيها ما يعيشون على ما فيها من التعب، والنصب، والألواء، والعدوان، والظلم، والصلاح، والفساد، لو كانوا خلقوا لهذا فقط لكان ذلك نقصًا بالغًا في حق الله - عز وجل -؛ لأنه سفه، وباطل، ولعب، وقد أشار الله - تعالى - إلى هذا المعنى في قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ﴾ [ص: ٢٧]، وقوله : ﴿ أَلْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه لا بد من لقاء ومجازاة على هذه الأعمال التي عملناها في هذه الدنيا، ولا يمكن أن يقوم الإنسان بشرع الله حق القيام، إلا إذا كان مؤمنًا بأن هناك يومًا يلاقي فيه الإنسان ربه فيحاسبه على عمله؛ قال - تعالى - : ﴿ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦].

وفي قوله - تعالى - : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ - أيضًا - إثبات الجزاء والحساب، وأن الإنسان يحاسب على عمله، ويجازى عليه، وهو حق ثابت، ولكنه - أي الحساب - على وجهين:

الوجه الأول: حساب المؤمن، وهذا لا يناقش الحساب، وإنما يخلو

به الرب - عز وجل - فيكلمه وحده، ويقرره بذنوبه، حتى يقر بها، ثم يقول الله له: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١)، فالحمد لله على ستره، ما أكثر الذنوب التي يفعلها العبد إما باطنه في قلبه، وإما ظاهرة في جوارحه، لكن لا يعلم بها الناس، ومع هذا فالله - سبحانه وتعالى - يمن عليه ويستره، ويقول الله - عز وجل - في حسابه له يوم القيامة: (قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم).

أما الوجه الثاني من الحساب: فهو حساب الخزي والعار - والعياذ بالله -، وهو حساب الكافر؛ فإنه يجزى بأعماله يوم القيامة، وينادى على رءوس الأشهاد: ﴿هَتُوْا لِيَ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا عَلٰى رَبِّهِمْ اَلَا لَعْنَةُ اللّٰهِ عَلٰى الظّٰلِمِيْنَ﴾ [هود: ١٨].

وفي قوله - تعالى -: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ترغيب وترهيب: ترغيب في العمل الصالح؛ لأن الإنسان إذا أيقن بأنه سيحاسب على عمله، ويثاب عليه حرص على الأعمال الصالحة، واجتهد، ورجب فيها؛ وترهيب لأنه إذا علم بأنه سيجازى على عمله ويعاقب على سيئته، أو على الأصح يستحق العقاب على سيئته فإنه يخشى من ذلك، ويتجنب الأعمال السيئة، خوفاً من يوم الدين الذي يجازى فيه

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)؛ ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨).

العاملون بأعمالهم؛ كما قيل: «كما تدين تدان»، فعلينا أن نأخذ لهذا اليوم عدته، وأن نعمل صالحًا يقربنا إلى الله - عز وجل -، ويسعدنا في ذلك اليوم.

وفي قوله - تعالى -: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ دليل على كمال حكمة الله - سبحانه وتعالى -:؛ حيث جعل لهذا الخلق مآلاً يدانون فيه، ويمجازون بأعمالهم؛ لأنه لولا ذلك لكان الأمر عبثًا كما سبق أن ذكرنا.

وفي قوله - تعالى -: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إشارة إلى كمال العدل؛ لأن الدين هو المجازاة، مجازاة العامل بقدر ما عمل، ولكن - مع هذا - نقول: إن مجازاة الله - سبحانه وتعالى - لعباده دائرة بين العدل والفضل، فهي بالنسبة للكافر عدل محض ليس فيه ظلم، فالكافر عقوبته الخلود في النار أبد الآبدین، لا يخرج منها أبدًا، ولا تخبو النار التي يعذب فيها أبدًا؛ لقول الله - تعالى - في ثلاث آيات من القرآن: ﴿خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، فالآية الأولى في سورة النساء، قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ

خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وتأييد الخلود يدل على تأييد المكان الذي فيه الخلود، والآية الثانية في سورة الأحزاب؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا تَجِدُونَ وُليًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، والآية

الثالثة في سورة الجن؛ قال - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣]، ولا قول لأحد بعد أن صرح الله - عز وجل - بتأييد الخلود في نار جهنم، لا قول لأحد بعد ذلك، وكل قول يخالف هذا فهو مردود على قائله؛ لأن القائل بالتأييد هو العالم بما سيكون، وهو الخالق - عز وجل -، فمجازاة الله الكافر بالخلود في النار أبد الأبدين هو عدل، وليس فيها ظلم.

قد يقول قائل: إنك إذا قست مدة بقاء الإنسان في الحياة الدنيا فإنها لن تكون شيئاً بالنسبة إلى التأييد الأبدي، فيكون تأييده على أكثر من بقائه في الدنيا شيئاً من الظلم.

والجواب على هذا: ألا ظلم في ذلك:

أولاً: لأن هذا الإنسان استغرق جميع حياته في الكفر، فيكون من العدل أن يستغرق جميع بقائه في الآخرة في العذاب.

وثانياً: أن هذا الإنسان الكافر قد أرسلت إليه الرسل، وأنزلت معهم الكتب، وبينوا للناس الطريق، ورجبوا الناس في الحق، وحذروهم من الباطل، ولم يبق للناس حجة على الله بعد الرسل، فيكون هو الذي اختار لنفسه هذا المقام الأبدي، لأنه يعلم أن الكافر سيبقى في هذا المكان الأبدي، فحينئذ يكون هو الظالم لنفسه؛ كما قال الله - تعالى -:

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥٧؛ والأعراف: ١٦٠].

أما الجزاء الفضلي، الذي هو فضل الله - عز وجل -؛ فهو جزاء المؤمن، فالمؤمن يجازى بالنسبة للحسنة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وأما بالنسبة للسيئات، فإنه تحت المشيئة، إن شاء الله - تعالى - عذبه، وإن شاء - تعالى - غفر له؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، إذن فجزاء الله - تعالى - للمؤمن من نوع الجزاء الفضلي، وأما الظلم فهو ممتنع في حق الله - عز وجل -، فهو لا يمكن أن يظلم أحداً فيزيد في سيئاته، أو ينقص من حسناته.

* * *

ثم قال الله - عز وجل -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

العبادة: هي التذلل لله - عز وجل -؛ محبةً وتعظيماً بامتثال أمره، واجتناب نهيهِ، والاستعانة: طلب العون. والإنسان مفتقر إلى الله - عز وجل - في العبادة والاستعانة؛ أما افتقاره إليه في العبادة؛ فلأن العبادة هي مادة سعادته، وأما الاستعانة؛ فلأن الله إذا لم يعنه وكله إلى نفسه، فيكله إلى ضعف، وعجز، وعورة، ولا قيام للإنسان إلا بالله - عز وجل -؛ ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ إخلاص العبادة لله - عز وجل -؛ ووجه ذلك تقديم المعمول «إِيَّاكَ»، ولو جاءت على الترتيب لقال: «نعبدك»، فلما قدم المعمول؛ دل على الإخلاص، وتخصيص العبادة لله وحده؛

لأن من القواعد المقررة في اللغة العربية أن تقديم المعمول يفيد الحصر؛ أي: الاختصاص، ويكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متضمنًا لمعنى قول الإنسان: «لا إله إلا الله».

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على اتباع الشريعة؛ شريعة الرسل - عليهم الصلاة والسلام -؛ لأن العبادة لا تتم إلا بأمرين: الإخلاص لله، والموافقة لشريعة الله؛ وذلك باتباع الرسل؛ ولهذا نقول: لا إشراف ولا ارتداد؛ فالإشراف ينافي الإخلاص، والارتداد ينافي الاتباع؛ فالعبادة لله - سبحانه وتعالى - إخلاص واتباع، لا شرك ولا ارتداد.

وفي قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دليل على أن العبادة إذا أشرك بها مع الله أحد؛ لم تكن عبادة لله، ولا تقبل من العابد؛ ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: قال الله - تبارك وتعالى -: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»^(١).

وفي قوله - تعالى -: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على إفراد الله - تعالى - بالاستعانة؛ ووجهه تقديم المعمول؛ لأن تقديم المعمول يفيد - على ما تقتضيه اللغة العربية - الحصر؛ أي: الاختصاص، فلا استعانة للإنسان إلا بالله - عز وجل -، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بشيء إلا بمعونة

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

الله له، وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للإنسان حال العبادة أن يستحضر أنه مستعين بالله - سبحانه وتعالى -؛ لتيسر له العبادة، ولتكون عبادة؛ لكونها متبعًا فيها الرسول ﷺ، مخلصًا لله فيها؛ ولكونه مستعينًا بالله عليها؛ ولهذا نقول: ينبغي للعابد أن يستحضر ثلاثة أشياء: الإخلاص، والمتابعة، والاستعانة؛ فالإخلاص والاستعانة لله وحده، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ ليوصل إلى الله؛ أما الإخلاص لله: فأن يقصد الإنسان بعبادته وجه الله والدار الآخرة. وأما الاستعانة: فأن يشعر بأن الله هو الذي أعانه على هذا، ويسر له أسباب القيام به، ولولا أنه أعانه ما حصل. وأما المتابعة: فأن يستحضر كأنها الرسول ﷺ أمامه، وهو خلفه يقتدي به.

فهذه ثلاثة أمور ينبغي للعابد أن يكون مستحضرًا لها؛ ليكون ذلك أعون له في إتمام العبادة.

فوائد الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

١- أن الإنسان دائرٌ بين أمرين: بين عبادة الله، واستعانة النفس؛ ولهذا قال الله - تعالى - في الحديث القدسي عن هذه الآية: «هذا بيني وبين عبدي»^(١)؛ فالعبادة لله والمعونة للعبد.

(١) هو جزء من حديث سبق تحريجه ص (١٢).

٢- وفي هذه الآية دليل على تخصيص الله بالاستعانة؛ أي: أن الإنسان لا يستعين استعانة مطلقة إلا بالله؛ لأن الاستعانة المقيدة هذه جائزة حتى بغير الله فيما يقدر عليه المخلوق؛ ولهذا قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «... وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة...»^(١)، فأثبت عون الإنسان لأخيه؛ فالاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه لا بأس بها، ولا تنافي العبادة ولا الإخلاص، لكنها - في الحقيقة - استعانة مقيدة وليست عامة شاملة؛ فهي استعانة قاصرة - أيضًا؛ - لأنها على عمل معين يقدر عليه المستعان به؛ وعلى هذا فالاستعانة بأصحاب القبور على قضاء الحوائج محرمة، بل هي من الشرك؛ وذلك لأن أصحاب القبور لا يستطيعون أن يعينوا أحدًا وهم أموات؛ فهم بأنفسهم لا يستطيعون أن يعملوا لأنفسهم شيئًا، فكيف يعملون لغيرهم؟! فإذا أردت أن تستعين في أمر لا يقدر عليه إلا الله، فلا تستعن إلا بالله - عَزَّ وَجَلَّ.

٣- وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على أنه ينبغي للمتكلم أن يأتي بالأشياء التي تثير فطنة المخاطب وتنبهه؛ وذلك لأن الآيات الأولى الثلاث كلها بصيغة الغائب، أو كلها في سياق الغيبة؛ حيث قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من حمل متاع صاحبه في السفر، رقم (٢٨٩١)؛
ومسلم: كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

يَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾، ولكن في الآية الرابعة قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فهذا التفات من الغيبة إلى الخطاب، والالتفات - بلا شك - يوجب استيقاظ المخاطب؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد انساب الإنسان وغفل، ولم يحصل له انتباه، فإذا تغير الأسلوب؛ فإن الذهن ينصدم بهذا التغير، ثم ينتبه فكأنه صوت منبه، ينبه الإنسان على ما سيُخاطب به؛ ولهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ولم يقل: «إِيَّاهُ نَعْبُدُ»، وفي هذه الآية دليل مبني على الالتفات الذي ذكرناه - وهو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب -؛ وهو دليل على أهمية العبادة والاستعانة، وإخلاصهما لله، كأن هذا الذي أثنت عليه - وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيما سبق من الآيات الثلاث، كأنه - لقوة إيمانك به - أمامك، تخاطبه، ولا شك أن الإنسان إذا قرأها في الصلاة؛ فإنه يستقبل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والله - تعالى - يكون قِبَلَ وجهه، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولكن ليَعْلَم أن الله - تعالى - قِبَلَ وجهه، وإن كان هو في السماء فوق العرش، ولا تناقض في ذلك؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لا يقاس بخلقه؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

٤- وفي قوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ دليل على اجتماع الأمة؛ فإنه لم يقل: إياك أعبد، وإياك أستعين، وأنه ينبغي للأمة أن تتفق وتجتمع على العبادة والاستعانة بالله - عَزَّ وَجَلَّ - وقد يؤخذ منها إثبات علم الله - سبحانه وتعالى -؛ فإن هذه السورة فرضت قراءتها

في جميع الصلوات، ومنها الصلاة الجهرية التي يجتمع فيها الإمام والمأموم، ولو جاءت بصيغة الأفراد «إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ»؛ لكان في ذلك إخلال بالنسبة للمأمومين؛ لأنه سيكون - في هذه الحالة - الإمام وحده هو الذي يقول: «إِيَّاكَ أَعْبُدُ وَإِيَّاكَ أَسْتَعِينُ»، فمن المعلوم أن الذين وراءه لن ينالهم نصيب من هذا لو كانت الآية بصيغة الأفراد، أما قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإن المأموم يشعر بأنه هو والإمام على حد سواء في عبادة الله - تعالى - والاستعانة به.

٥- وفي الآية دليل على أن الإنسان ينبغي أن يستعين بالله في كل شيء حتى في الأمور الصغيرة؛ كالذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، فينبغي للإنسان أن يستعين بالله في كل شيء؛ حتى يكون بذلك مدركاً لحاجته، متعبداً لربه - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الاستعانة من العبادة، وإذا استعان الإنسان بربه؛ يسَّرَ له الأمر وسَهَّلَهُ عليه؛ ولهذا يؤمر الإنسان إذا حلف على شيء مستقبل أن يقول: إن شاء الله؛ حتى يشعر باستعانته بربه، فإنه إذا قال: إن شاء الله؛ كان ذلك عوناً على قضاء حاجته؛ وفي الصحيحين في قصة سليمان - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلَّهُنَّ تَأْتِي بِفَارِسٍ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ جَمِيعًا؛ فَلَمْ تَحْمَلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةً وَاحِدَةً، جَاءَتْ بِشَقِّ رَجُلٍ. وَابْنُ أَبِي حَتْمَةَ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لَجَاهِدُوا فِي

سبيل الله فرساناً أجمعون»، وهنا لم يقل سليمان - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: إن شاء الله؛ اعتماداً على ما في قلبه من العزيمة، فلم تحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل؛ وذلك ليتبين له ولغيره أن الأمر بيد الله؛ قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله؛ لم يحنث وكان دركاً لحاجته»^(١).

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

هذه الآيات الثلاث كلها للإنسان؛ فسورة الفاتحة سبع آيات: ثلاث منها لله خالصة، وثلاث منها للإنسان خالصة، وآية وسط بينهما كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله - تعالى -: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ قال الله - تعالى -: حمدني عبدي، وإذا قال العبد: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ قال الله - تعالى -: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجّدي عبدي - وقال مرّة: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي -، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

(١) رواه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ رقم: (٦٦٣٩)، واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١﴾؛ قال: هذا لعَبْدِي،
ولعَبْدِي ما سألتُ»^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ الهداية بمعنى: الدلالة
والتوفيق، فإن كانت مُعَدَّاةً بإلى فهي للدلالة، وإن كانت متعدية بنفسها
فهي للتوفيق والدلالة، وهنا الهداية متعدية بنفسها؛ فيكون المراد بها
الدلالة والتوفيق؛ أي: أن الله - تعالى - يرزقك علماً تهتدي به إلى شريعة
الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ويوفقك لهذه الشريعة حتى تقوم بها.

وقوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ الصراط: هو الطريق الواسع،
والمستقيم: الذي ليس فيه اعوجاج، ولا ارتفاع، ولا انحدار.

فوائد وأحكام:

١- في قوله - تعالى -: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على أنه
ينبغي للإنسان أن يدعو الله - عَزَّ وَجَلَّ - بهذا الدعاء: أن يهديه صراطه
المستقيم.

٢- وفي قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ - أيضاً - دليل على أن
الإنسان مفتقر إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - في الهداية؛ ويتفرع عن ذلك أنه يجب
على الإنسان أن يترك الإعجاب بنفسه، والقول: اهتديتُ؛ لأنني

(١) سبق تخريجه ص (١٢).

أعرف الحق، وهذا مني؛ فيمنُّ باهتدائه على الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وقد أنكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الأعراب الذي يَمُنُّونَ على رسول الله أن أسلموا؛ فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]؛ فالإنسان لو لم يهده الله لم يهتد؛ قال الله - تعالى -: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: ١٧]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣].

فإن قال قائل: إن قلت هكذا فتحتم الأبواب للمتهاونين والكسالى الذين إذا دُعوا إلى الحق قالوا: الهداية بيد الله، واحتجوا بذلك.

فالجواب أن نقول: إن الله - تعالى - لما قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وأرشدنا إلى أن ندعوه هذا الدعاء لم يرد منا أن نتوقف عن أسباب الهداية، بل نحن نسأل الله الهداية، ونسعى في أسبابها؛ ولهذا قلنا: إن الهداية هداية دلالة وهداية توفيق؛ هداية الدلالة التي هي العلم، هل يمكن أن تحصل للإنسان بلا تعب على تحصيله؟ لو قال الإنسان: اللهم ارزقني مالا، هل معنى ذلك أن يبقى في بيته ولا يتحرك؟ بل عليه أن يتحرك ويسأل أسباب الرزق، كذلك الهداية إذا سألت الله إياها فتسعى في أسبابها، لو سألت الله - تعالى - أن يرزقك أولادًا، هل تبقى لا تتحرك لا تتزوج؟ لا؛ لا بد أن تتزوج حتى ترزق بالأولاد، فسؤال الشيء من الله لا يستلزم أن يبقى الإنسان جامدًا، لا

يتحرك ولا يسعى إلى الأسباب التي توصل إلى هذا الشيء؛ إذن فلا حجة لهذا الذي يحتاج بهذه الآية وأشباهاها على فسقه وفجوره، ثم إن الله - سبحانه وتعالى - إذا حرم الإنسان الهداية؛ فلعلمه - سبحانه وتعالى - أنه ليس أهلاً لها؛ لأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، كما أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - جعل الهدى في قلوب أهل الهداية؛ لعلمه أنهم أهل لذلك؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

٣- ومن الفوائد - أيضاً - التي تستفاد من الآية الكريمة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: أن فيها دليلاً على أن دين الإسلام دين واسع شامل يتسع لكل أحد؛ فالصراط - في اللغة العربية - هو الطريق الواسع الذي يتسع لجميع السالكين.

٤- وفي الآية دليل على عموم الإسلام وشموله؛ لأنه شامل لكل ما يتعلق بالإنسان في معاشه ومعاده؛ ولهذا كان منظماً للعباد فيما يتعلق بعبادة الله - سبحانه وتعالى -، وفيما يتعلق بالمعاملة فيما بينهم؛ ويتفرع من هذه الفائدة: الرد على مَنْ زعم أن الدين الإسلامي إنما ينظم العمل فيما يتعلق بين العبد وبين ربه، ويرى أن أمور الدنيا لا علاقة لها بدين الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهذا خطأ عظيم؛ فإن الدين الإسلامي نظم كل شيء، وعلم النبي ﷺ أمته كل شيء تحتاج إليه؛ قال أبو ذر - رَضِيَ اللهُ

عَنْهُ -: «توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر منه علمًا»^(١).

ويدلُّ على شمول الشرع ودين الإسلام لكل شيء أن أطول آية في كتاب الله آية الدِّين، وكلها تتعلق بمعاملة الخلق بعضهم مع بعض؛ فالدين الإسلامي كما نظم المعاملة بين العبد وبين ربه، نظَّم المعاملة بين العبد وبين غيره من عباد الله، بل نظَّم علاقة العبد الإنسان بينه وبين البهيم غير الناطق؛ فقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «عُدِّبت امرأة في هرة ربطتها حتى ماتت؛ فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٢)، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «إن امرأة بغياً^(٣) رأت كلباً في يوم حارٍ يُطيف ببئر^(٤)، قد أدلَّع لسانه^(٥) من العطش، فنزعت له بمؤقها؛ فغُفِر لها»^(٦)، فالله - سبحانه وتعالى - غفر لهذه المرأة رغم أنها بغية زانية،

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٥٥/٢) وذكره الدارقطني في «العلل» (٢٩٠/٦).

(٢) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٨٢) واللفظ له؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب تحريم قتل الهرة، رقم (٢٢٤٢).

(٣) أي: زانية.

(٤) يطيف ببئر: يدور حولها..

(٥) أدلَّع لسانه: أخرج له؛ لشدة العطش.

(٦) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب رقم (٥٤)، حديث رقم (٣٤٦٧)؛ ومسلم: كتاب الحيوان، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (٢٢٤٥).

وهذا يدل على أن الإسلام له تنظيم في كل ما يتعلق بالعبد.

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ حين قدم المدينة، ورآهم وهم يؤبرون النخل - أي: يلقحونها بوضع طلع الفُحَّال في ثمر النخل - قال: «لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً»، فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له فقال: «إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم؛ فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر»^(١)، وهذا يدل على أن أمر الدنيا مفوض للعباد؟

والجواب على ذلك: أن هذا الذي أشار إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يتعلق بالأحكام، وإنما يتعلق بالصناعة والحرف، ومعلوم أن الإنسان في حرفته قد يكون أعلم من عالم بشرع الله وأدرى بها؛ فالنجار - مثلاً - يعرف كيف يصرف الخشبة حتى يجعل منها باباً، والصانع يعرف كيف يصنع الحديد فيجعله طائرات وسيارات أكثر مما يعلمه العالم الشرعي في هذا، هذا هو الذي أراده النبي - عليه الصلاة والسلام.

٥- وفي قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على أن هناك صراطاً غير مستقيم - وهو كذلك -، بل هناك سبل كثيرة غير مستقيمة؛

(١) رواه مسلم: كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معاش الدنيا على سبيل الرأي، رقم (٢٣٦٢).

كما قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فهناك طرق كثيرة للباطل متنوعة من أفعال، وأقوال، وانتهاكات، وأما الحق فهو طريق واحد يوصل إلى الله - سبحانه وتعالى - وإلى دار كرامته.

٦- وفي قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على أن دين الإسلام كامل لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وأن من ظن أن فيه قصوراً فهو القاصر، ولا أحد يظن أن في دين الإسلام قصوراً إلا أن يكون قاصراً في فهمه أو قليلاً في علمه، أو سيئاً في قصده، أما حسنُ النية الذي آتاه الله علماً وفهماً فإنه يدري ويعلم علم اليقين أن دين الإسلام ليس فيه قصور، وهو مستقيم لا اعوجاج فيه، وأن الناس لو طبقوه؛ لكانوا على الاستقامة، والسداد، والصواب، ولما ضاقت عليهم السبل، ولكن قاصر الفهم، أو ناقص العلم، أو سيئ القصد هو الذي يظن أن في الإسلام قصوراً؛ فيذهب يأتي بالقشور من هنا وهناك؛ ليطبقها في بلاد الإسلام.

٧- وفي قوله - تعالى -: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دليل على كمال حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وكمال رحمته؛ حيث جعل الصراط الموصل إليه صراطاً مستقيماً لا متاهة فيه ولا ضلال، ونحن نعلم أن الصراط المستقيم يوصل إلى المقصود بسرعة بخلاف الطريق المعوج،

الذي ينحرف بالإنسان يمينًا وشمالًا؛ فإنه - على تقدير إيصاله إلى المطلوب - يكون شاقًا وبعيدًا؛ بسبب التعرجات، أو الطلوع، أو النزول، بل هذا صراط مستقيم.

٨ - وفي الآية الكريمة دليل على أنه لا هادي إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو الذي يُلجأ إليه في طلب الهداية لا إلى غيره.

فإن قال قائل: أليس قد قال الله - تعالى - عن نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟

فالجواب: بلى، قد قال الله ذلك، وهو حق، لكن الهداية إلى الصراط المستقيم التي أثبتها الله لرسوله هي هداية الدلالة، وكل إنسان عنده علم بالشرع؛ فإنه يهدي الناس بهذا العلم إلى الشرع، فالدلالة على الخير ليست هي التوفيق إلى الخير؛ أما الدلالة التامة التي فيها الهداية والتوفيق فهي لله - عَزَّ وَجَلَّ؛ ولهذا قال الله - تعالى - لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

هم الذين أتم الله عليهم النعمة بتوفيقهم لشريعته، وهم أربعة

أصناف، ذكرهم الله في قوله ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [٦٦] ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؛ يعني: صراط غير المغضوب عليهم؛ والمغضوب عليهم هم الذين علموا الحق واستكبروا عن اتباعه، و«الضالون» الذين جهلوا الحق؛ فأخطئوا في العمل، وأول من يدخل في «المغضوب عليهم» اليهود، وأول من يدخل في «الضالين» هم النصارى.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- وفي الآية الكريمة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليل على أن الناس انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا وعملاً، وقسم غضب الله عليهم؛ فهدوا إلى الحق علمًا لكن لم يوفقوا للعمل به، بل استكبروا عنه وهم المغضوب عليهم، وقسم ثالث لم يهدوا إلى -١- ق لا علمًا ولا عملاً؛ فتعبدوا الله - تعالى - عن جهل؛ فضلوا وهم الضالون، فمن المغضوب عليهم اليهود، ومن الضالين النصارى.

٢- وفي قوله - تعالى -: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أنه ينبغي أن نبحث عن سيرة هؤلاء الذين أنعم الله عليهم: من هم؟

وكيف كان حالهم؟ حتى نهتدي لطريقتهم؛ ويتفرع على ذلك: الحث على معرفة سيرة النبي ﷺ؛ لأنه خيرٌ من أنعم الله عليه، وبهذه المناسبة فإنني أحث إخواني المسلمين على قراءة السيرة النبوية من الكتب الموثوق بها؛ مثل «البداية والنهاية»، لابن كثير - رحمه الله -؛ فإنه كتاب جيدٌ جداً في بابه.

٣- وفي قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أن نعمة الدين أكبر من نعمة الدنيا؛ فإن في المغضوب عليهم والضالين من أنعم الله عليه نعمًا عظيمة في الدنيا، لكن هذه النعم ليست بشيء بالإضافة إلى نعم الدين؛ ولهذا قال - تعالى -: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ولما دخل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - على النبي ﷺ ذات يوم، فوجده - عليه الصلاة والسلام - قد تأثر جنبه من الاضطجاع على سريره الذي عنده؛ بكى - رضي الله عنه - فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: أنت نبي الله، وكسرى وقيصر على أسرة الذهب؟ قال: «يا عمر، أما ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»^(١)؛ وعلى هذا نقول: إن النعمة الحقيقية الكبيرة العظيمة هي نعمة الله - تعالى - على عباده بدينه، ولا يخفى على الجميع أن الله - تعالى -

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿تَبَتَّغِي مَرْصَاتَ أَرْوَاجِكَ﴾، رقم (٤٩١٣)؛ ومسلم: كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، رقم (١٤٧٩).

قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فجعل إكمال الدين من تمام النعمة - وهو كذلك.

٤- وفي قوله - تعالى -: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على أن من سلك هذا الصراط فهو في نعمة، في سرور، في انشراح؛ ويدل لذلك قوله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فمن كان من هؤلاء كان في نعمة وإن كان في ضيق من العيش باعتبار نعمة الجسد؛ لأن النعمة بالدين تقتضي أن يكون الإنسان دائماً منشراح الصدر، مطمئن القلب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراءٌ شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراءٌ صبر؛ فكان خيراً له»^(١)، وقال بعض السلف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

٥- وفي قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أسند النعمة لله وحده، وقال في الآخرين: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فاتى

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

بالغضب على وجه الإبهام؛ للدلالة على أن الله - سبحانه وتعالى - له المنة الكبرى على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وأنه لا منة لأحد عليهم بما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى -؛ ويتفرع على ذلك: أن يحمّد الإنسان ربّه على كل عمل صالح يفعله؛ لأن ذلك بمعونة الله وبنعمته.

٦- وفي قول الله - تعالى -: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليلٌ على عظم ذنب من أتى العلم ولم يعمل به؛ لأنه يستحق الغضب؛ حيث إن الله - تعالى - أنعم عليه بوجود السبب الذي به يهتدي، ولكنه استنكف واستكبر، وفي هذه الآية - أيضًا - دليلٌ على أنه ينبغي لنا أن نعرف سيرة هؤلاء المغضوب عليهم، ولماذا غضب الله عليهم؟ وبماذا أخذهم؟ كما قال الله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

٧- وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليلٌ على أنه يجب على المسلم الذي هداه الله إلى الصراط المستقيم أن يتبرأ من طريقة هؤلاء؛ فكما سأل الله أن يعصمه من طريقهم فليتبرأ منه، وليبعد عنهم، وليتجنب ما هم عليه من الضلال، بل إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١)؛ فيجب علينا أن نتجنب

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢/ ٥٠)؛ وأبو داود: كتاب الحمايم، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)؛ وأورده السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٢٢)، ورمز له بإشارة الحسن.

ما يختصون به - حتى في غير العبادات -؛ وذلك لأننا إذا تشبهنا بهم في غير العبادات، وفعلنا ما هو من خصائصهم؛ فإن هذا يجرنا إلى أن نتشبه بهم في العبادات؛ ولهذا قال العلماء: إن التشبه بهم في الظاهر يجزى إلى التشبه بهم في الباطن؛ فيهلك الإنسان كما هلكوا.

٨- وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليل على أنه يجب علينا معاداة هؤلاء، وبغضهم، وعدم مناصرتهم، سواء ناصرنا بعضهم على بعض أو ناصرناهم على أحد من المسلمين، فكل ذلك حرام، لكن الثاني أشد وأعظم، أما محبتنا أن ينتصر بعضهم على بعض فإن هذا لا بأس به إذا كان هذا المنتصر أهون على المسلمين وعلى الإسلام من الآخر؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ غَلَبَتْ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد^١ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ [الروم: ١ - ٥]؛ يعني: بنصر الله الروم على الفرس، ومن المعلوم أنهم لم يفرحوا بذلك إلا لأنهم يحبونه؛ لأن الإنسان لا يفرح بشيء إلا وهو محبوب إليه، فلا حرج علينا إذا أحببنا أن ينتصر بعض الكفار على بعض؛ لكونهم أهون من الآخرين، وأقل خطراً على الإسلام والمسلمين، لكن الجميع يجب علينا أن نتبرأ منهم، وأن نعاديتهم، وألا يكون بيننا وبينهم ولاء، قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ

كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾
 [الأنفال: ٧٣]، وقال - تعالى - : ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
 وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٤﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ
 فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ
 عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِيمًا ﴿٧٥﴾ [المائدة: ٥١-٥٢].

٩- وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ دليل على أن
 كلتا الطريقتين سيئة، يجب البعد عنها، والتنزه منها، لا الاستكبار على
 الحق مع العلم به، ولا الجهل بالحق؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي
 للإنسان أن يتعلم؛ حتى لا يكون من الضالين، وأن يتعبد حتى لا
 يكون من المغضوب عليهم. وطلب العلم قد يكون فرضاً على
 الأعيان، وقد يكون فرضاً على الكفاية، وقد يكون مستحباً؛ فهو فرض
 على الأعيان في كل ما يتوقف عليه العلم بالعبادة التي يتعبد بها
 الإنسان؛ فالطهور والصلاة يجب على الإنسان أن يتعلم منها ما يحصل
 به الواجب، وكذلك الأمر في الصيام، وكذلك في الحج، وكذلك في
 الزكاة، وفرض على الكفاية فيما لا يتعين على الإنسان العمل به، فتعلمه
 فرض كفاية إذا قام به من يكفي؛ لأنه في هذه الحالة يسقط عن الباقيين.

وأما القسم الثالث وهو السنة، فهو ما يكون فرض كفاية، إذا قام

به من يكفي فإنه يكون سنة في حق الباقيين. وإنني - بهذه المناسبة - أحث إخواني - ولا سيما الشباب منهم - على أن يحرصوا على العلم الشرعي؛ لأن الناس - الآن - في حاجة ماسة بل في ضرورة إليه؛ لكثرة الجهل - الجهل البسيط والجهل المركب -؛ لأن كثيراً من الناس لا علم عندهم، وكثير من الناس عندهم علم، ولكن ليس عندهم فهم، وإني أضرب مثلاً لذلك بما سمعته من أن بعض الناس قال: الأفضل أن يتوضأ الإنسان إذا كان عنده ماء ان في أيام الشتاء - ماء دافئ وماء بارد - بالماء البارد، وكلما كان أبرد كان أفضل، يقول ذلك؛ لأن النبي ﷺ أخبر بأن مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا؛ إسباغ الوضوء على المكاره^(١)، قال: فينبغي أن يختار الأبرد؛ لأنه أكره إلى الإنسان، وهذا جهل عظيم، وفهم قاصر، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: الوضوء بالماء البارد، أو إسباغ الوضوء بالماء البارد، لكن قال: إسباغ الوضوء على المكاره؛ يعني: أن الإنسان لا يمنعه كراهة استعمال الماء عن إسباغ الوضوء، بل يسبغ الوضوء مع كراهة استعمال الماء؛ لشدة برودته، ولا يريد الرسول عليه الصلاة والسلام من أمته أن يعجز الإنسان عن الماء الدافئ المناسب لطبيعته إلى الماء البارد الذي قد يفوته الإسباغ، والمعروف من قاعدة الشريعة العظيمة أن كل ما كان أيسر

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١).

فهو أقرب؛ قال الله - تعالى - : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]،
وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدينَ أحدٌ إلا
غلبه...»^(١).

وكان رسول الله ﷺ يبعث أصحابه ويقول: «يسرّوا ولا تُعسرّوا،
وبشّروا ولا تُنفرّوا»^(٢)، وكان - عليه الصلاة والسلام - لا يخيرُ بين
شيئين إلا اختار أيسرها ما لم يكن إثماً^(٣).

ولا شك أن الأيسر للإنسان إذا كان عنده ماء دافئ وماء بارد أن
يتوضأ بالماء الساخن، ووضوءه بالماء الساخن ليس إثماً؛ إذن فالرسول
- عليه الصلاة والسلام - لو خيّر بين هذا وهذا لاختار الدافئ؛ وعلى
هذا يكون القول بأن يختار الماء البارد قولاً بلا علم، وإن شئت قل:
قولاً بلا فهم؛ لذا فإنني أحث إخواني - ولا سيما الشباب - على العلم،
والفهم، والتأني في الأمور، وعدم التسرع في الحكم على الشيء؛ حتى
يتقن ذلك إتقاناً بيناً؛ لأن المقام خطير، والكلمة الخطأ قد يصعب
انتشال الناس منها فيما بعد.

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، رقم (٤٣٤١)، ومسلم:
كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم (١٧٣٣).

(٣) انظر البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ رقم (٣٥٦٠)؛ ومسلم: كتاب الفضائل،
باب مبادئه ﷺ للأئام واختياره من المباح أسهله، رقم (٢٣٢٧).

١٠- وفي قوله - تعالى -: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾
 دليلٌ على أن من علم الحق ولم يتَّبِعْهُ أسوأ حالاً ممن جهله؛ لأن الأول
 جعلت عقوبته الغضب؛ حيث قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾
 ويتفرع على هذا التحذير عدم عمل العالم بما علم؛ لأن العالم إذا علم
 قامت عليه الحجة، وليس المراد هنا بالعالم من كان علمه واسعاً، بل
 المراد كل من علم بمسألة من مسائل الدين؛ فهو عالم بها حتى وإن كان
 وصفه عامياً، فكل من علم حُكماً من أحكام الدين فإن عليه أن يطبقه،
 وإن لم يفعل كان مستحقاً لغضب الله - عزَّ وَجَلَّ - غضباً بحسب ما
 خالف به أمر الله، والله - تعالى - قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ ولم
 يقل: «غير من غضبت عليهم»؛ كما قال في القسم الأول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ
 أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا دليل على أن من غضب الله عليه؛ فإنه يغضب
 عليه كل ولي لله؛ ويتفرع على ذلك أنه يجب علينا نحن المسلمين أن
 نغضب على كل من غضب الله عليه، وأن نعلم بأن كل من كان حرباً
 لله فهو حربٌ لنا، وأن كل من كان عدواً لله فهو عدو لنا؛ كما قال تعالى:
 ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
 لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١- وفي قوله - تعالى -: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على
 مهانة هؤلاء، وخسيتهم، وغلوهم؛ ولهذا ذكروا بوصف اسم المفعول،

ولم يعطوا حق اسم الفاعل؛ لأنهم مغضوب عليهم مهانون مطرودون مبغضون.

١٢- وفي قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ دليل - أيضًا - على إثبات الغضب لله - عزَّ وَجَلَّ -، وهو من صفاته الثابتة له في كتابه، وأجمع عليها السلف؛ قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَاةَ وَالْحُنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ هُوَ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، والغضب صفة من صفات الله - عزَّ وَجَلَّ - تدل على كمال سلطانه وقدرته، وتستلزم عقوبة المغضوب عليهم؛ قال الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، ولا يصح تفسير الغضب بالانتقام ولا بإرادة الانتقام؛ لأن الغضب شيء ينشأ عنه إرادة الانتقام ثم الانتقام؛ ولهذا قال - عزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا﴾؛ أي: أغضبونا، ثم قال: ﴿اٰنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اٰجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

١٣- وفي قوله - تعالى -: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى أن الضلال صفة محقوتة؛ لأن المؤمن يسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يعصمه من طريق الضالين؛ فيتفرع على ذلك: أن العلم صفة كمال - وهو كذلك؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ ءَإِنَاءَ اَلْيَلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا مَّحْدُرًا

الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِمْ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
 إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ [الزمر: ٩]. ولكن ما هو العلم الذي
 يستحق المرء الثناء عليه؟ إن العلم الذي يستحق المرء الثناء عليه هو
 العلم بشريعة الله؛ العلم بأسماء الله وصفاته، العلم بأفعال الله؛ لأن
 ذلك هو الذي يحقق العبادة التي خلق من أجلها الإنس والجن؛ كما قال
 الله - تعالى -: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]،
 وأما العلم بالصناعة، والأمور السفلية الأرضية فهذا لا يحمد ولا يذم
 على الإطلاق، بل إن أدى إلى خير ونفع كان محمودًا، وإن أدى إلى شر
 وضرر كان مذمومًا، وإن لم يؤدي إلى هذا ولا إلى هذا، كان لا هذا ولا هذا،
 لا يحمد ولا يذم إلا أن يفوت به ما هو أنفع وأصلح؛ فإنه قد يذم على ذلك.

١٤ - وفي قوله: ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ - دون أن يعلق الغضب على
 ضلالهم - دليل على أن الضال لا يستحق العقوبة؛ أي: أن الإنسان إذا
 كان جاهلاً بالشيء لا يستحق العقوبة عليه - وهو كذلك؛ لقوله -
 تعالى -: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكن إن
 كان مفراطاً بترك التعلم فقد يؤاخذ على تفريطه لا على جهله؛ لأن
 الإنسان يجب عليه أن يتعلم من أحكام دينه ما يحتاج إليه، وقد اختلف
 العلماء - رحمهم الله - في الرجل يترك المأمور جهلاً به هل يؤمر بقضائه
 أم لا يؤمر بقضائه؟

فمنهم من قال: إنه يؤمر بالقضاء؛ لأن الواجب لا يسقط بالجهل، ومنهم من قال: إنه لا يؤمر بالقضاء؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته بقضاء ما كان قد فعله من قبل؛ وكان هذا الرجل يصلي ولا يطمئن، فجاء ذات يوم فصلّى والنبي ﷺ ينظر إليه، فلما سلّم على النبي ﷺ قال له: «ارجع فصلّ؛ فإنك لم تُصَلِّ»، فرجع فصلّى كما صلّى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فقال: «ارجع فصلّ؛ فإنك لم تُصَلِّ» (ثلاثاً)، فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسنُ غيره، فعلمني، فقال: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راعياً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها»^(١)، فلم يأمره النبي ﷺ بإعادة ما سبق من الصلاة مع أنه كان لا يصلي على وجه مجزٍ، وكذلك المرأة المستحاضة - التي كانت تستحاض فلا تصلي - لم يأمرها النبي ﷺ بإعادة الصلاة^(٢)، قالوا: فهذا دليل على أن الجاهل لا يؤمر بقضاء ما تركه جهلاً.

ومن الأدلة على هذا: حديث عمار بن ياسر: «بعثني رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٧)؛

ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٧).

(٢) انظر فتح الباري: (١ / ٤٤٠)؛ وصحيح مسلم (١ / ٢٦٢ - ٢٦٣).

في حاجة فأجبت^(١)، فلم أجد الماء؛ فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، ثم أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك أن تقول بيدك هكذا»، ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه^(٢)، فلم يأمره النبي ﷺ بقضاء ما صلاه بذلك التيمم الذي لم يكن على وفق الشرع، وهذا القول - بلا شك - موافق لعموم قاعدة الشريعة؛ وهي اليسر وعدم العسر؛ لأن الإنسان لو أدخل بواجب لسنوات كثيرة، ثم قلنا: إنه يجب عليك قضاء ما فات لكان في هذا صعوبة، وربما يكون فيه تنفير، وربما يكره أن يقوم بالعبادة من أجل هذه المشقة.

نعم لو فرض أن الإنسان بلغه شيء من العلم، ولكنه تهاون، وسكت، وقال - كما يقول البطالون -: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، فهذا قد يلزمه بقضاء ما فات؛ من أجل تفريطه وتهاونه في الأمر، ولكل مقام مقال، والذي ينبغي في هذه المسألة ألا يُفتى فيها بوجه عام لكل الناس، بل تكون الفتوى فيها حسب حال كل قضية بعينها، وبإمكان الإنسان أن يعرف من المفرط من غيره.

(١) أي: أصابته جنابة..

(٢) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب التيمم هل ينفخ فيها، رقم (٣٤٧)؛ ومسلم: كتاب الحيض، باب التيمم، رقم (٣٦٨).

١٥- وفي هذه السورة العظيمة - التي سماها الرسول ﷺ أم الكتاب، وأم القرآن - دليلٌ على مضمون ما جاء به القرآن؛ فهي أمٌ وفاتحة؛ لأنها تشتمل على أنواع التوحيد، وتشتمل على الإشارة إلى الشرائع، وتشتمل على الإشارة إلى الرسل والملائكة، وعلى اليوم الآخر، وعلى أقسام الناس؛ فكل معاني القرآن تتضمنها هذه السورة، بالإشارة والدلالة التضمنية والالتزامية.

ففيها من توحيد الألوهية قوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فإن الله هو ذو الألوهية على خلقه أجمعين.

وفيه من توحيد الربوبية قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ والربوبية تكون عامة وتكون خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله - تعالى -: ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٢١، ١٢٢﴾؛ فربوبية الله - تعالى - لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسل ليست كربوبيته لفرعون، وهامان، وقارون؛ لأن ربوبيته لموسى، وهارون، وأمثالهما من الرسل ربوبية خاصة، بها عناية وتوفيق لأمر لم يوفق له أكثر الخلق.

أما الأسماء والصفات ففيها - أي السورة - الألوهية، والرحمة، والوصف بالحمد والثناء، كل هذا من أجل كمال صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ.

أما اليوم الآخر ففي قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

وأما العبادة والاستعانة ففي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهي تشمل جميع الشريعة؛ من أقوال، وأفعال، واعتقادات؛ إما شيء يطلب إيجاده، وإما شيء يطلب اجتنابه، وكلها داخلة ضمن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ إذ لا يمكن للإنسان أن يدع شيئاً إلا بمعونة الله، ولا يقوم بشيء إلا بمعونة الله.

وأما الإيمان بالملائكة؛ فإنه يؤخذ من قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأن الذين أنعم الله عليهم هم الرسل، والواسطة بين الله وبين رسله هو جبريل - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه موكل بالوحي، ثم إن صراط هؤلاء الذين أنعم الله عليهم متضمن للإيمان بالملائكة.

وأما الإيمان بالقدر فيؤخذ من قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأن مقتضى الربوبية أن يكون كل شيء بتقديره، وقضائه، وقدره.

وأما أقسام الناس فيما أوحى الله إلى رسله فقد تضمنها قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

فالمهم أن من تدبر هذه السورة وجدها - كما وصفها رسول الله ﷺ - أم القرآن، وفاتحة الكتاب؛ ولهذا أوجب الله - تعالى - على لسان رسوله ﷺ قراءتها على كل مصلٍّ؛ فقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث

عبادة بن الصامت الثابت في الصحيحين: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»^(١)، وفي حديث أبي هريرة قال - عليه الصلاة والسلام -: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأَم القرآن فهي خداج، فهي خداج، فهي خداج»^(٢)؛ يعني: فاسدة، وهذا يدل على أهمية هذه السورة، ولكن هناك شيء ينبغي التنبه له، وهو أن بعض الناس يستفتح بها كل شيء، ويجعلها السورة التي يتبرك بها في كل مناسبة، وهذا شيء من البدع؛ لأنه لم يعلم أن النبي ﷺ كان يستفتح الأمور بها، وإنما كان يتدئ بها في قراءة الصلاة، نعم، هي رقية إذا قُرئ بها على المريض بإخلاص؛ فإنه ينتفع بها بإذن الله، والله الموفق.



(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب قراءة الفاتحة للإمام والمأموم...، رقم (٧٥٦)؛
ومسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٤).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة...، رقم (٣٩٥).

(٢) سورة البقرة

قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^(١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ

في هذه الآيات يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ وهو القرآن الكريم، وأشار الله - سبحانه وتعالى - إليه بإشارة البعيد؛ لعلَّ مرتبته، وعظيم منزلته؛ فإنه كلام الله - عزَّ وجلَّ - الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، وقد وصفه الله - تعالى - في القرآن بأوصاف عظيمة بالغة، وسمَّاه الله كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

وقوله - تعالى -: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ أي: ليس فيه ريب ولا شك؛ لأنه حق نازل من عند الله، وفي قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: الذين اتقوا عذاب الله - عزَّ وجلَّ - بفعل أو امره، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: الذين يؤمنون بما غاب عنهم، لإخبار الله - تعالى - به ورسوله، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ أي: يأتون بها قائمة مستقيمة على وفق الشريعة، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ أي: ينفقون مما رزقهم الله؛ من الزكوات الواجبة، والصدقات المستحبة، والنفقات اللازمة.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة على الرسل؛ مثل التوراة والإنجيل، والزبور، ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾؛ أي: إيقانًا كاملاً لا مرية فيه.

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾؛ أي: على صراط مستقيم وعلم نافع، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾؛ أي: الذين اهتمدوا بهداية الله - عزَّ وجلَّ -، واتبعوا ما أنزل الله؛ فأصبح مآلهم هو الفلاح؛ والفلاح هو حصول المطلوب والنجاة من المرهوب.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١- في هذه الآيات إشارة إلى الصنف الأول والأعلى من أصناف بني آدم نحو هذا الكتاب العزيز؛ فإن الناس انقسموا في هذا الكتاب العزيز إلى ثلاثة أقسام: قسم آمنوا به ظاهراً وباطناً، وقسم آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وقسم كفروا به ظاهراً وباطناً، فبدأ الله - تعالى - بالذين آمنوا به ظاهراً وباطناً، ثم ثنى بالذين كفروا به باطناً وظاهراً، ثم ثلث بالذين آمنوا به ظاهراً وكفروا به باطناً، وهذا التقسيم من أحسن التقاسيم، وأجملها، وأوضحها؛ فبدأ بالأعلى ثم بما يقابله تماماً، ثم بما هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وأخّر الكلام عليهم؛ لطوله، وليبان أوصافهم؛ حتى يجترز منهم؛ ففي قوله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم - الذي أعجز أمراء الفصاحة والبلاغة - لم

يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم؛ فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله؛ قال الله - تعالى -: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز وإن قل، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣]، وقال - تعالى -: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأت بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا فلا نستطيع، هذا هو الأصح في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، أما الحروف نفسها فليس لها معنى؛ لأن الله - تعالى - أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية.

٢- وفي قوله - تعالى -: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ دليل على علو مرتبة القرآن، وهو كذلك؛ لأن القرآن كلام الله - عزَّ وجلَّ - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو أعلى الكلام في الفصاحة، والبلاغة، وما يحتوي عليه من العلوم النافعة.

٣- وفي قوله: ﴿الْكِتَابُ﴾ دليلٌ على أن هذا القرآن مكتوب، وهو كذلك؛ قال الله - تعالى -: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١٢-١٦]، وهو كذلك مكتوب في الصحف التي بأيدينا.

٤- وفي قوله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾؛ «ال» دليل على أن هذا الكتاب معروف معهود، وهو كذلك؛ فإن كتاب الله - عزَّ وجلَّ - كان معروفًا معهودًا بين الصحابة، لم يفتقد منه شيء، وقد ذكر أهل العلم أن من أنكر حرفًا واحدًا اتفق القراء على إثباته؛ فهو كافر.

وأما اختلاف القراءات السبع؛ فإن هذا مما ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن هذه القراءات السبع كلها حق تجوز القراءة بها.

٥- وفي قوله - تعالى -: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن الاهتداء بالقرآن مربوط بالتقوى؛ فكلما كان الإنسان أتقى لله كان أهدي بكتاب الله.

٦- وفي قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ دليلٌ على أن غير المتقي لا يهdy بالقرآن، وهو كذلك؛ ولهذا قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ [المطففين: ٧-٩]،

وقال - تعالى - : ﴿ وَيَلُّوْا يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِيْنَ ﴿١٠﴾ الَّذِيْنَ يُكَذِّبُوْنَ بِيَوْمِ
 الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهٖۤ اِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ اٰثِمٍ ﴿١٢﴾ اِذَا تُتْلٰى عَلَيْهِۤ اٰيٰتُنَا قَالَ
 اَسْطِیْرُ الْاَوَّلِيْنَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلٰی قُلُوْبِهِمْ مَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ ﴿١٤﴾ [المطففين:
 ١٠ - ١٤]، فأخبر الله - تعالى - أن هذا إذا تلى عليه آيات الله؛ لم ينتفع بها،
 ولم تصل إلى قلبه، ولم ير لها شأنًا عظيمًا، بل يقول: ﴿ اَسْطِیْرُ الْاَوَّلِيْنَ ﴾؛
 يعني: مثل الحكايات التي تُحكى عن الأولين، ويُتحدث بها لماذا؟ لأنه
 ران على قلبه ما كان يكسبه من الآثام؛ فلم ينتفع بالقرآن، وكلما كان
 الإنسان أتقى لله كان أهدى بكتاب الله؛ ويدل على ذلك آيات كثيرة؛
 منها: قوله - تعالى - : ﴿ وَيَزِيْدُ اللهُ الَّذِيْنَ اٰهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦]،
 وقوله - تعالى - : ﴿ فَاَمَّا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فَزَادَتْهُمْ اِيْمٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ ﴾
 [التوبة: ١٢٤]، وكلما نقص الإنسان من التقوى نقص من اهتدائه بكتاب
 الله بقدر ما نقص من تقواه.

* * *

قال الله - تعالى - : ﴿ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُوْنَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا
 رَزَقْنٰهُمْ يُنْفِقُوْنَ ﴿١﴾ وَالَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
 وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ ﴾ .

هنا بين الله - تعالى - أوصاف هؤلاء المتقين؛ فوصفهم - سبحانه -
 بأنهم يؤمنون بالغيب؛ أي: بما غاب عنهم مما أخبر الله به ورسله؛ لأنهم

يصدقون بما أخبر الله به ورسله أكثر مما يصدقون بما شاهدوه بأعينهم أو سمعوه بأذانهم، وأمور الغيب التي أخبر الله بها ورسله كثيرة معروفة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ. ومن أوصافهم أنهم يقيمون الصلاة؛ أي: يأتون بها قائمة تامة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ويتممون ذلك بمتماتها من المستحبات، ومن أوصافهم - أيضًا - أنهم ينفقون مما رزقهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - على حسب ما تقتضيه الشريعة إنفاقًا دائرًا بين الإفراط والتفريط؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾

[الفرقان: ٦٧].

وفي قوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يخبر الله - تعالى - في هذه الآية بأن هؤلاء على هدى، وعلى علم مما وهبهم الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبين الله - تعالى - ما لهم وهو الفلاح؛ والفلاح هو حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

فوائد الآيات الكريمات:

١- أن الإيمان بالغيب من تقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهو أساس التقوى؛ لأن ضدَّ الإيمان الشكُّ والتكذيب؛ فإن الناس فيما أخبر الله به ورسله ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: قسم يؤمنون بذلك ويوقنون به، وقسم ينكرون ذلك ويحسدونه، وقسم يترددون فيه ويشكون فيه،

والناجي من هذه الأقسام هو القسم الأول؛ الذين يؤمنون به ويصدقون به.

٢- أن الإيمان بالشيء المشاهد لا يجدي ولا ينفع؛ لأنه إيمان يقتضيه الواقع؛ فلا يمدح الإنسان عليه، فالإنسان الذي يقول: أنا أو من بالشمس، وأو من بالقمر، وأو من بالنجوم لا نمدحه على ما يؤمن به من هذه الأشياء المحسوسة، وإنما يمدح الإنسان على ما يؤمن به من الأشياء الغائبة؛ ولهذا لا ينفع الإنسان إيمانه إذا شاهد الأمر عياناً؛ كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُدُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [١٦] فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ - وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ ﴿ غافر: ٨٤، ٨٥﴾، وقال الله - تعالى - في فرعون لما أدركه الغرق -: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُدُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ - بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ف قيل له: ﴿ ءَالْفَنِّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠ - ٩١].

٣- فضيلة إقامة الصلاة، وأن ذلك من تقوى الله - عزَّ وَجَلَّ -، والصلاة - هنا - شاملة لصلاة الفريضة وصلاة النافلة.

٤- أن الصلاة قد يفعلها الإنسان على غير وجه الإقامة لها؛ مثل أن يفعلها غير تامة، أو يفعلها ناقصة من الأركان، أو من الواجبات، فمن النقص في الأركان الذي يتهاون فيه الكثير من الناس عدم الطمأنينة؛

فإن بعض الناس يتهاون في الطمأنينة، ولا يطمئن، لا سيما في القيام بعد الركوع، وفي الجلوس بين السجدين، ومن المعلوم أن الطمأنينة في هذين الركنين وفي غيرهما من أركان الصلاة، وأن الصلاة لا تصح بدون الطمأنينة فيها وفي غيرهما من الأركان؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ وَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَارْجِعْ فَصَلِّ كَمَا صَلَّيْتُ، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» (ثَلَاثًا)، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا أَحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلَّمَنِي، فَقَالَ: «إِذَا قَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راکعًا، ثم ارفع حتى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثم اسجُد حتى تطمئن ساجدًا، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها»^(١)، وإنما أمره الرسول ﷺ أن يعيد الصلاة مرة بعد أخرى؛ من أجل أن يشتد توقانه إلى معرفة الصلاة وأحكامها؛ حتى يتلقى ذلك بنفس مُشْرِئَةٍ متطلعة إلى معرفة الحكم؛ فيكون ذلك أرسخ في قلبه، وفي رواية للحديث: «إِذَا قَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ فَكَبِّرْ»^(٢)، وإنما قال له النبي

(١) سبق تخريجه ص (٣٨).

(٢) رواه البخاري: كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، رقم (٦٢٥١)؛ ومسلم:

كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٧).

ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء»، مع أنه لم يشاهده ﷺ وهو يتوضأ؛ لأن من جهل هذه الأركان في صلاته قد يكون جاهلاً للوضوء، فأرشد النبي ﷺ إلى ما ينبغي أن يقوم به من إسباغ الوضوء، المهم أن رسول الله ﷺ أمرنا أن نطمئن في هذه الأركان، وهو دليل على أن الصلاة لا تصح دون الطمأنينة فيها، فالكثير من الناس يضيع الطمأنينة في هذه الأركان؛ فيكون غير مقيم للصلاة، ومن إقامة الصلاة صلاتها في المساجد مع الجماعة؛ لأن النبي ﷺ قال: «لقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً يصلي بالناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها، فأمر بهم فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم»^(١).

وعن أبي هريرة قال: «أتى رجل أعمى فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله ﷺ أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى دعاه فقال: «هل تسمع النداء بالصلاة؟» فقال: نعم؛ قال: «فأجب»^(٢)؛ فمن لم يأت بصلاة الجماعة مع قدرته عليها وعدم وجود عذر شرعي في تركها؛ فإنه غير مقيم للصلاة، فلا يكون داخلًا في هذه الأوصاف الحميدة الجليلة.

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة، رقم (٦٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد

ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (٦٥١).

(٢) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء، رقم

(٦٥٣).

أما النساء فلا تجب عليهنَّ صلاة الجماعة في المساجد؛ لأن الرجال هم المخاطبون بالاجتماع إليها، أما النساء فقد قال النبي ﷺ: «... وبيوتهن خير لهن»^(١)، ولكن المرأة مأمورة بأن تحضر صلاة العيد؛ لأن النبي ﷺ أمر أن يُخْرَجَ إليها النساء حتى الحيض وذوات الخدور إلا أنه أمر الحيض أن يعتزلن المصلى^(٢)؛ لأن مصلى العيد مسجد تثبت له أحكام المسجد كلها.

ومن إقامة الصلاة المحافظة عليها في أوقاتها، بل هذا من أهم إقامتها، وأوقات الصلوات معروفة - والله الحمد - وهي خمسة؛ فالفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والظهر من زوال الشمس - أي: ميلها إلى جهة المغرب - حتى يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال، والعصر من ذلك الوقت - أي: من صيرورة ظل كل شيء مثله - إلى أن تصفرَّ الشمس، هذا وقت الاختيار، والضرورة إلى غروب الشمس. أما صلاة المغرب فوقيتها من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر، والعشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل. وطلوع الفجر إلى طلوع الشمس يمكن إدراكه بالمشاهدة، وزوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله يمكن أن يعرف بوضع عصا أو

(١) رواه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد، رقم (٥٦٧).

(٢) انظر البخاري: كتاب العيدين، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى، رقم (٩٧٤)؛ ومسلم:

كتاب صلاة العيدين، باب ذكر إباحتها خروج النساء في العيدين إلى المصلى، رقم (٨٩٠).

نحو ذلك قائمة في الشمس، وينظر إلى ظلها، فما دام الظل ينقص فالشمس لم تزل، فإذا بدأ الظل يزيد - ولو يسيرًا جدًا - فقد زالت الشمس، وحينئذ اضبط مكان الزيادة، فإذا صار من مكان الزيادة إلى منتهى ظلها طولها فقد خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر. أما انتهاء وقت العصر فهو معلوم بالمشاهدة، وهو اصفرار الشمس؛ أي: أن تكون الشمس صفراء، ومن اصفرار الشمس إلى الغروب - أيضًا - معلوم بالمشاهدة. أما صلاة المغرب فوقتها من الغروب إلى مغيب الشفق الأحمر، وهو معلوم بالمشاهدة - أيضًا - وتقريبه في الساعة: ما بين ساعة وربع أو سبع عشرة دقيقة من الغروب إلى ساعة ونصف ساعة أو ساعة واثنتين وثلاثين دقيقة بعد الغروب؛ لأن طول مدة وقت المغرب يختلف باختلاف الفصول، ومن بعد ذلك يدخل وقت العشاء مباشرة إلى نصف الليل، وبيان ذلك أن تنصف ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر؛ فالنصف هو منتهى وقت صلاة العشاء.

فلا يجوز للإنسان أن يؤخر الصلاة عن وقتها المحدد لها شرعًا إلا لعذر يبيح الجمع؛ فيجوز أن يؤخر الصلاة الأولى التي تجمع لما بعدها إلى دخول وقت الثانية؛ لأن السبب المبيح للجمع يجعل وقت الصلاتين وقتًا واحدًا؛ فمن أحر الصلاة عن وقتها، وصلّاها بعد الوقت بدون عذر شرعي؛ فإن صلاته مرفوضة لا تقبل؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

[الطلاق: ١]، وقوله في آية أخرى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، والظالم لا يقبل منه عمل؛ لأنه ظلم، والله - سبحانه وتعالى - لا يحب الظالمين، ويؤيد القول بأن الصلاة بعد وقتها لا تصلح بدون عذر قوله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ»^(١)، ومن المعلوم أن من أخر الصلاة عن وقتها بدون عذر فقد عمل عملاً ليس عليه أمر الله ورسوله؛ فيكون مردوداً غير مقبول.

٥- فضيلة الصلاة؛ حيث نصَّ الله - عزَّ وجلَّ - على إقامتها بخصوصها، ومن المعلوم أن النص على الشيء بخصوصه يدل على عناية كاملة به، وعلى مرتبة عالية له.

٦- فضيلة الإنفاق مما رزق الله - عزَّ وجلَّ -؛ لقوله - تعالى -: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾، والإنفاق من المال ينقسم إلى واجب ومستحب، وأوجب الواجبات الزكاة التي فرضها الله - عزَّ وجلَّ - على العباد، فمن قام بها وأداها؛ فإنه يدخل في هذه الآية الكريمة أول من يدخل، ويدخل في الإنفاق - أيضاً - الإنفاق على من يجب الإنفاق عليه؛ من زوجة، وقريب، ومملوك، وإنني بهذه المناسبة أحذر بعض الناس الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله، فيظنون أن ذلك خيراً لهم، وأن ذلك

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

تنمية لأموالهم؛ فإن هذا ليس خيراً لهم، بل هو شر لهم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا هُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، أحرص هؤلاء البخلاء من أن يمنعوا الزكاة، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على زوجاتهم، وأحذرهم من أن يمنعوا الإنفاق على من أوجب الله عليهم الإنفاق عليه، وأحذرهم من أن يمنعوا ما أوجب الله عليهم بذله من المال؛ من إطعام جائع، أو كسوة عارٍ، أو غير ذلك مما ذكر أهل العلم وجوب الإنفاق فيه، وليعلم الإنسان أن كل نفقة ينفقها يتغني بها وجه الله - تعالى - يثيبه عليها، ويأجره عليها، ولا تزيد ماله إلا نماء وبركة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما نقصت صدقةً من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله»^(١).

* * *

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۗ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

من فوائد وأحكام هذه الآية:

أن هؤلاء المتقين المتصفين بهذه الصفات على هدى من الله، وعلى

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، رقم (٢٥٨٨).

بصيرة، وعلى برهان بأن مآلهم الفلاح؛ وهو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، وهذا غاية كل إنسان؛ قال - تعالى - : ﴿ فَمَنْ زُحِزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

نسأل الله - تعالى - أن نكون من الفائزين السعداء في الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يبين الله - سبحانه وتعالى - حال هؤلاء الكفار المكذبين لرسول الله ﷺ ومآلهم؛ أما حالهم فقد قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؛ أي: أنهم لا يؤمنون سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم؛ وذلك لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٧، ٩٦]، ولا ينافي هذا ما علم من أن بعض الناس يكون كافراً بالله - عزَّ وجلَّ - ثم يهديه الله - سبحانه وتعالى - إلى الإسلام؛ فيكون من أئمة المسلمين، ودعاة المسلمين، وأنصار الدين؛ لأن الكلام فيمن كان كافراً، وقد حَقَّتْ عليه كلمة الله - عزَّ وجلَّ -؛

فإنه لا يمكن لأحد أن يهديه، أما من كان كافراً، ولم تحقق عليه كلمة الله، وعلم الله منه أنه سيتوب، ويدخل في الإسلام؛ فإنه لا يدخل في هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم؛ أي: جعل الله عليها الختم؛ وهو الطبع بعد الإغلاق والاستيثاق، يُختم على الشيء حتى يبقى مختوماً لا يصل إلى خير، فهو لاء ختم الله على قلوبهم؛ فلا يصل إليهم الإيمان، وعلى سمعهم؛ فلا يستمعون إلى ما يتلى عليهم على وجه ينتفعون به، أما الأبصار - والعياذ بالله - فجعل الله عليها غشاوة؛ لا يبصرون ولا ينظرون إلى آيات الله - عزَّ وجلَّ - التي تدلهم على الحق، وبين الله - تعالى - أن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً؛ حيث قال - تعالى -: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن مَنْ حَقَّتْ عليه كلمة الله من الكافرين لا يمكن أن يؤمن، سواء أُنذِرَ أم لم يُنذَرَ، وسواء رُغِبَ أم لم يُرَغَبْ؛ لأنه قد طُبِعَ على قلبه؛ فلا يمكن وصول الهداية إليه.

٢- ومن فوائد هذه الآية - أيضاً - تسلية النبي ﷺ حتى لا يضيق صدره، ولا يكون في نفسه حرج، كما قال الله - تعالى -: ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِعٌ

نَفْسِكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ [الكهف: ٦]،
 وقال - تعالى -: ﴿ لَعَلَّكَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أَكْفَرًا لَمْ تُحِشْ بِالنَّارِ ﴾ [الشعراء: ٣]،
 فالنبي ﷺ ومن ورثه من أهل العلم عليهم البلاغ والدعوة إلى الله - عَزَّ
 وَجَلَّ - وبعد ذلك لا يضرهم من ضلَّ ما داموا على الاهتداء، كما قال
 الله - تعالى -: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا
 أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للمؤمن الذي من الله عليه
 بالإيمان أن يحمّد الله - سبحانه وتعالى - على هذه النعمة العظيمة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة أن رسول الله ﷺ قد قام بإنذار هؤلاء
 الكافرين، ولكن هؤلاء الكافرين قد حقت عليهم كلمة العذاب؛ فلم
 يُجِدْ فِيهِمُ الْإِنذَارَ شَيْئًا.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة أن الله - سبحانه وتعالى - يمنُّ على من
 يشاء من عباده؛ فمن عباد الله من يشرح الله له صدره، ويُيسر له أمره،
 يشرح صدره للإسلام حتى يفرح به ويستبشر به، ويتسع صدره
 لقبوله؛ فيقبله، وينفذ أحكام الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الوجه الذي يرضاه
 الله - سبحانه وتعالى -، ومن الناس من يكون على العكس من هذا؛
 فيضيق صدره حرجًا بما سمع من آيات الله - سبحانه وتعالى -، قال الله
 - تعالى -: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ - ﴾

[الزمر: ٢٢]، وقال - تعالى -: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۗ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإن قال قائل: كيف يهدي الله قوماً ويضل آخرين؟

فالجواب: أن هذا السؤال لا يرد؛ لأن الله - تعالى - له أن يفعل ما يشاء، فله أن يمن على من يشاء من عباده فيهديهم إلى صراطه المستقيم، كما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ ﴾ [إبراهيم: ١١]، ونقول ثانياً: إن الله - سبحانه وتعالى - لا يهدي إلا من كان أهلاً للهداية، ولا يضل إلا من كان أهلاً للضلالة، كما قال الله - تعالى -: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال - تعالى -: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥]، فلا يضل من ضلَّ إلا بسببٍ من نفسه، يكون قلبه غير مرید للحق وغير قابل له، والله - تعالى - يعلم منه ذلك؛ فيكتب الله له الشقاء والضلال؛ نسأل الله الهداية.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة أنه ينبغي للإنسان أن يكون دائماً على حذر، وألا يعتمد على نفسه، وأن يخشى من الزيغ والضلال، وأن يسأل الله - سبحانه وتعالى - دائماً الثبات على الحق، والموت عليه، وأن

يحمّد الله الذي منّ عليه بالهداية، وقد أضلّ قومًا آخرين.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة إثبات الجزاء في قوله - تعالى :-

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٨- ومن فوائدها إثبات حكمة الله؛ فإنه - سبحانه وتعالى - لم

يعذب هؤلاء إلا لاستحقاقهم العذاب بكفرهم بالله - سبحانه وتعالى -، وبما يجب عليهم الإيمان به.

* * *

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ

الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ
إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وهذا هو القسم الثالث من الأقسام التي ابتدأ الله بها هذه السورة، وهم: المؤمنون الخُلص والكافرون الخُلص، والمؤمنون بألسنتهم دون قلوبهم.

قال - تعالى -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: بعض الناس يقول: آمننا بالله وباليوم الآخر، لكن يقول ذلك بلسانه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ما هم بمؤمنين بقلوبهم، بل هم في قلوبهم منكرون، لا يعترفون بهذا ولا يقرون به - والعياذ بالله -، ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ

ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾؛ أي: أنهم في عملهم هذا وسيرتهم هذه يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم. والخداع، والمكر، والكيد، معانيها متقاربة؛ وهي الإيقاع بالخصم من غير أن يشعر، هؤلاء يتظاهرون بالإيمان؛ ليخادعوا الله والمؤمنين، فيظنون أنهم أحسنوا صنعاً، ولكنهم أساءوا صنعاً وسيئلاً؛ ولهذا قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، - فهم في الحقيقة خدعوا أنفسهم، ولعبوا بها، وغروها، واغتروا بصنعهم؛ فلم ينفعهم هذا الخداع؛ لأن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿١٠﴾ يَوْمَ تُبَلَى السَّرَابُ ﴿١١﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ٨-١٠]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رُوحٌ فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العاديات: ٩-١١].

وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي: أن هؤلاء المنافقين الذين ظنوا أنهم خدعوا الله والمؤمنين بما يتظاهرون به من الإيمان وهم على الكفر لا يخدعون إلا أنفسهم؛ لأنهم غروها، واغتروا بما صنعوا، وظنوا أنهم يحسنون صنعاً، ثم قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: لا يشعرون أنهم خدعوا أنفسهم؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من النفاق.

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾؛ أي: شك، وريب، ونفاق؛ ﴿ فزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾؛ أي: أعطاهم مرضًا أكثر من المرض الأول، وهذا في قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهؤلاء المنافقون لما كانت قلوبهم مرضى؛ صاروا يزدادون مرضًا فوق مرضهم؛ لأنهم كلما كذبوا شيئًا وأنكروا شيئًا؛ ازدادوا بذلك كفرًا وبعُدًا من الله - عزَّ وجلَّ.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ أي: مؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ أي: بسبب كذبهم؛ حيث قالوا: إنهم مؤمنون، وما هم بمؤمنين.

في هذه الآيات الكريمة يبين الله - سبحانه وتعالى - أن من الناس من ينافق؛ والنفاق هو إظهار الخير وإبطان الشر، وهو بالنسبة لحق الله نفاق عقدي مخرج عن الإيمان، وقد يكون نفاقًا عمليًا؛ كالرياء، وبالنسبة لحق المخلوق نفاق عملي لا يُخرج من الإيمان، كما قال النبي ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبًا، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اتُّمِّنَ حَانَ»^(١).

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، رقم (٣٣)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال النفاق، رقم (٥٩).

فوائد وأحكام هذه الآيات:

١- إثبات النفاق في بعض الناس؛ لقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾، والنفاق لم يحدث في هذه الأمة إلا بعد أن قويت، وكان لها سلطان، وعزة، ورفعة؛ ولهذا قال العلماء: إنه لم يظهر النفاق في هذه الأمة إلا بعد غزوة بدر؛ حيث انتصر فيها المسلمون على أعدائهم، ووجه هذا ظاهر؛ فإن المنافق إنما ينافق؛ خوفاً على نفسه وماله، ولا يمكن الخوف على النفس والمال إلا مع قوة المخوف منه.

٢- ومن فوائدها: أن الأقوال لا تنفع إذا لم يكن القلب مطابقاً لها، فإذا قال الإنسان قولاً ولكن قلبه منكر؛ فإن هذا القول لا ينفعه عند الله، بل لا يزيده من الله إلا بُعداً.

٣- ومن فوائدها: أن أحكام الدنيا تجري على الظاهر؛ أي: على ما يظهر من حال الإنسان دون الأمر الباطن الذي في قلبه؛ لأن الأمر الباطن لا يعلمه إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أما الأمر الظاهر فيعلمه كل من ظهر له؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ المنافقين، وقال حين استؤذن في قتلهم: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)؛ ويتفرع على ذلك

(١) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله - تعالى -: ﴿يَقُولُونَ لِنَبِيِّنَا إِذَا دُعِيَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا﴾

الاعتراف منها الأدل، رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن

الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧)

أننا نجري الناس في أحكام الدنيا على ظاهر حالهم، ولا نسيء الظن بأحد إذا لم تظهر لنا قرائن قوية تزيل هذا الأصل؛ ومن ثمَّ قال الفقهاء - رحمهم الله -: إنه يجرم سوء الظن بمسلم ظاهره العدالة؛ ومن هنا أحذر بعض الإخوة الذين يطلقون مثل قولهم: هذا منافق، هذا كافر، هذا كذا.. إلخ، ويصفونه بأوصاف تخالف ظاهر حاله بناء على ما يظنونه في قلبه، وهذا خطأ؛ لأنه ليس لنا أن نحكم إلا بما ظهر، قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ تَحْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَحْسَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ...»^(١)؛ فدلَّ هذا على أنه ليس لنا أن نحكم إلا بما هو ظاهر، أما ما هو باطن فأمره إلى الله، ولا يجوز لنا أن نرمي عباد الله بما يخالف ظاهر حالهم، اللهم إلا إذا وُجدت قرائن قوية تبين كذبه، فهذا يحكم له بما تقتضيه الشريعة.

٤- ومن فوائدها: أن المنافق ليس بمؤمن؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهو كذلك، ولكن هل يصح أن نقول: إنهم مسلمون؟ يرى بعض أهل العلم أنه يصح أن نقول عن المنافق: إنه مسلم؛ لأنه مسلم ظاهراً، وربما يستدلون بقوله - تعالى - في قصة لوط - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿الذاريات: ٣٥، ٣٦﴾، وهذا البيت يضم زوجة

(١) رواه البخاري: كتاب الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٦٨٠)؛ ومسلم: كتاب

الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، رقم (١٧١٣)

لوط - عليه الصلاة والسلام -، وهي تتظاهر بالإسلام، وليست بمؤمنة، كما قال الله - تعالى -: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَأَاتَ لُوطٍ ۗ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحریم: ١٠]، فسمّى الله - سبحانه وتعالى - هذا البيت بيت المسلمين، بل سمّى من فيه مسلمين، مع أن فيه هذه الزوجة التي ليست بمؤمنة، والمنافقون - في الحقيقة - مسلمون إسلامًا عمليًّا؛ لأنهم لا يخالفون في الظاهر ما كان عليه المسلمون، وإن كان ذلك يثقل عليهم، ويشق عليهم، كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَآءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال النبي ﷺ: «ليس صلاةٌ أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا»^(١)، وعلى كل حال فالمنافق إذا لم يظهر نفاقه ويعلنه فهو مسلم ظاهراً، وإن كان غير مؤمن.

٥- ومن فوائد الآية الثانية. وهي قوله - تعالى -: ﴿ تُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن هــ المنافقين إنما صنعوا ما صنعوا؛ مخادعةً، ومكرًا، وكيدًا؛ فيدل هذا على ذم الخداع، والمكر، والكيد - وهو كذلك -؛ فالمكر، والخداع، والكيد

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب فضل صلاة العشاء في الجماعة، رقم (٦٥٧).

أمور ممقوتة ومذمومة إلا إذا كان في ذلك مصلحة، بحيث يكون في مقابل من يخدعك؛ فإنه يجوز أن تخدع من خدعك، كما قال الله - تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ ولهذا نقول: إن الحرب خدعة، ويذكر أن علي بن أبي طالب لما خرج إليه عمرو بن ود لبيارزه صرخ عليُّ فقال: إني لم أخرج لأبارز رجلين، فظن عمرو أن معه آخر، فالتفت؛ فضربه علي حتى قتله، فإن هذا لا شك أنه خداع، لكنه خداع لمن يحسن خداعه؛ لأنه مستحق له.

٦- ومن فوائدها: بيان أن المنافقين من أعداء المؤمنين؛ ولهذا يقول: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، كما أنهم أعداء الله - عزَّ وجلَّ؛ ويترتب على هذه الفائدة الحذر من المنافقين، وأن يحترز الإنسان من الإفشاء إليهم بالأسرار والأموال المهمة؛ خوفاً من أن يطيحوا به، وأن يلقوه في المهلكة.

٧- ومن فوائده قوله - تعالى -: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أن الإنسان قد يعمى عن الضلالة؛ فيظن أن ما فعله حسن وهو سيئ، وهؤلاء هم أخسر الناس أعمالاً كما قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

فإن قال قائل: بم نزن حسن الفعل وقبحه؟

قلنا: نزن ذلك بكتاب الله، وسنة رسوله و، وما كان عليه السلف الصالح؛ فإن خير الكتب كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد و، وشر الأمور محدثاتها.

ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

من فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن قلوب المنافقين مرضى، والمرض - هنا - ليس مرضاً عضوياً يكون به الألم الجسدي، ولكنه مرضٌ معنوي يرفض به القلبُ الحقَّ، ويقبل الباطل، وهذا وصف منطبق تماماً على المنافقين.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن القلب عليه مدار الصلاح والفساد بالنسبة للعمل؛ لأن الله - تعالى - وصف القلب بالمرض، وهو دليل على أنه إذا مَرَضَ مَرَضٌ معه الجسد، وإذا صَحَّ صَحَّ معه الجسد، ويؤيد هذا قولُ النبي ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدتُ فسَدَ الجسد كله، ألا وهي القلب»

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان أن يعتني بقلبه فينظر: أصحح هو أم مريض؟ فإن كان مريضاً؛ فليحرص غاية

(١) رواه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة،

باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)

الحرص على طلب الشفاء له، وإن كان صحيحًا؛ فليحمد الله على ذلك، وليسأله الثبات عليه، ونحن نشاهد أن الإنسان إذا مرض عضو من أعضائه مرضًا جسميًا ذهب إلى كل طبيب من أجل أن يحصل على شفاء من هذا المرض، ولكن مرض القلب لا يهتم به كثير من الناس مع أن مرض القلب أشد خطرًا، وأعظم فتكًا من مرض البدن.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان إذا لم يحرص على علاج مرض قلبه؛ فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾، ولا شك أن هذه العقوبة أعظم من العقوبة بفقد الولد، والأهل، والمال، وكثير من الناس يغفل عنها، فكثير من الناس يظنون أن العقوبة إنما تكون في الأمور الظاهرة؛ كالأبدان، والأموال، والأولاد، والحقيقة أن العقوبة بمرض القلوب وفسادها أشد وأعظم من العقوبة بمثل تلك الأمور، بل إن كثيرًا من الناس يكون قلبه ميتًا، يصاب بالمصائب من الخوف، والجوع، وغير ذلك من المصائب المادية المحسوسة، ولا يرعوي ولا يرتدع عما هو عليه من الفسوق والعصيان.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله - سبحانه وتعالى - عدل في قضائه وقدره؛ فإنه لم يجاز هؤلاء المنافقين بزيادة المرض، إلا حيث كانت قلوبهم مريضة عفنة؛ ولهذا قال: ﴿فَزَادَهُمْ﴾ فأتى بالفاء الدالة

على تفرع ما بعدها على ما قبلها.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن المنافقين - كما يتلون بزيادة مرض القلب؛ يتلون أيضًا بالعذاب وهو العقوبة على أعمالهم السيئة، وهو عذاب أليم مؤلم، ولا يقاس بألم الدنيا وعقوبتها؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات السبب؛ لقوله - تعالى -: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ والباء - هنا - للسببية، ولا شك أن ارتباط المسببات بأسبابها وترتيبها عليها من مقتضيات حكمة الله - عزَّ وجلَّ - ونحن نعلم جميعًا أن من أسماء الله (الحكيم) الذي يضع الأشياء مواضعها، ومن ذلك ترتيب المسببات على أسبابها؛ ويتفرع على هذه الفائدة الرد على من أنكروا تأثير الأسباب، وقالوا: إن الأسباب ليس لها أثر في مسبباتها، وظنوا أن هذا هو التوحيد، وأن إثبات تأثير الأسباب في مسبباتها نوع من الشرك، ونحن نقول: إن تأثير الأسباب في مسبباتها ليس تأثيرًا ذاتيًا، ولكنه تأثير وسيلة؛ فالأسباب وسيلة لحصول المسببات، والذي جعلها سببًا لمسبباتها هو الله - عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قد تتخلف المسببات عن أسبابها بقضاء الله وقدره، أفلا ترى النار المحرقة تكون بردًا وسلامًا بأمر الله، كما في قصة إبراهيم الخليل حين أضرم قومه النار؛ ليحرقوه، وألقوه في النار فعلاً، ولكن الله - سبحانه وتعالى -

قال للنار التي ألقوه فيها: ﴿قُلْنَا يَبْنَؤُا كُونِي بَرْدًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت بردًا وسلامًا ﴿بَرْدًا﴾ لم تحرقه، و﴿وَسَلْمًا﴾ لم تؤذّه، قال أهل العلم: لو قال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ ولم يقل: ﴿وَسَلْمًا﴾؛ لكانت بردًا مؤذيًا له أو مؤثرًا عليه ضارًا به، ولكنه قال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَسَلْمًا﴾؛ فكانت بردًا لطيفًا لا يضره ولا يتأثر به، وهذا من تمام قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهو أكبر دليل على أن الأشياء لا تؤثر تأثيرًا ذاتيًا بنفسها، وإنما تؤثر بتقدير الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنت إذا أثبت الأسباب على هذا الوجه لم تكن مثبتًا مع الله - تعالى - فاعلًا، بل الأسباب ومسبباتها كلها مفعولات لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٨- ومن فوائد قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ؛ معرفة سوء النتائج والعواقب للكذب، وأن الكذب سبب للعذاب، ولكن لا شك أن الكذب تتفاوت مراتبه، وإذا تفاوتت مراتبه تفاوتت عقوباته؛ فالكذب على الله ورسوله - مثلاً - أعظم من الكذب على غير الله ورسوله، والكذب الذي يترتب عليه إتلاف مال أو إتلاف أنفس أعظم من الكذب الذي لا يترتب عليه ذلك، ولكن الكذب كله حرام، ولا يصح تقسيم من قسّم الكذب من العامة إلى كذب أبيض وكذب أسود، ويقولون: إن الكذب الأبيض هو الكذب الذي لا يترتب عليه إتلاف مال ولا إتلاف نفس، وإن الكذب الأسود هو

الذي يترتب عليه شيء من ذلك، فنقول: إن الكذب كله أسود، وليس في الكذب شيء ممدوح، سواء ترتب عليه إتلاف مال أو أنفس، أو ظلم لأحد أم لم يترتب عليه شيء؛ ويدل لذلك أن النبي ﷺ جعل الكذب من صفات المنافقين ومن علاماتهم فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»^(١).

ويدل لهذا أن جميع العقلاء ينكرون الكذب، ولا يرضون أن يكون خلقاً لهم، ألا ترى إلى أبي سفيان حين قدم على هرقل ملك الروم قبل أن يُسلم، فسأله هرقل عن حال النبي ﷺ، وصفاته، وحال أصحابه؛ فلم يشأ أبو سفيان أن يتكلم بكلمة كذب فتؤثر عليه، وكل العقلاء يذمون الكذب، ولا يرضى أحد منهم أن يوصف بأنه كذاب، وقد حذر النبي ﷺ من الكذب وقال: «... وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ؛ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»^(٢)، والكذوب المعروف عند الناس بالكذب لا يوثق بخبره، حتى وإن كان صادقاً؛ لأن الناس يحكمون على الإنسان بغالب أحواله، ويصفونه بغالب أخلاقه، فعلى

(١) سبق تحريجه ص (٥٥).

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب قول الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ رقم (٦٠٩٤)؛ ومسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، رقم (٢٦٠٧).

المسلم أن يتعد عن الكذب كله صغيره وكبيره، ما تضمن الظلم منه وما لم يتضمنه.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ ؛ أي : قيل للمنافقين : ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ لم يبين الله - سبحانه وتعالى - القائل للمنافقين هذا القول ؛ ليشمل كل من قال لهم من الناس ، فكلما قال لهم الناس : لا تفسدوا في الأرض بالوشاية ، والكذب ، والخيانة ، وإظهار الإسلام ، أمام المسلمين ، وإظهار الكفر أمام الكافرين قالوا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ من أجل أن نسلم من القتل والحرب مع المؤمنين ، ونسلم من الكراهية والبغض من الكافرين ، نصلح طريقنا وسيرتنا مع هؤلاء وهؤلاء ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ .

وتأمل قوله : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ؛ حيث حصروا حالهم في الإصلاح ، فقال الله - عزَّ وجلَّ - مكذباً لهم وراذلاً عليهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ فقابل الله - سبحانه وتعالى - القول بقول أبلغ منه ؛ حيث حصر الإفساد فيهم ، وصدَّره بـ (ألا) الدالة على التوكيد فقال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ، وصدق الله - عزَّ وجلَّ - ؛ فإن المنافقين هم المفسدون الذين يفسدون في

الأرض، ويجعلون فيها الفتنة بما يسيرون عليه من النفاق.

من فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١- أن المنافقين قد يأتيهم من ينصحهم، ويبيِّن لهم حالهم، وأنهم يفسدون في الأرض، ووجه الإفساد من هؤلاء أنهم يعطون للمسلمين السنة طيبة وقولاً معسولاً؛ فيظن المؤمن أنهم من أوليائه فيفضي إليهم بأسراره، ولكنهم كاذبون في ذلك، ويحصل بهذا الفساد؛ حيث يحصلون على أسرار المؤمنين وينشرونها بين الكفار.

ومن إفساد المنافقين في الأرض - أيضاً - أنهم يريدون أن تُمحي شريعة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأن يكون الحكم والتحاكم إلى الطاغوت؛ والطاغوت كلُّ نظام يخالف شرع الله - سبحانه وتعالى - أي: يخالف ما شرعه الله - سبحانه وتعالى - لعباده، فالمنافقون يحاولون بكل جهودهم أن يكون التحاكم إلى غير الله ورسوله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ - وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٥١ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٥٢ ﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ نُمْ جَاءُوكَ تَخَلِّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ آرِدِنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ٥٣ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي

أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿ [النساء: ٦٠ - ٦٣]، فالمنافقون لا يريدون أن تبقى
 شريعة الله هي الحكم بين خلقه في أرضه، تحت سمائه، ولكن يريدون
 أن يكون التحاكم إلى الطاغوت؛ وهو كل ما خالف شريعة الله مما سنّه
 البشر، ولا شك أن هذا فساد عظيم - أعني: رجوع الناس إلى غير
 شريعة الله في التحاكم بينهم - فيه الفوضى، وفيه الظلم، وفيه الجور؛
 لأن كل حكم يخالف حكم الله لا شك أنه جور؛ فإن الله - سبحانه
 وتعالى - هو الذي يحكم بين عباده بالقسط، وقد أمر الله - سبحانه - أن
 يكون التحاكم إليه لا إلى غيره فقال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ
 فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال - سبحانه وتعالى -: ﴿ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ
 فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرُّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ
 وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يؤذون رسول الله ﷺ بكل ما
 يستطيعون من أذية؛ قولية أو فعلية، صريحة أو تلميحية، كما قال الله -
 عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ
 خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ
 وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وهم يؤذون
 رسول الله ﷺ لا لشخصه، لا لأنه محمد بن عبد الله؛ ولكن لما جاء به
 من الشريعة؛ لأنهم يكرهونها، ويرون أن من قام بها فإنه مستحق
 للأذية، ولكنهم - بحمد الله، ورحمته، وعزته، وقدرته، ونُصْرَتِهِ لِنَبِيِّهِ

ﷺ لا يضررون النبي ﷺ، كما قال - تعالى -: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]، فهم لا يضررون الرسول ﷺ بأذيتهم، وإن علمنا أنهم يؤذون رسول الله ﷺ؛ من أجل أن يتنازل عن شيء من شريعة الله خوفاً من أذيتهم، فإننا نعلم كذلك أنهم يؤذون أتباع رسول الله ﷺ لعلهم يحدّون من التمسك بشريعته ﷺ، وإذا كانوا يؤذون من اتبع رسول الله ﷺ فإن على المؤمنين المتبعين لرسول الله ﷺ الصبر على أذيتهم القولية أو الفعلية، التصريحية أو التلميحية، وليعلموا أن الله - عزَّ وَجَلَّ - جاعلٌ كيدهم في نحورهم.

ومن إفساد المنافقين في الأرض أنهم يُثبِّطون عن الجهاد في سبيل الله وعن قتال أعداء الله؛ لأن أعداء الله يوافقونهم في الكفر، فالكل كافر، لكن هؤلاء مخادعون يظهرون الإسلام، والكافرون صرّحاء أشجع منهم يعلنون كفرهم ولا يباليون، وهم يثبِّطون عن قتال هؤلاء الكافرين، كما ذكر الله - سبحانه وتعالى - عنهم في عدة آيات من القرآن العزيز.

ومن إفساد هؤلاء - أعني: المنافقين - في الأرض أنهم يوالون أعداء الله، ويتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛ لأن أعداء الله الكفار إخوانهم، إخوانهم في الكفر، إخوانهم الحقيقيون؛ لأنهم متفقون وإياهم على الكفر بالله - سبحانه وتعالى -؛ فهم يتولونهم أكثر مما يتولون المؤمنين؛

لأنهم إنما يتولون المؤمنين في الظاهر لا في الباطن، ومن المعلوم أن توليهم للكافرين يزيد الكافرين قوة ويزيدهم ثباتاً في مجابهة المؤمنين، وهذا يتضمن نصر الكفر على الإيمان.

وأنواع إفسادهم في الأرض كثيرة يعرفها من يتتبع الآيات الكريمة في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، كما في هذه السورة، وكما في سورة آل عمران، وكما في سورة النساء، وكما في سورة التوبة، وكما في سورة الأحزاب، وكما في سورة المنافقين، نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يحمي الإسلام من كيدهم، وأن ينصر المسلمين عليهم.

يقول الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وهذه دعوى منهم يُنظَرُ هل يصدقها الواقع أو لا يصدقها، فبيّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه لا يصدقها الواقع.

ويستفاد من هذا: أن كل إنسان يدعو إلى باطل فإنما يزعم أنه على حق، وأن كل إنسان يدعو إلى فساد فإنما يزعم أنه يدعو إلى صلاح، فإذا قال قائل: بأي شيء يوزن الصلاح والفساد، والحق والباطل؟ قلنا: بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فبهما يعرف الحق من الباطل، ويعرف الصلاح من الفساد.

* * *

ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا

أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

لم يبين الله - تعالى - القائل، وقوله: ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ المراد بهم المؤمنون؛ رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد قال هؤلاء المنافقون في الجواب على من يدعوهم إلى الإيمان: ﴿أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وهذا الاستفهام للإنكار، يعني لن تؤمن كما آمن السفهاء؛ لأنهم سفهاء وليسوا راشدين؛ أي: ليس عندهم رشد، بل هم في سفه؛ قال الله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وتأمل في الفرق بين قوله هنا: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ وقوله في الآية التي قبلها: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمَفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هناك نفي الشعور عنهم؛ لأن الإفساد أمر ظاهر معلوم يدرك بالحس والحواس الظاهرة، أما الإيمان فإنه أمر باطن يدرك بالبصيرة الباطنة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأبطل الله - تعالى - دعواهم بأن المؤمنين سفهاء، وبين أنهم هم السفهاء، وحصر السفه فيهم فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾؛ أي: لا غيرهم، ولكنهم في عمى وضلال، لا يعلمون أنهم سفهاء؛ ولهذا استمروا على ما هم عليه من الضلال والعمى.

من فوائد الآية الكريمة:

١- أن هؤلاء المنافقين قد دُعوا إلى الحق ودُعوا إلى الإيمان، ولكنهم

- لكبريائهم وغطرستهم، واحتقارهم غيرهم - يجيبون من يدعوهم إلى ذلك بأنهم لا يؤمنون كما آمن السفهاء.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء المنافقين يدعون أن الإيمان سفه، يدعون ذلك إما عن اعتقاد وإما عن إضلال للخلق، يحتمل أن الله - تعالى - أعمى بصيرتهم؛ فأوا الحق باطلاً، ويحتمل أنهم يرون الحق حقاً ولكن لم يوفقوا إلى اتباعه، وهذا هو الأقرب، إذن فهم يريدون بوصف المؤمنين بالسفهاء، يريدون بذلك تنفير الناس من المؤمنين ومن طريقتهم، ومن الإيمان بالله.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن لتنفير المنافقين عن دين الله عدة طرق منها؛ شجب أتباعه كما في هذه الآية.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه يجب أن يرد على ذي الباطل باطله، ويبيّن أنه هو الذي على الباطل؛ لقوله - تعالى -: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

٥- ومن فوائد الآية: أن السفه وصف رديء، كل أحد ينفر منه، وهذا أمر لا شك فيه، ولكن ما السفه؟ السفه - كل السفه - أن يرغب إنسان عن دين الله - عزَّ وجلَّ - وعن الملة التي عليها الأنبياء والصالحون، قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]؛ ولهذا نقول: كل إنسان يرغب عن دين الإسلام؛

فإنه سفیه مهما بلغ في الذكاء، ومهما بلغ في الإدراك، لكنه لو كان راشداً عاقلاً عقل تصرفٍ وتدبيرٍ؛ لكان متبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ .



ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠١﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠٢﴾ .

هؤلاء المنافقون من أوصافهم المراوغة، والدجل، والتمويه؛ فهم إذا لقوا الذين آمنوا ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾؛ إرضاء للمؤمنين، وخداعاً لهم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ﴾ طواغيتهم أئمة الكفر قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾؛ يعني: ولسنا مؤمنين؛ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي: مستهزون بالمؤمنين، نسخر منهم، ونلعب بعقولهم، هكذا زعموا، فقال الله - تعالى - رداً عليهم:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ واستهزاء الله بهم يعني: أنه - عزَّ وجلَّ - يستهزئ بهم، يتخذهم هزواً، فيملي لهم، ويمهل لهم، فالاستهزاء صفة من صفات الله الثابتة له على وجه الحقيقة، ولازمه أن الله يمهل هؤلاء، ويمدهم ويدعهم في هذا الطغيان يضيعون ويتيهون.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

١- بيان مراوغة هؤلاء المنافقين؛ حيث يقولون للمؤمنين قولاً، ويقولون للشياطين من الكافرين قولاً آخر مضاداً له؛ ﴿وَإِذَا لُقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهذه غاية المراوغة؛ ففيها خداع لهؤلاء ولهؤلاء، خداع للمؤمنين بأنهم مؤمنون، وخداع للكافرين بأنهم معهم، ولكن خداعهم للكافرين ليس كخداعهم للمؤمنين؛ لأن حقيقة حالهم أنهم مع الكفار، فهم ليسوا بمؤمنين حقاً، وهم كافرون حقاً.

٢- ومن فوائدهما: أن الإنسان يؤخذ بظاهره؛ فالمؤمنون إذا قال لهم هؤلاء المنافقون: «آمننا» تركوهم وظاهرهم؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يعاملهم على ظاهرهم حتى إنه استؤذن في قتلهم فقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»^(١)، وهكذا الأحكام في الدنيا إنما تكون على الظاهر لا على الباطن، أما في الآخرة فتكون الأحكام على الباطن، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنكم تختصمون إليّ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض؛ فأقضي له على نحوٍ مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه؛ فإنها

(١) سبق تخريجه ص (٥٦).

أقطع له به قطعة من النار»^(١).

٣- ومن فوائدهما: أن هؤلاء المنافقين لا يقولون للمؤمنين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، بل يقولون: ﴿إِنَّا﴾، ولكنهم في خطاب الكافرين يقولون: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾، وهذا في عقد الموالاة بينهم وبين الكفار؛ لأن المعية تقتضي المناصرة والموالاة؛ فهم مع الكفار أولياء مناصرون، لكن مع المؤمنين يقولون: ﴿إِنَّا﴾، وما يدرينا لعلهم بقولهم: ﴿إِنَّا﴾ يعنون: آمنا بالطاغوت.

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يستهزئ بمن يستهزئ به وبعباده حين قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، وهذا الوصف الذي وصف الله به نفسه - وهو الاستهزاء على قاعدة أهل السنة والجماعة السلفية - يُجرى على ظاهره، ويقال: إن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يستهزئ بمن يستحق الاستهزاء، وهو استهزاء حقيقي يليق بالله - عَزَّ وَجَلَّ - ليس استهزاء يتضمن نقصاً؛ لأن الله وصف به نفسه فهو كمال، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]؛ ولهذا لا تجد الله - عَزَّ وَجَلَّ - يصف نفسه بالاستهزاء على وجه الإطلاق، وإنما وصف نفسه بالاستهزاء في مقابلة المستهزئين بعباده؛ ليبين بذلك أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أقوى منهم وأعظم، فإذا سخرُوا من المؤمنين سخر الله منهم.

(١) سبق تحريجه ص (٥٧).

٥- ومن فوائد الآيتين: بيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث جعل الجزء من جنس العمل، فكما أن هؤلاء استهزءوا بالمؤمنين؛ فالله - تعالى - استهزأ بهم، وهذا من عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهو ثابت في الدنيا وفي الآخرة، بل إن جزاء الله - عموماً - دائر بين العدل والفضل، فهو بالنسبة للعصاة عدل، وبالنسبة للطائعين فضل.

والقاعدة العامة عند أهل السنة والجماعة، والسلف الصالح: كل ما وصف الله به نفسه فهو حقٌّ على حقيقته، سواء أكان ذلك في كتاب الله، أو فيما صحَّ عن رسول الله ﷺ، ويجب أن نعلم علم اليقين أن كل صفة وصف الله بها نفسه فإن حقيقتها تخالف حقيقة ما يتصف به العبد من جنسها؛ وذلك لأن الصفة تابعة للموصوف، فكما أن الله - سبحانه وتعالى - ليس كمثله شيء في ذاته؛ فليس كمثله شيء في صفاته، لا يجوز - مثلاً - أن نقول: إن هذه صفة لا تليق بالله، الواجب نفيها وتحريفها إلى معنى آخر؛ لأننا إذا قلنا بذلك صرنا نحكم على الله - تعالى - في صفاته بعقولنا لا بما بلغنا عنه - سبحانه وتعالى - ومن المعلوم أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنزل هذا الكتاب؛ ليبين للناس الهدى كما قال الله - تعالى -: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وليس من حقنا، ولا يسوغ لنا أن نحكم على الله - تعالى - بعقولنا، بل نقول: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، وَآمَنَّا، وَصَدَقْنَا؛ فوظيفتنا نحو ما أخبر الله به عن نفسه أن نقول: سَمِعْنَا، وَأَطَعْنَا، وَآمَنَّا، وَصَدَقْنَا، وَأَلَا نَحْرَفُ ظَوَاهِرَ النُّصُوصِ إِلَى مَعَانٍ نَعِينَهَا بِعُقُولِنَا، وَنَحْكُمُ بِهَا عَلَى رَبِّنَا، كَمَا أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْوَ هَذِهِ النُّصُوصِ أَلَّا نَعْتَقِدَ فِيهَا تَمَثِيلًا؛ أَي: أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - مِمَّاثِلَ لِحَلْقِهِ فِيهَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يَقُولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنحن نعلم بالعقل أنه لا يستوي المخلوق مع الخالق في أي صفة من الصفات.



ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى المنافقين، وأشار إليهم باسم الإشارة الدال على البعيد - وإن كان الكلام فيهم قريبًا - للتبرؤ منهم والبعد عنهم؛ فَإِنَّ الْإِشَارَةَ لِلْبَعِيدِ تَارَةً تَكُونُ لَعَلَّوْا مَنزِلَةَ الْمَشَارِ إِلَى،

وتارة تكون لدنو منزلته، وهذا هو المقصود في هذه الآية، وقوله: ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾؛ أي: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى؛ فسلكوا طريق الضلال وتركوا طريق الهدى، ولكنه عبر بالاشتراء؛ ليعين أنهم سلكوا هذا الطريق عن محبة وشغف، كما يجب المشتري أن يحصل على السلعة التي يشتريها، والمراد بالضلالة هنا ما خالف الحق، وبالهدى ما وافق الحق، قال الله - تعالى - مبيِّناً نتيجة هذا الفعل: ﴿فَمَا رَاحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ بل خسروا خسراً عظيماً، وضلوا ضلالاً بعيداً.

من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان سفه المنافقين؛ حيث اختاروا الضلالة وتركوا الهدى، وكل إنسان يسلك هذا المسلك فإنه سفيه بلا ريب، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

٢- ومن فوائدها: أن المنافقين يحرصون على كل ما فيه ضلالة، سواء أكان من الأمور الكبيرة العامة، أو كان من الأمور الصغيرة حتى الوسائل التي يتوصلون بها إلى إيذاء الخلق، ثم ضرب الله لهم مثلاً مطابقاً لحالهم تماماً فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وهذا المثل مطابق لحالهم تماماً، وهو من أمثال التمثيل، كما في علم

البلاغة؛ فهذا رجل احتاج إلى نار يستدفئ بها ويستنير بها، ولكن ليس معه ما يستنير به فاستوقد نارًا من شخص؛ أي: طلب أن يوقد له نارًا فأوقد له النار، فلما تبين ضوءها من الشعلة طفئت الشعلة؛ فبقي في ظلمة بعد أن كان في نور، وبقيت حرارة النار التي قد يكون فيها ضرر؛ ولهذا قال: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل بنارهم؛ أي: بقيت النار بحرارتها، وذهب النور المستفاد من الشعلة التي انطفأت، وبقوا في ظلمات لا يبصرون، وإنما كانوا في ظلمات؛ لأن انطفاء النور بعد وجوده يحدث الظلمة، ولا سيما عند انطفائه في أول وهلة، هؤلاء المنافقون ليس عندهم نور في قلوبهم؛ إنما يستفيدون ما يستفيدونه من النور من بعض المؤمنين من أقاربهم أو جيرانهم فيستضيئون به لحظة، ولكنهم يعودون إلى أصلهم من الظلمة والضلالة، يستضيئون به لحظة، ثم ينطفئ؛ فيبقى ذلك حرارة في قلوبهم؛ لأنهم ليس لهم نور يهتدون به.

ثم قال: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَرَجْعُونَ﴾؛ ﴿صُمٌّ﴾ يعني: لا يسمعون الهدى، ﴿بَكْمٌ﴾ لا ينطقون به، ﴿عُمَىٰ﴾ لا يبصرونه، فنفى عنهم طرق الهداية كلها، وقوله: ﴿فَهَمْ لَا يَرَجْعُونَ﴾؛ هذا حال المنافق، لا ينطق بالحق، ولا يستمع إليه، ولا ينتفع به لو سمعه، ولا يبصره، وإن أبصره لا ينتفع به، فهو بمنزلة الأعمى.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١- يضرب الله - سبحانه وتعالى - الأمثال هنا؛ فيستفاد من ذلك أن من البلاغة أن يضرب المتكلم الأمثال المحسوسة للمخاطب؛ ليتوصل بها إلى المعاني المعقولة؛ لأن إدراك الشيء المحسوس أقرب من إدراك الشيء المعقول، كما قال الله - تعالى - : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] ، وقال الله - عزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ رَبِّ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [المؤمنون: ٧٣]؛ فالأمثال مهمة في تعليم المخاطب بتقريب المعاني إلى ذهنه وتصورها.

٢- ومن فوائدهما: أن المنافقين ليس لهم نور ذاتي يستضيئون به، وإنما نورهم من نور خارجي يضيء عليهم ثم يجبو، ويبقون في ظلمة؛ فتشتد الظلمة عليهم بعد النور الذي أضاء لهم.

٣- ومن فوائدهما: أن هؤلاء المنافقين إذا استضاءوا بهذا النور الذي يأخذونه من غيرهم، فإنهم قد يلوح لهم شيء من الهدى، ولكن لعلم الله - عزَّ وَجَلَّ - بحالهم، وأنهم ليسوا أهلاً للهداية - لما في قلوبهم من الزغل، والأفكار الخبيثة - يذهب الله بنورهم ويدعهم، وعلى هذه الفائدة تتفرع فائدة أخرى عظيمة وهي أنه يجب على الإنسان أن يطهر

قلبه تطهيرًا كاملاً من كل زغل وخبث، وأن يعتني بطهارة قلبه أكثر مما يعتني بطهارة بدنه وثيابه؛ لأن طهارة القلب عليها المدار، وبها تكون طهارة الأعمال الظاهرة.

٤- ومن فوائد الآيتين السابقتين: بيان حال المنافقين، وأنهم - والعياذ بالله - لا يصل إليهم الهدى من أي طريق؛ فهم صمٌّ لا يسمعون ولا يسمعون ما اهدوا به، بكمٌ لا ينطقون به، بل ينطقون بالباطل، وما ينطقون به من الحق إنما يريدون به باطلاً لا يريدون به حقيقة معناه، وهم عمي لا يبصرون الحق، ولو أبصروا الحق ما انتفعوا به.

٥- ومن فوائدهما: أن هؤلاء المنافقين قد رأوا أنهم على صواب، وعلى حقٍّ، وعلى طريق صحيح؛ ولهذا لا يرجعون عن غيهم، بل يبقون على ما هم عليه، ويتفرع على هذه الفائدة فائدة أخرى وهي أنه يجب على الإنسان أن يعتني دائماً بالتنقيب والنظر في عمله، وهل هو صواب أم خطأ؛ فإن كان صواباً فليحمد الله وليستمر عليه، وإن كان خطأ فليتب إلى الله، وليرجع إلى الصواب أينما كان.

* * *

ثم قال - تعالى - في المثل الثاني: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝٦٦﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

هذا المثل الثاني لطائفة أخرى من المنافقين، وإن شئت فقل: لحال أخرى من المنافقين، ضرب الله لهم مثلاً بصيب من السماء؛ أي: مطر نازل من السماء؛ وهو الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ، هذا الصيب فيه ظلمات، فيه رعد، فيه برق، فيه ظلمة المطر، ظلمة السحاب، ظلمة الليل، وفيه - أيضاً - رعد وبرق، وهذا الرعد رعد شديد فيه صواعق؛ الصواعق عبارة عن كشف حال هؤلاء المنافقين، وبيان أسرارهم، وخبثهم، وعمّا في القرآن من الزواجر والوعيد لمن عصى الله - عزَّ وجلَّ -، لكن هؤلاء المنافقين يجعلون جُنَّةً لا تُجْنُهُمْ، ويستترون بستر لا ينفعهم، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق؛ يظنون أنهم إذا لم يسمعوا الصاعقة لم تنزل عليهم، ولكنهم أخطئوا في هذا التقدير.

وهذه الآية كقوله - تعالى -: ﴿تَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون:

٤]؛ فيظنون كل آية نزلت في وصف يبين عيوبهم، ويهتك أستارهم، يظن كل واحد منهم أنه هو المعني بذلك فيمشي في الناس وكأنه خائف حذر، ولكن هذا لا يغنيه بشيء؛ البرق بشدته وقوته يقع على بصر ضعيف لا يتحمل، ليس عنده قوة ولا قدرة على تحمل الإضاءة؛ ولهذا

قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾، والبصر الضعيف يتأثر بكل نور، وكلما قوي النور قوي تأثيره، وانظر إلى الأعشى إذا خرج، أو انظر إلى ضعيف البصر إذا خرج للشمس تجده ينكسف بصره وتهل دموعه؛ لأنه لا يقوى على تحمل هذا النور، فهم كذلك بصرهم ضعيف ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾؛ لأن النور قوي، والبصر غير مقاوم لضعفه؛ فيكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لشدته، وضعف البصر، وعجزه عن المقاومة، ومع ذلك فهم ينتهزون الفرصة ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾؛ لأنهم لا يستطيعون المشي مع هذه الظلمات، وبعد هذا النور العظيم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ﴾ لذهب بسمعهم فلم يكن لهم سمع، وبأبصارهم فلم يكن لهم بصر، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فوائد الآيتين الكريمتين:

١- أن حال هؤلاء المنافقين حال ضعيفة لا تستطيع المقاومة ولا القيام بشرع الله - عَزَّ وَجَلَّ.

٢- أن هؤلاء المنافقين عندهم من الخوف والرعب ما يجعلهم يظنون أن كل صيحة عليهم، وأن كل وعيد لهم، وأن كل إنذار لهم أيضاً؛ فهم جناء ضعفاء لا يستطيعون أن يقاوموا الحق؛ لقوته أمامهم، وضعفهم أمامه؛ ويترتب على هذه الفائدة فائدة عظيمة؛ وهي أنه ينبغي

على الإنسان أن يتقبل الحق حيثما كان، وأن يكون عازماً على تطبيقه، سواء أكان ذلك شاقاً على نفسه أم هيناً عليها؛ لأن المؤمن - كما ذكر الله - تعالى - من وصفه - يقول: سمعنا وأطعنا؛ قال - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٣- ومن فوائدهما: أن القرآن الكريم كالمطر، غيث للأرض تنتفع به، ويتنفع به أهل الأرض أيضاً، وهكذا وحي الله وشرعه الذي نزل؛ هو كالغيث؛ فمن الناس من يقبل هذا المطر، ويستخرج منه الثمرات العظيمة، ويتنفع الناس به، ومن الناس من لا ينتفع بهذا الوحي، ويكون كالأرض الصماء التي تبتلع الماء، ولا تثبت شيئاً، ومن الناس من يكون على أوصاف أخرى بالنسبة لهذا المطر النازل من السماء.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة التي فيها المثل الثاني: أن هؤلاء المنافقين قد يستضيئون بعض الشيء - أحياناً - بما يرون من النور الحاصل من الوحي، ولكن سرعان ما يزول ويذهب مع أنهم ينتفعون به على مشقة حتى إنه يكاد يخطف أبصارهم.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات المشيئة لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴾، وقد أثبت الله - تعالى - مشيئته في عدة آيات من القرآن، وكلُّ شيء فإنه بمشيئة الله؛ ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، ولكن

مشيئة الله - سبحانه وتعالى - تابعة لحكمته؛ فلا يشاء - سبحانه وتعالى - إلا ما اقتضت حكمته مشيئته؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فبيّن أن مشيئته مقرونة بعلمه وحكمته - وهو كذلك -، ولكن حكمة الله - عزّ وجلّ - منها ما هو معلوم لنا ومفهوم نشاهده ونعرفه، ومنها ما هو خفي علينا؛ لأننا قاصرون في العلم والإدراك، كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فما يردّ على الذهن - أحياناً - من الإشكال في بعض الآيات الكونية أو الآيات الشرعية؛ إنما ينشأ من قصور الإنسان أو تقصيره، ولو أن الإنسان بحث بحثاً جدياً يريد به الحق؛ لتبيّن له من حكمة الله - تعالى - في أحكامه الكونية والشرعية ما لا يتبين للغافل المعرض الذي لا يريد إلا أن يشكك الناس في بعض الأمور التي تخفى في حكمتها، كما يعرف من بعض الناس الذين يأتون ويقولون: ما الحكمة في كذا؟ ما الحكمة في كذا؟

نحن لا نسيء الظن بأحد، لكن من الناس من يقول ذلك؛ ليشكك العامة فيما هم عليه من الهدى والحق، لا لقصد أن يصل إلى المعنى المطلوب الذي يسأل عنه، ومع هذا فإني أقول: إن علمت حكمة الشيء الواقع بقضاء الله وقدره، وحكمة الشيء الواقع بشرع الله ودينه، فهذا

بلا شك من نعمة الله عليك، وإن لم تعلم فسلم الأمر وكل الأمر إلى
عالمه - سبحانه وتعالى -، واعلم أنه لا يحكم إلا لحكمة عظيمة، عَلِمَهَا
مَنْ عَلِمَهَا وَجَهَلَهَا مَنْ جَهَلَهَا.

٦- ومن فوائد الآية: أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وقدرته -
عَزَّ وَجَلَّ - قدرة تامة، لا يعترها عجز بوجه من الوجوه؛ ولهذا كان
أمره بالشيء أمراً واحداً لا يكرره، بل إذا أمر بشيء كان في لحظة، قال
الله - تعالى -: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فتأمل قوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾؛ يعني: لا يقول للشيء: كن،
ثم يقول له: كن مرة ثانية، بل إذا قال: كن؛ كان كلمح البصر، وتأمل
قوله - تعالى -: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا
مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣] وقوله - تعالى -: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ فَإِذَا هُمْ
بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، تجد أنها زجرة أو صيحة واحدة، يبعث
فيها الخلائق كلهم؛ فيحضرون للقضاء بينهم بقدره الله - عَزَّ وَجَلَّ -،
وهذا دليل على كمال قدرته - سبحانه وتعالى -؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولا يستثنى من هذا شيء أبداً؛ فكل شيء الله قادرٌ
عليه؛ ويتفرع على الإيمان بهذه الفائدة أن الإنسان ينبغي أن يسأل ربه
كل ما يرى فيه مصلحة، ولا يستصعب الأمر، ولا يقول: هذا لن
يكون، هذا بعيد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي

إِنْ شِئْتَ، ارحمني إِنْ شِئْتَ، ارزقني إِنْ شِئْتَ، وليعزم مسألته؛ إنه يفعل ما يشاء لا مُكره له»^(١)؛ فلا أحد يكره الله حتى يقال: إِنْ شِئْتَ فافعل، وإِنْ شِئْتَ فلا تفعل، فلا يقال: «إِنْ شِئْتَ» إلا لمن هو مكره فينظر هل يشاء أو لا يشاء، أما الذي يفعل باختياره، وبإرادته، وبقدرته؛ فإنه لا يقال في حقه: «إِنْ شِئْتَ»؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك، وقال: «إنه يفعل ما يشاء لا مكره له».

* * *

ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وجَّه الله الخطاب إلى الناس؛ لأن الناس جميعاً يجب عليهم عبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة هي التذلل إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بفعل أو امره واجتناب نواهيه، وقد تطلق على المُتعبد به، وهي العبادات التي يقوم بها الإنسان؛ كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج.

وقوله: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ الربُّ: هو الخالق المالك المصرِّف المدبر لجميع الأمور، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يعني: الذي أوجدكم من العدم، ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ أي: خلقهم وأوجدهم الله من العدم كما أوجدكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: من أجل أن تصلوا إلى هذه المرتبة

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم (٧٤٧٧).

العالية؛ وهي تقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والتقوى: اتخاذُ الوقايةِ مِنْ عَذَابِ
اللهِ بفعلِ أوامرهِ واجتنابِ نواهيهِ.

فوائدُ وأحكامُ الآيةِ الكريمةِ:

١- بيانُ أهميةِ هذا الطلبِ؛ وهو عبادةُ الله - تعالى - وحدهُ، ووجهُ
ذلكَ أَنَّهُ لَا يَصْدُرُ الْخِطَابُ بِالنِّدَاءِ إِلَّا لِلْعِنَايَةِ بِهِ؛ لِأَنَّ النِّدَاءَ نَوْعٌ مِنَ
التَّنْبِيهِ؛ فَأنتَ إِذَا ناديتَ الْمُخَاطَبَ انتبهَ واتَّجِهَ إِلَيْكَ.

٢- ومن فوائدِ الآيةِ: أَنَّ الْعِبَادَةَ حَقٌّ لِلَّهِ، وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ؛
ولهذا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ فَكُلُّ النَّاسِ يَجِبُ عَلَيْهِمْ
عبادةُ اللهِ، وعبادةُ اللهِ - تعالى - هِيَ التَّعَبُّدُ لَهُ؛ أَي التَّذَلُّلُ لَهُ بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ
وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ حَسَبَ شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رِيسَلَهُ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ؛ بِمَعْنَى
أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ اللهُ لَهُ شَرِيعَةً كَذًّا، وَالْآخِرِ شَرِيعَةً كَذًّا، حَسَبَ
مَا يَصْلُحُ بِهِ الْخَلْقُ، وَلَكِنَّ الشَّرَائِعَ كُلَّهَا اجْتَمَعَتْ بِشَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ وَ،
وَصَارَتْ شَرِيعَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ نَاسِخَةً لِجَمِيعِ الشَّرَائِعِ؛ فَلَا عِبَادَةَ لِلَّهِ إِلَّا عَنِ
طَرِيقِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْعِبَادَةُ لِأَبَدٍ أَنْ تَكُونَ مَبْنِيَّةً عَلَى أُسَاسَيْنِ هُمَا:
الإِخْلَاصُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَالتَّابِعَةُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

أما الإِخْلَاصُ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فهو أن يَنوِي الإنسانُ بعبادتهِ وجهَ
اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ، لَا يَنوِي بِذَلِكَ حِطَامًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا جَاهًا، وَلَا
رِئَاسَةً، وَلَا تَزَلُّفًا لِمَخْلُوقٍ، بَلْ يَنوِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ،

ومتى كانت هذه نيته؛ فإنه سوف يحسن العمل، سوف يعبد الله كأنه يراه. فإن لم يكن يراه فإن الله - سبحانه وتعالى - يراه، وضد الإخلاص في العبادة الشرك في العبادة؛ بأن ينوي بعبادته غير وجه الله والدار الآخرة؛ ينوي بها حطامًا من الدنيا، ينوي بها ترفلاً لمخلوق، ينوي بها الحصول على الجاه بين الناس، وهكذا فإن هذه النية باطلة مبطله للعمل.

أما الركن الثاني أو الشرط الثاني فهو متابعة الرسول محمد ﷺ، ولا يمكن أن تتحقق المتابعة إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة في أمور ستة: في سببها، وجنسها، وقدرها، وصفتها، وزمانها، ومكانها، فإن خالفت الشريعة في واحد من هذه الأمور الستة؛ لم يكن الإنسان متبعًا فيها لرسول الله ﷺ، فمن أحدث عبادة لسبب غير شرعي؛ فإن عبادته غير مقبولة، بل مردودة عليه؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١)، وهذا الحديث أساس لكل الأوصاف التي ذكرناها، ومن تعبد لله بجنس غير مشروع؛ فإن عبادته غير مقبولة، فلو أن الإنسان ضحى بفرس؛ فإن أضحيته لا تقبل؛ لأنه ضحى بجنس غير مشروع؛ فإن الأضحية إنما تشرع من بهيمة الأنعام، من الإبل، والبقر، والغنم.

(١) سبق تخريجه ص (٤٩).

ولا بد أن تكون موافقة للشرع في قدر العبادة، فمن تعبد الله بأمر زائد على ما شرعه؛ فإن هذا الزائد لن يقبل، ثم قد يبطل العبادة كلها، وقد لا يبطلها، لو صلى الإنسان الظهر خمسا لم تقبل منه؛ لأنها على غير القدر الوارد في الشرع، وهذه الزيادة تبطل العبادة، لكن لو أخرج الفطرة صاعين من الطعام لم يثب ثواب الفطرة على كلا الصاعين، وإنما يكون أحد الصاعين هو الذي يثاب عليه ثواب الفطرة، والثاني يثاب عليه ثواب الصدقة، وهناك فرق بين الفطرة والصدقة؛ لأن الصدقة تطوع والفطرة فرض، والإنسان يثاب على الفرض أكثر مما يثاب على التطوع، ويدل على الفرض حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللُّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ»

ولا بد أن تكون موافقة للشرع في صفتها، فإن خالفت الشرع في الصفة؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان صلى فبدأ بالسجود قبل الركوع؛ لم تكن صلاته مقبولة؛ لأن ذلك على خلاف الصفة التي ورد بها الشرع؛ فتبطل الصلاة ولا تقبل، وكذلك على القول الراجح من أقوال أهل العلم لو توضع الإنسان فبدأ برجليه، ثم رأسه، ثم يديه، ثم

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)؛ وابن ماجه: كتاب الزكاة، باب

وجهه؛ لم يكن وضوءه مقبولاً؛ لأنه على غير الصفة الواردة عن رسول الله ﷺ.

ولابد - أيضاً - أن تكون موافقة للشرع في الزمان؛ فلو تعبد الإنسان عبادة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في غير زمانها؛ لم تكن مقبولة، لو أن الإنسان حج - مثلاً - في غير وقت الحج؛ لم يكن حجه مقبولاً ولو زار أمكنة المناسك؛ لأنها في غير الوقت.

ولابد أن تكون موافقة للشرع في مكانها، فلو اعتكف الإنسان في بيته؛ لم يكن اعتكافه مقبولاً؛ لأنه لم يتبع فيه شريعة الله.

والخلاصة أن العبادة لا تكون مقبولة إلا بموافقة الشرع، ولا تكون موافقة للشرع إلا إذا وافقت ما جاء به الشرع في السبب، والجنس، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

هذه الآية تكملة للآية التي قبلها؛ وهي قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ ففي

الآية الأولى الإيجاد ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وفي الآية الثانية الإمداد؛ فإن الله - تعالى - خلقنا وأمدنا بالرزق الذي نتأهل به لإعداد أنفسنا لقبول شريعته، فذكر الله - سبحانه وتعالى - ما أمدنا به من المقر ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، ومن الرزق الذي به قوام البدن ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، وبتمام الإمداد يجب الاستعداد لما أمر الله به؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: شركاء في عبادته أو في شيء من حقوقه وخصائصه، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: تعلمون أنه لا ند له في ربوبيته، فإذا كنتم تعلمون أنه لا شريك له في ربوبيته؛ فإن مقتضى ذلك ألا تجعلوا له شريكًا في عبادته، تتأهون إليه، وتعبدونه، وتتقربون إليه؛ كما تتقربون إلى الله - عزَّ وجلَّ -.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- في هذه الآية من الأحكام أن الأرض جعلها الله - تعالى - فراشًا لبني آدم، جعلها قرارًا مستقرًا لا تميد ولا تضطرب، ولو كانت تميد أو تضطرب ما صحَّ أن تكون فراشًا يطمئن فيه الإنسان ويستوطن.

٢- من فوائدها: أن الله - سبحانه وتعالى - جعل السماء بناءً، وسماها الله - عزَّ وجلَّ - في آية أخرى سقفاً محفوظة؛ فهي مبنية ومحفوظة بحفظ الله - عزَّ وجلَّ -، وهو الذي ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ

عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿ [الحج: ٦٥]، فلولا أن الله أحكم البناء؛ لوقع على الأرض، وهذه من نعمة الله علينا.

٣- ومن أحكامها: إثبات أن الأسباب لها أثر في مسيبتها؛ لقوله - تعالى - حين ذكر إنزال الماء من السماء -: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾؛ أي: أخرج بسببه، ولا يشك عاقل في أن للأسباب تأثيرًا في مسيبتها، وهذا التأثير الذي أودعه الله في الأسباب هو من خلق الله - عزَّ وجلَّ -، فمن أنكر تأثير الأسباب في مسيبتها؛ فقد خالف ما هو معلوم ببداهة العقول، ومن جعل الأسباب مؤثرة بذاتها؛ فقد أثبت مع الله شريكًا، ومن أثبت تأثير الأسباب لكن بإرادة الله - تعالى - ومشيئته؛ فقد وافق الحق والواقع، وهذا هو المذهب الراجح الذي جرى عليه المحققون من أهل العلم، خلافاً لمن قال: إن الأسباب لا تؤثر، وأن ما يحصل بها من الأسباب حاصل عندها لا بها؛ لأن هذا مكابرة للواقع، فهو لاء يقولون: إن النار إذا أحرقت الورق لم تكن هي التي أحرقتة، ولكن حصل الإحراق عندها لا بها، ونحن نقول: بل حصل الإحراق بها، لكن بأمر الله، فهو الذي خلق فيها هذه القوة المحرقة، ولو شاء الله - تعالى - لسلبها هذه القوة؛ بدليل أن الله - سبحانه وتعالى - قال للنار التي ألقى فيها إبراهيم: ﴿ يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه، بردًا خلاف طبيعتها التي هي الحرارة، وسلامًا خلاف أثرها الذي هو الإحراق، قال بعض العلماء: ولو قال

الله: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾، ولم يقل: ﴿وَسَلْمًا﴾؛ لأهلكه بردها، المهم أن في هذه الآية الكريمة إثبات الأسباب وتأثيرها في مسيبتها، ولكن من الذي جعل السبب مؤثرًا؟ هو الله، والسبب؛ هو المطر.

٤- وفي الآية الكريمة من الفوائد: منة الله - سبحانه وتعالى - على عباده بهذا الماء النازل من السماء؛ حيث أخرج به من الثمرات رزقًا لنا ورزقًا لمواشينا أيضًا؛ كما قال - تعالى - في سورة النحل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]؛ تسيمون: أي ترعون أنعامكم.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب شكر المنعم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾؛ أي: هذا الذي أنعم عليكم يجب أن تشكروه وتوحدوه بالعبادة كما أنه هو الذي أنعم عليكم وحده فلا تجعلوا له أندادًا.

٦- وفي الآية الكريمة من الفوائد: شدة اللوم على من اجترأ على المحرمات مع العلم؛ لقوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن من علم بالقبيح وتجراً عليه؛ أعظم جرماً وقبحاً ممن لم يعلم به ولو تجراً عليه.

٧- وفي الآية الكريمة من الفوائد أيضًا: أن الأرض التي يستولي عليها الإنسان تكون ملكاً له، قراراً وهواءً؛ قراراً يؤخذ من قوله:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾، وهواء من قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾؛ فكل ما كان فراشي من الأرض فإنما يقابله من السماء بناءً لي؛ ولهذا قال العلماء - رحمهم الله -: إن الهواء تابع للقرار؛ أي: أن من ملك أرضاً فله قرارها وله هواؤها إلى السماء؛ فلا يملك أحد من جيرانه أن يبني جناحاً يكون ظله على أرض الجار، بل قال العلماء: لو أن أغصان شجرة جارك صارت فوق بيتك فلك المطالبة بإزالة هذا الغصن.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠١﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

هاتان الآيتان لهما ارتباط بما قبلهما من حيث المعنى؛ وذلك أن في الآيتين السابقتين تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله بإفراد الله - تعالى - بالعبادة، وفي هاتين الآيتين تحقيق رسالة النبي ﷺ؛ وذلك في قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ فالآيات الأربع متضمنة لشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والريب هو الشك مع القلق والضجر، والمراد بالعبد - هنا - محمد ﷺ، وأشرف أوصافه - عليه الصلاة والسلام - وصفان العبودية والرسالة، وقد ذكر الله -

سبحانه وتعالى - وصف نبيه محمد ﷺ بالعبودية في أعلى مقاماته، فوصفه بالعبودية حال إنزال القرآن، وحال الإسراء، وحال المعراج، وحال التحدي والذود عنه؛ فقال في الحال الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال في الحالين الثانية والثالثة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٨ - ١٠]، وقال في الحال الرابعة مقام التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، والمراد - هنا - بما نزل القرآن الكريم، ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك، وقال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ يعني: كل من تقدرين على الاستعانة به ممن تدعونهم أولياء أو شفعاء فادعوهم معكم؛ ليعينوكم على أن تأتوا بسورة من مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما تدعون من أن هذا القرآن ليس من عند الله، ولكنهم لن يفعلوا ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ أي: فإن النار ستكون مأواكم؛ فاتقوها واحذروها، وذلك بالرجوع إلى الحق وتصديق رسول الله ﷺ، هذه النار التي وقودها الناس؛ الناس المستحقون لها من الكفار والمنافقين، والحجارة هي حجارة عظيمة

ليست كحجارتنا في الدنيا، تحمى في نار جهنم؛ فتزداد حرارة النار، ويزداد اشتعالها - والعياذ بالله - ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾؛ يعني: أعدّها الله للكافرين به وبرسله، وكذلك للمنافقين؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ - إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

فوائد الآيتين الكريمتين:

١- وفي هاتين الآيتين الكريمتين بين الله - عزَّ وجلَّ - أن رسول الله ﷺ صادق فيما جاء به من الوحي، وأن هذا الوحي نازل من عند الله.

٢- ومن فوائدهما: تحدي المكذبين لرسول الله ﷺ، ومن كان معهم من أعوانهم أن يأتوا بسورة من مثله، ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، قال أهل العلم: وتحدي الله المكذبين بالقرآن جاء على ثلاثة أوجه بل على أربعة؛ فتحدهم بالقرآن كله في قوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ - وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وتحدهم أن يأتوا بعشر سور من مثله؛ فقال - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ - أَفَرَبُّهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ - مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، وتحدهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

مِّن مِّثْلِهِ، ﴿١﴾، وتحداهم أن يأتوا بأقل من ذلك؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، وكل هذه التحديات لم يتصدَّ لها أحدٌ من بلغاء الناس وفصحائهم في عهد النبي ﷺ، ويدل هذا على صدق رسالته - صلوات الله وسلامه عليه - وأن هذا القرآن ليس من عنده.

٣- ومن فوائد الآيتين الكريمتين: إثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله - تعالى -: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾؛ والنزول إنما يكون من الأعلى إلى الأدنى، وعلو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ينقسم على قسمين: علو ذات وعلو صفة.

فأما علو الذات فهو أن الله - سبحانه وتعالى - عالٍ على كل شيء، مستوٍ على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات، وهذا العلو ثابت بالقرآن، والسنة، وإجماع السلف، والعقل، والفطرة؛ أما الكتاب فأدلته على علو الله بذاته أكثر من أن تحصى، وقد جاءت على وجوه متنوعة؛ تحقيقاً لهذا العلو، وأما السنة؛ فكذلك دلت على علو الله بذاته بأدلة كثيرة متنوعة، فمنها ما دللته بالقول، ومنها ما دللته بالفعل، ومنها ما دللته بالتقرير؛ أي: بإقرار الغير على ذلك، وأما الإجماع؛ فقد أجمع السلف من الصحابة، والتابعين، وأئمة الأمة، بل وعامة الأمة الذين بقوا على فطرتهم على علو الله - تعالى - بذاته، ولم يقل أحد منهم: إن الله ليس في

العالم ولا خارجه؛ بل كلهم يجمعون على أنه - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء، وأما العقل؛ فلأن العلو صفة كمال لا شك في ذلك؛ فالله - عَزَّ وَجَلَّ - قد ثبت له جميع صفات الكمال؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وأما الفطرة؛ فإن كل شخص مفطور على علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى وإن لم يقرأ كتابًا أو يدرس على عالم؛ ألا ترى إلى الرجل إذا دعا الله - تعالى - يرفع يديه إلى السماء، ويرفع قلبه كذلك إلى السماء بدون أن يدرسه أحدٌ ذلك؟! لأنه يعلم ذلك من فطرته، وقد ذُكِرَ أن أبا المعالي الجويني كان يقرر ويقول: إن الله كان ولا شيء، وهو - الآن - على ما كان عليه؛ يريد أن ينكر استواء الله على العرش، فقال له أبو العلاء الهمداني - رحمه الله -: يا أستاذ، دعنا من ذكر العرش، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدتها في قلوبنا، ما قال عارف قط: يا الله؛ إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، فلطم أبو المعالي رأسه، وجعل يقول: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني؛ أي: أن هذا دليل فطري على علو الله لا ينكره أحد، ولكن يجب أن نعلم أن الله - تعالى - فوق كل شيء، لكنه ليس محصورًا بشيء؛ كما يكون الواحد منا فوق السطح، فيكون محصورًا بجدران السطح، ولكن الله - تعالى - فوق كل شيء، وليس محصورًا بأي شيء من الأشياء؛ لأن الفوق المطلق ليس فيه شيء إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ .

وأما القسم الثاني - وهو علو الصفة -؛ فمعناه: أنه ما من صفة كمال

إلا والله - سبحانه وتعالى - أعلاها وأكملها؛ ودليل ذلك قوله - تعالى - :
﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾
[النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، ودلالة هذا القسم
في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي إجماع الصحابة، وفي العقل،
وربما يكون في الفطرة دليلٌ عليه أيضًا؛ فأما الكتاب فذكرنا منه ما
سبق؛ وهو قوله - تعالى - : ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، وقوله:
﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾
[الأعلى: ١].

وأما السنة؛ فالأحاديث فيها كثيرة دالة على كمال الله - عزَّ وجلَّ - ؛
فقد حدَّث النبي ﷺ عن كمال الله وعن عظمة صفاته بأحاديث لا
تحصى، وكان رسول الله ﷺ يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى؛
فيثبت له صفة العلو المطلق، وهو كما يشمل علو الذات - أيضًا - يشمل
علو الصفات.

وأما الإجماع؛ فقد أجمع المسلمون على أن الله - تعالى - صفات
الكمال من كل وجه.

وأما العقل؛ فلأن من المعلوم أنه لا يمكن أن يعبد باستحقاق
العبادة إلا من كان كامل الصفات؛ ومن ثم أنكر إبراهيم الخليل على
أبيه أن يعبد ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني عنه شيئاً، وقال: ﴿يَتَأْتِ

لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ [مريم: ٤٢]؛ لأن مثل هذا ناقص؛ والناقص لا يمكن أن يكون ربًّا يعبد لنقصه، ولا أحد من المخلوقات له الكمال المطلق سوى رب الأرض والسموات.

وأما دلالة الفطرة على علو الصفة؛ فلأن الإنسان بفطرته يلجأ عند المصائب والشدائد إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لعلمه أن الله قادر على كشف هذه المصائب والشدائد.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إثبات أن القرآن كلام الله؛ وذلك لأن القرآن كلام ليس عيناً قائمة بنفسها، وإنما هو كلام، وإذا كان نازلاً من عند الله؛ لزم أن يكون كلام الله، وهذا هو الذي أجمع عليه السلف وأئمة الأمة: أن القرآن كلام الله غير مخلوق؛ فقد تكلم الله - تعالى - به حقيقة، وسمعه جبريل من الله، وألقاه على قلب النبي و؛ قال الله - تعالى - في سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٣٧﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]؛ فبيّن الله في هذه الآية المنزل، والمنزل، والنازل به، والنازل عليه، واللغة التي نزل بها؛ خمسة أشياء؛ فقال:

﴿وَإِنَّهُ﴾؛ أي: القرآن المنزل ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢] هذا المنزل، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، هذا النازل به ﴿عَلَىٰ﴾

قَلْبِكَ ﴿ [الشعراء: ١٩٤]، هذا المُنزَّل عليه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، هذه اللغة؛ فالقرآن جمع هذه الأوصاف كلها؛ إذن فهو كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ - بهذه اللغة، اللغة العربية، والكلام لا أحد يشك في أنه من صفات الكمال؛ فإن المتكلم أكمل من الذي لا يتكلم، وبهذا احتجَّ السلف على من قالوا: إن القرآن مخلوق، فإنه لو كان مخلوقاً؛ لم يكن هناك كمال في الله من هذا الوجه؛ فالكلام من الكمال.

٥- ومن فوائد هذه الآية أيضاً: الإشارة إلى فضل القرآن؛ حيث إنه كلام الله؛ فإن الكلام يَشْرَفُ بشرف من تكلم به، ولا سيما إذا كان هذا الكلام متضمناً لمعاني الأخلاق، وكمال الآداب؛ كما في القرآن الكريم، ولا شك أن القرآن الكريم أصدق الكلام وأكملة من جميع الوجوه من حيث الفصاحة، والجودة، والنفع، والحكم، ولو لم يكن منه إلا أنه كلام الله لكان كافياً في الشرف والفضل.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضل رسول الله ﷺ؛ لكونه عبداً لله، ولا شك أن العبودية لله من أشرف المناقب، بل هي أشرف المناقب، ومن لم يكن عبداً لله صار عبداً لهواه؛ لأن الإنسان لا بد أن يكون متذللاً لشيء، فإما أن يكون متذللاً لربه، وإما أن يكون متذللاً لهواه وشيطانه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن النبي ﷺ لا حقَّ له في شيء من

خصائص الربوبية؛ لأن العبد خلاف الرب؛ فلا شيء لرسول الله ﷺ من خصائص الربوبية، فلا يملك نفعاً لأحد ولا دفع ضرر عنه، ولا يعلم الغيب، وليس عنده خزائن الله، وقد أمره الله - تعالى - أن يعلن ذلك للملأ؛ فقال: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ يعني ما أنا إلا رسول مبلّغ عامل بما أوحى إليّ مبلغ له، وقال الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [النجم: ١٠] قُلْ إِنِّي لَنْ تُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [النجم: ١١] إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [النجم: ٢١-٢٣]؛ يعني: لست إلا مبلغاً من الله - سبحانه وتعالى - ورسولاً من عنده، وأنا لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، ولو كان يملك شيئاً لملك أن ينقذ من شاء من الهلاك والضلال، ويهدي من شاء، وهذا ليس إليه؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وأمره - تعالى - أن يقول: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٨- ويتفرع عن هذه الفائدة بيان ضلال أولئك الذين يتعلقون برسول الله ﷺ فيدعونه، ويستغيثون به، ويرجون شفاء المرض، وإزالة الضرر، وحصول المطلوب، ويعرضون بذلك عن رب العالمين - عزَّ وجلَّ -، كما أن بعضهم ربما يظن أن ما عند الرسول ﷺ أقرب مما عند

الله مع أن النبي ﷺ لا يملك من هذا الأمر شيئاً، وقد ضلَّ من هذا الوجه طائفتان: طائفة ادَّعت أن لرسول الله ﷺ شيئاً من خصوصيات الربوبية، وطائفة أخرى كذبت الرسول ﷺ، وقالت: إنه ليس برسول؛ إما أنها نفت رسالته مطلقاً أو نفت عموم رسالته، وكلتا الطائفتين ضالتان، والحق أن رسول الله ﷺ عبد رسول، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، والعبودية تنقسم إلى قسمين: عبودية عامة، وعبودية خاصة؛ فالعبودية العامة هي التبعيد للقدر؛ وهي العبودية الكونية القدرية التي تشمل كل المخلوقات، فما من مخلوق إلا وهو عابد ذليل لقضاء الله وقدره حتى أكفر الخلق؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ فكل الناس عبيد لله بالعبودية الكونية القدرية، وهذه لا يمدح الإنسان عليها؛ لأنها تكون قهراً عليه وبغير اختيار منه.

أما القسم الثاني فهو العبودية الخاصة؛ وهي التبعيد لله - تعالى - بشرعه، وهذه لا تكون إلا من المؤمنين؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وذكر بقية صفاتهم، وهذه العبودية فيها - أيضاً - ما هو أخص من مطلق العبودية، وهي عبودية الوحي والرسالة؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: الفضيلة العظيمة لرسول الله ﷺ بإضافة عبوديته إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ أي: أن الله أضاف إليه عبودية محمد ﷺ؛ أنه عبده، ولا شك أن في هذا فخراً لرسول الله ﷺ وعزّة، ورفعته.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من آداب المحاجة والمناظرة تحدي الخصم؛ فإن الله - تعالى - يقول هنا: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، ولا شك أن في تحدي الخصم إظهاراً لضعفه، وأنه لا يستطيع المقابلة، والتحدي طريق من طرق المناظرة المفيدة، ولكن ينبغي ألا يتحدى الإنسان أحداً إلا وهو واثق من أنه عاجز؛ لأنه لو أتى بالشيء على صيغة التحدي، ثم تبين قدرة المتحدّي صار في ذلك انهزام شديد للمتحدّي؛ ولهذا قال الله - تعالى - في هذه الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ إشارة إلى أنهم عاجزون عما تُحدّوا به، ولن يستطيعوا ذلك.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يستطيع أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ولو دعا من دعا إليه ليعاونه؛ لقوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي: كل من تعبدونه وتستعينون به من دون الله فادعوهم؛ ليكونوا معكم في الإتيان بسورة من مثله.

١٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه لن يستطيع أحد من هؤلاء المعارضين لرسول الله ﷺ أن يأتي بسورة من مثل ما جاء به الرسول

ﷺ؛ لقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾.

١٣- ومن فوائدهما: أن من كابر وأصرَّ على عناده، وكذَّب الرسول

ﷺ؛ فإن النار مثواه؛ لقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾.

١٤- ومن فوائدهما: أن يأتي المتكلم بما يقتضي التهديد؛ لقوله:

﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾؛ فإنه إذا قيل: إن النار وقودها الناس؛ فلا بد أن يحذر الإنسان منها ويخشى أن يكون من جملة الوقود.

١٥- ومن فوائدهم الآيتين: أن النار موجودة الآن؛ لقوله: ﴿أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ﴾؛ فإن الإعداد بمعنى التهيئة، ولا شك أن الجنة والنار موجودتان الآن؛ كما دلَّ على ذلك القرآن والسنة؛ فقال الله - تعالى - في

الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في النار: ﴿أُعِدَّتْ

لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وعرضت الجنة والنار على النبي ﷺ وهو يصلي بالناس صلاة الكسوف، ورأى في النار من يعذب. وكما أن الجنة والنار

موجودتان الآن، فهما باقيتان أبد الأبدين، لا تفنيان؛ لأن الله - تعالى -

ذكر التأبيد في عدة آيات؛ فأما التأبيد في الجنة؛ فالآيات في هذه كثيرة،

وأما التأبيد في النار؛ ففي ثلاث آيات من القرآن؛ في سورة النساء في

قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا

لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧٤﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرًا ﴿النساء: ١٦٨، ١٦٩﴾. وفي سورة الأحزاب في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٥﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿الأحزاب: ٦٤-٦٥﴾، وفي سورة الجن في قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسٰلَتِهِ ۗ وَمَن يَعۡصِ اللَّهَ وَرِسُوٰلَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿الجن: ٢٣﴾؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة اعتقاد أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأنها لا تفتيان أبد الآبدين، وإن كان قد ذكر خلاف في أبدية النار فإنه خلاف مرجوح؛ فالراجح بل المتيقن القول: إن النار لا تفتنى كما أن الجنة لا تفتنى.

١٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن القرآن الكريم سيبقى آية إلى الأبد لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا التحدي الذي وقع به ثابت إلى يوم القيامة، فلن يستطيع أحد أن يأتي بمثل هذا القرآن إلى يوم القيامة.

١٧- ومن فوائد الآيتين: الكريمتين الإشارة إلى أن هذا القرآن سيبقى، وذلك أنه قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، وإذا كان وقودها الناس، وهو يشمل الناس إلى يوم القيامة المخالفين لهذا القرآن؛ دلّ هذا على أن القرآن سيبقى متحدياً لجميع الناس إلى يوم القيامة، وأن من خالفه فسيكون وقود النار.

١٨- ومن فوائد الآيتين: إثبات الجزاء؛ فيدل على إثبات اليوم

الآخر، وهو أحد أركان الإيمان الستة، التي هي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر: خيره وشره.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة لها ارتباط بما قبلها؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - بيّنَ فيما سبق أن النار أُعدت للكافرين، وكان هذا القرآن الكريم مثاني تُثنى فيه المعاني؛ فإذا ذُكِرَ الثوابُ ذُكِرَ العقابُ، وإذا ذُكِرَ الكفر ذُكِرَ الإيمان، وهكذا؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْآيَاتِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣].

وفي هذه الآية الكريمة يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهنا الخطاب للرسول ﷺ، أو لكل من يتأتى خطابه؛ فهو مأمور بالبشارة، إن كان للرسول ﷺ فكل من خلفه في العلم والدعوة فإنه يمكن أن يقوم بهذه البشارة، والبشارة فيها الإخبار بما يسر، وسُميت بذلك؛ لأن الإنسان إذا أُخبر بما يسره ظهر ذلك على بشرته، وهنا المَبَشِّرُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، والمَبَشَّرُ به:

﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، والمُبَشِّرُ: الرسول - عليه الصلاة والسلام -، والأمر بالتبشير هو: الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين جمعوا بين الاستسلام الباطن والاستسلام الظاهر؛ الاستسلام الباطن في الإيمان، والظاهر في عمل الصالحات، وجمعوا - أيضًا - بين الإخلاص والمتابعة؛ فالإخلاص في القلب؛ وهو أمر باطن، والمتابعة في الجوارح؛ وهو أمر ظاهر؛ فالبشرى لمن جمع بين الأمرين، بين الصلاح في الباطن والصلاح في الظاهر، والصالحات: هي الأعمال التي اشتملت على الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

أما الإخلاص لله؛ فأن ينوي الإنسان بعمله وجه الله، والدار الآخرة، وامثال أمر الله، وأما المتابعة؛ فأن يكون متبعًا لرسول الله ﷺ فيما يقول، ويفعل، ويذر، ولا تتحقق المتابعة إلا بموافقة العبادة للشريعة في أمور ستة: السبب، والجنس، والقدر، والكيفية، والزمان، والمكان؛ فمن تعبد لله - تعالى - عبادة مقيدة بسبب لم ترد به الشريعة؛ فعبادته مردودة عليه غير مقبولة منه؛ كما لو تعبد الإنسان لله بذبح شاة؛ تقريبًا إلى الله - تعالى - عند مناسبة لا يشرع فيها ذلك؛ فإن هذا يكون غير مقبول عند الله؛ لقول النبي ﷺ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١)؛ فإذا ضحى الإنسان بفرس؛ لم تقبل منه؛ لأنها ليست من

(١) سبق تخريجه ص (٤٩).

جنس مما يُضحَى به شرعاً، ولو زاد الإنسان في عبادته؛ لم تُقبل منه هذه الزيادة؛ لأنها ليست على أمر الله ورسوله، ولو فعل العبادة على غير الوجه الذي وردت عليه؛ لم تُقبل منه؛ كما لو تَوَضَّأَ مُنْكَسًّا مثلاً؛ فإن ذلك لا يُقبل منه؛ لأنه على خلاف ما جاء عن الرسول - عليه الصلاة والسلام -، ولو ضَحَّى في غير وقت الأضحية؛ لم تُقبل منه؛ لأنها في غير الزمان المعين للأضحية، ولو اعتكف في غير المسجد؛ لم يقبل منه؛ لأنه ليس في المكان الذي خُصَّصَ شرعاً للاعتكاف؛ فإذا لا تتحقق المتابعة لرسول الله ﷺ إلا إذا تضمنت العبادة هذه الأمور الستة.

وقوله: ﴿أَنَّ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجنات: جمع جنة، وُجِّعت لاختلاف أنواعها، وأسمائها، وأحوالها، والأصل في معنى الجنة أنها البساتين الكثيرة الأشجار؛ لأنها تجن من فيها؛ لكثرة أشجارها وأغصانها، والمراد بالجنة - التي ذكرها الله هنا - دار النعيم التي أعدها الله - تعالى - للمتقين، والأنهار التي تجري من تحتها؛ أي: من أسفلها وتحت القصور والأشجار أربعة أصناف بيَّنها الله - تعالى - في قوله: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾؛ أي: غير متغير ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥]، ويبيِّن الله - تعالى - أنه كلما رزقوا من هذه الثمرات رزقاً قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل؛ لأنه يشبهه في اللون والحجم، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل، ولكنهم إذا طعموه

تبيّن لهم أنه غيره، وهذا من تمام لذة الأكلين إذا أتوا بالطعام أو بالثمرة متشابهًا، ولكنه يختلف في الذوق؛ فصار في هذا شيءٌ من اللذة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾، وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن فيها أزواجًا مطهرة، مطهرة الظاهر والباطن؛ فهي مطهرة الباطن من الحقد على زوجها والكرامة له، وفي الظاهر من كل قدر وأذى، وتمام هذا النعيم أنهم فيها خالدون.

فوائد هذه الآية:

١- في هذه الآية الكريمة من الحِكم والفوائد أنه ينبغي أن يُبشّر العامل بما يستحق من الثواب؛ لأن ذلك أبلغ في نشاطه ومثابرته على العمل.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن البشري بالجنة لا تكون إلا لمن آمن وعمل؛ فمجرد العقيدة لا تكفي للبشارة بالجنة؛ بل لا بد من إيمانٍ وعملٍ؛ ولهذا يربط الله - تعالى - دائماً - الإيمان بالعمل الصالح.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه كلما كان الإنسان أقوى إيماناً وأكثر عملاً كان أحق بالبشارة بالجنة؛ وذلك لأن الحكم المعلق على وصف يقوى بقوة ذلك الوصف، ويضعف بضعفه.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأعمال الفاسدة لا ترفع صاحبها ولا تنفعه، بل هي حرام عليه؛ لأنها نوع من الاستهزاء بالله - عَزَّ

وَجَلَّ -؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه لا يجوز للإنسان - مثلاً - أن يصلي بلا وضوء أو يصلي بنجاسة لا يُعفى عنها؛ لأن ذلك من العمل الفاسد، وإذا فعله صار كالمستهزئ بالله.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المؤمنين العاملين للصلوات جزاؤهم الذي يبشرون به هذه الجنات العظيمة التي تشتمل على كل خير، وقد بيّن الله - تعالى - في آية أخرى أن فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هذه الجنات فيها القصور الشاخنة والأشجار العالية؛ لقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ فإن «التحت» لا بد أن يكون له فوق، ومعلوم أن هذه الأنهار لا تجري من أسفل أرض الجنة؛ ولكنها تجري من تحت ما فيها من الأشجار والقصور، وقد قال الله - تعالى - في سورة الرحمن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، وبيّنت السنة هذه الخيام الجميلة الرفيعة.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن في الجنة أنهاراً؛ لقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وأن فيها ثماراً؛ لقوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾، ولكن هذه الأنهار وهذه الثمار لا تشبه - في الحقيقة - ما في الدنيا من الأنهار والثمار؛ فهي تختلف عنها اختلافاً عظيماً لا يمكن أن يدركه الإنسان بحسّه في الدنيا؛ كما قال

الله - تعالى :- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكما في الحديث القدسي: «قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١)، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما :- «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء».

وقوله - تعالى :- ﴿فِيهَا فَكِيهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]، النخل، والرمان، والفاكهة موجودة في الدنيا، لكن تختلف؛ كما أن الحياة هناك تختلف عن حياة الدنيا، انظر - مثلاً - إلى الناس في هذه الدنيا يحتاجون إلى النوم، وفي الجنة لا يحتاجون إلى النوم؛ فلا ينامون، تصيبهم الأمراض والأوصاب في الدنيا، وفي الجنة لا تصيبهم، في الدنيا إذا سقط الإنسان في النار احترق ومات، وفي الآخرة إذا سقط في النار؛ فإنه - وإن احترق ونضج جلده من النار - لا يموت ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة كما يتنعمون بالطعم يتنعمون أيضًا باللون؛ حيث يؤتى إليهم بهذه الفاكهة المشابهة،

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٤)؛ ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب صفة الجنة، رقم (٢٨٢٤).

ثم إذا أكلوها صارت مختلفة عما سبق، وهذا يعطي الإنسان زيادة في اللذة وشهوة الطعام.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: أن في الجنة أزواجًا مطهرة يتلذذ الإنسان بهن ويتمتع بهن؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٤﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِفُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴿٥٦﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٥٥-٥٨]، وقال - تعالى - في سورة الرحمن: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٧﴾﴾ [الرحمن: ٥٢-٥٦]؛ وهذا يدل على أنهم يتلذذون بهذه الزوجات في الجلوس على الأرائك والالتكاء عليها، مع تقديم الفواكه من الولدان والخدم.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة خالدون فيها، وقد بينت الآية الأخرى أن هذا الخلود خلود أبدي ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ولا يُحْرَجُونَ منها.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الحث على الإيمان والعمل الصالح والترث فيه؛ لأن الأمر بالبشارة في الجنة لمن آمن وعمل صالحًا يقتضي حث هؤلاء المبشرين على الإيمان والعمل الصالح.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي - أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۗ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۗ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ - إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

في هذه الآية يقول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي - أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ أيّ مثلٍ كان؛ وذلك لأن الأمثال التي يضربها الله للناس فيها من العبر والمصالح ما يجعل ضربها من الحكم العظيمة التي ينتفع بها العباد؛ فقد ضرب الله مثلاً بالعنكبوت، ومثلاً بالذباب، وهنا قال: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، وقال الله - تعالى -: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]، والرب - عزَّ وجلَّ - يضرب هذه الأمثال من أجل العبر ومصالح العباد؛ ولهذا لا يستحي أن يضرب هذه الأمثال وإن قلت، قال هنا: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾؛ البعوضة؛ واحدة البعوض وهو معروف، ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ كالذباب والعنكبوت؛ فالله لا يستحي من ذلك؛ لأنه حق، والله - تعالى - لا يستحي من الحق؛ لما في هذه الأمثال من المصالح والمنافع العظيمة.

ثم بيّن الله - تعالى - في هذه الآية أن الناس انقسموا نحو هذه الأمثال إلى قسمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ لما تتضمنه هذه الأمثال من المصالح والمنافع. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، يقولون ذلك استهزاء، وسخرية، واحتقاراً لهذه الأمثال، وبين الله - عزَّ وجلَّ - أنه يضل بهذا المثل من يشاء، بل يضل به كثيراً ممن اقتضت حكمته أن يضلوا، ويهدي به كثيراً ممن اقتضت حكمته أن يهدوا؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله.

في هذه الآية الكريمة إشارة إلى انتفاء استحياء الله - عزَّ وجلَّ - من الحق؛ وهذا يدل على أن الله - عزَّ وجلَّ - يستحي من غير الحق؛ لأن الحياء من غير الحق وصف كمال، والله - سبحانه وتعالى - مُتَّصِفٌ بصفات الكمال؛ ولهذا جاء ثبوت الحياء لله في حديث رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفْرًا خَائِبَتَيْنِ»^(١)؛ فالحياء - هنا - ثابت لله في هذا الحديث نطقاً صريحاً بدلالة المنطوق، وفي الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي - أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ ثابت لله بطريقة المفهوم، والحياء - كسائر صفات الله - يجب

(١) رواه أبو داود: كتاب الوتر، باب الدعاء، رقم (١٤٨٨)؛ والترمذي: كتاب الدعوات، باب رقم (١٠٤)، حديث رقم (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»؛ وابن ماجه: كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (٣٨٦٥)؛ والحاكم (١/ ٦٧٥)، وصححه.

على الإنسان اعتقاد ثبوته لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن الله أثبتة لنفسه، فهو - سبحانه وتعالى - أعلم بنفسه وبغيره، فإذا أخبر عباده بصفة من صفاته وجب عليهم قبول هذه الصفة، ولا يجوز لهم أن يعارضوها بما يظنونه عقلاً وهو وَهْمٌ في الواقع؛ وذلك لأن كلام الله اجتمع فيه كل الصفات التي تستلزم قبول الخبر؛ فإنه صادر عن تمام العلم، وتمام النصح والبيان، وكمال الفصاحة، وكمال الصدق، فالكلمات التي تكون في الكلام هي هذه الأوصاف الأربعة: العلم، والصدق، وحسن الإرادة والقصده، والفصاحة والبيان؛ أما العلم؛ فلا أحد يشك أو ينكر أن الله - تعالى - أعلم بنفسه من غيره، وأما الصدق؛ فكلام الله - تعالى - أصدق الكلام، وأما الفصاحة؛ فكلام الله - تعالى - أفصح الكلام؛ ولهذا عجز العرب - مع كمال فصاحتهم - عن الإتيان بمثله.

وأما الإرادة؛ فقد قال الله - تعالى -: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، وقال - تعالى -: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦]؛ أي لئلا تضلوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٧٦]، فإذا أخبرنا الله - تعالى - عن صفة من صفاته؛ وجب علينا قبول هذا الخبر واعتقاد مدلوله، ولا يجوز لنا أن نحرف معناه إلى ما يخالف ظاهره إلا بدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وهذه هي الجادة التي بنى أهل السنة والجماعة عقيدتهم عليها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائد هذه الآية: ضرب الأمثال بتقريب المعقولات؛ لأن الأمثال تكون أمورًا محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة.

٢- ومن فوائدها: أنه ينبغي لمن أراد الإيضاح والبيان - وكان ذلك يتوقف على ضرب المثل - أن يبين ذلك بالمثل؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس ينقسمون فيما ضرب الله من الأمثال إلى قسمين: قسم مصدق مؤمن موقن بأن ذلك حق، وقسم آخر مستكبر ساخر يقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا﴾، هكذا أخبر الله في هذه الآية، وهذا هو الواقع، ونظير هذه الآية الكريمة قوله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًى وَ إِيْمَانًا فَآمَنُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، فهذا القرآن ينقسم الناس فيه إلى هذين القسمين، فمن اهتدى به فقد وُفِّق، ومن ضلَّ عنه واستكبر فقد حُرِمَ خيرًا كثيرًا.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الهداية والإضلال بيد الله ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾، وأخبر الله بذلك من أجل أن نلجأ إليه، وهنا فائدة تترتب على ما سبق؛ وهي اللجوء إلى الله - تعالى - لطلب الهداية منه والعصمة من الضلال، وألا يعتمد الإنسان على نفسه فيزيكها ولا يرى لله عليه فضلاً بالهداية، فالهداية بيد الله - عزَّ وجلَّ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هداية الله وإضلاله مبيان على الحكمة؛ لأن الله لا يضل إلا من كان أهلاً للإضلال؛ وهم الفاسقون، ونظير هذا قول الله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، فمن كان طالباً للخير، وسَلَّكَ الأبواب التي توصله إليه، بل وسلك الطرق التي توصله إليه؛ وُفِّقَ له، ومن فسد وأعرض فلا يلومنَّ إلا نفسه.

٦- ومن فوائد قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ إثبات الإرادة لله - عزَّ وجلَّ -، والإرادة المضافة إلى الله تنقسم إلى قسمين: إرادة شرعية، وإرادة كونية.

فالإرادة الشرعية هي التي بمعنى المحبة؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، والإرادة الكونية هي التي بمعنى المشيئة؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ومثل قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلِنَكُنَّ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ ﴿[البقرة: ٢٥٣]، والفرق بينها أن الإرادة الشرعية تتعلق بما أحبه الله، سواء وقع أم لم يقع، والإرادة الكونية تتعلق بما قدره وقضاه، سواء كان يحبه أم لم يحبه، والفرق الثاني أن الإرادة الشرعية قد يقع فيها المراد وقد لا يقع، والإرادة الكونية يقع فيها المراد بكل حال؛ لأن الله - تعالى - إذا أرد شيئاً فإنما يقول له: كن فيكون، ولا معقب لحكمه وهو السميع العليم.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ فكان فسقهم سبباً في إضلال الله لهم.

٨- ومن فوائدها: الحذر من الفسق؛ وهو الخروج عن طاعة الله، والفسق قد يكون كفراً؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيَّهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿[السجدة: ١٨ - ٢٠].﴾

* * *

ثم قال الله - تعالى - في وصف هؤلاء الفاسقين: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

هذه من أوصاف أهل الفسق؛ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛ وعهدُ الله الذي عهد إلى عباده: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً؛ فقد ركز الله - تعالى - في فطرة كل إنسان أن الربُّ هو الله - عزَّ وجلَّ -، وأنه هو الذي يجب أن يُعبد؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو يُنصرانه، أو يُمجسانه»

ومن أوصافهم أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من حقوقه وحقوق عباده، فهم لا يباليون بقطيعة شريعة الله والبعث عنها، بل يحرصون غاية الحرص على أن يصدوا عن سبيل الله من آمن ويغونها عوجاً، وهم كذلك يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الأقارب، والجيران، واليتامى، والمساكين، وغير ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون بما عند الله من الأجر والثواب، ومن فعل منهم شيئاً من هذه الصلوات، صلوات الخلق، فإنما يفعلها لا من باب التعبد، ولكن من باب العادة أو السجية التي تقتضيها طبيعة المجتمع.

وأما الوصف الثالث من أوصاف أهل الفسق فهو أنهم يفسدون في الأرض بالمعاصي؛ فإن المعاصي سبب الفساد في الأرض؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، رقم (٤٧٧٥)؛ ومسلم: كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، (٢٦٥٨).

بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم: ٤١]؛ فالفساد في الأرض ليس بتكسير الجسور، وحفر الخنادق للسقوط فيها، وما أشبه ذلك من الفساد، ليس بهذا فحسب، بل بكل معصية يعصون الله بها؛ لأنه سبب للفساد في الأرض.

ثم بيّن الله نتيجة هؤلاء ومآلهم؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، هؤلاء يظنون أنهم على خير، وأنهم رابحون، ولكن الله - تعالى - بيّن أنهم هم الخاسرون، وحصر الخسران فيهم؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ وذلك لأن الريح إنما يكون لمن اتصف بالصفات الموجبة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٌ خَسِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالإنسان، - كل إنسان - خاسر إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- في هذه الآية الكريمة من الفوائد بيان أوصاف الفسقة، بل بيان شيء من أوصافهم، وهو أنهم ينقضون عهد الله بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض.

٢- ومن فوائدها: التحذير من هذه الصفات؛ لأنها صفات الفاسقين الذين هم أهل الضلال، وهم المستحقون لإضلال الله إياهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الوفاء بعهد الله، ومن أوفى بعهد الله؛ أوفى الله له بعهده؛ كما قال الله - تعالى - في بني إسرائيل:

﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَآرْهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠].

٤- ومن فوائدها: وجوب صلة ما أمر الله بصلته، وعلى رأس ذلك صلة الأرحام الشاملة لبر الوالدين، وصلة من عداهما؛ فالواجب على المسلم أن يصل ما أمر الله به أن يوصل، ولا شك أن في صلة ما أمر الله به أن يوصل فائدة عظيمة؛ فإن من وصل رَحْمَهُ وصله الله، ومن قطع رَحْمَهُ قطعه الله، فعلى المرء أن يكون قائماً بالقسط والعدل؛ حتى تحصل له الصلة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ومن وصله الله فهو على خير.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الإفساد في الأرض من صفات الفاسقين؛ وعلى هذا فيكون الإصلاح في الأرض من أوصاف أهل الخير، والعدل، والاستقامة؛ فيتفرع على هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يتعد عن كل ما يكون سبباً للإفساد، وأن يسعى في كل ما يكون سبباً للإصلاح.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ الفسق وما أضيف إليه من هذه الأوصاف هم الخاسرون الذين لا ربح لهم في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال - تعالى :- ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ط
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة البقرة: ٢٨].

في هذه الآية استفهامٌ بمعنى التعجب والإنكار لأولئك القوم الذين يكفرون بالله، وهم يعلمون أنهم كانوا أمواتاً فأحياهم الله - عزَّ وجلَّ -، كانوا أمواتاً قبل أن ينفخ الله فيهم الروح؛ لأن الإنسان قبل نفخ الروح فيه ميت جماد، فيحييه الله - عزَّ وجلَّ - بنفخ الروح فيه، ويخرج إلى هذه الدنيا، ويعمل ويكدح، ثم يميتة الله - عزَّ وجلَّ -، ثم يحييه الحياة الآخرة التي ليس بعدها موت، ويرجعه إليه؛ ليوفيه ما عمل، ففي الآية الكريمة الإنكار على أولئك الذين كفروا بالله مع أنه - عزَّ وجلَّ - اعتنى بهم هذه العناية؛ فأوجدهم من العدم، وأحياهم من الموت، وكان من الواجب عليهم أن يقوموا بشكر هذا المنعم عليهم - سبحانه وتعالى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائد هذه الآية: أن الإنسان قبل أن تنفخ فيه الروح ميت جماد لا يتعلق فيه حكم من أحكام الإحياء؛ ويتفرع على ذلك أنه لو سقط قبل أن تنفخ فيه الروح في بطن أمه؛ فإنه لا يغسل، ولا يكفن، ولا يُصلى عليه، ولا يدفن مع الناس؛ لأنه عبارة عن قطعة لحم، يدفن في أي مكان من الأرض، ولا يحتاج إلى تسمية، ولا إلى عقيقة، فإن قال

قائل: متى تكون الحياة فيه؟ فالجواب: أنها تكون إذا تمَّ له أربعة أشهر؛ كما يدل على ذلك حديث ابن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطنِ أمه أربعين يوماً، ثُمَّ يكون علقَةً مثل ذلك، ثُمَّ يكون مضغَةً مثل ذلك، ثُمَّ يبعثُ اللهُ مَلَكًا، ويؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد»^(١)، فالأربعون الثلاث تكون أربعة أشهر.

٢- ومن فوائد هذه الآية: بيان قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - بإحياء الموتى؛ فإنه لا أحد يستطيع إحياء الموتى إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا لما حاجَّ إبراهيمُ ذلك الرجل الذي حاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي - وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي - وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فبيّن له إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن ربه هو الذي يحيي ويميت؛ لأنه لا يملك ذلك إلا الله، وأما قول هذا المحاج: ﴿أَنَا أُحْيِي - وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهذا من باب التلبيس والتمويه؛ حيث زعم أنه يستطيع الإحياء والإماتة، ولما كان هذا أمرًا قد يخفى على الناس، أو يلتبس عليهم، قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِيهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة - صلوات الله عليهم - رقم (٣٢٠٨).

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تقرير البحث بأحسن حجة، وذلك أن الإنسان كان جمادًا ميتًا، ثم أحياه الله، ثم يميته مرة ثانية، ثم يحييه؛ فالقادر على إحيائه أول مرة قادر على إحيائه في المرة الثانية؛ كما قال - تعالى -: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُاَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [٧٨] قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: ٧٨، ٧٩].

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الرجوع إلى الله - تعالى - للمجازاة على العمل؛ لقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

٥- ومن فوائدها: أنه ينبغي للإنسان أن يستعد لهذه الرجعة إلى الله؛ لينظر ماذا يقابل به ربه؟ فليحرص على ألا يفقده الله حيث أمره، أو يراه حيث نهاه؛ لأنه سوف يرجع إلى الله وينبئه بعمله.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الموت قد يطلق على الشيء الذي لم تسبق موته حياة؛ لقوله: ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾؛ فإن المراد بالميت - هنا - من لم تنفخ فيه الروح.

ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۝ ﴾ ؛ أي :

أوجده لكم لمنافعكم ومصالحكم؛ عناية بكم ورحمة، و«ما» هنا: اسم موصول عام شامل لكل ما في الأرض، وأكد هذا العموم بقوله: ﴿ جَمِيعًا ۝ ﴾، ثم بعد خلق هذا ﴿ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ۝ ﴾ علا إليها، ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ۝ ﴾ ؛ أي: أتمهن وأكملهن سبع سماوات، ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ ؛ فهو مع علوه - عَزَّ وَجَلَّ - على هذه السموات السبع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو بكل شيء عليم، وهذه الآية لها صلة بما قبلها؛ حيث تدل على عناية الله - سبحانه وتعالى - بنا، وتيسيره، وتسهيله.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن الخالق هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۝ ﴾، وأنه لا خالق إلا الله، وقد تحدى الله - سبحانه وتعالى - الخلق أن يخلقوا شيئاً ولو قل؛ كما في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ تَخْلُقُوا ذُبَابًا ۝ ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، وكما في قوله - تعالى - : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]،

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، وقوله - تعالى -: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]؛ فالله - تعالى - هو الخالق لكل ما في الأرض.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأصل في كل ما في الأرض من أعيان ومنافع الحِلِّ والإباحة؛ لأن اللام بمعنى الإباحة هنا؛ فكل ما في الأرض من الأعيان والمنافع الأصل فيه الحل، ومن ادعى تحريم شيء منه فعليه الدليل، وهذه القاعدة قاعدة مهمة نافعة تنفعك في كثير من المسائل، فعندما يختلف اثنان في حِلِّ هذا المأكول أو تحريمه نقول: الأصل الحِلُّ، فمن يدعي أنه حرام عليه الدليل، وعندما يختلف اثنان في عمل في الأرض، من حرّاة أو غيرها، فإننا نقول: الأصل الحِلُّ إلا ما قام الدليل على تحريمه؛ وعلى هذه القاعدة يجوز للإنسان أن يتمتع بكل ما في الأرض من مأكول ومشروب، ولا حرج عليه في ذلك إلا أن يقوم دليل على التحريم.

ولو تنازع رجلان في حِلِّ حيوان، فقال أحدهما: هذا حلال، وقال الثاني: هذا حرام؛ فإن القول: قول من يقول بأنه حلال حتى يُوجد مدّعي التحريم دليلاً على أنه حرام.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - على عباده؛ حيث وسَّع لهم هذه التوسعة البالغة بأن كل ما في الأرض فهو حلال لهم.

٤- ومن فوائدها: أن الأرض خلقت قبل السماء؛ لقوله - تعالى -: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ ﴾، وهذا هو الذي تدل عليه آية فصلت؛ كما قال - تعالى -: ﴿ قُلْ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْكَافِرِينَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَايَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّابِلِينَ ﴾ (٢) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (٣) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وأما الآيات في قوله - تعالى -: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٤) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ (٥) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ (٦) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَلَهَا ﴾ (٧) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (٨) وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا ﴾ (٩) مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣] فإنها لا تنافي هذه الآية، ولا آية فصلت؛ لأن قوله: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَلَهَا ﴾ يدل على أن دَحَوَ الأرض كان بعد خلق السماء، وأما خلق الأرض فإنه كان سابقًا على خلق السماء.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علو الله - عَزَّ وَجَلَّ - بذاته؛ لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، وقد سبق أن ذكرنا هذا، وأنه - سبحانه وتعالى - فوق عباده، وأن له العلو المطلق، علو الذات، وعلو الصفة؛ فعلو الذات هو أنه - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء، وعلو الصفة هو أن جميع صفاته عليا كاملة، ليس فيها نقص بوجه من الوجوه، وهذا مذكور في عدة آيات من القرآن؛ في قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، أما الأرض فلم تذكر صريحة بهذا العدد في القرآن الكريم، ولكن في القرآن إشارة إلى أنها سبع؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فإن المثلية هنا ليست في الصفة ولا في الحجم؛ لأن السماء أعظم من الأرض، وأوسع، وأكبر، ولكنها في العدد، وأما السنة فقد جاءت صريحة بأن الأرضين سبع: «مَنْ اقْتَطَعْ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا؛ طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عموم علم الله، وأنه - سبحانه وتعالى - عليم بكل شيء، وهذا مكرر في القرآن الكريم كثيرا؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم (٣١٩٨)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠)، واللفظ له.

عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وهذا العلم علم كامل ليس فيه نقص بوجه من الوجوه؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، وقوله: ﴿وَمَا يَعْرُزُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١].



ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة بيّن الله - سبحانه وتعالى - لعباده ما جرى بينه وبين الملائكة حول خلق آدم وذريته، فيقول ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾، وهذا التركيب كثير في القرآن؛ أعني: «إذ» التي تُبدأ بها القصة، قال أهل العلم: وهي منسوبة لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، والملائكة هم عالم غيبي خلقوا من نور، خلقهم الله - عزَّ وجلَّ - لعبادته؛ فقاموا بها؛ فكانوا يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وقد ذكر الله - تعالى - أنه جعلهم رسلاً أولي أجنحة مشى وثلاث ورباع، قال لهم - عزَّ وجلَّ -: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، خليفة لمن سبقه؛ وذلك لأن الجان قد سبق خلقهم خلق آدم؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

صَلَّصَلِّ مِّنْ حَمِيمٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾

[الحجر: ٢٦، ٢٧].

وكان الجن قد أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما قال الربُّ - عَزَّ وَجَلَّ - للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا مستفهمين: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ مستفهمين بهذا الاستفهام؛ لأنهم يعلمون أن الله - تعالى - لن يفعل شيئاً إلا لحكمة، فقال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: أن عنده - عَزَّ وَجَلَّ - من العلم ما ليس عند الملائكة، وهو عالم - جلَّ وعلا - بأن هذه الخليفة سيكون منها الأنبياء، والصديقون، والشهداء، والصالحون، ونعم الخليفة يكونون لمن سبقهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- إثبات القول لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه يقول بصوت مسموع وحروف متتالية؛ لأن هذا هو الكلام المعروف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمة بأن الله - تعالى - يتكلم بكلام مسموع بحروف متتالية، وأنه يقول كذلك قولاً بحروف متتابعة، وصوت مسموع، والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: عناية الله - عَزَّ وَجَلَّ - برسوله

محمد ﷺ؛ وذلك بإضافة ربوبيته - تعالى - إليه؛ أي: إلى الرسول ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾، والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم؛ وذلك أن ربوبية الله - تعالى - عامة وخاصة؛ فالعامة الشاملة لجميع الخلق المقتضية للملك والتدبير، تدبير شؤون الخلق عمومًا؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، عمومًا الآيات في هذا كثيرة.

وأما الربوبية الخاصة: فهي التي يضيفها الله - عزَّ وجلَّ - إلى سادات البشر؛ كالأنبياء ونحوهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الملائكة؛ لقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾، وأن الملائكة لهم عقول؛ فهم يتكلمون ويحاورون؛ فإن الله - تعالى - قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةًٌ﴾، وفي هذا إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيرة، وليست أجسامًا تتكلم أو تسمع؛ فإن هذا قول باطل يرده الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات قيام الأفعال بالله - عزَّ وجلَّ -؛

لقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ فإن الجعل يقتضي إيجاداً بعد عدم، وهو كذلك، والله - عَزَّ وَجَلَّ - موصوف بصفات الذات اللازمة لذاته، وبصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وحكمته، هذا هو مذهب السلف وأئمة الأمة.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن للأرض عمَّاراً قبل آدم وذريته؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ أي: يخلفون من سبقهم.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الأمم السابقة على آدم وذريته كان فيهم من الشر، والفساد، وسفك الدماء ما اقتضى أن تسأل الملائكة ربها - عَزَّ وَجَلَّ -: هل يجعل في هذه الخليفة من يكون كمن سبقهم؟ لقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تعظيم شأن الدماء؛ ولهذا خصَّتها الملائكة بالذكر في قولهم: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وإلا فمن المعلوم أن سفك الدماء من الفساد في الأرض، لكن لما عطف على العام وهو خاص؛ دلَّ ذلك على أهميته، وأنه من أعظم الفساد في الأرض.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الملائكة - عليهم الصلاة والسلام - قد شغلوا أوقاتهم في تسبيح الله وتقديسه؛ وتسييح الله معناه

تنزيهه عن كل عيبٍ ونقصٍ؛ فهو - سبحانه وتعالى - منزّهٌ عن العيوب والنقائص، سواء أكان النقص في صفة كماله، أو كان نقصاً مستقلاً، وكذلك نقول في العيوب؛ فينزه الله - تعالى - عن الوصف بالعجز، والجهل، والعمى، والموت، وما أشبه ذلك من الصفات الناقصة، وتُنزه صفاته الكاملة عن أن يلحقها شيءٌ من النقص؛ ولهذا قال الله - تعالى -:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمع خلق هذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة القصيرة لم يلحقه - عزَّ وجلَّ - لغوب؛ وهو التعب والإعياء، ويُنزّه - عزَّ وجلَّ - عن مشابهة المخلوقين؛ لأن مشابهة الناقص نقص؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، إذن الذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء: مشابهة المخلوقين، والنقص المجرد، والنقص في صفات كماله. وقولهم - أي: الملائكة -: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، ولم يقولوا: (نقدسك)، يُستفادُ منه إخلاص الملائكة لله - عزَّ وجلَّ -؛ فإن اللام هنا للاختصاص، وإلا فإن الفعل يتعدى بنفسه، لكن عُدِّي باللام إشارة إلى إخلاصهم، وأن التقديس خالص لله - تعالى - وحده.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان كمال علم الله؛ لقوله: ﴿إِنِّي

أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- ومن فوائدها: إثبات التفضيل في صفاته؛ حيث قال: ﴿أَعْلَمُ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾، وفي ذلك ردُّ على مَنْ إذا مروا على مثل هذه الآية التي فيها اسم التفضيل حولوا اسم التفضيل إلى اسم فاعل. وقالوا: «أعلم»؛ أي: «عالم»؛ فإن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل، وفي الوقت نفسه هو تنقيص من المعنى؛ لأن «أفعل التفضيل» تمنع المشاركة في الكمال، لكن «اسم الفاعل» لا يمنع المشاركة في الوصف، بل لا يمنع المساواة والمماثلة أيضًا، وفي هذا دليلٌ على نقص علم المخلوق؛ وعلى هذا فإذا أشكل عليك شيء فكلِّ علمه إلى من هو بكل شيء عليم، وهو الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٢﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٦٣﴾

يخبر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هاتين الآيتين عن تعليمه لآدم - وهو أبو البشر - الأسماء كلها؛ فقد علَّمه أسماء كل شيء يحتاج إليه البشر، ثم عرض هذه المسميات على الملائكة؛ فقال: ﴿أَنْبِئُونِي﴾؛ أي: أخبروني ﴿بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ ليريمهم - عَزَّ وَجَلَّ - مقدار علمه، وأن علمهم ناقص؛ حيث جهلوا أسماء هذه المسميات، فإذا جهلوا أسماء هذه المسميات؛ فإنهم بجهل المستقبل لهذه الخليفة التي أخبرهم

الله - تعالى - بأنه سيجعلها في الأرض من باب أولى وأحرى، وقال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ ولم يقل: «عرضها»؛ أي: الأسماء؛ لأنه عرض عليهم المسميات؛ كما يدل عليه قوله: ﴿فَقَالَ أَنْبِؤُنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فيما عندكم من العلم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾؛ أي: ننزهك أن يكون لدينا علم بشيء، ﴿لَا عَلِمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

فوائد هاتين الآيتين:

١- في هاتين الآيتين إظهار الله - عزَّ وَجَلَّ - لفضل آدم؛ حيث علَّمهُ - سبحانه وتعالى - أسماء كل شيء يحتاج إليه؛ لقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾.

٢- ومن فوائدها: حكمة الله - سبحانه وتعالى - في امتحان الملائكة بعرض هذه المسميات التي علَّم آدم بأسمائها حتى يتبين نقصان علمهم.

٣- ومن فوائدها: إثبات كلام الله - عزَّ وَجَلَّ -، وأنه بصوت مسموع وحروف متتابعة؛ كما في قوله: ﴿أَنْبِؤُنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

٤- تنزيه الملائكة لله - عزَّ وَجَلَّ - وتعظيمهم له؛ لقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، وقد سبق - فيما مضى - ذكر ما ينزه الله عنه من النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين.

٥- أن جميع العلوم التي عند المخلوقات من عند الله؛ لقول الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ وإن كان هذا في الملائكة الذين هم من المزية والفضل ما هم أهل له، فغيرهم من باب أولى؛ ولهذا لا أحد يحيط بعلم الله؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: «العليم» و«الحكيم»؛ فأما العليم: فهو ذو العلم الكامل المحيط بكل شيء، وقد سبق لنا بيان إحاطة علم الله - تعالى - بكل شيء جملة وتفصيلاً، وأما الحكيم: فهو من الحكم والإحكام أيضاً؛ فالله - تعالى - له الحكم في الأولى والآخرة، له الحكم الكوني والشرعي؛ فلا حاكم في الخلق إلا الله، ولا حاكم بينهم إلا الله، وأما الحكمة أو الإحكام: فهو إتقان الشيء بحيث يكون كل شيء في موضعه؛ ولهذا قالوا: الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، وبذلك يتبين كمال الله - عزَّ وَجَلَّ - في العلم والحكمة.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ قَالَ يَتَعَادُمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

في هذه الآية ينادي الله - عزَّ وَجَلَّ - آدم، فيأمره أن ينسئ الملائكة بأسماء هؤلاء المسميات؛ من أجل أن يظهر فضل آدم بما أعطاه الله من علم هذه الأسماء ومسمياتها، فلما أنبأهم آدم بأسمائهم؛ أي: بأسماء هذه المسميات، قال الله - تعالى - مخاطبًا الملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾؛ أي: ما غاب في السموات والأرض عن مشاهدة غير الله - عزَّ وَجَلَّ -، ويشمل هذا ما غاب عن المخلوقين في مكان آخر ليسوا فيه، وما غاب عن المخلوقين من علم المستقبل، وكون الله - عزَّ وَجَلَّ - يعلم غيب السموات والأرض يقتضي - في الأولوية - أن يكون عالمًا بالشهادة، وقال: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾؛ أي: ما تبدونه وتظهرونه، وما كنتم تكتمون فلا تبدونه.

من أحكام وفوائد هذه الآية:

١- إثبات كلام الله - عزَّ وَجَلَّ -، وأنه يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة: أن الله يتكلم بصوت مسموع وحروف متتابعة، يسمعه المخاطب ويفهمه.

٢- وفيها من الفوائد العظيمة: الرد على من زعم أن كلام الله هو

المعنى النفسي القائم بالنفس؛ فإن الكلام بهذا المعنى ليس بكلام ولا يسمع.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: فضل آدم - عليه الصلاة والسلام - بما علّمه سبحانه وتعالى من هذه الأسماء ومسمياتها.

٤- ومن فوائدها أيضًا: منّة الله - سبحانه وتعالى - على الملائكة بما أظهر لهم من علمه، وأنه محيط بكل شيء؛ فإن من تمام نعمة الله على عبده أن يبين له الحق بالطرق التي يطمئن إليها، ولو شاء الله - عزّ وجلّ - لم يبين الحق، ولترك الإنسان يعمه ويضيع في ضلاله؛ ويتفرع على هذا أنه يجب على الإنسان أن يشكر الله - سبحانه وتعالى - على ما يُعلّمه من الحق الذي قد يضل عنه كثير من الناس.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات عموم علم الله؛ لقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وذلك أن العالم بالغيب عالم بالشهادة من باب أولى.

٦- ومن فوائدها أيضًا: تذكير المخاطب بما كان من قبل؛ لأن الله - تعالى - قال للملائكة: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يقرر ذلك - عزّ وجلّ - عليهم؛ ليبين لهم أن ما قاله لهم هو الحق المطابق للواقع.

٧- ومن فوائدها: عموم علم الله - سبحانه وتعالى - بما فعله خلقه؛

لقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: أن للملائكة إرادة وقدرة على أفعالهم وأفعالهم، وهذا فيه تكذيب دعوى من ادعى أن الملائكة ليس لهم عقول، بل الملائكة لهم عقول بلا شك، ولهم إرادات، ولهم قدرة على الأعمال، يُؤخذُ هذا من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾؛ فإن هذا يدلُّ على أن الملائكة تبدي ما تبدي، وتكتم ما تكتم، وهذا لا يكون إلا عن علم، وإرادة، وقدرة.

ثم قال - تعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٣٤].

في قوله: ﴿وَإِذْ﴾ كلمة مُقدِّرةٌ بينها السياق، والتقدير: «واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم»؛ يعني: اذكر هذه القضية، منوهاً بفضل آدم - عليه الصلاة والسلام؛ حيث أمرت الملائكة أن يسجدوا له؛ تعظيماً واعترافاً بما وهبه الله من الفضل، لكن هذا السجود ليس سجود عبادة يكون كسجود المخلوق للخالق، بل هو سجود تعظيم مجرد من التعبد، وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ يشمل جميع الملائكة؛ لأن الأصل في صيغة العموم أن تكون شاملة لجميع أفرادها ما لم يكن هناك دليل على التخصيص، أو إرادة التخصيص.

وَيَبِّنَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أن الملائكة لما أمروا بالسجود لآدم سجدوا

ولم يستنكفوا عن أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - إلا إبليس؛ فإنه أبى واستكبر؛ أبى أن يسجد، واستكبر عن السجود، والجمع بين الإباء والاستكبار يدل على أن إباءه لم يكن لعذر أو لمانع يُعذرُ به، وإنما كان عن استكبار في قلبه، وقد بيّن الله - سبحانه وتعالى - في آيات أخرى سبب إباءه واستكباره؛ حيث قال: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١].

وقوله هنا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل؛ لأنه الأصل في الاستثناء؛ أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، ومنهم من قال: إن الاستثناء منقطع؛ أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه؛ واستدل هؤلاء بقوله - تعالى - : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، فقال: «إن إبليس كان من الجن»، ويقول النبي ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ»^(١)، وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه كيف يكون إبليس من غير الملائكة ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِآدَمَ﴾؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (٢٩٩٦).

والجواب عن هذا أن نقول: صحَّ أن يتوجه إليه الخطاب؛ لأنه كان في عامتهم؛ أي: أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث، فلما أُمر بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يُعظَّم الأدنى، فحمله إعجابه بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبهذا يزول الإشكال، وهنا قال: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ كان من الكافرين بإبائه واستكباره؛ وعلى هذا فلا تكون «كان» هنا دالة على الماضي، ومنهم من قال: إن «كان» دالة على الماضي، ولكنه كان في علم الله من الكافرين، والأول أصح؛ أي أن المراد بها مجرد بيان اتصاف اسمها لخبرها، وهذا موجود في القرآن كثيراً؛ أي أن تأتي «كان» مسلوبة الدلالة على الزمن، ويكون المراد بها مجرد تحقيق الصفة، ويقع ذلك كثيراً في صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ألم تر إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، مع أنه لم يزل ولا يزال كذلك؟

فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- بيان فضيلة آدم؛ حيث أمر الملائكة الكرام بأن يسجدوا له.
- ٢- أن عبادة الله هي طاعته حتى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركاً؛ فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان طاعة؛ كما

أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب، وإذا وقع امتثالاً لأمر الله كان من الطاعة؛ فهذا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أمره الله أن يقتل ابنه، وقتله من كبائر الذنوب بلا شك، ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، ولكن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لما ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم - عَزَّ وَجَلَّ - أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - منفذ لأمره حتى تله للجبين ليذبحه نزل الفرج من الله - سبحانه وتعالى - بنسخ هذا الأمر: ﴿وَفَدَيْنَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، أقول: إن في هذه الآية دليل على أن الشيء قد يكون كفراً أو كبيرة فإذا وقع بأمر الله كان طاعة وقربة.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان متظاهراً بعمل قوم فهو منهم ظاهراً؛ ولهذا صحَّ توجه الخطاب من الله للملائكة إلى إبليس مع أنه ليس من جنسهم، لكنه لما كان فيهم يعمل عملهم توجه الخطاب إليه، وهكذا كان الرسول ﷺ يعامل من تلبس بالإسلام ظاهراً معاملة المسلمين؛ ولهذا لم يقتل المنافقين مع أنهم كفار؛ كما قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، لكنه - عليه الصلاة والسلام - عاملهم معاملة الظاهر.

٤- وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد الحذر من الرجس والسريرة الخبيثة؛ لأن إبليس غلبه ما في قلبه من الرجس والسريرة الخبيثة حتى استكبر وأبى؛ فرجع إلى أصله، فالواجب على المرء الحذر من مثل هذه السريرة التي تكون في القلب، وأن يصقل قلبه دائماً منها؛ حتى لا توقعه في الهلاك، وقد صحَّ عن النبي ﷺ: أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار؛ ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ التقي هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى عسكره، ومَالَ الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله رجُلٌ لا يدع لهم شاذة ولا فاذة^(١)، إلا اتبعه يضربه بسيفه؛ فقالوا: ما أجزأنا اليوم أحدٌ كما أجزأ فلان؛ فقال رسول الله ﷺ: «أما إِنَّهُ من أهل النار»؛ فقال رجلٌ من القوم: أنا صاحِبُهُ، قال: فخرج معه، كُلُّمَا وَقَفَ وَقَفَ معه، وإذا أسرعَ أسرعَ معه، قال: فجرحَ الرجلُ جرحاً شديداً، فاستعجلَ الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه^(٢) بين ثديه، ثُمَّ تحامل على سيفه؛ فقتل نفسه، فخرج الرجلُ إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهدُ أنك رسولُ

(١) أي: أنه لا يدع أحدًا؛ على طريق المبالغة، قال ابن الأعرابي: يقال: فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا

كان شجاعًا، لا يلقاه أحد إلا قتله.

(٢) ذباب السيف: طرفه.

الله، قال: «وما ذاك؟» قال: الرجل الذي ذكرت أنك أنت من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين نديه، ثم تحامل عليه؛ فقتل نفسه؛ فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «إنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ الجنَّةِ فيما يبدو للناسِ وهو من أهلِ النَّارِ، وإنَّ الرجلَ ليعملُ عملَ أهلِ النَّارِ فيما يبدو للناسِ وهو من أهلِ الجنَّةِ»^(١)، وهذا يدل على أن في قلب الرجل سريرة أدت به إلى أن يقتل نفسه، فالواجب على المرء أن يتفقد قلبه في كل وقت وفي كل حين؛ حتى يطهره ويمحصه؛ لئلا تسوء خاتمته.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ترك السجود لله - عزَّ وجلَّ - كفرٌ، وقد استدل بهذه الآية من قال: إن تارك الصلاة يكفر، فقال: إن إبليس كفر؛ لترك سجدة واحدة أمر بها لغير الله، فما بالك بمن يترك صلاة أمر الله بها، وأن تكون لنفسه - عزَّ وجلَّ -، فيكون كفره من باب أولى، والاستدلال بهذه الآية على هذه المسألة فيه شيء من البحث والنظر - والله أعلم.

* * *

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب لا يقال فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢).

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يخبر الله - عزَّ وجلَّ - أنه قال لآدم ممتناً عليه : ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ ، وزوجه هي حواء التي خلقها الله - تعالى - من ضلع آدم؛ فهي من أب بلا أم، والمراد بالجنة: إما جنة الخلد التي هي مأوى المتقين، وإما جنة في الدنيا، بستان ذو أشجار كثيرة، للعلماء في هذا قولان؛ القول الأول: أنها جنة المأوى التي هي مأوى المتقين، والقول الثاني: أنها جنة في الدنيا في الأرض، وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيرة، والأقرب - والله أعلم - أنها جنة المأوى، جنة الخلد التي وعد المتقون؛ لأنها هي المعلومة عند الإطلاق، والأصل أنه إذا كان للفظ معنى مفهوم عند الإطلاق؛ فإنه يُحمَلُ عليه إلا بدليل يدل على خلاف ذلك، وهذه القاعدة مفيدة في علم التفسير وغيره، أن الأصل في النصوص حملها على ما هو معلوم ومفهوم حتى يقوم دليلٌ على خلاف ذلك.

وأذن الله لهما أن يأكلا من هذه الجنة رغداً بطمأنينة، وسعة، وكثرة حيث شاءا من أي مكان إلا أنه - سبحانه وتعالى - نهاهما عن قرب شجرة عينها لهما بالإشارة فقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ - ولم يبين الله - سبحانه وتعالى - جنس هذه الشجرة؛ لأنه ليس هناك ضرورة إلى

معرفة جنسها، المهم معرفة القضية ومغزاها، وبيّن - سبحانه وتعالى - أنها إذا قربا هذه الشجرة وأكلا منها؛ فإنهما يكونان من الظالمين، الظالمين لأنفسهما؛ لتعرضهما لما حصل؛ حيث أَخْرَجَهُمَا أَكُلَهُمَا مِنَ الْجَنَّةِ.

من فوائد هذه الآية:

١- إثبات القول لله، وأنه - عَزَّ وَجَلَّ - يخاطب من شاء من عباده بصوت مسموع وحروف مرتبة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ الآية.

٢- ومن فوائدها: امتنان الله - سبحانه وتعالى - على آدم؛ حيث أسكنه وزوجه الجنة.

٣- ومن فوائدها: بيان قدرة الله - جلَّ وعلا - حيث خلق حواء من ضلع آدم من أب بلا أم، قال أهل الجنة: والإنسان باعتبار مبدأ خلقه أربعة أقسام: قسم خلق بلا أم ولا أب؛ مثل آدم؛ فإن الله خلقه من تراب ثم قال له: كن؛ فكان، وقسم خلق من أب بلا أم وهي حواء؛ خلقت من ضلع آدم، وقسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى ابن مريم، والقسم الرابع من خلق من أبوين؛ أي: من أم وأب وهم سائر البشر، ومع هذا فإن الله - تعالى - يخلق ما يشاء ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئِنَّهَا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ﴿١٥٦﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ

عَقِيمًا ﴿ [الشورى: ٤٩ - ٥٠]، ففي هذه - أيضًا - أن الناس أربعة أصناف من حيث الإنجاب وعدمه؛ فمنهم من يهبه الله ذكورًا بلا إناث، ومنهم من يهبه الله إناثًا بلا ذكور، ومنهم من يزوجه الله؛ أي: يجعل نسله صنفين، والزوج بمعنى الصنف في هذه الآية، ولها نظائر؛ أي: أن الزوج يُرادُ به الصنف؛ كما في قوله: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا﴾ [ص: ٥٨]، وقوله: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصفات: ٢٢]؛ أي: أصنافهم ونظراءهم، والصنف الرابع من يجعله عقيمًا لا يولد له، وكل هذا بقدره الله - سبحانه وتعالى - وحكمته.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان ربما يختار ما هو أدنى على ما هو خير، لما تسول به نفسه له، فهنا آدم وحواء أذن الله لهما أن يأكلا رغدًا من حيث شاءا ومنعهما من شجرة واحدة ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ومع ذلك حصلت منهما مخالفة.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن التعيين يكون بالإشارة كما يكون بالنطق؛ لقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾؛ ولهذا لو قال الرجل: «زوجتي هذه طالق»؛ طلقت، وإن لم يسمها، ولو قال الرجل: «زوجتك ابنتي هذه»؛ انعقد النكاح وإن لم يسمها ما دامت تعينت بالإشارة، فالمهم أن في الآية دليلًا على أن التعيين، كما يكون بالنطق يكون - أيضًا - بالإشارة.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه إذا أُريدَ حِمَى المحارم مُهي عن قربها، وذلك حيث تدعو النفس إلى فعل هذا المحرم والقرب منه، فإن النهي يأتي عن قربها؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤]؛ فإن الزنى قد تدعو النفس إلى قربها وانتهاكها، وكذلك مال اليتيم لما لم يكن له من يحميه فإن النفس قد تتجرأ عليه فنهى عن قربها.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الإقدام على المحارم ظلم؛ لقوله: ﴿فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ووجه كونه ظلماً أن نفس الإنسان عنده وديعة وأمانة فيجب عليه أن يراها حق رعايتها، وألا يقدم على شيء يكون فيه مضرتها، فإن فعل فقد ظلها؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾؛ أي: أوقعهما في الزلل، أو أزاحهما، وأزلقهما.

﴿الشَّيْطَانُ﴾: علم أو وصف لهذا المخلوق الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وهو من «شاط»؛ بمعنى: «غضب»، أو من «شطن»؛ بمعنى: «بعُد»، والاشتقاق الأخير أصح؛ فالنون فيه أصلية، ولا شك أن الشيطان أبعد من يكون عن رحمة الله - عزَّ وجلَّ -.

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ أي: عن هذه الشجرة؛ وعلى هذا تكون «عن» للسببية؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]؛ أي: ما فعلته فعلاً صادرًا عن أمري، وهنا تكون ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ أي: إزلاً صادرًا عن هذه الشجرة، وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير في قوله: ﴿عَنْهَا﴾ يعود إلى الجنة؛ أي: أزلهما الشيطان عن هذه الجنة؛ بسبب المعصية التي فعلها آدم؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ أي: كان سببًا في إخراجهما مما كانا فيه من النعيم في هذه الجنة؛ وذلك بأن وسوس لهما، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، ﴿قَالَ يَتَّخِذُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ ﴿١٣﴾ فأكلًا منها﴾ [طه: ١٢٠-١٢١]، مع أن الله - تعالى - قد نهاهما عن ذلك، وحينئذ أمرهما الله - تعالى - أن يهبطا منها فقال:

﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، والضمير في قوله: ﴿أَهْبَطُوا﴾ يعود على آدم وحواء، ووجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع إما لأن أقل الجمع اثنان - كما قيل به -، أو لأن الخطاب يشملهما ويشمل ذريتهما؛ فإن ذرية آدم في صلبه، فإذا هبط هبطت الذرية، وقيل: إن الضمير يعود على آدم، وحواء، وإبليس، وأن الله أمرهم أن يهبطوا إلى الأرض بعد أن كانوا في السماء.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: أن الشيطان عدو لآدم، وزوجه، وبنيه؛ كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقوله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ المستقر: موضع القرار، والمتاع: ما يتمتع به الإنسان من طعام، وشراب، ولباس، وغيره، ولكن هذا المستقر والمتاع مؤجلان إلى أجل، إلى حين، وهو موت الإنسان؛ فإن الإنسان إذا مات انقطع متاعه من الدنيا، وانتقل منها إلى دار الجزاء، وهذا «الحين» غير معلوم، لا بالنسبة لكل واحد من الناس، ولا بالنسبة للجميع؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن جهل مكان موته فهو بجهل زمان موته أولى، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - عن الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌّ عَلَيْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- بيان عداوة الشيطان للإنسان؛ لقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾؛ فإن من عداوته أنه كان سبباً في إغواء آدم وزوجه حتى خرجا من هذه الجنة التي أسكنهما الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيها.

٢- إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، وسببُ هذا الإخراج أنه لما أكل آدم وزوجه من الشجرة ﴿بَدَتَ لَهُمَا سَوْءُ أَنفُسِهِمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وأمرهما الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالخروج منها.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: إضافة الشيء إلى سببه، وأن للأسباب تأثيراً في مسيبتها؛ لقوله: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾؛ لأن الذي أخرجهما هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أمرهما أن يهبطا من الجنة، ولكن السبب في هذا الإخراج هو الشيطان، فنسب الإخراج إليه؛ لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسيبتها، ولكن تأثيرها في مسيبتها من الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة. وقد انقسم الناس في الأسباب على طرفين ووسط؛ فطرف من الناس غلا في إثبات الأسباب حتى جعلها مؤثرة بنفسها، وأنكر ما يخرج عن سنة الأسباب، ومن الناس مَنْ فَرَّطَ فِيهَا ولم يجعل لها أثراً في مسيبتها، وقال: إن المُسَبَّبَ يحدث عند السبب لا بالسبب، وكلا القولين خطأ؛

فإنَّ من المعلوم بالحس والعقل أن الحجر إذا رُمِيَ على زجاجة انكسرت به، وأن الورق إذا أُلْقِيَ في النار احترق بها، ولا أحد ينكر ذلك، ومن قال: إنه احترق عند إلقائه في النار لا بالنار، أو أن الزجاجة انكسرت عند ملامسة الحجر لا بالحجر فقد أبعد النجعة، ولكن نقول: إن الزجاجة انكسرت بالحجر؛ لأن الله - تعالى - جعل هذه الصدمة سبباً للكسر، والورقة احترقت بالنار؛ لأن الله جعل النار محرقة؛ ولهذا إذا أراد الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يتخلف المُسَبَّبُ عن السبب تخلف؛ فهذا هو إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - أُلْقِيَ في النار العظيمة التي أضرها قومه المكذبون له؛ ليحرقوه بها، فقال الله - تعالى - للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت بردًا وسلامًا عليه ولم يحترق بها، وهذا دليلٌ على أن الله - تعالى - هو الذي يودع في الأسباب ما يجعلها مؤثرة. وأما من قال: إن الأسباب مؤثرة بذاتها، وإنه لا يمكن أن يتخلف المُسَبَّبُ عن السبب؛ فقله - أيضًا - خطأ؛ فإن هذا يستلزم إنكار خوارق العادات التي يجريها الله - تعالى - على غير الأسباب العادية، ولا أحد عنده علم بالسمع أو عقل راجح إلا أنكر هذا القول.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنة؛ بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله؟! أ فلا يكون معرضًا نفسه للعقوبة العظيمة؟! وإن كان

المعلوم في الشريعة الإسلامية أن المعاصي - ما عدا المعاصي المخرجة من الإسلام - تحت مشيئة الله؛ إن شاء الله عذب عليها، وإن شاء عفا عنها وغفر؛ كما قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات العداوة بين الشيطان و آدم وبنيه؛ لقوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ ويتفرع من هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان، وألا ينجح له، وألا ياتمر بأمره؛ لأنه عدو، وكل عدو للإنسان فإنه لن يحمله إلا على أسوأ الحالات؛ ولهذا حذرنا الله - تعالى - من الشيطان بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأرض هي مستقر بني آدم، بل مستقر آدم وبنيه؛ لقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

٧- ومن فوائدها: أن هذا المستقر والمتاع لن يدوم، ولن يؤبد؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾، وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء؛ لأن هذا المؤجل ينطوي بالساعات، بل بالدقائق، بل باللحظات، ولا

يمكن للحظة مرت أن تعود إليك مرة أخرى؛ ولهذا قيل: كل يوم يمضي على ابن آدم فإنه يبعده من الدنيا، ويدنيه من الآخرة؛ فيجب علينا أن نستعد، وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

«التلقي» بمعنى الأخذ عن الغير؛ أي: فأخذ آدم من الله - عَزَّ وَجَلَّ - كلمات أعلمه الله - تعالى - بها، ومنها قوله - تعالى - عن آدم وزوجه: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ثم قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: تاب الله على آدم، وكذلك على زوجته؛ لأن قضيتها واحدة؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وهذه الجملة تعليل لما سبق؛ أي: تاب عليه؛ لأنه - عَزَّ وَجَلَّ - تواب رحيم، يتوب على من تاب ويرحمه، حتى يكون - أحياناً - بعد التوبة خيراً منه قبل فعل الذنب؛ ولهذا لم يحصل الاهتداء لآدم - فيما نعلم - قبل أن يتوب إلى الله - تعالى - مما جرى منه من المعصية.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- مِنَّةُ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - على آدم بما ألهمه من هذه الكلمات التي كانت بها توبة الله عليه؛ لقوله: ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ﴾.

٢- أن ربوبية الله تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة تقتضي تمام الملك، والتدبير، والتصرف في الخلق، وهي شاملة لجميع المخلوقات، وربوبية خاصة تقتضي العناية والتربية الخاصة، وهي التي تكون لعباد الله المخلصين، ومنها قوله - تعالى - هنا: ﴿فَتَلَقَىٰ آءَادُمُ مِن رَّبِّهِء كَلِمَتٍ﴾.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله - تعالى - تاب على عبده، بل قد قال الله - تعالى - في آية أخرى: ﴿ثُمَّ آجَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وتوبة الله على العبد تتضمن العفو عن الذنب، وصفحته عن العباد، وعدم المؤاخذه عليهم، وما دمنا في الكلام عن التوبة؛ فإننا نقول: إذا تاب العبد إلى الله توبة نصوحًا؛ تاب الله عليه، والتوبة النصوح هي التي جمعت شروطًا خمسة:

الأول: الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ - - بألا يحمل على التوبة إلا الخوف من الله ورجاء ما عنده من الثواب.

الثاني: الندم على ما وقع منه من الذنوب؛ بحيث يحزن، ويتأثر، ويتمنى أن لم يكن فعل هذه الذنوب.

الثالث: الإقلاع عن الذنب؛ بأن يتخلص منه، فإن كان واجبًا قام به، وإن كان محرّمًا فارقه، وإن كان للعباد أدّاه إليهم.

الرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه؛ وذلك بأن تكون قبل الموت، وقبل طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس إذا طلعت من مغربها لا تُقبل التوبة، وإذا حضر الموت لم تقبل التوبة؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ﴾ [النساء: ١٨]، ولقوله - تعالى -: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ «وبعض الآيات» هي طلوع الشمس من مغربها؛ كما فسرها بذلك النبي ﷺ^(١)، نسأل الله أن يمنَّ علينا بالتوبة وقبولها؛ إنه جواد كريم.

٤- ومن فوائد الآية: إثبات هذين الاسمين من أسماء الله؛ وهما «التواب» و«الرحيم»؛ التواب: هو الذي يُوفِّقُ إلى التوبة، ويقبل التوبة من التائب؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]؛ فهو التواب الذي يوفِّقُ للتوبة، وهو التواب الذي يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، وجاءت بصيغة المبالغة

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنعام، رقم (٣٠٧١).

«التَّوَابِ»؛ لأن هذه صفة لازمة لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فمن صفاته الكاملة التوبة؛ ولأن المذنبين الذين يتوبون إلى الله كثيرون، وأما «الرحيم» فهو ذو الرحمة الواصلة إلى من شاء من عباده؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

قال أهل العلم: ورحمةُ الله - تعالى - نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق، فإن كل الخلق داخلون في رحمة الله العامة التي بها قوام البدن وقوام الحياة؛ ولهذا نقول: إن الله - سبحانه وتعالى - قد رحم الكفار بما أعطاهم من نعم الدنيا؛ من عقل، وصحة، وطعام، وشراب، ولباس، ومنكح، ومسكن، وغير ذلك، كما أنه راحم للمؤمنين بهذا؛ وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذه خاصة بالمؤمنين؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - منَّ على المؤمنين بما رحمهم به من العلم النافع، والعمل الصالح، والإيمان، والتقوى، قال الله - تعالى -: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

واعلم أن أسماء الله - سبحانه وتعالى - تتضمن الدلالة على ذاته،

وعلى الصفة، وعلى الأثر والحكم إذا كانت متعدية؛ فالعظيم - مثلاً - اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وعلى عظمة الله، والرحيم اسم من أسماء الله دالٌّ على ذات الله، وعلى رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وعلى الأثر المترتب على هذه الصفة؛ وهو أنه يرحم من يشاء؛ كما قال - تعالى -: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

* * *

ثم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قوله: ﴿قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا﴾؛ كالتوطئة والتمهيد لما بعده؛ يعني: اهبطوا من الجنة جميعاً، وسوف يأتيكم الهدى مني.

وينقسم الناس في هذا الهدى إلى قسمين: قسم يتبع هدى الله؛ فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقسم آخر يكفرون ويكذبون بآيات الله؛ وهؤلاء هم أصحاب النار هم فيها خالدون.

يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿أَهْبَطُوا مِنهَا جَمِيعًا﴾، نقول في الخطاب - هنا - في قوله: ﴿أَهْبَطُوا﴾ ما قلناه في الخطاب السابق.

وقوله: ﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، هذه الجملة شرطية؛ فيها: «إن» الشرطية المدغمة بـ«ما»، وفعل الشرط فيها «يأتيَنَّكم»، وجواب الشرط

مركب من قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

والمعنى: إن أتاكم مني هدى فإن من اتبع هذا الهدى فليس عليه خوف مما يستقبل، ولا حزن على ما مضى، أما كونه لا خوف عليه في المستقبل؛ فلأنه عمل ما يحصل به الأمن من اتباع هدى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأما كونه لا يحزن؛ فلأنه استغل وقته في طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - فلا يحزن على ما مضى منه؛ لأنه لم يفرط بل اكتسب فيه خيراً، والذي يحزن هو الذي يفوته مطلوبه أو يحصل له مرهوبه، وأما الكافر المكذب بآيات الله؛ فهذا جزاؤه أن يخلد في نار جهنم ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]، وأصحاب النار هم أهلها الملازمون لها، والخلود هو المكث الدائم، هذا هو الأصل في الخلود إلا أن يقوم دليل على أن الخلود مؤقت فيتبع الدليل.

من فوائد هذه الآية:

- ١- أن من حسن التعليم، والتوجيه، والإرشاد التوطئة للكلام والتمهيد له، حتى وإن حصل في ذلك تكرار؛ لقوله: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾، مع قوله فيما سبق: ﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.
- ٢- أن الله - سبحانه وتعالى - برحمته وحكمته لم يكل الأمر في عبادته إلى عقول البشر، بل جاءهم بما فيه هدى، وذلك عن طريق الرسل - عليهم الصلاة والسلام -؛ كما قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾
[الحديد: ٢٥].

٣- أن ما جاء به الرسل هدى يهتدي به الناس في ظلمات الجهل والكفر.

٤- أن الهدى من الله؛ ويتفرع عن هذا ألا تطلب الهدى إلا من الله - عَزَّ وَجَلَّ - فتكون - دائماً - مُلِحًّا على ربك بطلب الهداية حتى تستقيم على أمر الله على بصيرة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٥- أن الله أضاف هذا الهدى إلى نفسه؛ ليعلم أن هذا الهدى حق ليس فيه باطل، ولا تناقض، ولا اختلاف؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٦- أن من اتبع هدى الله فقد نجا وسلم، وأمن من الخوف في المستقبل، ومن الحزن على ما مضى.

٧- أن المؤمن المتبع لهدى الله هو الذي غنم؛ غنم وسلم، فلا يحزن على ما مضى من زمانه؛ لأنه استغله فيما ينفع، ولا يحزن على ما يستقبل؛ لأنه قد وعد بالثواب الجزيل، والنجاة من العقاب؛ لاتباعه هدى الله - عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة قسيمة للآية التي قبلها؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - ذكر في الآية التي قبلها ثواب الذين اتبعوا هدى الله بالإيمان والعمل الصالح، وذكر - هنا - ما يُقابِلُهُم من الكفار الذين جمعوا بين الكفر والتكذيب، بين الكفر وهو الاستكبار عن آيات الله - عزَّ وجلَّ - وترك العمل بها، والتكذيب بالخبر؛ فهم كافرون بالأمر، مكذبون بالخبر، مكذبون ما أخبر الله به في كتبه المنزلة، وما أخبرت به رسله، وهؤلاء القوم الذين كفروا وكذبوا بآيات الله هم أصحاب النار، أهلها الملازمون لها، المخلدون فيها.

فوائد وأحكام هذه الآية:

١- كمال هذا القرآن؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - إذا ذكر فيه أهل الجنة وثوابهم ذكر بعد ذلك أهل النار وعقابهم في الغالب، وهذا من معنى قوله - تعالى - : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانًا ﴾ [الزمر: ٢٣]. أي: تشنى فيه الأحكام والمعاني، ولا ريب أن هذا من كمال البلاغة؛ فإن الإنسان لو أتاه الخطاب بالرجاء دون التخويف لأدى ذلك إلى الأمن من مكر الله، ولو جاءه الخطاب بالتحذير والتخويف لأدى ذلك إلى القنوط من رحمة الله، فجاء القرآن الكريم النازل من

عند الله بالتقسيم والمقابلة، إذا ذكر شيئاً ذكر ما يقابله حتى يبقى الإنسان دائراً بين الرجاء والخوف؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحداً؛ فإن غلب أحدهما هلك صاحبه.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن التكذيب بآيات الله كفر موجب للخلود في النار، ولكن التكذيب أحياناً يذكر وحده، وأحياناً يذكر مقروناً بالكفر، فإذا ذكر مقروناً بالكفر حُمل على تكذيب الخبر، وحُمل الكفر على ترك الأمر.

وآياتُ الله - سبحانه وتعالى - تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية؛ فالآيات الكونية هي مخلوقات الله - سبحانه وتعالى -؛ فإن المخلوقات آيات دالة على الرب - عَزَّ وَجَلَّ -، والتكذيب بها؛ أي: بالآيات الكونية يكون بإضافة هذه الآيات إلى غير الله؛ كالذين يضيفونها إلى الطبيعة، أو بإثبات مشاركتهم فيها؛ كالذين يقولون: هذا الشيء أوجده الولي الفلاني مع الله، أو باعتقاد أن الله - تعالى - فيها معيناً، فكلُّ هذا من التكذيب بآيات الله والإلحاد فيها.

وأما الآيات الشرعية فهي ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من الكتب المنزلة من عند الله؛ لأن هذه الكتب فيها من التعظيم للخلق في عبادتهم ومعاملاتهم ما يعجز البشر عن مثله، والقرآن الكريم قد تحدَّى الله به الخلق جميعاً أن يأتوا بمثله؛ قال -

تعالى :- ﴿قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، بل قال - عزَّ وجلَّ - : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ﴾ [هود: ١٣]، بل تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله؛ قال - تعالى - : ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الكفار المكذبين بآيات الله ملازمون للنار؛ لأنهم أصحابها لا يخرجون منها أبدًا؛ كما قال - تعالى - : ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [الحجر: ٤٨].

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات الخلود في النار، وهو خلود مؤبد ذكر الله - سبحانه وتعالى - تأييده في ثلاث آيات من كتابه؛ في سورة النساء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وفي سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُجَادُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وفي سورة الجن في قوله: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا كان من عقيدة أهل السنة والجماعة تأييد الجنة وتأييد النار أيضًا، وأنه لا فرق بينهما، وإن كان قد وُجد خلاف يسير لكنه مرجوح، والخلاف الذي وقع هو أن بعض السلف روي عنهم أن

النار غير مؤبدة، لكنه قولٌ مخالفٌ لصريح القرآن؛ فلا يعولُ عليه، قال الله - تعالى -: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٩].

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿ يٰٓبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾.

الخطابُ هنا موجَّهٌ لبني إسرائيل؛ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام -؛ ويعقوب هو أبو يوسف، وهو أبو بني إسرائيل؛ فإنهم كلهم يجتمعون فيه، ومعنى إسرائيل: العابد لله، ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ يعني: تذكروها بقلوبكم، واذكروها بألستكم؛ لتقوموا بشكرها، فتتبعوا محمداً ﷺ وتؤمنوا به، ﴿ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾؛ يعني: في السابق واللاحق؛ لأن بني إسرائيل أمة واحدة سابقهم ولاحقهم؛ ولهذا يذكر الله - تعالى - ما أنعم به على بني إسرائيل في عهد موسى ممتناً به على بني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ؛ لأنهم أمة واحدة، ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾؛ يعني: أوفوا بعهدي الذي عاهدتكم به؛ وعليه أوفِ بعهدي الذي عاهدتكم به وعليه، وهذا العهد مبينٌ في قوله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿المائدة: ١٢﴾، فالعهد الذي أخذه عليهم هو قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿المائدة: ١٢﴾.﴾

والعهد الذي لهم على الله أوجه - عَزَّ وَجَلَّ - على نفسه: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢]، والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا؛ ولهذا قيل: إنه يُرْجَعُ في تفسير القرآن إلى القرآن، ثم إلى السنة، ثم إلى تفسير الصحابة، ثم إلى تفسير كبار التابعين.

والله - سبحانه وتعالى - كما أمرهم أن يوفوا بعهده ووعدهم أن يوفي بعهدهم أمرهم أن يرهبوه؛ حيث قال: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾؛ والرهبة هي أشد الخوف.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- في هذه الآية من الفوائد تذكير بني إسرائيل بنعمة الله - سبحانه وتعالى - عليهم في السابق واللاحق.

٢- ومن فوائدها: أنه يجب على المرء أن يذكر نعمة الله عليه وعلى من سبقه حتى يحدث بذلك شكرًا لله على هذه النعمة؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - هو المتفضل بالنعمة أولاً، وهو الذي يتفضل بها ثانيًا؛ بإعانة الإنسان على شكر هذه النعمة التي أنعم الله بها عليه.

٣- ومن فوائدها: بيان كرم الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث جعل على نفسه عهدًا أن يوفي لمن أوفى بعهده؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٤- ومن فوائدها: إثبات الصفات الفعلية لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: توحيدُ الله - سبحانه وتعالى - بالرهبة؛ لقوله: ﴿وَأَيُّيَ فَاَرْهَبُونَ﴾، والإنسان لا بد له من رغبة ورهبة؛ رغبة فيما عند الله، ورهبة فيما يفعله من أسباب عقوبة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فالله عنده الثواب العظيم للمحسن، وعنده العقاب الأليم للمسيء؛ كما قال - تعالى -: ﴿يَتَّبِعْ عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١١﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۗ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَآيَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَآتِقُونَ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل على سياق الخطاب السابق؛ فقد كان في المدينة من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ ثلاث قبائل: «بنو النضير»، و«بنو قينقاع»، و«بنو قريظة»، فوجه الله إليهم هذا الخطاب: أن يؤمنوا بما أنزل مصدقًا لما معهم؛ يعني: لما معهم من التوراة، والتصديق لما معهم له معنيان: الأول: أنه جاء مطابقًا لما أخبرت به، والثاني: أنه شاهد لها بالصدق؛ فهو مُصَدِّقٌ لها؛ أي: شاهد لها بالصدق، وهو مصدق لها؛ أي: واقع على حسب ما أخبرت به؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ - وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد شهد القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل كليهما من عند الله - عزَّ وَجَلَّ -، وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ ۗ﴾، الخطاب - هنا - من الله لبني إسرائيل؛ حيث ينهاهم عن أن يكونوا أول كافر به،

وقد استشكل بعض أهل العلم قوله: ﴿أُولَٰ كَافِرِيهِٔ﴾؛ حيث كان مفردًا مع أن الخطاب إلى جماعة، وأجيب عن ذلك بأن المراد: لا تكونوا أول فريق كافر به، والفريق جمع؛ يعني: لا تكونوا أول من يكفر به مع أن عندكم علمًا بأنه حق؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فإنه إذا كنتم أول فريق كافر به مع علمكم بأنه حق كان ذلك أشد وأقبح.

ثم قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا تأخذوا ثمنًا قليلًا بدلًا عن العمل بآياتي، وذلك بتقديم الرئاسة على ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن بني إسرائيل كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيبعثُ نبيٌّ، ونتبعه، ونغلبكم، ولما بعث محمد ﷺ من بني إسماعيل حسدوهم، وقالوا: إن هذا ليس هو النبي الموعود، فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا؛ ليقوا على رئاستهم، ولكن صار الأمر بالعكس - والله الحمد -؛ فلم يبقوا على رئاستهم، بل فتح المسلمون بلادهم؛ ففتحوا بلاد الشام وهي مستوطن الروم النصارى، وفتحوا بلاد العراق وهي مستوطن المجوس الفرس، واستولى - والله الحمد - المسلمون على بلاد هؤلاء، فأورثهم الله أرضهم، وديارهم، وأموالهم.

ثم قال - تعالى -: ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾، نقول في هذه الآية ما سبق في قوله: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾، وهنا أمرهم بالتقوى؛ والتقوى: اتخاذ الوقاية

من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- أن اليهود والنصارى مخاطبون بالإيمان بما جاء به محمد ﷺ، ملزمون به، وعندهم شاهد على صدقه؛ حيث كان ما جاء به محمد ﷺ مصدقاً لما معهم؛ وعلى هذا فإذا كفروا به لم يكونوا مؤمنين، وإن قالوا: نحن نؤمن بالله واليوم الآخر، فإنهم لا يتم لهم ما أرادوا حتى يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ولهذا أقسم ﷺ أنه لا يسمع به يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جاء به إلا كان من أصحاب النار؛ حيث قال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

٢- ومن فوائدها: أن القرآن منزل من عند الله، والقرآن - كما نعلم - كلام، فإذا كان نازلاً من عند الله وهو كلام؛ فلا يكون إلا بمتكلم به؛ فدلَّ هذا على أن القرآن كلام الله، وهذا ما أجمع عليه سلف الأمة: أن القرآن كلام الله منزل.

٣- ومن فوائدها: إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْتُ﴾ والإنزال لا يكون إلا من فوق، وإذا كان الكلام كلام الله، وهو صفة من صفاته،

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم

ووصف بأنه منزل؛ دلّ على أن المتكلم به عالم فوق العباد - سبحانه وتعالى.

٤- ومن فوائدها: أن الإنسان كلما كان معه الحق يستطيع أن يتبعه، ولكن لو نكص على عقبيه كان أشد لومًا من الإنسان الجاهل؛ لقوله: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾؛ فإن قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ كالبرهان الملزم للإيمان؛ لأنّ هذا القرآن لم يأتِ بأمر غريب لا يعرفونه، بل أتى بأمر يعرفونه ويعلمون أنه حلق، لكنهم استكبروا وأبوا؛ حسدًا من عند أنفسهم.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن بني إسرائيل - بما عندهم من العلم بأن ما جاء به محمد ﷺ حق - كان الأليق بهم أن يكونوا أول مؤمن به، ولكنهم كانوا كافرين به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرٍ بِهِ﴾ مع أن قريشًا كانوا كفروا به من قبل، لكن لما كانت قريش ليس معهم كتاب، وهؤلاء معهم كتاب يصدقه ما جاء به محمد ﷺ كانوا أول كافر به مع العلم بأنه حق.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن ما في الدنيا قليل ولو كثرة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَايَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا يجوز طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا؛ لأن طلب العلم الشرعي من أجل الدنيا نوع من

الاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «مَنْ طَلَبَ عِلْمًا وَهُوَ مِمَّا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ لَا يَرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرْحَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(١).

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب تقوى الله وإفراده بذلك؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾؛ فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ولا ينافي هذا قوله - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ لأن المراد في قوله: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ اتقوا ما يكون في هذا اليوم مما يقدره الله - عزَّ وَجَلَّ - من الأهوال العظيمة والعقاب لمن كذب.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾^(٢).

فالخطاب هنا لبني إسرائيل؛ لأن السياق واحد، ومعنى قوله: ﴿تَلْبِسُوا﴾؛ أي: تخلطوا الحق بالباطل حتى يلتبس ويشتبه على الناس، والحق في اللغة: الشيء الحق؛ أي: الثابت الذي لا يتزعزع، والباطل عكسه؛ أي: الشيء الذاهب سدى، الذي لا يثبت، ولا يبقى، والمراد

(١) الحديث في أمالي ابن الشجري (٤٣/١)؛ وإتحاف السادة المتقين، للزبيدي (٣٦٣/١)؛ والمغني عن حمل الأسفار، للعراقي (٦١/١)؛ انظر موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف (٣٦٩/٨).

بالحق - هنا - ما جاءت به الرسل من وحي الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ كما قال -
 تعالى -: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، والباطل ما
 خالف ذلك، وبنو إسرائيل عندهم الأحبار والرهبان يخلطون الحق
 بالباطل كالْكُهَّان، يصدقون مرة واحدة ويكذبون مائة مرة؛ فهو لاء -
 أيضًا - يأتون بالحق؛ ولكن من أجل التمويه حتى يقول القائل: هذا
 الذي قاله حق، ثم يلحق به كل ما قالوه من الباطل؛ فيلتبس الأمر؛
 ولهذا قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾؛ أي: لا تخلطوه به حتى يلتبس
 ويشتبه.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾، وهذه طريقة أخرى من طرقهم
 أنهم يكتُمون الحق، فلا يبدونه؛ خوفًا من أن يتبعه الناس، وهم لا
 يريدون من الناس أن يتبعوا الحق؛ بل يريدون أن يتبعوا أهواءهم،
 وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾ حال من الفاعل في قوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾، وفي
 قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا﴾؛ أي: تعلمون أنكم فعلتم ذلك فكتمتم وليستم،
 وهذه الجملة الحالية تفيد بيان مأخذ اللوم عليهم، وأنهم لم يفعلوا
 هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل أو كتمان الحق - عن جهل منهم،
 ولكن عن علم وإصرار، فيكون هذا أظهر في عنادهم وأبين في
 استكبارهم عن الحق.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائدها: تحريم لبس الحق بالباطل؛ لأن الله - تعالى - نهى عنه بني إسرائيل، وما نُهيَ عنه بنو إسرائيل مما هو قبيح لذاته يُنهى عنه سائر الأمم؛ ويتفرع عن هذه الفائدة التحذير مما يصنعه أهل البدع من زخارف القول التي يريدون بها أن يمكنوا بدعهم في قلوب الناس، فإنك إذا قرأت كتبهم ظننت أن الحق معهم، ولكن عند التأمل يتبين أنهم يريدون إلباس الحق بالباطل؛ ولهذا تجدهم يأتون بعبارات مجملة؛ فيقولون - مثلاً -: إن الله - تعالى - ليس في حيز، وليس في جهة، وليس بجسم، وما أشبه ذلك من العبارات التي يريدون بها التوصل إلى إنكار صفات الله - عزَّ وجلَّ - وإنكار علوه على خلقه، فإذا قرأ القارئ مثل هذا الكلام، وما نبهوا به من العبارات التي يحسبها الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله فوقه حسابه، والله سريع الحساب، إذا قرأ القارئ هذا الذي كتبوا ظن أن هذا هو الصواب.

٢- ومن فوائدها: أن من سلك هذا المسلك من هذه الأمة ففيه شبه من اليهود والنصارى، فعليه أن يحذر من ذلك؛ لأن من تشبهه بقوم فهو منهم.

٣- ومن فوائدها هذه الآية الكريمة: تحريم كتمان الحق، وكتمان الحق يكون في حالتين: الحالة الأولى: أن يسأل سائل عن الحق فيُكتم الحق

عنه ولا يُجَابُ به؛ لغرض من أغراض الدنيا، والحالة الثانية: أن يحتاج الناس إلى بيان الحق وإن لم يسألوا، فإذا رأى العالم الناس محتاجين إلى الحق وجب عليه بيانه، وإن لم يسألوه، والفرق بين الحالتين أن الحالة الأولى التي يكون فيها الكتمان عند سؤال السائل يقع السؤال فيها بلسان المقال، أما الثانية فيقع السؤال فيها بلسان الحال.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه إذا كتم الحق مع العلم به كان أشد قبحًا، أما إذا لم يعلم به الإنسان فإنه لا يجوز أن يتكلم به أصلًا؛ لأنه إذا تكلم بما لا يعلم فقد قال على الله ما لا يعلم، وهذا من المحرم الذي حرمه الله في كتابه في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ يعني: آتوا بها مستقيمة تامة، وليس المراد بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قوموا بالإقامة التي هي إعلام بالقيام بالصلاة.

وقوله: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ أي: أعطوها لمستحقها، والزكاة هي

جزء معين في أموال مخصوصة تدفع لمستحقها.

﴿وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾؛ أي: اخضعوا لله - عَزَّ وَجَلَّ - مع

الخاصين له، فيكون المراد بالركوع - هنا - مطلق الذل؛ لأن الركوع في

اللغة العربية يراد به مطلق الذل؛ كما في قول الشاعر:

وَلَا تُهِنِ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرُ
كَعَ يَوْمًا وَالدهرُ قَدْ رَفَعَهُ

ويحتمل أن يكون المراد به ركوع الصلاة، ويكون تخصيصًا بعد

تعميم؛ لأن قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يشمل إقامتها بقيامها،

وركوعها، وسجودها، وقعودها.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- وجوب إقامة الصلاة؛ لأن الله - تعالى - أمر بها، والأصل في

الأمر الوجوب، ولكن الإقامة - إقامة الصلاة من حيث الواقع - تنقسم

إلى قسمين: إقامة واجبة؛ وهي أن يأتي بواجبات الصلاة، وأركانها،

وشروطها؛ أي: أن يأتي بما لا تصح الصلاة إلا به، فهذه إقامة واجبة

لا بد منها، وإقامة غير واجبة؛ وهي أن يأتي بمكملات الصلاة التي

تصح الصلاة بدونها، وكله مأمور به، لكن ما لا تصح الصلاة بدونه

مأمور به على الوجوب، وما تصح الصلاة بدونه مأمور به على سبيل

الاستحباب.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب إيتاء الزكاة؛ وهي المال المدفوع لمستحقه من أموال معينة معروفة عند أهل العلم.

٣- ومن فوائدها: أهمية إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لأن الله أمر بهما وخصَّصهما بعد قوله: ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ مع أن التقوى تشمل فعل جميع الأوامر وترك جميع النواهي.

٤- ومن فوائدها: فضيلة الركوع في الصلاة إذا قلنا بأن المراد بالركوع الركوع في الصلاة، أما إذا قلنا بأن المراد بالركوع التواضع لله - عَزَّ وَجَلَّ -، والذل له؛ فإن في الآية فائدة وهي وجوب الذل لله والخضوع له.

٥- ومن فوائدها: ما استدل به بعض العلماء على وجوب صلاة الجماعة؛ لأنه قال: ﴿وَأَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وهذا الاستدلال محل نظر وتأمل؛ لأن الآية ليست صريحة في ذلك؛ إذ يحتمل أن يكون المعنى كونوا معهم في الجملة؛ أي: اركعوا كما يركع الناس، ولا يلزم أن يكون في ذلك مصاحبة، والعلم عند الله.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ
تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الخطاب - هنا - لبني إسرائيل، والاستفهام للتوبيخ والإنكار؛
يعني: كيف تأمرون الناس بالبر وتتركون أنفسكم وأنتم تتلون
الكتاب؟! الكتاب!

وقوله: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾؛ البرُّ هنا: كل ما يقرب إلى الله -
عَزَّ وَجَلَّ - من الطاعات، ويدخل في ذلك - أيضًا - ترك المعاصي؛ لأن
البر إذا ذكر وحده شمل فعل الطاعات وترك المعاصي، وإذا قُرِنَ
بالتقوى صار المراد بالبر فعل الطاعات، والمراد بالتقوى ترك
المحرمات.

وقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: تتركونها، لا تأمرونها بالبر، ولا
تهتمون بها، والحال أنكم تتلون الكتاب المنزَّل عليكم، وتعرفون ما فيه
من بشاعة هذا المنهج؛ وهو أمركم الناس بالبر مع نسيان أنفسكم، ثم
وَبَخَّهْمُ اللهُ مَرَّةً أُخْرَى بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أي: أن فعلكم هذا
ليس فعل ذي عقل؛ لأن العاقل يبدأ أول ما يبدأ بنفسه، ثم يثني
بإصلاح غيره.

فوائد الآية الكريمة:

١- الإنكار الشديد على من يأمر الناس بالبر ولا يفعله؛ لقوله:
﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

٢- أن هذا المنهج كما هو مخالف للشرع فهو مخالف للعقل؛ لقوله:

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣- أن هذا المنهج يوجب ألا يأتمر الناس بأمر الأمر ولا يتهوا بنهيه؛ لأنهم سيقولون: لو كان هذا خيرًا لكان أول من يفعله، ولو كان شرًا لكان أول من يجتنبه، فكيف يأمرنا ولا يفعل أو ينهانا ويفعل؟ فيكون في هذا منع لسلوك الناس سبيل البر.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الإنسان ينبغي له - إن لم نقل يجب عليه - أن يبدأ بنفسه، وقد دلت السنة على ذلك؛ قال النبي و: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شيء فلاهلك»^(١)، ولا ريب أن أقرب شيء إليك هو نفسك، فكونك تسعى لإصلاح غيرك مع فساد نفسك، لا شك أن هذا خلاف الشرع وخلاف العقل.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن العالم يلحقه من اللوم ومن الذم أكثر مما يلحق الجاهل؛ لقوله هنا: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن كل ما يخالف الشرع فهو مخالف للعقل، لكن المراد بالعقل العقل الصحيح السالم من الشبهات والشهوات، أما العقل الفاسد المغمور بالشهوات والشبهات فليس بعقل؛ ولهذا يصف الله الكفار بأنهم ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، مع أنهم أذكىء، لكن الذكاء شيء والعقل شيء آخر؛

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الابتداء في النفقة بالنفس، ثم أهله، ثم القرابة، رقم (٩٩٧).

فالعقل ما يعقل الإنسان عما يضره ويمنعه مما يضره، والذكاء هو سرعة إدراك الأمور وفهمها.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

في الآية الكريمة الأولى يأمر الله - سبحانه وتعالى - بالاستعانة بأمرين: الصبر والصلاة؛ فالصبر حبس النفس عن التشكي والتسخط، والصلاة هي التعبد لله - عَزَّ وَجَلَّ - بالعبادة المعروفة المفتحة بالتكبير المختمة بالتسليم، ويبين أن الاستعانة بالصبر والصلاة كبيرة إلا على الخاشعين، أو أن الصلاة نفسها كبيرة إلا على الخاشعين؛ والخشوع هو الذل، بل هو أعظم الذل وأكمله، والمراد بذلك الخشوع لله - عَزَّ وَجَلَّ .

أحكام وفوائد هذه الآية:

١- طلب الاستعانة بالصبر في مكابدة الأمور؛ لأن الإنسان الذي لا يصبر لا يتم له مطلوبه؛ فإن كثيراً من الأمور لا تأتي الإنسان بسهولة، بل تحتاج إلى تحمل وصبر، وقد ذكر أهل العلم - رحمهم الله - أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة؛ فأما الصبر على طاعة الله فهو أن يقوم الإنسان بأوامر الله - عَزَّ وَجَلَّ - غير متضجر ولا ضائق بها صدره، بل

يتقبلها بانسراح وسرور، حتى يقوم بالعبادة وهو يجب أن يقوم بها، وأما الصبر عن محارم الله فهو الكف عما حرم الله عليه، سواء أكان مما يتعلق بحقوق الله، أو ما يتعلق بحقوق العباد، فيكف نفسه عن العدوان، والظلم، والكذب، وعما هو أعظم من ذلك من الشرك، والكفر، ونحو هذا، والثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة؛ لأن أقدار الله - تعالى - قد تكون ملائمة للإنسان يفرح بها، ويطمئن إليها، ويُسَرُّ بها، وهذه لا تحتاج إلى صبر، اللهم إلا إذا صبر على شكرها، والثانية: أقدار مؤلمة شاقة على الإنسان، يتعب منها، فهذه تحتاج إلى مصابرة وإلى تحمل عنائها، فكلما مرَّ الإنسان نفسه على الصبر والتحمل؛ ازداد ثباتاً، وحصل له من مطلوبه ما لم يحصل له لو تضرَّج، وهذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان إذا تمرَّن على الصبر والتحمل صار عنده من مدافعة الأمور ما ليس عند غيره.

٢- الاستعانة بالصلاة على مكابدة الأمور أيضاً، وقد ذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر - يعني كربه أو شقَّ عليه - فزع إلى الصلاة^(١)؛ وذلك لأن الصلاة تنسي الإنسان الدنيا إذا كان مخلصاً فيها؛ فإن الإنسان يقف بين يدي الله - عزَّ وجلَّ - يناجيه ويتقرب إليه بتعظيمه وتلاوة كتابه، ويناجيه بالدعاء؛ يقول: رب اغفر لي، وارحمني،

(١) انظر منتخب كنز العمال (٣/ ١٤٨).

وما أشبه ذلك؛ فيتسلى بها الإنسان عن أمور الدنيا، وحينئذ يتحمل المشاق؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١)؛ فهي قرّة عين المؤمن.

ويذكر عن عروة بن الزبير - رحمه الله - وهو من الفقهاء السبعة الذين اشتهروا في زمن التابعين - أنه أصابته آكلة في رجله، وقرر الأطباء أنه لا بد من قطعها، ولم يكن في ذلك الوقت بُنْجٌ يُبْنَجُ بِهِ الْإِنْسَانُ، فقال لهم: إذا دخلت في الصلاة فأتوا واقطعوها؛ لأنه إذا دخل في الصلاة اشتغل بها عما سواها؛ فتقطع رجله وهو لا يشعر؛ لشدة تعلقه بالله - سبحانه وتعالى.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أن الخاشع المطمئن لأمر الله المخبت له تسهل عليه الصلاة، ويسهل عليه الصبر، ولا تكون أمرًا شاقًا عليه؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

* * *

وقوله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: يتيقنون ذلك؛ كما قال الله - تعالى -:

(١) رواه الإمام أحمد؛ والنسائي: كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم (٣٩٣٩، ٣٩٤٠)؛ والحاكم؛ والبيهقي؛ ورمز له السيوطي بإشارة الحسن، انظر الجامع الصغير (١/٢٢٣).

﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فهم موقنون بأنهم ملاقور بهم، راجعون إليه، وأن الله - عَزَّ وَجَلَّ - سيحاسبهم على أعمالهم.

أحكام وفوائد هذه الآية:

١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات لقاء الله، وأن الإنسان سيلاقي ربه، وهو كذلك؛ قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْئِقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

٢- ومن فوائدها: الثناء على الموقن بهذا اللقاء؛ لقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: يتيقنون.

٣- ومن فوائدها أيضًا: أن هذا اليقين أو العلم سبب للسعادة وللتقوي على الأعمال الصالحة؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيرجع إلى ربه عمل لذلك عمله، بخلاف الإنسان الغافل الذي لا يهتم بما أمامه، فنسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا جميعًا من المهتدين بآياته، القائمين بمرضاته؛ إنه جواد كريم.

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿يَسْبِيحُ بِحَمْدِ رَبِّكَ نَارًا وَسُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٧] وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

في هاتين الآيتين يُذكرُ الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل؛ وإسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - يُذكرُهم بنعمته التي أنعم الله بها عليهم، وما أكثر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل؛ ومنها أنه فضّلهم على العالمين؛ أي: على عالم زمانهم، ليس على العالمين إلى يوم القيامة؛ لأن هذه الأمة أفضل الأمم وأكرمها على الله - عزَّ وجلَّ -؛ كما قال - تعالى -: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم يأمرهم الله - عزَّ وجلَّ - أن يتقوا ذلك اليوم الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً؛ فلا أحد يغني غيره، بل لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه، ولا يقبل من النفس شفاعاً، ولا يؤخذ منها عدل؛ أي: فدية، بل كل إنسان مرهون بعمله لا يُنصر، ولا يقبل منه شفاعاً، ولا يؤخذ منه عدل.

ما يستفاد من هاتين الآيتين من صور:

١- بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على بني إسرائيل؛ حيث ذكرهم بهذه النعمة: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِي ﴾، وهي مفرد مضاف؛ فيشمل جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنه ينبغي لكل داعية أن يذكر المدعو بنعم الله؛ لأن التذكير بنعم الله يستلزم أن يقوم المدعو بطاعة المنعم؛ لأن ذلك هو حقيقة الشكر.

٣- ومن فوائد الآية: أن الله فَضَّلَ بني إسرائيل على غيرهم من العالمين، ولكن هذا خاص في زمانهم كما أسلفنا آنفاً، أما هذه الأمة فهي أفضل من بني إسرائيل.

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: التذكير بيوم القيامة الذي لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئاً.

٥- ومن الفوائد: وجوب تقوى هذا اليوم؛ وذلك باتخاذ الوقاية من عذابه، ولا وقاية من عذاب يوم القيامة إلا بفعل أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن هذا هو الذي يقي من عذاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - وهذا المعنى الذي ذكرناه للتقوى هو أجمع ما قيل فيها.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه لا تقبل الشفاعة من النفوس في ذلك اليوم، وهذا عام أريد به الخاص؛ وذلك أن الذين لا تقبل منهم الشفاعة هم الذين لا يرتضيه الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأما من ارتضاهم الله؛ فإنَّ الله - تعالى - يقبل منهم الشفاعة، فيمن يستحق الشفاعة والشفاعة لا تكون إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يأذن الله بها.

والشرط الثاني: أن يكون راضياً بمن شَفَعَ وعمن شُفِعَ له؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال - تعالى -: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ

قَوْلًا ﴿ طه: ١٠٩. وقال - تعالى -: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ آرْتَضَى ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه لا عدل يؤخذ عن الإنسان في ذلك اليوم بخلاف المضايق في الدنيا؛ فإن الإنسان قد يدعو عدلاً عنه؛ أي: شخصاً يعدله بنفسه وينجو بهذا المعادل، لكن في يوم القيامة لا يمكن ذلك.

٨- كذلك من فوائد هاتين الآيتين: أن من لا تقبل منه الشفاعة ولا يؤخذ منه عدل؛ لا ينصر أيضاً، فلا يتناصر المجرمون في ذلك اليوم؛ لأن الأمر كله لله.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: التذكير العام لكل أحد بأحوال هذا اليوم العظيم، الذي لا بد أن يصير إليه كل حي، فعليه أن يستعد له، وأن يتأهب له بالأعمال الصالحة المقربة إلى الله - عزَّ وجلَّ -.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٠٠﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

﴿وَأَلِ فِرْعَوْنَ﴾ هم أتباعه الذين يتولونه ويتوجهون بتوجيهاته؛
فأل فرعون كانوا يسومون بني إسرائيل سوء العذاب؛ يستعبدونهم،
يذبحون أبناءهم، يستحيون نساءهم؛ أي: يستبقونهن، وهذه سياسة
الجور والظلم؛ فهم يذبحون الأبناء؛ لئلا ينشئوا ويقاوموا آل فرعون؛
ولأجل أن يقلّ النسل في بني إسرائيل، ولأجل أن يكونوا أذلة أمام آل
فرعون؛ لأن النساء - مهما كنَّ - فإنهن في مقام الذل أمام العدو.

﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾؛ أي: اختبار عظيم لكم، هل
تصبرون على ما حصل لكم من الأذى؟ وهل شكرتم لما أنجاكم الله
من هذا البلاء؟

ثم يذكرهم الله - تعالى - بنعمة أخرى؛ وهي أن الله فرّق بهم البحر
فأنجاهم وأغرق آل فرعون؛ وذلك حينما خرج فرعون بجنوده تابعاً
لموسى وقومه؛ ليقضي عليهم ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى
إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن
أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء:
٦١ - ٦٣]، فدخل موسى وقومه في هذا الطريق وعلى أيانهم وشئائلهم
كتل الماء كالجبال، ولما نجوا دخل فرعون وقومه فأمر الله البحر فانطبق
عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ ﴿١٠﴾، فكان في هذا نعمتان على بني إسرائيل؛ إحداهما: أن الله أنجاهم، والثانية: أن الله أغرق عدوهم.

من فوائد هاتين الآيتين:

١- أن الله - سبحانه وتعالى - نجّى بني إسرائيل مرتين؛ المرة الأولى من آل فرعون حين كانوا يسومونهم سوء العذاب؛ فيذبحون الأبناء ويستبقون النساء، والمرة الثانية حين فَرَّقَ بهم البحر، فأنجاهم من الغرق، وأغرق آل فرعون وهم يشاهدون ذلك.

٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: بيان شدة بطش آل فرعون لبني إسرائيل حين كانوا يمارسون معهم هذا الإذلال العظيم؛ وذلك بذبح الأبناء واستبقاء النساء؛ فإن ذلك أكبر إذلال للشعوب، أن يذبح رجالها، وتبقى نساؤها.

٣- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن الله - سبحانه وتعالى - يبتلي عباده - أحياناً - بالمصائب؛ ليعلم من يكون صابراً ومن يكون ضاجراً، وأحياناً بالنعم؛ ليعلم من يكون شاكراً ومن يكون بطراً، والله - سبحانه وتعالى - في خلقه شئون، والمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له؛ قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر

فكان خيرًا له»^(١).

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمة لله - عزَّ وجلَّ - فيما يقدره على عباده، وهذا من مقتضى اسمه «الحكيم»؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - حكيم فيما يقدره، وفيما يشرعه؛ وبه نعرف أنه لا يمكن أن يشرع شيئًا عبثًا، أو أن يقدر شيئًا عبثًا؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ولكن أحيانًا تحفى الحكمة علينا؛ لقصور أفهامنا، أو لتقصيرنا في طلب الحكمة، ولكن هذا لا يمنعنا من تمام الإيمان بأن الله - سبحانه وتعالى - ذو حكمة، وأنه لا يفعل شيئًا ولا يشرع شيئًا إلا لحكمة عظيمة.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن بلاء الله - أي: ابتلاءه - يتنوع؛ فمنه ابتلاء يسير، ومنه ابتلاء عظيم، وذلك حسب ما تقتضيه الحكمة؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - قد يبتلي من هو قليل الصبر وقليل الشكر ببلاء يسير يُناسِبُ حاله، ويبتلي من هو قوي على الصبر وعلى الشكر ببلاء أعظم؛ ليكون ذلك مناسبًا لحاله؛ ولهذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً الأنبياءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فالأَمْثَلُ...»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص (٣١).

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم (٢٣٩٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)؛ والدارمي (٢/٣٢٠).

والواقع شاهد على ذلك؛ فإن الابتلاء الذي يجريه الله - عَزَّ وَجَلَّ - على الأنبياء أعظم من الابتلاء الذي يجريه على من دونهم.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - في كيفية إنجاء بني إسرائيل وإغراق آل فرعون؛ وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - جعل هذا البحر الذي هو من الماء السائل واقفًا كالطود العظيم، في ضربة واحدة من موسى؛ أوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم؛ أي: كالجبل العظيم.

وقد ذكر بعض الناس أن الله جعل في هذه الكتل المائية؛ جعل فيها فرجًا ينظر الناس بعضهم إلى بعض؛ ليطمئن بعضهم على البعض الآخر.

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه من كمال طمأنينة العبد أن يرى عدوه أمامه وقد هلك؛ كقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾؛ فإن الله لو أغرق آل فرعون أو أصابهم بعذاب لم يشاهده بنو إسرائيل لم تكن طمأنينة بني إسرائيل على هلاك فرعون وقومه كما لو كانت وهم ينظرون.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: الرد على الذين بهرتهم صنائع أعداء الله اليوم، وغرَّتهم حتى ظنوا أنه لا يمكن الانتصار عليهم، بل ربما

يتهمكم بعضهم إذا قيل لهم: إننا لو رجعنا إلى دين الله حق الرجوع
لانتصرنا على أعدائنا مهما بلغت قوتهم، فإننا نقول لهم: انظروا كيف
كان هذا البحر طريقًا يبسًا في لحظة واحدة، وفتح الله فيه اثني عشر
طريقًا بضربة واحدة بعصا موسى ﷺ، ثم بقيت كتل الماء كأنها جبال،
وأغرق الله - تعالى - عدو بني إسرائيل وهم ينظرون إليهم، ثم انظروا -
أيضًا - ما فعل الله - تعالى - بعادٍ من الرياح العاصفة المدمرة، وما فعل
الله - تعالى - بشمودٍ قوم صالح؛ حيث أخذتهم الصيحة؛ فأصبحوا في
دارهم جاثمين، فنحن لو صدقنا الله - عزَّ وَجَلَّ -؛ لهيأ لنا من أسباب
النصر ما لا يخطر على البال.

* * *

ثم قال - عزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٤٦﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٤٧﴾ .

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ الله - تعالى - بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا
العفو العظيم؛ وذلك أن الله - تعالى - واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة،
فأتمها بعشر؛ فصارت أربعين ليلة، فلما تأخر موسى ﷺ عن الموعد
الذي ذكره لبني إسرائيل؛ فتنوا بعبادة العجل، وذلك أنهم صنعوا من
الحلي من الذهب تمثالاً على هيئة العجل، وهو ولد البقر الصغير،

وجعلوه على شكل خوار كخوار العجل، وأضلهم السامري؛ فقال لهم: إن موسى نسي، وإن ربكم هذا العجل، وهو إلهكم وإله موسى؛ فعبدوا العجل وصاروا يعبدونه من دون الله، وذكرهم هارون أخو موسى ﷺ بأن إلههم هو الله - سبحانه وتعالى - وقال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]، ولكنهم أصروا وأبوا وقالوا: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، فبقوا يعبدون هذا العجل حتى رجع إليهم موسى - عليه الصلاة والسلام -، ولما رجع إليهم موسى ﷺ قال: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَادِكُمُ الْعِجَلَ فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فجعل الله - تعالى - من توبتهم أن يجتمعوا جميعاً، ويأخذوا السكاكين والخناجر، ويقتلوا بعضهم بعضاً، ويصبروا على هذه المحنة العظيمة، فلما فعلوا ذلك؛ تاب الله عليهم؛ فهنا يقول - عز وجل -: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجَلَ مِنْ بَعْدِهِ - وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿ معتمدون في حق الله - عز وجل -؛ حيث اتخذتم هذا العجل الذي صنعتموه بأيديكم إلهًا تعبدونه من دون الله، ولكن الله - عز وجل - ذكرهم النعمة عليهم؛ حيث عفا عنهم من بعد ذلك؛ لعلهم يشكرون الله على نعمه، ويتوبون إليه، ويعودون إليه.

فوائد هاتين الآيتين:

- ١- أن الله - سبحانه وتعالى - واعد موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها حتى صارت أربعين ليلة، ووعد الله له ثلاثين ليلة مأخوذ من آية أخرى، لكنه - عَزَّ وَجَلَّ - مدَّ المدة لحكمة أرادها - سبحانه وتعالى.
- ٢- ومن فوائدهما: إثبات كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾؛ فإن هذا الوعد لا بد أن يكون بوحي أو بكلام من الله - سبحانه وتعالى - لموسى.
- ٣- ومن فوائدهما: أن بني إسرائيل حين اتخذوا العجل من بعد موسى كانوا عالمين بأنهم على غير هدى؛ لأنهم ظالمون؛ فإنهم كانوا يعبدون الله من قبل، وذكرهم هارون بأن ربهم الرحمن - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكنهم أصروا واستمروا على ما هم عليه.
- ٤- ومن فوائدهما: أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - عفا عنهم بعد هذه الفعلة القبيحة والذنب العظيم؛ لعلهم يشكرون الله.
- ٥- ومن فوائدهما: أن الإنسان إذا مَنَّ الله عليه بالعفو ووقفه للتوبة فإنه يجب أن يشكر الله على هذا التوفيق، فكم من إنسان حُرِمَ التوبة وأصَرَ على ما هو عليه من الذنب حتى هلك.
- ٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمة لله - سبحانه وتعالى -

في أفعاله؛ لقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإن «لَعَلَّ» - هنا - للتعليل، ولا ريب أن جميع أفعال الله مقرونة بحكمته، وكذلك تشريعاته مقرونة بحكمته؛ لأنه - جل وعلا - لا يفعل شيئاً سفهاً، ولكن الحكمة إما أن تكون معلومة لنا، وإما أن تكون مجهولة؛ لقصورنا عن إدراكها، أو تقصيرنا في طلبها.

وقبل أن أنهي الكلام عن هاتين الآيتين أنبه إلى أننا ذكرنا في أول الكلام عن الفوائد أن فيهما دليلاً على إثبات كلام الله، والحقيقة أن هذا قد لا يؤخذ من هاتين الآيتين على وجه يسلم من الاعتراض، ولكن يؤخذ من القصة في موضع آخر؛ حيث قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَٰكِن نُنظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله - عزَّ وَجَلَّ - أنه حق على حقيقته، وأنه - تعالى - يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، يتكلم بحرف وصوت يسمعه من كلمه الله - عزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا تجد أن الله - سبحانه وتعالى - في هذه القصة لما كَلَّمَ موسى قال له موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ وَلَٰكِن نُنظُرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفي هذه القصة دليل على أن كلام الله يتعلق بمشيئته، وليس كما أطلقه بعضهم قديماً أزلماً، بل إن الصواب في ذلك أن كلام الله - عزَّ وَجَلَّ - باعتبار أصله وجنسه - أزلي أبدي لم يزل ولا

يزال متكلمًا - سبحانه وتعالى -، وأما باعتبار آحاده؛ فإنه متعلق بمشيئته متى شاء تكلم بما يشاء، هذا هو الذي مشى عليه أهل السنة والجماعة.

* * *

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٢١٣].

في هذه الآية يذكر الله - سبحانه وتعالى - عن نبي الله موسى ﷺ أنه وعظ قومه هذه الموعظة العظيمة بهذا التلطف العظيم: ﴿يَنْقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾، وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهًا يعبده؛ فإن هذا أظلم الظلم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [القمان: ١٣].

فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حقَّ ربه حتى يجعل حقه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - على لسان موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾؛ أي: ارجعوا إليه من معصيته إلى طاعته، ومن الإشراك به إلى توحيده، ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: ليقتل بعضكم بعضًا، وإنما عَبَّرَ بقتل النفس؛ لأن المؤمن أخو المؤمن، فكأنه هو نفسه؛ ولهذا قال الله - تعالى - في قصة الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا

هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿النور: ١٢﴾، فأخوك المؤمن بمنزلة نفسك، ثم قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - على لسان موسى عليه السلام: ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: توبتكم إلى الله بقتل أنفسكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾، وكل إنسان يجب أن يكون له الخير عند بارئه - تبارك وتعالى -؛ لأنه خالقه المدبر له كما يشاء، فلما قتلوا أنفسهم تاب الله عليهم؛ إنه هو التواب الرحيم.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن موسى عليه السلام ذكّر قومه بهذه الفعل القبيحة، وبما مَنَّ الله عليهم به من التوبة إليه، والتوبة عليهم.

٢- ومن فوائدها: أنه ينبغي للداعية أن يتلطف مع من يدعو، وأن يذكر الألفاظ التي تكون سبباً في إقبال المدعو على الداعي وتقبله ما يوجهه إليه من النصيحة؛ لأنه قال لقومه: ﴿يَقَوْمِ﴾.

٣- ومن فوائدها أيضاً: أنه ينبغي لمن ذكر الداء أن يذكر الدواء؛ فإن موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لما ذكر أنهم ظلموا أنفسهم عرض عليهم الدواء بالتوبة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وهكذا ينبغي للداعية إذا ذكر الداء والأمراض التي في المجتمع أن يذكر لهم الدواء وطريق الخلاص منها حتى يجمع بين الأمرين.

٤- ومن فوائدها هذه الآية: بيان سفه بني إسرائيل الذين عبدوا عجلاً صنعوه بأيديهم من الذهب، وعرفوا أنه تمثال، وأنه لا يستحق

من الربوبية شيئاً، ومع ذلك عبده، وهذا دليلٌ على سفههم.

٥- ومن فوائد هذه الآية: وجوب التوبة إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ﴾، وله اليوم - أيضاً - وجوب التوبة إليه؛ حيث إنه هو البارئ الذي خلق؛ فله الحق علينا أن نفر من معصيته إلى طاعته، والتوبة لا بد فيها من شروط خمسة:

الشرط الأول: أن يخلص العبدُ التوبة لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأن يكون الحامل له عليها خوف الله، ورجاء ثوابه، والخلاص من الذنب الذي وقع فيه.

الشرط الثاني: الندم؛ بحيث يتحسر على ما حصل منه من ذنب، فلا يكون الأمر عنده على حد سواء، بل يتأسف ويتندم على ما حصل منه من الذنب.

الشرط الثالث: أن يقلع عن الذنب في الحال؛ فإن كان متلبساً بمحرم تركه، وإن كان تاركاً لواجب أتى به إن كان يمكن تداركه، وإن لم يمكن تداركه أتى ببده إن كان له بدل، وإلا كفته التوبة.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب في المستقبل، فأما إن قال: أنا تائب إلى الله، وفي نيته أنه متى سنحت له الفرصة عاد إلى الذنب؛ فإنه ليس بتائب حقيقة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تُقبل فيه التوبة؛ وذلك بأن يكون قبل طلوع الشمس من مغربها وقبل حضور الأجل؛ لأنه إذا طلعت الشمس من مغربها فلا توبة، وإذا حضر الأجل فلا توبة؛ قال النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»^(١)، وقال الله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨].

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان منة الله - عزَّ وجلَّ - على هذه الأمة؛ حيث جعل توبة بني إسرائيل بهذا الثقل وهذه الآصار، وأنه لا تتحقق توبتهم إلا إذا قتلوا أنفسهم، أما هذه الأمة - والله الحمد - فإن التوبة تحصل بدون ذلك، تحصل بما ذكرنا من الشروط، وإن لم يحدث الإنسان ضرراً على نفسه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإقلاع عن الذنب والتوبة إلى الله منه خير من الاستمرار عليه، بل قد يكون الإنسان بعد التوبة خيراً منه قبلها؛ أي: أن الإنسان إذا أذنب ثم تاب إلى الله؛ فإنه قد تكون حاله بعد التوبة من هذا الذنب خيراً من حاله قبل أن يذنب؛ ألم تر إلى آدم -

(١) أخرجه أحمد برقم (١٦٤٦٣)؛ وأبوداود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

عليه الصلاة والسلام - حين أكل من الشجرة، قال الله - تعالى - في حقه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٦١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَنُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٦٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، فحصل له الاجتباء والهداية بعد أن تاب من تلك المعصية.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان منة الله على عباده؛ حيث يقبل منهم التوبة إذا صدقوا الله - تعالى - في التوبة؛ ولهذا لما صدق بنو إسرائيل في التوبة، وقتلوا أنفسهم؛ تاب الله عليهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ وهما «التواب» و«الرحيم»، وأن من مقتضاهما أن يتوب الله - سبحانه وتعالى - على من تاب ويرحمه؛ فالتواب كثير التوبة على عباده، فما أكثر ما تاب الله على عباده، وما أكثر الذين يتوبون إلى الله؛ فيتوب الله عليهم، أما الرحيم فهو ذو الرحمة المقتضية للإحسان إلى الخلق إحساناً عاماً؛ كما في الرحمة العامة، وإحساناً خاصاً؛ كما في الرحمة الخاصة.

واعلم أن الرحمة تنقسم على قسمين: رحمة عامة، ورحمة خاصة؛ فالعامة هي الشاملة لكل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، والرحمة الخاصة هي الرحمة بالمؤمنين؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿ [الأحزاب: ٤٣]، وهذه رحمة خاصة تتصل بها سعادة الدنيا والآخرة.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات يُذَكِّرُ اللهُ - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل بما جرى منهم، وبما كان من إحسان الله - تعالى - إليهم؛ فأما الذي جرى منهم، فإنهم قالوا لموسى وهو يكلم الله - عزَّ وجلَّ - بما شاء الله من الوحي، قالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴾؛ أي: لن نؤمن لك أنك تكلم الله حتى نرى الله جهرة؛ أي: عياناً، وهذا غاية في العناد، والاستكبار، والتكذيب، فلما قالوا هذه المقالة العظيمة صعقوا، أخذهم الموت فماتوا جميعاً، ولكن الله - سبحانه وتعالى - منَّ عليهم فبعثهم؛ أي: أحياهم من بعد موتهم؛ لأن موسى دعا الله - عزَّ وجلَّ - ففرج الله عنهم ﴿ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَآئِنِي أَهْلَكْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ۗ

أَنْتَ وَلِيْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [الأعراف: ١٥٥]؛ فبعثهم الله من بعد الموت؛ لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروه.

والشكر هو القيام بطاعة المنعم، وليس الشكر مجرد قول القائل: أشكر الله؛ لأن القول باللسان - إن لم يصدقه العمل والاعتقاد - صار قولاً لا فائدة منه.

قال أهل العلم: والشكر يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فأما شكر القلب: فأن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وحده، وليست بحول المرء وقوته، وأما شكر الله باللسان: فالتحدث بهذه النعمة؛ إظهاراً لفضل الله لا افتخاراً على عباد الله، ويشمل - أيضاً - جميع ما يتكلم به العبد مما يقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأما الشكر بالجوارح: فأن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه: اليدين، والرجلين، والعينين، وغير ذلك من أعضائه وجوارحه، وفي هذا يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجب

ثم يذكرهم الله - تعالى - نعمة ثانية بعد أن أحياهم من تلك الصعقة، وهي أنه ظلل عليهم الغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد؛ والغمام - كما قال أهل العلم -: هو السحاب الأبيض الحاجب من حر الشمس، ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوٰى ﴾ فالمن طعام يجدونه

منتشراً على رءوس الشجر كأنه العسل، فيأكلونه، والسلوى هو الطائر المعروف بالسمانه، وهو من ألد الطيور لحماً، وسمي المنُّ مناً؛ لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة، ومنه الكمأة؛ وهي الفقع؛ لقول النبي - عليه الصلاة والسلام -: «الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاء للعين»^(١)، وهي وإن لم تكن من المنِّ الذي نزل على بني إسرائيل، فهي من المنِّ بالمعنى العام؛ لأنها توجد في الأرض بدون غرس، ولا بذر، ولا تعب في سقي وغيره.

ثم امتنَّ الله عليهم منةً ثالثة بأن يَسَّرَ لهم أكل هذه الطيبات؛ فقال - تعالى -: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وهذه منةٌ ثالثة؛ لأن الإنسان ربما يتيسَّر له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعله فيه، فلا يحصل به كمال المنَّة، وربما يحرم من الطعام والشراب لقلتها، المهم أن إيجاد الطعام أو الشراب نعمة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنَّ قدرة الإنسان على تناول الطعام والشراب وتلذذه بذلك، وانتفاعه به من نعمة الله - تعالى أيضاً؛ ولهذا قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أي: من طيبات ما أعطيناكم.

ثم قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ أي: ما ظلمونا بمعاصيهم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - لن يعبأ بأحد، ولن

(١) رواه البخاري: كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، رقم (٥٧٠٨).

يتضرر بمعصية العاصين، ولن ينتفع بطاعة الطائعين؛ كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبُلُّوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، وَلَنْ تَبُلُّوا نَفْعِي فتَنْفَعُونِي»^(١).

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾؛ أي: ولكن كانوا يظلمون أنفسهم؛ فالإنسان المفرط في حق الله - عَزَّ وَجَلَّ - ليس ظالماً لله؛ لأن الله - تعالى - لا تنقصه ولا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولكنه قد ظلم نفسه وهضمها ونقصها حقها؛ فإن النفس أمانة عند الإنسان يجب عليه أن يراها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- عتو بني إسرائيل، وشدة عنادهم وتكذيبهم؛ حيث قالوا لنبیهم وهم يسمعون كلام الله: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴾، وهذا غاية ما يكون في الطغيان والعناد.

٢- ومن فوائدها: أن الإنسان إذا فعل الجرم العظيم والمنكر الكبير فقد يعاجل بالعقوبة؛ ولهذا عاجل الله بني إسرائيل الذين قالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴾، فعاقبهم بالصعق؛ فصعقوا في حال

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

قولهم هذا؛ ولهذا جاء بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب في قوله:
﴿فَأَخَذْتُمْ الْأَصْبِعَةَ﴾.

٣- ومن فوائدها: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء
الموتى؛ حيث أحيا هؤلاء من موتهم؛ بدليل قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ
بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآيات: أن الصاعقة أخذتهم وهم ينظرون؛
أي: ينظر بعضهم إلى بعض، يقع ميتًا حتى ماتوا عن آخرهم؛ أي:
مات جميع من تكلموا بهذا القول، أو رضوا به في ذلك المكان.

٥- ومن فوائدها: أن الله - سبحانه وتعالى - ينعم على العبد برفع
الضرر عنه؛ من أجل أن يشكر نعمة الله؛ فإن أسباب شكر نعمة الله إما
خير يجلبه الله لك، وإما شر يدفعه الله عنك، والذي حصل لهؤلاء دفع
شر وحصول خير؛ دفع شر برفع الموت عنهم، وحصول خير بإحيائهم
من بعد موتهم.

٦- ومن فوائدها: إثبات حكمة الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾، وقد سبق مرارًا ما يدل على إثبات الحكمة في أفعال الله -
تعالى - كما هي ثابتة فيما شرعه؛ ولهذا يختم الله - سبحانه وتعالى - كثيرًا
من آيات الأحكام بالعلم والحكمة؛ كما في آية قسم الصدقات: ﴿إِنَّمَا
الْصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ

وَالْغَرِيمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ [التوبة: ٦٠]، وكما في آية المواريث: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ [النساء: ١١].

٧- وفي قوله - تعالى -: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِمَّن طَبَّيْتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ ففي هذه الآية من الفوائد: بيان نعمة الله - تعالى - على بني إسرائيل بتظليلهم بالغمام من الحر، من حر الشمس؛ والغمام هو السحاب الأبيض، وهو من أبرد السحاب ظلًا.

٨- ومن فوائدها أيضًا: بيان قدرة الله - عزَّ وَجَلَّ -، وأن كل شيء يكون فبمشيئته؛ فالسحاب المسخر بين السماء والأرض لا يجري إلا بأمر الله وتدييره - سبحانه وتعالى -، ولا يخفى على كثير من الناس ما جرى للرجل الذي سمع قائلاً من السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، فنزل المطر على أرض، وسال الوادي إلى هذه الحديقة، فتابعه هذا الرجل الذي سمع الصوت من السحاب حتى وصل إلى صاحب الحديقة، وسأله ماذا يصنع فيها، فقال له: إني أقسم ريعها ثلاثة أقسام: فثلث أعيده فيها - يعني: يصلحها به -، وثلث لي ولعياي، وثلث أتصدق به، ثم سأله صاحب الحديقة عن سبب سؤاله إياه، فأخبره أنه

سمع صوتًا في السحاب يقول: اسقِ حديقة فلان، ففي هذا دليلٌ على أن السحاب المسخَّر بين السماء والأرض يسير بإذن الله - عَزَّ وَجَلَّ - وأمره.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: ما منَّ الله به على بني إسرائيل من إنزال المن والسلوى، هذا الطعام الطيب اللذيذ الذي يأخذونه بدون كلفة ومشقة.

١٠- ومن فوائدها: أن الله - تعالى - أنعم عليهم بتيسير الحصول عليه والتمتع به؛ حيث قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وهذا الأمر للامتنان والإباحة.

١١- ومن فوائدها: أن الله إنما أذن لعباده أن يأكلوا من الطيبات دون الخبائث؛ والخبائث كل ما حرمه الله على العباد، فهو خبيث، لا ينتفعون به، ولكن ربما يحرم الله على عباده بعض الطيبات؛ عقوبة لهم؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]، وقد يُحَرِّمُ الإنسان من الطيبات لا تحريمًا شرعيًا، ولكن بما يُصاب به من الأمراض التي تجعله لا بد أن يمتنع عن بعض المأكولات والمشروبات، وهذا نوعٌ من التحريم، لكنه تحريم كوني لا شرعي؛ فقد

يبتلى الإنسان العاصي بأمراض تمنعه من التمتع بالطيبات التي أحلها الله له.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما نتمتع به من مأكول ومشروب، فإنها هو رزق من الله، وعطاء منه، ومنه، ليس بحولنا وقوتنا، وقد أشار الله - تعالى - إلى ذلك في سورة الواقعة فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٢﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ٦٣- ٦٧].

ومن المعلوم أننا لسنا الذين نزرعه وننميه، ولكن الذي يزرعه وينميه هو الله - عزَّ وَجَلَّ -، أما نحن فمنا السبب، والله هو المسبب - جلَّ وعلا -، ثم قال - تعالى - في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٢٤﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٢٥﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٦٨- ٧٣]، فإذا علم العبد أن ما يتمتع به من النعمة هو من رزق الله؛ أوجب له ذلك الشكر لله - عزَّ وَجَلَّ - على هذه النعم، وأجب له أن يتبرأ من حوله وقوته بإيجاد هذه الأرزاق، وأوجب له أن يعرف قدر نعمة الله عليه بهذه الأرزاق، التي قد يكون كثير من الناس محروماً منها.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله - سبحانه وتعالى - لن ينقص ملكه معصية العاصين ولن يضره ذلك؛ لقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾؛ فالإنسان - مهما كان عليه من معصية - فإنه لن ينقص الله شيئاً، ولن يضر الله شيئاً؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

١٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العاصي ظالم لنفسه، معتدٍ عليها، غير قائم بما يجب لها؛ لأن نفسك أمانة عندك، فكما أنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر بدنك حساً، فإنه يجب عليك أن تتوقى ما يضر دينك، ومن المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يلقي بنفسه إلى التهلكة في الأمور الحسية؛ كالأشياء التي تضره في بدنه؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فكذلك - أيضاً - لا يجوز له أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فيما يضره في دينه، بل إن ما يضره في دينه أولى بالمرعاة مما يضره في بدنه؛ لأن ضرر الدين ضرر في الدنيا والآخرة، أما ضرر البدن فهو ضرر في الدنيا فقط.

١٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان قصور الآدمي، وأنه عدو نفسه، يظلم نفسه وهو لا يشعر أنه ظالم لنفسه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

١٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان بل يجب عليه أن يتبصر، ويتيقظ، وينظر مدى الخسارة العظيمة التي تلحقه بفعل المعاصي أو ترك الواجبات حتى يحمي نفسه من هذا الظلم وهذا الضرر.

* * *

ثُمَّ قَالَ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤٧﴾﴾.

في هاتين الآيتين يُذَكِّرُ اللهُ بني إسرائيل بهذه النعمة التي أنعم اللهُ بها عليهم، ولكنهم كفروها، فيقول لهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾، وهذا القول يحتمل أن يكون قولاً كونياً أو قولاً شرعياً، ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾؛ وهي القرية التي فتحوها، قيل لهم: ادخلوها، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ حلالاً لكم، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ سُجَّدًا لله - تعالى - شاكرين له هذه النعمة العظيمة التي منحكم إياها، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ أي: قولوا احطط عنا ذنوبنا، واغفر لنا؛ ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾؛ أي: نغفر لكم آثامكم وذنوبكم التي ارتكبتها، وسنزيد المحسنين إحساناً على التوبة، إذا أحسنوا في

معاملة الله، ولكن كانت النتيجة أن بدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم.

وقال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ولم يقل: «بدلتهم»؛ إشارة إلى أنهم كانوا ظالمين فيما بدلوه؛ بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم، قيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّدًا، ولكنهم لم يدخلوا سُجَّدًا، بل دخلوا على أستاذهم؛ أي: على ألياتهم وعجائزهم، وقيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾؛ أي: احطط عنا ذنوبنا، ولكن لم يقولوا ذلك، بل قالوا: حنطة؛ أي: سألوا طعامًا يملئون به بطونهم، فلم يسألوه مغفرة لذنوبهم.

قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أنزل على الذين ظلموا؛ أي: عليهم، ولكنه كرر الظلم تشنيعاً عليهم، ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ أي: عذاباً من السماء، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾؛ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ - .

في هاتين الآيتين يُذَكَّرُ اللهُ - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل بما أنعم عليهم من إباحة دخول هذه القرية فاتحين آكلين مما رزقهم الله أكلاً رغداً لا شبهة فيه، وَيُذَكَّرُهُمْ - أيضاً - بأنه أمرهم بما فيه مصلحتهم وحسن عاقبتهم، وهو أن يقولوا: «حطة»؛ أي: احطط عنا ذنوبنا واغفر لنا حتى يغفر لهم، ثم يذكرهم الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنهم بدلوا قولاً

غير الذي قيل لهم، فلم يدخلوا سُجَّدًا، ولم يقولوا: حطَّة ظلمًا، وعدوانًا، وإنكارًا لفضل الله - تعالى - عليهم ونعمته؛ فكانت عاقبتهم أن أنزل الله عليهم رجزًا من السماء؛ بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

ما يستفاد من هذه الآية الكريمة:

١- مِنَّة الله عليهم؛ أي: على بني إسرائيل بما أباح الله لهم من دخول هذه القرية، وما أباح لهم من أكل ما رزقهم منها رغدًا ليس فيه حرج ولا تبعة.

٢- ومن فوائدها أيضًا: أن الله أمرهم بأن يدخلوا الباب سُجَّدًا؛ ويتفرع عن هذا مشروعية السجود، سجود الشكر عند تجديد النعم؛ كما هو المشروع في شريعتنا أن الإنسان إذا تجددت له نعمة، فإنه يُسَنُّ له أن يسجد لله - تعالى - شكرًا؛ وسجود الشكر سجودٌ مجردٌ ليس صلاة، بل يكبر الإنسان ويسجد، ويقول: سبحان ربي الأعلى، سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، ثم يثني على الله - تعالى - بما أنعم به من هذه النعمة، ويشكره عليها، ثم يرفع بدون تكبير ولا تسليم.

٣- ومن فوائده هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للإنسان إذا نصره الله ويسَّر له أسباب النصر ألا يغترَّ بنفسه، وألا يعجب بعمله، بل يسأل الله المغفرة، مغفرة الذنوب؛ حتى لا يشمخ، ويتعالى، ويرفع؛ لقوله

- تعالى :- ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ .

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله - تعالى - وعد من استغفر وطلب منه مغفرة الذنوب أن يغفر له؛ لقوله: ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ﴾ ، وهذا مشروط بما إذا كانت التوبة نصوحًا، وقد مرَّ علينا من قبل بيان التوبة النصوح؛ وهي التي جمعت خمسة شروط.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله - تعالى - يزيد المحسنين من فضله إحسانًا وفضلًا، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧] ، وكقوله - تعالى - : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] ؛ فالله - سبحانه وتعالى - أكرم من عبده وأجزل عطاء؛ الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن بني إسرائيل من أبعد الناس عن شكر نعمة الله؛ ولهذا بدلوا قولاً غير الذي قيل لهم؛ فبدلوا قول الله لهم: ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ بدّلوه بأن دخلوا يزحفون على أستاههم وعجائزهم، وبدلوا قول الله - تعالى - : ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ بقولهم: «حنطة»؛ يعني: أنهم لم يهتموا بذنوبهم، وإنما كان همهم أمرًا ماديًا، وهو أن يشبعوا بطونهم.

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن من خالف أمر الله؛ فإنه حري بأن

يُعَذِّبَ وَيُعَاقِبَ؛ لقوله - تعالى - : ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الحكمة والعللة لأفعال الله، وأن أفعال الله - تعالى - مربوطة بحكمها وأسبابها؛ لقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾؛ فإن قوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كالتعليل لإنزال الرجز؛ أي: أنهم إنما أنزل عليهم الرجز لظلمهم، وعللة أخرى وهي فسقهم؛ لقوله - تعالى - : ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ .

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات الأسباب في المقتضيات لمسبباتها، وهذا - لا شك - من تمام حكمة الله أَنْ رَبَطَ الْأَشْيَاءَ بِأَسْبَابِهَا، وهو دليل على أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يخلق خلقاً عبثاً، ولا يشرع تشريعاً باطلاً؛ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ ﴿٦١﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُدَكِّرُ اللهُ - تعالى - بني إسرائيل بهذه النعمة

العظيمة التي يجريها على يد نبيه موسى ﷺ؛ فبينما كان موسى وقومه محتاجين إلى الماء استسقى موسى لقومه، فسأل الله - تعالى - أن يسقيهم، فأمره الله - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْحَجْرَ، فَضْرِبَ الْحَجْرَ؛ فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، حجرٌ واحد نبعت منه اثنتا عشرة عينا على عدد أسباط بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا اثني عشر سبطاً، هذه العيون توزعت، فعلم كل أناس مشربهم، هؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه، وهؤلاء مشربهم هذه؛ لئلا يحصل التزاحم بينهم والتقاتل على الماء.

قال الله - تعالى -: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُمْسِدِينَ﴾ فأباح الله لهم - امتناناً منه وفضلاً - أن يأكلوا ويشربوا من رزق الله، وأن يقيدوا هذه النعم بشكرها؛ فلا يعثون في الأرض مفسدين، وإفساد الأرض ليس الإفساد الحسي الذي يكون بتدمير الديار، وتخریب الآبار والحروث، ولكنه بالمعاصي؛ كما قال كثير من السلف في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، قال: لا تفسدوها بالمعاصي، ولا شك أن المعاصي سبب في الدمار والفساد الحسي؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]؛ ولقوله - تعالى -: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - افتقار الخلق إلى الله، ولو كانوا أعلى أصناف الخلق وهم الرسل؛ ولهذا استسقى موسى لقومه، واستسقى أشرف الأنبياء محمد ﷺ لقومه حين دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: «يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه ورفع الناس أيديهم، وقال: «اللهم أغثنا» ثلاث مرات، قال أنس بن مالك - وهو راوي الحديث «والله، ما نرى في السماء من سحابة ولا قرعة^(١)، وما بيننا وبين سلع^(٢) من بيت ولا دار - وطلع جبل صغير في المدينة يخرج من نحوه السحاب - قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس - والترس شيء يتقي به المقاتل السهام حين القتال حتى لا تصيبه، وهو شيء يشبه الطست فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت»، فما نزل النبي ﷺ عن المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته، الله أكبر! فبقي المطر أسبوعاً كاملاً، وسالت الأودية حتى سال الوادي قناة - وهو واد مشهور في المدينة حتى الآن - شهراً كاملاً، وفي الجمعة الثانية دخل رجل أو الرجل الأول والنبي ﷺ يخطب - فقال: يا رسول الله، غرق المال وتهدم البناء، فادع الله يمسكها

(١) القرعة: هي القطعة من السحاب.

(٢) هو جبل معروف بالمدينة.

عنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهمَّ حوالينا ولا علينا»، ولم يقل: اللهم أمسكها عنا كما طلب الرجل؛ لأن إمساك المطر ليس من مصلحة الإنسان؛ ولكن من مصلحته أن ينزل المطر على وجه لا ضرر فيه، فقال: «اللهمَّ حوالينا ولا علينا»، وجعل يشير إلى المناحي بيده - عليه الصلاة والسلام - فتمايز السحاب حيث أشار النبي و، وخرج الناس يمشون في الشمس»^(١).

ففي هذه القصة، وفي قصة موسى - صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم - دليل على أن الخلق مفتقرون إلى الله مهما بلغت منزلتهم عند الله - عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن موسى قال الله عنه: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، ومحمد ﷺ أعظم الناس وجاهةً عند ربه، ومع ذلك كل منهما مفتقر إلى الله، يسأله ويلجأ إليه، ويتضرع إليه، فإذا كان هذا مقام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فما بالك بمقام من دونهم؟

ويتفرع عن هذه الفائدة أنه يجب على الإنسان إذا أصابه الضرر ألا يلجأ إلا لله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يلجأ إلى فلان وفلان من الأحياء أو الأموات فيدعوهم ويستغيثهم، ويسألهم كشف الضرر؛ فإن دعوة غير الله - عَزَّ وَجَلَّ - شرك، شرك أكبر مخرج عن الملة؛ قال الله - تعالى -:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة، رقم (١٠١٤)؛ ومسلم:

كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

﴿ أَمَّنْ تُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴿ [النمل: ٦٢]، ليس هناك إله مع الله يستطيع هذا.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان ما حصل من عصا موسى من الآيات؛ حيث ضرب بها الحجر فانفجر عيوناً، وهذه العصا حصل فيها ثلاث آيات عظيمة: إحدى الآيات: أنه إذا ألقاها صارت حية تسعى، والآية الثانية: أنه ضرب بها هذا الحجر فانفجر عيوناً، والآية الثالثة: أنه ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

٣- ومن فوائد هذه الآية: بيان عظم قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث تفجر من هذا الحجر - الذي ضربه موسى بالعصا - اثنتا عشرة عيناً والناس ينظرون، فهذا دليل على كمال قدرة الله، وأنه - عَزَّ وَجَلَّ - إذا أراد شيئاً فإنما يقول له: كن؛ فيكون، قال أهل العلم: وما من آية لنبي إلا كان لنبينا ﷺ مثلها أو أعظم منها، إما على يد النبي ﷺ مباشرة أو على يد أتباعه الذين صدقوا في اتباعه، قالوا: وهذا الماء الذي تفجّر من الحجر لموسى ﷺ حصل لنبينا ﷺ ما هو أعظم منه؛ فإن الناس في غزوة الحديبية أصابهم عطش وقلّة ماء، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ، وكان بين يديه ركوة - إناء من جلد صغير - فقالوا: يا رسول الله، عطشنا - يعني: شكوا إليه قلّة الماء -، فوضع النبي ﷺ يده في هذه

الركوة، وجعلت هذه الركوة تفور كأمثال العيون^(١)؛ فارتوى الناس كلهم بإبلهم ورجلهم، وكانوا ألفاً وأربعمائة أو قريباً من ذلك.

فخرج هذا الماء ونبوعه وفورانه من هذه الركوة أعظم من خروجه من الحجر؛ لأن الحجر جرت العادة أن تتفجر منه العيون؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة: ٧٤]، أما الركوة فلم تجر العادة أن تتفجر العيون منها، ولكن الله - تعالى - على كل شيء قدير ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤].

٤- ومن فوائد هذه الآية: أنه ينبغي قسم الماء بين الناس عند الكثرة وتوزيعه عليهم؛ حتى لا يحصل الازدحام والاقتيال، والعداوة والبغضاء بينهم؛ لأن النفوس مجبولة على محبة الاستئثار بالشيء، فإذا توزع الشيء وصار كل طائفة لهم جهة معينة مخصوصة؛ كان ذلك أقرب إلى السلامة مما يترتب من الآثار السيئة على اجتماعهم على

(١) انظر البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم (٤١٥٢)؛ ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم (١٨٠٧).

مشرب واحداً.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان ما امتنَّ الله به على بني إسرائيل من هذا الماء والطعام الذي أذن لهم في أكله وشربه؛ فقال - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: جواز إضافة الماء النابع إلى المختص به؛ لقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، وفي هذه الإضافة فائدة وهي أن صاحبه يكون أحق الناس به، ولا يزاومه أحد عليه، أما جواز بيعه وعدمه فهذا له شأن آخر.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه يجب على المرء - إذا أنعم الله عليه نعمة - أن يجعل النعمة سبباً للقيام بطاعته، لا سبباً للأشر والبطر؛ ولهذا أعقب قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أعقبه بقوله: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأن الطبيعة البشرية إذا لم يؤيدها الله - تعالى - بالوحي من طبيعتها أن تحملها سعة الرزق على الأشر والبطر؛ ولهذا نهى بني إسرائيل عن العثو في الأرض فساداً، حيث يسر لهم الأكل والشرب من رزق الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ويتفرع على هذا أن يتذكر الإنسان، ويفكر فيما منَّ الله عليه من النعم؛ حتى لا يجعلها سبباً للأشر والبطر، ونسيان أوامر الله، والكفر بشريعة الله.

ثم قال الله - تعالى :- ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۗ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۗ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٦﴾ ۗ

في هذه الآية يُذَكِّرُ الله - عزَّ وجلَّ - بني إسرائيل بما جرى لهم مع نبيهم موسى ﷺ حين قالوا له: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾، وهذا الطعام الواحد هو المن والسلوى الذي أنزله الله عليهم بدون كلفة وبدون مشقة، وهو من أطيب أنواع الطعام، لكنهم - والعياذ بالله - لم يصبروا على هذه النعمة، وطلبوا من موسى ﷺ أن يدعو لهم ربه؛ ليخرج لهم مما تنبت الأرض لا مما ينزل من المن والسلوى.

﴿ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۗ ﴾، كل هذه الأنواع من الأطعمة هي أقل بكثير ودون ما أنزل الله عليهم من المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾، وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: كيف يليق بكم أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ أي: أن تأخذوا الأدنى بالأعلى، هذا لا يليق بكم، وإذا شئتم هذا الأدنى؛ فلا

حاجة إلى دعاء الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن يخرج له لنا.

﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾؛ أي: أيُّ مصرٍ تهبطونه تجدون هذا الشيء؛ لأن هذه أنواع منتشرة، ليست أنواعًا من أطيب الأنواع التي لا توجد إلا في محل دون محل، ولا يقدر عليها إلا واحد دون آخر، بل هي أنواع موجودة مبذولة؛ ولهذا قال: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾، وليس المراد مصر المعينة؛ بل المراد: أيُّ مصر كان تهبطونه؛ فإنكم ستجدون ذلك، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾، ومن أجل عدم الصبر على طعام واحد، ومن أجل المعاصي العظيمة التي ارتكبوها؛ ضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة، الذلة في القلوب، والمسكنة في الجوارح؛ فكانوا أذلَّ الناس، وأجبنهم، وأخوفهم؛ ولهذا تجد اليهود أذلَّ الناس وأجبنهم؛ لأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة؛ قال الله - تعالى -: ﴿لَا يُقْتَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحْصَنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤].

﴿وَبَاءُ وَبِغَضِبٍ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي: رجعوا بغضب من الله عليهم؛ حيث كفروا نعمته، وعصوا رسوله، ولم يصبروا على نعمه؛ قال: ﴿وَبَاءُ وَبِغَضِبٍ مِنَ اللَّهِ﴾، وعلل ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾؛ يكفرون بآيات الله الكونية والشرعية؛ ففي الآية الكونية: لم يصبروا على طعام واحد، ولم يقتنعوا بهذه الآية

العظيمة، ويشكروا الله عليها، أن أنزل عليهم المنّ والسلوى، وفي الآية الشرعية: قيل لهم: «قولوا حطة» فبدلوا وقالوا: «حنطة»، وأمروا فلم يأتمروا، ومُها فلم ينتهوا؛ فكفروا بآيات الله، وبسبب هذا الكفر وقتلهم النبيين بغير حق ضُربت عليهم الذلة والمسكنة، وكان هذا القتل للنبيين والكفر بآيات الله عصيَانًا عظيمًا؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ فكانوا عصاة معتدين، نسأل الله العافية.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- في هذه الآية من الفوائد: بيان سفه بني إسرائيل؛ حيث لم يصبروا على هذا الطعام الطيب الذي أنزله الله من السماء؛ تكريماً لهم، وإتماماً للنعمة، ولكنهم كفروا به وقالوا: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِهِ وَحَدِيدٍ﴾.
- ٢- ومن فوائدها: جواز التوسُّل بدعاء من تُرَجَى إجابته؛ فإن هؤلاء قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّنَا يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثَبِتُ الْأَرْضُ﴾، وقد قررت شريعتنا هذا النوع من التوسُّل؛ فإن الناس كانوا يأتون إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يدعو الله لهم؛ كما في قصة الرجل الذي دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السُّبل، فادع الله يغيثنا^(١)، وكما قال عكاشة بن محصن - حين تحدث النبي ﷺ: أنه يدخل من أمته سبعون ألفاً، يدخلون الجنة بلا

(١) سبق تخريجه ص (١٧٤).

حساب ولا عذاب، فقال عكاشة بن محصن: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أنت منهم»^(١).

فالتوسل إلى الله بدعوة من تُرَجَى إجابته جائز، ولكن هل هو أمر مطلوب أم لا؟ نقول: إن كان لأمر عام فهو أمر مطلوب؛ يعني: أنه يُسَنُّ للإنسان أن يطلب أو أن يتوسل بدعاء مَنْ تُرَجَى إجابته في أمر عام للمسلمين؛ كما طلب عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - من العباس بن عبد المطلب أن يستسقي للمسلمين^(٢)، وكما في طلب الرجل الذي قال لرسول الله: «ادع الله أن يغيثنا...»، وأما إذا كان لأمر خاص فإن كان طالب الدعاء يريد بذلك أن ينفع المطلوب إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ فإنه يكون محسناً إليه ويُرَجَى أن تجاب دعوته، ويُعطى مثلها؛ لأن الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: آمين ولك بمثلها^(٣)، أما إذا قصد المتوسِّلُ بدعاء من تُرَجَى إجابته مصلحة نفسه الخاصة فهذا لا ينبغي، بل قد صرح بعض أهل العلم بأنه من المسألة

(١) انظر البخاري: كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، رقم (٦٥٤٢)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، حديث رقم (٢١٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، رقم (١٠١٠).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب، رقم (٢٧٣٢).

المذمومة، وأنت أيها الأخ المسلم إذا أردت الدعاء فادع الله بنفسك، لا تعتمد على غيرك؛ لأن دعاءك الله عبادة، وربما يحدث لقلبك من الإنابة إلى الله، والرجوع إليه، والافتقار إليه ما هو أفضل بكثير من إجابة دعوتك التي تريد.

٣- ومن فوائدها: إثبات أن بني إسرائيل يؤمنون بأنه لن يقدر على إنبات الزرع وإخراجه من الأرض إلا الله؛ لأنهم قالوا لموسى - كما ذكر الله - تعالى :- ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ مُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَابِهَا﴾ الآية.

٤- ومن فوائدها: التوسل إلى الله - تعالى - باسم الرب عند الدعاء؛ لقولهم: ادع لنا ربك؛ ولهذا كان قول الداعي: يا رب، يا رب، من أسباب إجابة الدعاء؛ كما أشار إليه رسول الله ﷺ حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب^(١)، وكذلك إذا تأملت الدعاء المذكور في القرآن وجدت كثيرًا منه مصدرًا باسم الرب «يا ربنا».

٥- ومن فوائدها هذه الآية الكريمة: انحطاط همم بني إسرائيل؛ حيث نزلوا من الأعلى إلى الأدنى؛ فطلبوا من موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يدعو الله أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من هذه الأنواع

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

التي تعتبر نازلة بالنسبة إلى المن والسلوى؛ ولهذا قال لهم نبيهم ﷺ كما ذكر الله - تعالى -: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾، وهذا يدل على سفههم وعدم صبرهم على ما مَنَّ اللهُ به عليهم.

٦- ومن فوائدها: جواز تفضيل الأطعمة بعضها على بعض، وأنه يجوز للإنسان أن يقول: هذا أدنى من هذا، أو هذا أعلى من هذا، أو هذا أردأ من هذا، أو هذا أطيب من هذا.

٧- ومن فوائدها: أنه لا يلام الإنسان إذا اختار الأطيب من الطعام، ولا يُعَدُّ ذلك من باب الإسراف؛ فقد أقرت شريعتنا هذا؛ فإن النبي ﷺ جيء إليه بتمر طيب فسأل: «أكل تمر خبير هكذا؟» قالوا: لا، والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة؛ فقال رسول الله ﷺ: «فلا تفعل، بع الجمع بالدرهم، ثم ابتع بالدرهم جنياً»^(١)، وأرشدهم ﷺ إلى أن يبيعوا التمر الرديء بدرهم، ثم يشتروا بالدرهم تمرًا جيدًا، ولم ينههم عن اختيار التمر الطيب يقدمونه إلى رسول الله ﷺ، فإذا اختار الإنسان من الطعام أطيب الأنواع، وكانت حاله تتحمل هذا، ولا يُعَدُّ ذلك سرفًا بالنسبة إليه؛ فإنه لا بأس به، ولا يلام الإنسان عليه؛ بل هذا من باب التمتع

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا أراد بيع تمر بتمر خير منه، رقم (٢٢٠٢)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٣).

بنعم الله. والله - سبحانه وتعالى - يجب من عباده أن يتمتعوا بنعمه،
وينهاهم أن يجرموا شيئاً من الطيبات على أنفسهم؛ كما قال - تعالى -:
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]؛ وذلك لأنه - سبحانه وتعالى -
كريم؛ والكريم يجب أن يتمتع من يناله كرمه بكرمه.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما كان موجوداً مبذولاً لا
يحتاج الإنسان أن يدعو الله - تعالى - لحصوله؛ لأن الدعاء في مثل هذا
سفه؛ فإنه موجود بين يديك، ولكن ادع الله - تعالى - ببقائه،
واستمراره، وألا يرفعه عنك؛ لأن هذه الدعوة في محلها، أما أن تقول:
اللهم ارزقني كذا وكذا، وهو بين يديك فهذا لا وجه له؛ ولهذا قال
موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَاءً
سَأَلْتُمْ﴾.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله ضرب على بني إسرائيل
الذلة والمسكنة، فهم دائماً في ذل، ودائماً في مسكنة، حتى وإن اغتنوا؛
فإن قلوبهم فقيرة؛ ولهذا تجد اليهود أشد الناس طلباً للمال وفناء في
تحصيله؛ يحرصون على تحصيل المال بأي ثمن ولو بالطريق المحرم؛
قال الله - تعالى -: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ
لَهُمْ وَبِصَدَقَتِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدَّحُوا عَنْهُ وَأُكِّلِهِمْ

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَطِيلِ ﴿ [النساء: ١٦٠، ١٦١]؛ فهم آخاذون للربا، أكالون للسطح، ظالمون للعباد، فهذا دأب اليهود بالنسبة لأخذ المال، هم في مسكنة دائمة، وفي فقر دائم، لكنه فقر قلبي، وإن كان عندهم من الأموال عدد كثير.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حلول الغضب على بني إسرائيل؛ لقوله - تعالى - : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

١١- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الله - تعالى - لا يظلم أحداً، لكن الذي يظلم هو الإنسان نفسه؛ ولهذا لما ذكر الله عقوبتهم بضرب الذلة والمسكنة وحلول الغضب عليهم بيّن أن هذا بسبب كفرهم؛ فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿، فكفرهم بآيات الله معصية عظيمة أكبر المعاصي، وكانت سبباً لضرب الذلة والمسكنة عليهم.

١٢- ومن فوائد هذه الآية: إثبات تعليل أفعال الله؛ أي: أن أفعال الله مُعللة؛ أي: مقرونة بالحكمة، فما من فعل يفعل الله ولا حكم يشرعه الله إلا مقرون بحكمته؛ ويتفرع على هذه الفائدة أنه كلما مررنا

شيء مقرون بمشيئة، فيجب أن نعلم أنها ليست مشيئة مجردة، وإنما هي مشيئة اقتضتها الحكمة، ويدل على هذا قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأشار الله - تعالى - في هذه الآية إلى أن مشيئته مقرونة بحكمته فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠].

١٣- ومن فوائد هذه الآية: أن بني إسرائيل - مع عدوانهم في حق الله - معتدون على عباد الله؛ فهم يقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس بغير الحق، وفي قوله: ﴿ بَغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تشنيعٌ عليهم، وأن قتلهم للأنبياء في غير محله؛ لأنه قتل بغير حق؛ فالصفة - هنا - ليست صفة مقيدة، وإنما هي صفة كاشفة موضححة أن قتل النبيين بغير حق، فيكون في هذا فائدة وهي زيادة التشنيع على بني إسرائيل يقتلهم النبيين.

١٤- ومن فوائد هذه الآية: بيان عصيان بني إسرائيل واعتدائهم، وأنهم أصحاب معصية، واعتداء على الله، وعلى عباد الله - عز وجل -.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

في هذه الآية يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - مُبَيِّنًا كمال عدله، وأنه لا يضيع
عمل عامل عَمِلَ صَالِحًا وَآمَنَ؛ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ وهم أتباع
رسول الله ﷺ .

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيْنَ﴾؛ الذين هادوا: هم
أتباع موسى ﷺ، ووصفوا بهذه الصفة؛ لأنهم قالوا: إنا هُندنا إليك؛
أي: رجعنا إليك، والنصارى: أتباع عيسى بن مريم، وسُموا نصارى؛
إما نسبة إلى بلدة تسمى الناصرة، وإما من النصر؛ لأن عيسى لما قال -
كما جاء في قوله - تعالى -: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ آلَ حَوَارِيُونَ نَحْنُ
أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وأما الصابئون: فهم قوم لهم دين يتدينون به، وقيل: إن الصابئ في
الأصل من لا دين له، ولكن الذين هادوا والنصارى والصابئين قِيَدَ
استحقاقهم الأجر بالإيمان بالله ﷺ اليوم الآخر، والعمل الصالح، أما
المؤمنون فقد استحقوا هذا الوصف؛ فالقيد إن كان واردًا في حقهم
فهو على سبيل التوكيد، وذلك أن الذين بقوا على اليهودية،
والنصرانية، والصابئة بعد بعثة الرسول ﷺ ليسوا على حق، ولا
يصدق عليهم أنهم مؤمنون بالله ﷺ اليوم الآخر؛ لأنهم لو آمنوا بالله
ﷺ اليوم الآخر حقًا لاتبعوا محمدًا ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُدًى لَّهُمْ
الطَّبِيبَتِ وَنُحْرِمُهُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، والذي كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فهم - أعني: اليهود، والنصارى، والصابئين بعد بعثة محمد ﷺ لا يصدق عليهم أنهم يؤمنون بالله ﷻ اليوم الآخر، ويعملون صالحًا إلا إذا اتبعوا محمدًا ﷺ؛ يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يتضمن الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته؛ فمن أنكر الله فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بربوبيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بألوهيته فليس بمؤمن، ومن لم يوحده بأسمائه وصفاته، فيثبتها على ما جاءت في كتاب الله ﷻ سنة رسوله ﷺ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل؛ فليس بمؤمن؛ إذن الإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: الإيمان بوجوده، وبتوحيده في الربوبية، وبتوحيده في الألوهية، وبتوحيده في الأسماء والصفات.

وأما قوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ فالعمل الصالح: هو الذي اجتمع فيه شرطان:

الشرط الأول: أن يكون خالصًا لله، لا يشوبه إشراك.

والشرط الثاني: أن يكون مُتَّبَعًا فيه رسول الله ﷺ؛ فلا يشوبه

ابتداع؛ ولهذا لا يكون العمل عملاً صالحًا إلا إذا كان لله خالصًا، ولشرعه موافقًا؛ فإذا اجتمع الإيمان بالله جل وعلا، واليوم الآخر، والعمل

الصالح؛ ثبت الأجر.

والإيمان باليوم الآخر يتضمّن الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت، فيشمل الإيمان بما يكون في القبر من سؤال الملكين الميتّ عن ربه، ودينه، ونبيه، ومن عذاب القبر ونعيمه، وكذلك ما يكون يوم القيامة من الجزاء ثوابًا وعقابًا، وتفصيل ذلك مذكورة في الكتاب والسنة.

وأما الأجر: فهو الثواب على هذا العمل المبني على الإيمان بالله ﷻ اليوم الآخر، وهو الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن قام بهذين الوصفين: الإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يأمن من كل خوف من مستقبل، وحزن على ما مضى.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وأن من قام بالإيمان والعمل الصالح؛ فإن له الأجر عند ربه، سواء أكان من المؤمنين الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، أم من اليهود، والنصارى، والصابئين؛ فاليهود - مثلًا - حين كانت شريعتهم قائمة - إذا اتصفوا بالإيمان والعمل الصالح - كان لهم أجرهم كاملاً مُوقَّراً، وكذلك النصارى، وكذلك الصابئون، أما إذا كان دينهم منسوخًا؛ فإن الواجب عليهم أن يتحولوا عنه إلى الدين الناسخ، والملة الجديدة؛ ولهذا يعتبر اليهود كفارًا بالنسبة للنصارى؛ أي: كافرين بعيسى ابن مريم، ويعتبر النصارى كفارًا

بالنسبة لمحمد ﷺ؛ أي: كافرين بمحمد ﷺ، والكافر بمحمد ﷺ كافر حتى بنبيه؛ لأن الأنبياء قد بشروا به؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّهُ^(١) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١٦﴾ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧].

فمن كفر بمحمد ﷺ بعد بعثته؛ فإنه - حقيقة - لم يؤمن حتى برسوله؛ وعلى هذا فاليهود والنصارى والصابئون الموجودون اليوم لو قالوا: إنهم مؤمنون بالله ﷻ اليوم الآخر ويعملون عملاً صالحاً، فإننا نقول لهم: هذا لا ينفعكم؛ لأن الإيذان بالله ﷻ اليوم الآخر يستلزم الإيذان بمحمد ﷺ، والعمل الصالح لا يكون عملاً صالحاً إلا بموافقة شريعة محمد ﷺ، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من المخلصين له، المتبعين لرسوله.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أن العمل لا يثبت فيه الأجر إلا إذا كان عملاً صالحاً، والعمل الصالح - كما أسلفنا - ما اجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ؛ فمن عمل عملاً يتضمن شيئاً من الشرك؛ فإن عمله ليس بصالح، وليس بمقبول عند الله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

(١) أي: القرآن الكريم.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿[الكهف: ١١٠].

وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: أن الله قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»^(١)؛ فمن تعبد لله عبادة يرائي فيها الناس؛ فإنها لا تقبل منه؛ لأنها ليست عملاً صالحاً، ولكن - هنا - مسألة يشكو منها كثير من الناس؛ كثير من الناس يقول: إنني إذا هممت بعمل صالح أتاني الشيطان، وقال: إنك مرء؛ فيقعدني عن العمل، فما الحل لهذه المشكلة؟ وجوابنا على هذا أن نقول: الحل لهذه المشكلة أن تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأن تنتهي عن ذلك، وأن تستمر في عملك الصالح معرضاً عما يليق الشيطان في قلبك من أنك مُريدٌ للرياء، وفكّر: فلو أنك سئلت هل أنت مرء بهذه العبادة؟ لقلت: لا، إذن لا يصدنك الشيطان عنها بهذه الوسوسة، فاستمر في العمل، ولا يهمنك ما يليق الشيطان في نفسك من وساوس.

ويشكو بعض الناس - أيضاً - أنه يدخل في العبادة ليس في قلبه رياء، ثم يحدث له الرياء في أثناء العبادة، فما الحل؟

جوابنا على هذا: أن يسعى في طرده، والتخلص منه، وأن يقبل على عبادة الله، ويعرض عما ألقى الشيطان في قلبه من الرياء، وهو إذا دافع

(١) سبق تخريجه (٢٠).

هذا الرياء؛ فإنه لا يضره، ولا يؤثر على عبادته.

٣- ومن فوائد هذه الآية أيضًا: أن العمل الذي لا يكون موافقًا لشريعة الرسول ﷺ لا يقبل حتى وإن كان بنية خالصة، ليس فيها شرك؛ لأن النبي ﷺ قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١). وبناء على ذلك فإن جميع العبادات البدعية التي يتعبد بها أهلها، مهما كثرت، ومهما أثرت من لين القلب ودمع العين فإنها لا تنفعهم عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأنها على غير صراط الله؛ وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فأى إنسان يتعبد لله عبادة قولية كانت أم فعلية فعليه الدليل على أن هذه العبادة ثابتة عن رسول الله ﷺ، وإلا فإن عمله سيكون هباء، ويكون وبالاً عليه؛ لأنه ابتدع في دين الله؛ فقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسکوا بها، وعضوا علیها بالنواجذ، وإيَّاکم ومحدثات الأمور؛ فإن کلَّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»^(٢).

والبدع - مهما حسنت في قلوب مبتدعيها - فإنها سيئة؛ لأن النبي -

(١) سبق تخريجه (٤٩).

(٢) رواه أبو داود: كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧)؛ والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتنب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وابن ماجه: كتاب المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (٤٢)؛ والدارمي

عليه الصلاة والسلام - قال كلمة عامة شاملة: «كُلُّ بدعة ضلالة»، ولم يستثن النبي ﷺ شيئاً، والبدع - وإن حسنت في قلوب مبتدعيها - فإنها شر؛ تفرق الناس في دين الله، وتجعل كل طائفة من الناس تضلل الأخرى، ويكون كل حزب بما لديهم فرحون، كما هو الواقع الآن؛ لما انتشرت البدع في الأمة الإسلامية، ومنذ زمن بعيد صارت الأمة الإسلامية متفرقة يضلُّ بعضها بعضاً، وربما يصل الأمر إلى أن يكفِّر بعضهم بعضاً، فقد قال الله - تعالى -: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].
وإنني بهذه المناسبة أوجه النصيحة إلى إخواني المسلمين أن يحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها مبنية على شريعة الله، على ما جاء عن رسول الله ﷺ؛ فإن هديه خير الهدى، وما خرج عن هديه فهو ضلال، وفتنة، وبدعة، وأن يحرصوا - أيضاً - على الإخلاص لله - عزَّ وجلَّ -، فلا يفعلوا العبادة من أجل مُراءاة الخلق أو سماع الخلق؛ لأن الخلق لا ينفعونهم، فلا ينفعهم إلا الخالق - عزَّ وجلَّ -.

٤- ومن فوائد هذه الآية: الدليل على عظم الأجر على الإيمان والعمل الصالح؛ لأن الله - تعالى - أضافه إلى نفسه؛ فقال: ﴿ فَلَهُمْ

أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿٥﴾، وما كان من عند الله فهو من عند الكريم العظيم، وعطاء الكريم العظيم يكون عطاءً عظيمًا.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان نعمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - على عباده بهذا الثواب؛ حيث جعله بمنزلة الأجر اللازم الذي لا بد من إيفائه، وهذا من نعمة الله؛ فهو الذي تكفَّلَ بذلك، وكتب على نفسه أن من عمل صالحًا؛ فجزاؤه عند الله - تعالى - الأجر الذي يستحقه.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه بالإيمان والعمل الصالح يُطردُ الخوف ويُطردُ الحزن في الدنيا وفي الآخرة؛ ولهذا كان أشرف الناس صدرًا، وأنعمهم بالآل، وأشدهم طمأنينة؛ أي: أشدهم طمأنينة في القلب هم المؤمنون العاملون عملاً صالحًا؛ ولهذا قال بعض السلف: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحنُ فيه لجالدونا عليه بالسيوف».

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

الخطاب هنا لبني إسرائيل؛ يُذَكِّرُهُمُ اللهُ - سبحانه وتعالى - بما أخذ عليهم من الميثاق حين رفع فوقهم الطور - وهو الجبل المعروف -، وذلك بعد فسوقهم وعصيانهم، وأمرهم اللهُ أن يأخذوا ما آتاهم من الشرع بقوة لا ضعف فيها ولا هوادة، وأن يذكروا ما في هذا الذي

آتاهم من المواعظ والأحكام؛ ليصلوا بذلك إلى تقوى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكنهم تولوا بعد ذلك، ولولا أن الله - سبحانه وتعالى - تداركهم بفضلِهِ ورحمته؛ لكانوا من الخاسرين أبد الأبدين.

فوائد هاتين الآيتين:

١- تذكير الإنسان بما أنعم الله به عليه من النعم؛ ليذكر هذه النعمة فيشكر الله عليها، ولا سيما مع طول العهد وتناسي هذه النعم.

٢- أن الله - سبحانه وتعالى - أخذ العهد والميثاق على بني آدم أن يوحده ويؤمنوا به، وذلك بما ركب فيهم من العقول، وأنزل عليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾.

٣- بيان قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وعظمته؛ حيث رفع هذا الجبل العظيم فوقهم؛ تخويفاً وإنذاراً، وهذه الأمة - أعني الأمة المحمدية - لم يكن فيها مثل هذا الإنذار، ولكن كان فيها إنذار من نوع آخر؛ مثل كسوف الشمس، وخسوف القمر؛ فإن النبي ﷺ لما كسفت الشمس في عهده بيّن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله؛ يخوِّف الله بهما عباده، وأنها لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فبيّن النبي ﷺ أن الله يخوِّف بهما العباد؛ من أجل أن يرجعوا إلى ربهم؛ ولهذا شرع للناس الذين يرون الكسوف أو الخسوف أن يفتخروا إلى ذكر الله، واستغفاره، والصلاة، والصدقة، والعتق.

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين: وجوب أخذ الإنسان بشريعة الله على وجه القوة التي ليس فيها ضعف ولا توان؛ لأن الإنسان إذا قابل أوامر الله بالضعف والتواني استولى عليه الشيطان، واستحوذ عليه حتى يوصله إلى تركها، والتواني في أوامر الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: التواني في فعل المأمورات بأن يتكاسل في فعل الواجبات، ويتراخى في فعل المندوبات؛ فيضعف إيمانه بذلك وينقص.

والثاني: الضعف في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإنسان أمام الشهوة الدافعة إلى فعل المعصية، وأعني بالشهوة شهوة الإرادة لا شهوة الجنس، وشهوة الجنس تكون - بلا شك - أحياناً - من الشيء المحرم إذا كانت على غير الأزواج وما ملكت اليمين، المهم أن الضعف كما يكون في فعل الأوامر يكون كذلك في ترك النواهي؛ بحيث يضعف الإنسان أمام شهوات نفسه؛ فيعجز عن كبحها عمّا حرم الله عليه.

٥- ومن فوائد الآيتين الكريمتين: وجوب ذكر ما في الكتب المنزلة من الوحي، وذكره على نوعين أيضاً: النوع الأول: أن يُذكر باللسان؛ وهذا يكون بتلاوة ما يُتلى، وتعليم ما يُعلّم، والثاني: أن يُذكر بالعمل؛ وذلك بالتطبيق؛ فإن تطبيق أوامر الله لا شك أنه ذكر له.

٦- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن أخذ الشرائع بالقوة وذكر ما فيها على حسب النوعين السابقين يكون سبباً للتقوى؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والتقوى مأخوذة من الوقاية؛ وهي أن يتقي الإنسان عذاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وقد فسّرت التقوى بتفاسير متعددة، لكنها لا تخرج عما ذكرنا؛ وهي فعل أوامر الله ﷻ واجتناب نواهيه - تبارك وتعالى -؛ لأن الوقاية من عذاب الله لا تكون إلا بذلك.

٧- ومن فوائد الآيتين الكريمتين: إثبات الأسباب؛ لقوله - تعالى -:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ فإن «لعل» - هنا - للتعليل، والعلّة: السبب، والناس في الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

قسم أفرطوا فيها، وقسم فرّطوا فيها، وقسم وسط.

فأما الذين أفرطوا فيها - أي: بالغوا وغالوا -؛ فإنهم أثبتوا الأسباب وجعلوها هي الفائدة المؤثرة التي لا يمكن أن يتخلف المسبب فيها عن السبب.

وأما الذين فرّطوا في الأسباب؛ فهم الذين قالوا: إن الأسباب ليس لها تأثير في مسيبتها، وإن الذي يحصل بهذه الأسباب لم يكن بها، ولكنه عندها؛ مثال ذلك: لو انكسرت زجاجة بحجر رُميت به، فعند القسم الأول الذين أفرطوا في إثبات الأسباب يكون انكسار الزجاجة بها أمراً طبيعياً لا بد منه، وعند الآخرين لم يكن الانكسار بسبب اصطدام الحجر بالزجاجة، وإنما كان عند اصطدام الحجر بالزجاجة لا به، ولا شك أن هذين القولين بعيدان عن الصواب، وأن الصواب هو القول الثالث الوسط، الذين أثبتوا الأسباب وتأثيرها في مسيبتها، ولكنهم

جعلوا ذلك مما خلقه الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيها من القوة؛ فهي لم تنفرد بالتأثير، ولكن خلق الله فيها هذا التأثير؛ ويدل لذلك السمع والعقل. فأما السمع؛ فإن الآيات والأحاديث في إثبات الأسباب وتأثيرها لا تكاد تحصى كثرةً.

وأما الواقع أو العقل؛ فإن الحسَّ شاهد بذلك؛ فكل إنسان يعرف أن انكسار الزجاج لرميها بالحجر، إنما كان بالحجر لا عند اصطدامه بها؛ ولهذا لو وضعت الحجر عليها وضعاً؛ لم يكن له تأثير فيها، ويدل على أن الأسباب لا تفعل بنفسها ولكنها تؤثر بما أودع الله فيها من القوة، أن النار المحرقة الحارة حين أمرها الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم كانت برداً وسلاماً عليه؛ فإن إبراهيم أُضرمت له نار كبيرة عظيمة وأُلقي فيها، حتى إن بعض العلماء قال: إن قومه لما أرادوا أن يلقوه في النار لم يتمكنوا من القرب منها فوضعوه في منجنيق ورموه بواسطته إلى النار، فقال الله - تعالى -: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]؛ فكانت برداً وسلاماً عليه، ولم تؤثر فيه شيئاً، وهذا يدل على أن تأثير الأسباب ليس تأثيراً ذاتياً حتمياً لا بد منه، بل بما خلقه الله فيها من القوة المؤثرة لا الفاعلة.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين أيضاً: أن بني إسرائيل - بعد هذا الإنذار الشديد - لم ينتفعوا بما أنذروا به، بل تولوا من بعده، وهذا يدل على قسوة قلوبهم، وأنهم من أشد الناس طغياناً وضلالاً.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - على بني إسرائيل، وما أكثر نعمه على بني إسرائيل، ولكنهم قوم لا يشكرون، بل كانوا يصفون الله - عَزَّ وَجَلَّ - بما يُنزه عنه؛ كقولهم: «يد الله مغلولة»؛ قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ٦٤].

ووصفوا الله - سبحانه وتعالى - بالفقر؛ قال الله - تعالى - : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

١٠- ومن فوائد هاتين الآيتين: أن الله - سبحانه وتعالى - يتدارك عبده بالفضل، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

١١- ومن فوائد هاتين الآيتين: تذكير آخر الأمة بما صنع أولها؛ لأنه إن كان خيراً كان من الفضل أن يتبعوا من سبقهم فيه، وإن كان شراً كان من الحكمة والعقل أن يتعدوا عنه، واستنبط بعض العلماء من هذا أن صنيع أول أمة يصح أن ينسب إلى آخرها؛ لأن الله خاطب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما صنعه آبائهم وأجدادهم، وهذه الفائدة محل نقاش ومحل تأمل.

١٢- ومن فوائد هاتين الآيتين: أنه ينبغي للإنسان ألا يضيف ما منَّ

الله به عليه من فضل إلى مجرد فعله هو؛ فينسى بذلك نعمة الله ﷻ فضله، ويقع في الإعجاب بالنفس الذي هو محط كل شر.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي آلِ سَبْتٍ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١١﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

يؤكد الله - سبحانه وتعالى - في هاتين الآيتين، في خطاب بني إسرائيل، في عهد النبي ﷺ أنهم قد علموا حال الذين اعتدوا منهم في السبت - وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه ؛ وكان الله - سبحانه وتعالى - قد حَرَّمَ عليهم الصيد في هذا اليوم وابتلاهم؛ حيث كانت تأتيتهم الحيتان في هذا اليوم شُرْعًا، طافيةً على ظهر الماء، كثيرة، يسهل أخذها، وفي غير هذا اليوم لا تأتيتهم الحيتان؛ فطال عليهم الأمد، وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها، فعملوا لذلك حيلة؛ فوضعوا «شباكًا» في يوم الجمعة، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت في هذه «الشباك»، وإذا كان يوم الأحد أتوا إلى الشباك، فأخذوا ما فيها من الحيتان؛ فعاقبهم الله - تعالى - بهذه العقوبة العظيمة أن جعلهم قردة خاسئين - القردة: جمع قرد، والخاسئ: هو الذليل - بعد أن كانوا بشرًا سويًا ذا عناد ورفعة، فجعل الله هذه العقوبة نكالًا لما بين يديها للأمة المعاصرة لهم، وما خلف هذه الأمة الآتية بعدهم، وجعلها كذلك

موعظة للمتقين؛ أي: سبباً لاتعاضهم، وقد سبق الكلام عن التقوى.
في هاتين الآيتين يذكر الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل الذين
كانوا في عهد النبي ﷺ بما حدث لمن سبقهم من بني إسرائيل بما ذكر
عن السبت.

فوائد هاتين الآيتين:

- ١- تذكير الأمة بما فعل سلفها؛ ليتخذوا منه عبرة.
- ٢- ومن فوائدهما: أن التَّحِيلَ على محارم الله لا يقلبها إلى حلال، بل
إنَّ التَّحِيلَ على المحارم لا يزيدها إلا قبحاً؛ لأن التحيل على المحارم فيه
محدور فعل المحرم، ومحدور الخداع لله - عَزَّ وَجَلَّ -، فيكون التُّحِيلُ
جامعاً بين فعل المعصية التي نهوا عنها وخيانة الله - سبحانه وتعالى -
وخداعه، ﴿ وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]،
فأعظم فائدة تستنبط من هاتين الآيتين: هي أن التحيل على محارم الله -
عَزَّ وَجَلَّ - لا يقلبها حلالاً؛ بل إن التحيل على المحارم لا يزيدها إلا
قبحاً؛ لأن المتحيل يقع في محظورين:

المحظور الأول: أن يقع بفعل هذا المحرم في المحظور.

الثاني: المخادعة لله - سبحانه وتعالى -؛ ولهذا نجد أن المنافقين
أعظم ذنباً وأكبر جرماً من الكافرين الصرحاء؛ كما قال الله - تبارك
وتعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]،
وقال - تعالى -: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وَيَبِّنَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى - أن المنافقين هم العدو الحقيقي الأكبر للمؤمنين؛ كما ذكره - سبحانه وتعالى - في سورة «المنافقون» في قوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرَهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ ومن هنا نعلم أن الذين يتحيلون على الربا بالطرق الملتوية أشد إثمًا من الذين يأتون الربا على وجه صريح؛ لما في فعلهم من الوقوع في محذور الربا من وجهٍ ومن مخادعة الله - سبحانه وتعالى - من وجهٍ آخر.

وهناك معنى ثالث في المخادعة؛ وهو أن المخادع يظن أنه على صواب، وأنه لم ينتهك المحرم؛ فلا يزال مستمرًا عليه، ولا يحدث نفسه بالتوبة منه، بخلاف الذي يأتي المحرم على وجه صريح؛ فإنه يرى نفسه مذنبًا مَقْصُرًا في حق الله؛ فيخجل من ربه - عَزَّ وَجَلَّ -، وربما يأتي اليوم الذي يتوب فيه إلى الله - سبحانه وتعالى -، فيكون الآتي للمحرم صريحًا أقرب إلى التوبة من المخادع الماكر؛ ولهذا لعن الرجل الذي يتزوج امرأة؛ لتحليلها لزوجها الأول؛ كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ «لعن المحللَّ والمحلَّلَ له»^(١).

والتحليل هو أن الرجل يتزوج امرأة طلقها زوجها ثلاثًا؛ من أجل

(١) رواه أبو داود: كتاب النكاح، باب في التحليل، رقم (٢٠٧٦)؛ والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء في المحلل والمحلل له، رقم (١١٢٠)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»؛ والنسائي: كتاب الطلاق، باب إحلل المطلقة ثلاثًا وما فيه من التغليظ، رقم (٣٤١٦)؛ وابن ماجه: كتاب النكاح، باب المحلل والمحلل له، رقم (١٩٣٤، ١٩٣٥)؛ والدارمي (١٥٨/٢)؛ وغيرهم.

أن يجامعها فيحلها لزوجها الأول، وهذا لا شك أنه مُحَرَّمٌ، وأنه لا ينفع؛ ولهذا قال أهل العلم: إنَّ الرجل إذا تزوج امرأة على سبيل التحليل؛ فإنها لا تحل للزوج الأول ولو أن الثاني جامعها؛ وذلك لأن نكاح التحليل نكاحٌ لا يُرادُ به حقيقته؛ فإنه إنما يريد أن يتزوج هذه المرأة؛ من أجل أن يجامعها ثم تعود إلى زوجها الأول، قال أهل العلم: ومع ذلك فإنها لا تحل للزوج الأول؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قال في كتابه: ﴿ فَإِنْ

طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾^(١) [البقرة: ٢٣٠]

ونكاح التحليل ليس بنكاح شرعي؛ لأنه نكاحٌ غير مقصود؛ فإن من المعلوم أن المقصود بالنكاح هو بقاء المرأة عند زوجها؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل من فوائد النكاح أن يسكن الرجل إلى زوجته وتسكن إليه، فإذا كان النكاح ليس نكاح رغبة، بل إنما تزوجها ليطلقها إذا أحلها للزوج الأول؛ فإن ذلك ليس بنكاح شرعي، وحينئذٍ لا تحلُّ للزوج الأول، وإنما نبهتُ على ذلك - وإن كان والله الحمد قليلاً عندنا -؛ لأنه قد يخفى على بعض الجهَّال؛ فيريدون فعل المعروف للزوج الأول، ولكنهم يسيئون إلى أنفسهم، ولا يفيدون الزوج الأول شيئاً؛ لأن الزوجة لا تحل للزوج الأول إذا كان النكاح الثاني نكاح تحليل لا رغبة.

(١) طلقها: أي: الطلقة الثالثة.

٣- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن العقوبة تكون مجانسة للعمل؛ كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهؤلاء القوم - لما تَحَيَّلُوا على فعل المحرم بما ظاهره الإباحة؛ حيث نصبوا الشباك في يوم الجمعة، وأخذوا الحيتان الواقعة فيه في يوم الأحد، وظاهر هذا الفعل أنهم لم يصطادوا في يوم السبت، وأنهم فعلوا فعلاً حلالاً؛ قلبهم الله - سبحانه وتعالى - إلى أقرب الحيوانات شَبْهًا بِالْإِنْسَانِ وهي القردة.

٤- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - ينقسم إلى قسمين: قول كوني؛ كما في هذه الآية: ﴿ فَكُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾؛ فإن هذا القول كوني وليس بشرعي؛ لأنه ليس باستطاعتهم أن يقبلوا أنفسهم إلى قردة، ولكنه القول الكوني الذي قال الله عنه: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وأما القول الشرعي؛ فهو ما جاءت به الرسل - عليهم الصلاة والسلام - مثل قوله - تعالى -: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإن قوله: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾: قول شرعي يُؤمر به العبد ويمكنه امتثاله، والفرق بين القولين - الكوني والشرعي - أن القول الكوني لا بد من نفوذه ووقوعه، أما القول الشرعي فإنه قد يمتثل المقول له وقد لا يمتثل، أما القول الكوني فلا بد من وقوع مقوله بكل حال.

٥- ومن فوائد هاتين الآيتين: إثبات القول لله؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - قائل ويقول، كما أنه متكلم ويتكلم، والكلام وصفه - سبحانه وتعالى - القائم به، وهو وصف ذاتي فعلي؛ فالكلام - باعتبار أصله - وصف ذاتي لم يزل الله ﷻ لا يزال مُتَّصِفًا به، وباعتبار آحاده وصف فعلي يتكلم بما شاء متى شاء، وهذا هو ما ذهب إليه السلف وأهل السنة والجماعة من أن الكلام وصف لله - تعالى - قائم بذاته متعلق بمشيئته.

٦- ومن فوائدهما: بيان قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث انقلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية؛ لقوله - تعالى -: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾؛ فكانوا قردة، ويبقى سؤال يطرح نفسه؛ وهو: هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل أم هي جنس من المخلوقات منفرد؟

وجوابنا على هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة - الآن - جنس منفرد من مخلوقات الله - عَزَّ وَجَلَّ -، مُسْتَقِلٌّ بنفسه، أما الَّذِينَ قَلْبُوا قِرَدَةً من بني إسرائيل؛ فإنه ليس لهم نسل، بل ماتوا، وهلكوا، وبادوا - كما قرَّر ذلك أهل العلم؛ - وذلك أن بني آدم من آدم، وآدم خلقه الله - تعالى - من تراب، ثم قال له: كُنْ؛ فيكون؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

٧- ومن فوائد هاتين الآيتين: تكذيب من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطوروا حتى صاروا بشرًا؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - جعل الإنسان قردًا - حينما أراد أن يعاقبه -؛ لمخالفته أمره، وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة الصريحة على أن آدم خُلِقَ من تراب، وأجمع على ذلك المسلمون، ولم يختلف فيه اثنان منهم، فمن اعتقد أن أصل بني آدم قردة؛ فإنه مُكذَّبٌ بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين، فإن قالها عن جهلٍ - لكونه عاش في بيئة لا تعلم سوى ذلك -؛ فإنه يُعَلَّمُ، فإن أصرَّ على ما كان عليه؛ صار كافرًا، وإن لم يقلها عن جهل - بأن كان مقيمًا في بلاد المسلمين الذين يقرءون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإنه يكون كافرًا بمجرد قوله: إن بني آدم أصلهم قردة؛ لأن هذا تكذيبٌ صريحٌ لما عَلِمَ من دين الإسلام.

٨- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن من رام المرتبة بغير استحقاق لها؛ فإنه يعاقب بنقيض قصده؛ لأن هؤلاء الذين اعتدوا، واستكبروا، وتعالوا عوقبوا بنقيض قصدهم؛ عوقبوا بأن حُوِّلوا إلى قردةٍ خاسئةٍ ذليلة، وهكذا كان من أراد علوًا في الأرض أو فسادًا؛ فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - لا يصلح عمله، بل يحطه وينزله؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصَلِّحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، ومن تواضع لله رفعه، ومن تعالى على الله ﷻ ضعه؛ ولهذا كان الإنسان كلما تواضع للحق وللخلق؛ ازداد رفعة عند الله ﷻ عند الخلق - أيضًا.

٩- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: إثبات العقوبة، وأن العقوبة لا بد أن يكون لها تأثير؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَجَعَلْنَهَا نَكَلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾، ووجه ذلك أن كل من اطلع على حال هؤلاء، فلا بُدَّ أن ينكل؛ أي: يمتنع عما كان عليه من الإثم والعدوان، سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم، واعلم أن «الجعل» - الذي أضافه الله لنفسه - ينقسم إلى قسمين: قسم كوني وقسم شرعي؛ فمن الكوني قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۗ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١].

ومن الشرعي قوله - تعالى -: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]؛ أي: ما شرع هذه الأشياء.

١٠- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن الموعدة إنما ينتفع بها المتقون؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ فمن ليس بمتقٍ فإنه لا ينتفع بالموعدة، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى للموعظة وأكثر انتفاعاً بها؛ وشاهدُ هذا ظاهرٌ في المحسوس؛ فإنك تجد الرجل المتهادي في المعاصي، المنهمك فيها لا ينتفع بالموعدة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقي إذا وُعظَ انتفع، فإن كان في اتجاه إلى محرم عدل عنه، وإن كان متهاوناً في مأمور اتجه إلى فعله واستبق إليه.

١١- ومن فوائد هاتين الآيتين الكريمتين: أن للتقوى فوائد؛ منها:

الموعظة؛ أي: الاتعاظ بما يحصل من الآيات، آيات الله الكونية أو آيات

الله الشرعية، وللتقوى فوائد كثيرة ذكرها الله - تعالى - في كتابه العظيم:
 منها: أنها سبب لتيسير الأمور؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ
 تَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

ومنها: أنها سبب لتفريج الكربات؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ
 يَتَّقِ اللَّهَ تَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۗ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومنها: أنها سبب للهداية والنور؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ تَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فإذا كانت التقوى
 بهذه المثابة؛ كان لزامًا على العاقل أن يلتزم التقوى؛ حتى تحصل له هذه
 الفوائد العظيمة التي رُتبت عليها.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
 تَذْخَبُوا بَقْرَةً ۗ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا ۗ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ ﴾ [١٧] قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۗ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ
 لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [١٨] قَالُوا آدَعُ
 لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْثُهَا ۗ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْع لَوْثُهَا تَسُرُّ
 النَّظِيرِينَ ﴾ [١٩] قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۗ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ [٢٠] قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا
 تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۗ قَالُوا الْكِنَّ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۗ فَذْخَبُوهَا وَمَا

كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ^ط وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٧﴾ فَقُلْنَا أَصْرَبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ [البقرة: ٦٧ - ٧٤].

في هذه الآيات الكريمة يُذَكِّرُ اللهُ - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل بهذه القصة الغريبة العجيبة التي وقعت من بني إسرائيل؛ وذلك أنهم قتلوا نفسًا، فاختصموا فيها، وتدارعوا فيها، وكل قبيلة تدعي أن القبيلة الأخرى هي التي قتلت هذه النفس، واشتبه عليهم الأمر؛ فارتفعوا إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾، ولكن لطغيانهم، وعتوهم، واستبعادهم ما عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - سخروا بموسى وقالوا: ﴿اتَّخِذْنَا هُزُؤًا﴾؛ أي: أتستهزئ بنا، فما شأن ذبح البقرة بهذه المشكلة، فقال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ الذين يجهلون حق البشر، أو الذين يعتدون على البشر؛ وذلك لأن الجاهل قد يُرادُ به عدم العلم، وقد يُرادُ به العدوان؛ وهو الجهالة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يُتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

ومن ذلك - أيضًا - قولُ النبي - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْجَهْلِ وَالْعَمَلَ بِهِ؛ فَلَا حَاجَةَ لِي فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»^(١)؛ يعني: الصوم، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة، وسوء التصرف، والعدوان على الغير، وقد تكون بمعنى عدم العلم، فقول موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ * يحتمل المعنيين جميعًا، فلما رأوا موسى جادًا فيما قال لم يمتثلوا - أيضًا - امتثالًا فوريًا يدل على الانقياد التام، ولكنهم عاندوا بالاستفسار، فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ *؛ أي: ما سنها؟ وما عمرها؟ وهل هي كبيرة أو صغيرة؟ قال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ *؛ يعني: أنها لا كبيرة ولا صغيرة، ولكنها عوان بين ذلك، ثم أمرهم أن يفعلوا ما أمروا به، ولكنهم لم يفعلوا ولم يمتثلوا أمر نبيهم، بل إن ظاهر الآية الكريمة أن الأمر في قوله: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ * صادر من الله؛ لقوله - تعالى - : ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ *.

قالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْئَهَا﴾ *؛ أي: أنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا ما أمروا به، بل ذهبوا يستفسرون استفسارًا آخر عن اللون،

(١) رواه ابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم (١٦٨٩) بهذا اللفظ، ورواه - بنحوه - البخاري: كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).

فقال موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ ، قال موسى - عليه الصلاة والسلام -: إنه - أي: الرب - عَزَّ وَجَلَّ - يقول: ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ ؛ فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنها بقرة صفراء، فاقع لونها - أي: واضح الصفار -، تسر الناظرين بحسنها وجمالها، ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا تفصيلاً آخر فقالوا - كما في قوله - تعالى -: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ؛ يعني: أنهم تشابه عليهم البقر الصفر؛ لأنهم كانوا يشاهدون بقرات صفراء، فقالوا: فماذا يراد منا أن نذبح من هذه البقرات؟ قال موسى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ؛ أي: أنها بقرة لا تستعمل في الحرث لا سقيا ولا إثارة، لا تثير الأرض بحرثها، ولا تسقي الزرع القائم ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ ؛ أي: لا عيب وإنما قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ بعد قوله: ﴿تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ ؛ لئلا يظنوا أنها بقرة هزيلة عجفاء ليس بها حراك، فقال: إنها: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ ؛ أي: ليس فيها عيب، وحيث قالوا: ﴿أَلَعَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ ؛ أي: في هذا الحوار جئت بالحق.

وتأمل ماذا تدل عليه هذه الكلمة من الاستخفاف بموسى - عليه الصلاة والسلام -، وبيان أنهم لن يقبلوا من أمره إلا ما ظنوا أنه الحق؛ حيث قالوا: ﴿أَلَعَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ على الوصف الذي بينه

الله - عَزَّ وَجَلَّ - على لسان موسى عليه السلام، ومع ذلك ذبحوها وهم لم يقاربوا فعل الذبح؛ أي : من أجل تأخرهم، وتوانيتهم، وتكاسلهم عن تنفيذ ما أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - ؛ ولهذا قال - تعالى - : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؛ أي : ذبحوها بعد أن كادوا؛ أي : قاربوا ألا يفعلوا؛ لأنهم قوم عندهم من الطغيان والعتو على شرع الله ما لا نعلمه صدرَ عن أمة سواهم، اللهم إلا ما ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن قوم نوح، حين قال نوح - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ٧].

ثم بيّن الله القصة فقال: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرَجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ؛ أي : قتلتم نفساً محرمة؛ فاختلفتم فيها، فبيّن الله - سبحانه وتعالى - ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذُبحت، وذلك بأن يضربوا هذا القليل ببعضها، قال الله - تعالى - : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، فـضربوا بعضو منها - ولا ضرورة لتعيينه - ، ثم نطق القليل، وقال: إن الذي قتلني فلان، فبين الله - تعالى - ما كانوا يكتُمون.

قال الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُبَيِّنُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أن بني إسرائيل بعد أن أنعم الله عليهم ببيان قاتل القاتل الذي أذَّاءوا فيه، وكادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله مَنَّْ عليهم بما ذُكِرَ، بعد هذا - أي: بعد ما حصل من هذه النعمة الكبيرة - قست قلوبهم؛ أي: صَلَّبَتْ وعظم استكبارهم، فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإنما ضرب الله المثل بالحجارة دون الحديد؛ لأن الحديد قد يلين مع النار، لكن الحجارة لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن الحجارة خير من قلوبهم؛ لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس، ويهبط منها ما يهبط من خشية الله؛ فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يَشَّقُّقُ - أي: يتشقق - فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله، ثم ختم الله الآية الكريمة ببيان كمال مراقبته وعلمه، فقال - تعالى -: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد الآيات الكريمة:

١- من فوائدها: أن الرجوع إلى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - في الأمور المهمة التي طريقها الشرع كان أمراً فطرياً، سار الناس عليه منذ زمن بعيد؛ ويتفرع عن هذه الفائدة: أن الواجب على الأمة إذا أشكل عليهم شيء من أمور دينهم أن يرجعوا إلى أهل العلم بشريعة الله؛ وذلك لأن شريعة الله تعالى لاسيما الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ فيها شفاء لكل داء، وفيها حلٌّ لكل مشكل؛ ولهذا قال الله -

تعالى :- ﴿ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ أي: إلى كتاب الله، وإلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد مماته، ولم يأمرنا الله - تعالى - بالرجوع إلى الله ورسوله؛ إلا لأننا سنجد الحل الشافي الكافي في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما ضَرَّ الأمة وأوجد عندها المشاكل التي لا تنتهي لها إلا غفلتهم عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٢- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: بيان عتو بني إسرائيل، وتأخرهم في تنفيذ أوامر الله، وأنهم قوم معاندون متشددون؛ شددوا فشد الله عليهم؛ لأنهم ذكروا استفصالات كثيرة في هذه البقرة التي أمروا بذبحها، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة حيناً أمروا أن يذبحوا بقرة؛ لحصل لهم المقصود، لكنهم شددوا فشد الله عليهم.

٣- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: أن الأمر إذا جاء مطلقاً فإنه لا ينبغي أن يستفصل فيه؛ لأن الاستفصال قد يؤدي إلى إضافة شروط ثقيلة، فإذا جاء أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - في زمن الوحي مطلقاً فإن الاستفصال عن قيود من شأن القوم الذين لا يريدون امتثال الأمر على وجه الفورية، أما بعد انقطاع الوحي فإنه لا حرج على الإنسان إذا ورد الأمر مطلقاً أن يبحث عن شيء مقيّد له؛ وذلك لأن الشريعة قد تمت، ولا يمكن زيادة إضافات إليها، فهنا يُفَرَّقُ بين أن يجد الإنسان أمراً مطلقاً في القرآن والسنة فيما بعد انقطاع الوحي وفيما كان في زمن

الوحي؛ فما كان في زمن الوحي فإنه لا ينبغي الاستفصال عن قيود فيه؛ لئلا ترد قيود تضييق الأمر، وأما بعد زمن الوحي فلا بأس من البحث عن قيود؛ لأن النصوص - أحياناً - تأتي مطلقة في موضع، وتُقَيَّدُ في موضع آخر.

٤- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: بيان ما عليه بنو إسرائيل من سوء الظن؛ فإن موسى - عليه الصلاة والسلام - أعظم أنبياء بني إسرائيل، ومع ذلك قال له بنو إسرائيل - حين أمرهم أن يذبحوا بقرة -: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم الاستهزاء بالغير والسخرية منهم؛ لقول موسى - عليه الصلاة والسلام -: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ فالاستهزاء بالغير والسخرية منهم جهالة وعدوان على المُسْتَهْزَأِ به، المسخور منه، لا يقع إلا من سفيه أو جاهل بالشرية.

٦- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا يلجئون إلا لله - سبحانه وتعالى -، وإذا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لا ملجأ لهم إلا الله؛ فما بالك بمن دونهم؟! ويتفرع عن هذا قطع الشرك الذي يقع فيه كثير من الناس، حينما يلجئون إلى الموتى من الأنبياء، أو ممن يزعمونهم أولياء، يلتجئون إليهم، ويستعيذون بهم، ويستعينون بهم؛ فإن الاستعاذة بغير الله - عزَّ

وَجَلَّ - في أمر لا يقدر عليه المستعاذ به من الشرك، وكذلك الاستغاثة بغير الله في أمر لا يقدر عليه المستغاث به هو من الشرك أيضًا؛ فالله - سبحانه وتعالى - هو الملجأ الذي يلجأ إليه كل مخلوق، ولا عاصم من أمر الله إلا من رَحِمَ.

٧- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن المَجْمَل إذا عَلِمَ المراد منه؛ فلا بأس أن يكون الجواب عليه مُفَصَّلًا، وإن كان هو مجملًا؛ لقوله - تعالى -: ﴿قَالُوا آذِعْ لَنَا رَبَّنَا كَيْبِينَ لَنَا مَا هِيَ^ع قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ...﴾ الآية؛ فإن قولهم في قوله - تعالى -: ﴿يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ^ع﴾ مجمل مبهم؛ لأن الأسماء الموصولة من الأسماء المبهمة المَجْمَلَة، فلا يُعْلَمُ ماذا يريدون بقولهم: «ما هي»؟ لكن إذا كان المخاطب يعلم المراد بهذا المَجْمَلِ المَبْهَمِ، فلا بأس أن يكون الجواب على حسب ما فهمه المخاطب؛ ولهذا قال لهم موسى - كما في قوله - تعالى -: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ^ع﴾ إلى آخر الآيات.

٨- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: إثبات قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -

في قوله: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ^ع﴾.

٩- ومن فوائد هذه الآيات الكريمات: أن الله - سبحانه وتعالى -

مجيب لمن دعاه؛ لأن موسى دعا ربه - سبحانه وتعالى - أن يبيِّن له ما هي؟ فأخبره الله أنها بقرة لا فارض، ولا بكر، عوان بين ذلك.

١٠- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: أن أحسن شيء يُتَقَرَّبُ به إلى

الله ما كان فوق الصغر ودون الكبر الكثير؛ لقوله - تعالى - : ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ
لَّا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح:
«لَا تَذْبَحُوا إِلَّا مُسِنَّةً، إِلَّا أَنْ يَعْسُرَ عَلَيْكُمْ فَتَذْبَحُوا جَذَعَةً مِنَ
الضَّأْنِ»^(١)، فهى النبي ﷺ عن التقرب إلى الله بذبح الصغيرة، ومن
المعلوم أنه كلما كبرت البهيمة قلَّ شأن لحمها وتردَّى؛ فلهذا يكون ما
بين الصغيرة والكبيرة هو الأفضل فيما يُتقَرَّبُ به إلى الله - عزَّ وجلَّ - .

١١- ومن فوائد قوله - تعالى - : ﴿فَاعْمَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾: أنه يجب
على المأمور أن يمتثل ما أمر به على الوجه الذي أمر به؛ لقوله - تعالى - :
﴿مَا تُؤْمَرُونَ﴾، و«ما» هذه موصولة تشمل عين المأمور ووصف
المأمور، وما أمر به شرعاً فإن الامتثال لا يحصل فيه إلا إذا فعله
الإنسان على وجه ليس فيه زيادة ولا نقص؛ لأن الزيادة غلوٌ والنقص
تفريط.

١٢- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن بني إسرائيل عندهم
من التهاون والتفريط في تنفيذ أوامر الله ما يتبين من هذه القصة
وغيرها؛ فهم حين طُلبَ منهم أن يفعلوا ما يُؤمرون لم يفعلوا، بل
ازدادوا تعنتاً وتشدداً، فقالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ الآية،
ويستفاد من هذه الآية: شدة تعنت بني إسرائيل وتشدهم؛ وإلا فما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي، باب سن الأضحية، رقم (١٩٦٣).

شأن اللون بالنسبة للغرض المقصود من ذبح هذه البقرة، ولكنهم لتشددهم وتمنعهم في تنفيذ أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - صاروا يسألون عن اللون، ولعل هذا السؤال من حكمة الله - تعالى - أن يشدّد عليهم؛ فإنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم.

١٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن ما كان جميلاً من الحيوان الذي يُتَقَرَّبُ به إلى الله فهو أكمل؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَاعْبُدْ لَوْهَافَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ﴾، فإن قال الإنسان: ما شأن هذا أو ما علاقة هذا بما يُتَقَرَّبُ به إلى الله؟ فالجواب عن ذلك أن نقول: إنه لما كانت هذه البقرة مما أمر الله به كانت قربة إلى الله؛ لأن موسى - عليه الصلاة والسلام - أمر قومه أن يذبحوا هذه البقرة؛ فامثالهم لأمر موسى قربة لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وإن كان الغرض من هذا هو الإرشاد فإن فيه شائبة القربة وقد يقال: إنه قربة محضة؛ لأنه يحصل به درء مفسدة وفتنة كادت تقع بين بني إسرائيل لولا أن الله - تعالى - أبان القليل بهذه الوسيلة.

١٤- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أنه يجوز أن يحمل المخاطب الشيء المبهم المجمل على ما يظنه من المراد؛ حيث قالوا: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّنَا يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقْرَةَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٧) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولَ ﴿الآيات؛ فإن ﴿مَا هِيَ﴾ هي الصيغة التي وردت في أول القصة في قوله: ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّنَا يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾، ومع ذلك كان الجواب هناك بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا

بِكْرٌ ﴿١﴾ الآية، والجواب هنا بقوله: ﴿إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾، مع أن جملة الاستفهام واحدة في صيغتها، لكن المخاطب يفهم من كل صيغة ما يقتضيه المقام.

١٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أن بني إسرائيل لما قالوا: ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفقهم الله - سبحانه وتعالى - للهدى في النهاية، ولو أنهم قالوا: «وإننا لمهتدون»؛ لم يوفقوا؛ أي: ولو أنهم عزموا على أن يكونوا مهتدين بدون أن يقولوا: «إن شاء الله»؛ فإنهم حريٌّ ألا يوفقوا؛ لأن قرن الخبر بالمشيئة على فعل المستقبل أمر مطلوب؛ فإن ذلك مما يسهل هذا الأمر؛ ولهذا لما قال سليمان - عليه الصلاة والسلام -: «لَأُطَوِّفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً»^(١) كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله. فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله. فطاف عليهن جميعاً؛ فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشقِّ رجل، فقال النبي ﷺ: «لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ، وَلَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٢)، وليس هذا من باب الخبر عن أمر واقع؛ فإن الخبر عن أمر واقع لا يحتاج إلى قول: «إن شاء الله»، إلا على سبيل التبرك أو التعليل؛ ولهذا كان القول الراجح في قول الإنسان: أنا مؤمن إن شاء الله، إذا كان غرضه الإخبار عن الأمر الواقع؛ فإنه لا يحتاج إلى

(١) أي: بالجماع.

(٢) تقدم تخريجه (٢٣).

قوله: إن شاء الله؛ لأن هذا خبر عن شيء حصل إلا أن يريد بذلك أن إيمانه حصل بمشيئة الله، أو أنه يريد التبرك بهذا؛ أي: إضافة إيمانه إلى مشيئة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبراءته من حوله وقوته؛ أي: من حول نفسه وقوتها إلى مشيئة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فإن هذا لا بأس به؛ ومن ثمَّ كان الاستثناء في الإيمان يختلف، فإن كان الحامل عليه الشك في وجود الإيمان؛ فهذا حرام لا يجوز؛ لأن الإنسان يجب أن يؤمن إيمانًا جازمًا لا شك فيه، وإن كان الغرض من ذلك التبرك أو بيان أن ما حصل واقع بمشيئة الله؛ فإن هذا لا بأس به، وبهذا التفصيل ينجلي الإشكال الذي حصل عند كثير من أهل العلم: هل يجوز للإنسان أن يستثنى في إيمانه، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو لا يجوز؟

١٦- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أنه إذا ذكرت أوصاف في شخص يُحشى منها أن يتوهم المخاطب شيئًا خلاف الواقع فإنه لا بد من ذكر قيد يرفع هذا التوهم؛ وذلك في قوله - تعالى -: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾؛ فإن في قوله: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ قد يقول قائل: إن فيها عيبًا؛ لأنها لا تقدر على أن تثير الأرض أو تسقي الحرث، فبين الله - تعالى - أنها ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾، وهذا يسمى بالاحتراس أو بالاحتراس في علم البلاغة.

وقد جاء ذلك في القرآن في مواضع؛ منها: قوله - تبارك وتعالى -:

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرْتِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، فقد قال الله بعد هذا: ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ فلما ذكر الله - تعالى - أنه فهم الحكم الصحيح سليمان، وكان ذلك يُخشى منه أن تهبط منزلة داود - عليه الصلاة والسلام - بين الله - تعالى - أنه قد أتى داود وسليمان حكماً وعلماً، وأن الله سخر لداود الجبال تسبح معه والطير ... إلخ الآيات.

ومن ذلك - أيضاً - قوله - تعالى -: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مَنِ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا ﴾ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴿ [الحديد: ١٠]؛ فإن قوله: ﴿ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ قد يؤدي إلى انحطاط كبير في رتبة الآخرين الذين أنفقوا من بعد وقتلوا، فرفع الله ذلك في قوله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾، ومن ذلك - أيضاً - قوله - تعالى -: ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [النساء: ٩٥]؛ فلما ذكر الله تفضيل المجاهدين على القاعدين قال: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾؛ لئلا يتوهم واهم نزول رتبة الآخرين نزولاً فاحشاً.

١٧ - ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: بيان ما عليه بنو إسرائيل من التعاضم، والترفع، والاستعلاء؛ لقولهم - كما في قوله - تعالى -:

﴿الَّذِينَ جِئَتْ بِالْحَقِّ﴾ فكأنهم هم الذين يحكمون على موسى - عليه الصلاة والسلام - بل هم الذين يحكمون على ما جاء به موسى من كونه حقاً أو باطلاً؛ لقوله - تعالى - : ﴿الَّذِينَ جِئَتْ بِالْحَقِّ﴾ ، ومن المعلوم أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد جاء بالحق في ذلك الآن وقبله .

١٨- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أنه يجوز حرث الأرض بالبقر، وسقي الحرث بها؛ لقوله - تعالى - : ﴿ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ .

١٩- ومن فوائدها: الإشارة إلى أنه ينبغي ألا نستعمل في حرث الأرض وسقي الزرع إلا ما كان ذلولاً طبعاً؛ وذلك لأن الشمس أو الصعب قد يفسد أكثر مما يصلح، ويمكن أن نفرع عن هذه الفائدة فائدة أخرى؛ وهي ألا نستعمل من الأشياء إلا ما دلت التجارب على أنه صالح فيها؛ حتى لا نقع في الخطأ والزلل .

٢٠- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن بني إسرائيل حين امتثلوا ما أمرهم موسى - عليه الصلاة والسلام - بذبح البقرة مع التشديد، والتعنت، والاستفصال لم يذبحوها عن انقياد تام وتنفيذ فوري؛ وإنما ذبحوها ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ ؛ أي: ما قاربوا الفعل؛ لكونهم متصفين بالعلو والاستكبار .

٢١- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أنه يجوز ذكر المسبب قبل ذكر السبب؛ فإن الذبح كان سببه الاختلاف الذي وقع بين بني إسرائيل

بشأن القتل، ومع ذلك ذكر قبل أن يذكر السبب؛ لأنه هو محل العبرة، وهو الذي يكشف حال بني إسرائيل على وجه الحقيقة، وأنهم قوم لا يمثلون لأوامر الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بعد أن تقبله نفوسهم، وكأنهم يريدون أن يتبع الحق أهواءهم؛ ويدل لهذا قولهم: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا بِالْحَقِّ﴾.

٢٢- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: بيان قدرة الله - سبحانه

وتعالى - حيث كان ضرب هذا القتل سبباً لحياته؛ فإن إحياء الموتى لا يكون إلا بقدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا لما ناظر إبراهيم مَنْ حَاجَّهُ في الله، قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي - وَيُمِيتُ﴾، قال هذا المحاج: ﴿أَنَا أَحْيِي - وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وهو كاذب فيما ادَّعاه؛ فإنه لا يقدرُ على الإحياء والإماتة إلا الله - سبحانه وتعالى.

٢٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن الله - سبحانه وتعالى -

عليم بكل شيء، وأن ما كتبه الإنسان فإن الله - تعالى - سيخرجه، ولا سيما إذا كان في خروجه للعباد مصلحة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

٢٤- ومن فوائدها: أن القاتل لابد أن يخرج الله تعالى بينه؛ كما

قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]؛ فإن الآية الكريمة تدل على أن ولي المقتول له سلطان شرعي وسلطان قدري؛ فإن الله - تعالى - يبين هذا القاتل حتى يُقتل؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣].

٢٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أن هذه القصة قصة من خمس قصص في سورة البقرة، كلها في إحياء الموتى وسنين ذلك - إن شاء الله - فيما بعد.

٢٦- ومن فوائد الآيات المذكورة في هذه القصة: جواز الأمر بالمبهم إذا كان يمكن امتثاله؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾؛ فإنَّ البعض يتناول أيَّ جزء من أجزائها؛ كاليد، أو الرجل، أو القلب، أو الكبد، أو أيَّ جزء من أجزائها؛ لقوله - تعالى -: ﴿أَضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾؛ وبناء على ذلك لو أنك قلت لشخص: افعل بعض هذه الأشياء وذكرت له أشياء محصورة فإن هذا الأمر صحيح، ووبراً الإنسان الذي أمرته بفعل بعضه؛ أي بفعل ما شاء، أما إذا كان هذا الإبهام لا يمكن تحقيقه فإن الواجب الاستفسار؛ ولهذا لما قال الله - تعالى - للقلم: اكتب قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة، وذلك قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

٢٧- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: بيان قدرة الله - سبحانه وتعالى - على إحياء الموتى، وقد ذكرنا فيما سبق أن الله ذكر خمس قصص في سورة البقرة فيها إحياء الموتى؛ فمن ذلك ما سبق في قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٠٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦]، ومنها - أيضًا - هذه القصة، قصة القتيل الذي اختلف بنو إسرائيل في قاتله، ومنها قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، ومنها قصة الرجل الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، قال: أنى يحيي الله هذه بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، والخامسة: قصة إبراهيم؛ حيث قال - كما في قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]. والله - سبحانه وتعالى - قادرٌ على إحياء الموتى كلهم بكلمة واحدة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٦١﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٦٢﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤].

٢٨- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أن الله - سبحانه وتعالى - أرى عباده من آياته ما يكون به العقل والرشد؛ لقوله - تعالى -: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾، وآيات الله - سبحانه وتعالى - تنقسم إلى قسمين: آيات كونية، وآيات شرعية؛ فالآيات الكونية: ما يحصل بخلقه وتقديره؛ مثل السموات والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والدواب. والآيات الشرعية: ما جاءت به الرسل من الأوامر، والنواهي، وغيرها من أقسام الوحي.

٢٩- ومن فوائد الآيات الكريهات: أن تدبر الآيات سبباً للعقل؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ والعقلُ عقلان: عقل إدراك وعقل تصرف؛ فعقل الإدراك: هو الذي يترتب عليه التكليف ويكون في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأما عقل التصرف: فهو ما يحصل به الرشد؛ وهو حسن التصرف في أفعال الإنسان وأقواله، وهذا خاص بمن آتاه الله الحكمة؛ كما قال - تعالى -: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]؛ وعلى هذا فلو سألنا سائل: هل الكفار عقلاء؟ فالجواب أن نقول: هم عقلاء من حيث عقل الإدراك الذي يترتب عليه التكليف، وليسوا عقلاء من حيث عقل التصرف الذي يحصل به الرشد؛ ولهذا ينفي الله عنهم - أي: عن الكفار - كثيراً سمة العقل؛ كما في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]. وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١١] وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]؛ فالكفار ليس لهم عقل تصرف يوصلهم إلى الرشد، وإن كان عندهم عقل إدراك يترتب عليه التكليف والمواخذه.

٣٠- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: إثبات الأسباب في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقد تقدم الكلام فيما سبق عن ذكر اختلاف الناس في الأسباب وبيئاً أن القول الوسط هو إثبات تأثير الأسباب لكن لا

بذاتها، ولكن بما أودع الله فيها من القوة التي تؤثر في المسببات.

٣١- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن بني إسرائيل - بعد هذا كله - قست قلوبهم، ولم يزدادوا بهذه الآيات والنعم لينا للحق وقبولاً له، ولكنهم قست قلوبهم من بعد ذلك.

٣٢- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: التحذير مما جرى لبني إسرائيل من قسوة القلوب بعد رؤية الآيات التي يرينا الله إياها؛ فمثلاً إذا رأينا من آيات الله ما تلين به القلوب، ويحصل به الرجوع إلى الله؛ فإن الواجب علينا أن نقوم بذلك - أي: بالرجوع إلى الله - وأن تلين قلوبنا لذكر الله، أما إذا كان الأمر بالعكس؛ لا يزداد الإنسان من رؤية الآيات إلا قسوة قلب وتمرداً في الفعل؛ فإن هذا وقوع فيما كانت عليه بنو إسرائيل - نسأل الله السلامة.

٣٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: التحذير من قسوة القلب بعد ظهور الآيات؛ لأن هذا أعظم شراً وأكبر إثماً مما إذا لم ير الإنسان من آيات الله ما تقوم به الحجة، ومع الأسف أن بعض الناس بعد ظهور الآيات لا يزداد إلا كبراً وعناداً، فتجد من آيات الله ما يظهر ظهوراً بيئاً، سواء أكانت هذه الآيات من الأمور الفلكية، أو الأرضية، أو الواقعة بين الناس، فإن كثيراً من الناس لا يهتم بها، ولا يذكرها إلا على سبيل أنها واقعة فقط؛ فعند كسوف الشمس أو خسوف القمر لا نجد كثيراً من الناس يتأثر أو يقبل على المساجد؛ ليفعل ما أمر به

الرسول ﷺ من الصلاة، وعند حصول الزلازل والفيضانات والعواصف الشديدة لا نجد كثيرًا من الناس يهتم بها، ويقلق منها، ويخشى أن يصاب بمثلها، بل لا يذكرونها إلا على أنها حوادث وقعت، وكأنها - كما يقولون - كوارث طبيعية، لا يلتفت إليها، ونجد كثيرًا من الناس تقع بينهم الحروب والفتن، ويعتدي بعضهم على بعض بالقتل، والنهب، وانتهاك الحرمات، ومع هذا لا يعدونها شيئًا يُذكر، بل يذكرونها على أنها حوادث تاريخية، وليست من الآيات التحذيرية التي يحذر الله بها العباد؛ فتجدهم بعد أن تزول هذه الكوارث وهذه الحوادث العظيمة يرجعون إلى غيِّهم، بل ربما يرجعون إلى أكبر من غيِّهم - نسأل الله السلامة. والواجب على المؤمن أن يتخذ من هذه الآيات عبرة، وأن يرجع إلى الله رجوعًا حقيقيًّا؛ حتى لا ترجع هذه الحوادث والكوارث على وجه أكبر مما كانت عليه من قبل.

٣٤- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: أن قلوب بني إسرائيل

التي قست كانت كالحجارة بل أشد.

٣٥- ومن فوائدها: أن من الحجارة ما هو خير من هذه القلوب؛

فمنها ما يتفجر منه الأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، ومنها ما يهبط من خشية الله، وقلوب هؤلاء القوم التي قست لا يأتي منها خير، ولا تلين لحق.

٣٦- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: عموم رقابة الله - عزَّ وجلَّ

، وأنه على كل شيء رقيب، ولا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء؛
 لقوله - تعالى -: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

٣٧- ومن فوائد هذه الآيات: تحذير المرء من العمل الذي لا يرضاه
 الله - عزَّ وجلَّ ؛ لأنه مهما عمل فالله - تعالى - عالم به، مطلع عليه،
 رقيب عليه.

٣٨- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: إثبات الوصف السلبي؛
 أي: إثبات الصفات المنفية عن الله - عزَّ وجلَّ -؛ يعني: الإيمان بأن الله
 موصوف بالإثبات وبالنفى؛ أما وصف الله بالإثبات: فكثير جداً في
 القرآن الكريم والسنة النبوية، وأما وصف الله - تعالى - بالنفى: فهو
 أقل من وصفه بالإثبات، ولم يذكر الله - تعالى - أوصاف النفي إلا
 لأسباب تقتضيها؛ مثل توهم النقص في صفاته؛ كما في قوله - تعالى -:
 ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ
 لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨]؛ لأن الشيطان قد يوقع في قلب المرء - إذا علم أن الله
 خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام - أن الله - تعالى - يلحقه
 تعب أو لحقه تعب في ذلك فقال - تعالى -: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ .

ومنها أن الصفات المنفية تذكر لدفع ما افتراه الكاذبون في حق الله؛
 كما في قوله - تعالى -: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾
 [المؤمنون: ٩١]، ومنها أن الصفات المنفية قد تذكر للتهديد؛ كما في هذه
 الآية: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾؛ فإن المراد بهذه الجملة تهديد

المخاطب ببيان أن الله - تعالى - لن يغفل عما عمل من خير أو شر، قليل أو كثير، وقد ذكر أهل العلم: أن ما جاء من صفات النفي في حق الله - عزَّ وَجَلَّ - ليس بنفي محض، بل هو نفي متضمن للإثبات، وهذا الإثبات هو كمال ضد المنفي؛ فمثلاً يقال في قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] المقصود بهذا النفي إثبات كمال قوته - عزَّ وَجَلَّ -، وأنه لكمال قوته لم يمسه تعب ولا إعياء، ومثل قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، يُرادُ بنفي الظلم هنا عن الله إثبات كمال عدله، وأنه لكمال عدله لا يقع في إثباته ظلم إطلاقاً، وكذلك قوله - تعالى -: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، يُرادُ بذلك إثبات كمال غناه عن كل أحد، وإثبات وحدانيته، وأنها وحدانية مطلقة ليس معه فيها إله، وعلى هذا فقس.

فكل ما جاء من صفات منفية عن الله فليس المراد بها مجرد النفي، وإنما المراد بها إثبات كمال الضد مع نفي هذه الصفة المعينة التي جاء النفي عنها، ثم اعلم أن أهل السنة والجماعة - وأعني بذلك سلف الأمة ومن تبعهم في هديهم - ليسوا كأهل البدع الذين لا يصفون الله - تعالى - إلا بصفات النفي، فتجدهم يكثر من صفات النفي في حق الله - عزَّ وَجَلَّ - وأما صفات الإثبات فإنهم لا يهتمون بها، ولو ذكروها لذكروها على وجه مؤوَّلٍ تأويلاً بعيداً عن الصواب، وحقيقته أنه تحريف وليس بتأويل.

٣٩- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: أن هذا القرآن الكريم جاء تفصيلاً لكل شيء يحتاج الناس إلى تفصيله؛ من أجل أن يكون موعظة تامة في جميع الأحوال؛ فإن في ذكر أخبار من سبق عبرة لمن اعتبر؛ كما قال - تعالى -: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

* * *

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تَحَرَّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٦) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٧) أُولَآ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ * .

في هذه الآيات يقول الله - عزَّ وجلَّ - مخاطباً رسوله ﷺ وأصحابه: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾؛ أي: أهل الكتاب؛ يعني: أترجون أن يؤمنوا لكم، والحال أن فريقاً منهم يسمعون كلام الله - وهم العلماء منهم - يسمعون كلام الله في التوراة، أو يسمعون كلام الله الذي أوحاه إلى موسى - عليه الصلاة والسلام - حين اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات ربه ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ تَحَرَّفُونَهُ ﴾؛ أي: يصرفونه عن المراد به إلى معانٍ يريدونها هم، فيجعلون معنى كلام الله - سبحانه وتعالى -

تابعًا لأهوائهم، يفعلون ذلك بعد أن عقلوا المعنى وعرفوه، فهم يفعلون هذا عن عمد، وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك عن عمد، لكنهم يريدون أن يتبعوا أهواءهم، ومن شأن هؤلاء المحرفين أنهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: أتحدثون المؤمنين بما فتح الله عليكم بما أعلمكم به، وأخبركم به من صفات محمد ﷺ ليحاجوكم به عند ربكم؛ لأنكم إذا ذكرتم أن محمدًا ﷺ جاء وصفه في التوراة، وأنه يبعث ويكون رسولًا إلى كافة الناس؛ فإنهم سوف يحاجونكم به عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ثم يوبِّخ هؤلاء أقوامهم فيقولون: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تكونون عقلاء، فامتنعوا عن تحديث محمد وأصحابه بشيء يحاجوكم به عند الله، قال الله - تعالى - رادًا عليهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، فهم وإن أسروا وكتموا صفة محمد ﷺ أو أعلنوها؛ فإن الله - تعالى - عالم بصنيعهم، وسيجازيهم على ما فعلوا من كتمان الحق، وتحريف الكتاب، هذا هو معنى هذه الآيات، أمَّا ما يستفاد منها من أحكام؛ فإنها تدل على فوائد كثيرة منها:

- ١- تأسيس النبي ﷺ وأصحابه من إيمان هؤلاء المعاندين المحرفين.
- ٢- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن المعاند الذي يعصي الله - عَزَّ وَجَلَّ - عن عناد؛ تبعد هدايته؛ لأنه لا خير فيه؛ ويدل لهذا قوله -

تعالى :- ﴿ وَنُقِلَبْ أْفَعْدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ - أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فالإنسان إذا ردَّ الحق أول مرة مع علمه به وفهمه له؛ فإنه يبعد أن الله - سبحانه وتعالى - يهديه؛ لأن قلبه - والعياذ بالله - قد زاغ؛ قال الله - تعالى :- ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥].

٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثبات كلام الله - تعالى - وأن الله - تعالى - تكلم، وأن كلامه يسمع؛ لقوله - تعالى :- ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾، وهذا يدل على أن كلام الله بصوت مسموع يسمعه مَنْ وَجَّهَ الْخَطَابَ إِلَيْهِ، وهذا أمر متفقٌ عليه بين أهل السنة والجماعة، ويدل عليه القرآن والسنة؛ قال الله - تبارك وتعالى :- ﴿ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم: ٥٢]؛ والمناداة والمناجاة لا تكونان إلا بصوت، لكن المناداة تكون بصوت عالٍ لمن بُعد، والمناجاة تكون بصوت خفيٍّ لمن كان قريباً.

٤- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: ذمُّ تحريف الكلم عن مواضعه؛ لقوله - تعالى :- ﴿ ثُمَّ تَحَرَّفُونَهُ ﴾، قال أهل العلم: تحريفُ الكلم ينقسم إلى قسمين: أحدهما: تحريف اللفظ، والثاني: تحريف المعنى؛ فتحريف اللفظ يكون بتغيير الشكل، أو تغيير بنية الكلمة، وما أشبه ذلك؛ مثل لو قرأ قارئ قولَ الله - تعالى :- ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، فقرأ: «وكلم الله موسى تكليماً»؛ لكان محرفاً

للكلم، ولو قرأ: «الحمدُ لله ربَّ العالمين»؛ لكان محرفاً للكلم أيضاً، لكن الفرق بين هذا والذي قبله أن تحريف قوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ يتغير به المعنى فيكون المُكَلَّمُ موسى وليس الله، أما ﴿الحمدُ ربَّ العالمين﴾، فإنه لا يتغير به المعنى، ولكنه لا يجوز ارتكابه؛ لأنه تحريف للكلم.

وأما تحريفُ المعنى فإنه هو الذي وقع فيه كثير من الناس؛ بحيث يصرف معنى اللفظ عن ظاهره بدون دليل؛ مثل تحريف بعضهم قول الله - تعالى -: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فقال معناه: الرحمن على العرش استولى، ولكنه أبقى اللفظ كما هو؛ فهذا تحريف معنوي، وهو بلا شك محرم؛ لأنه قول على الله بلا علم؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - إنما خاطبنا بالقرآن العربي؛ لفهمه على مقتضى اللغة العربية، إذا لم ينقل المعنى إلى معنى شرعي، فإذا صرفنا المعنى إلى ما لا تقتضيه اللغة العربية كان ذلك تحريفاً للكلم عن مواضعه.

٥- ومن فوائد هذه الآيات الكريهات: شدة لوم هؤلاء الذين حَرَّفُوا ما سمعوا من كلام الله؛ حيث إنهم حَرَّفُوهُ بعد عقله وفهمه.

٦- ومن فوائدها: أن تحريف الشيء بعد عقله وفهمه أشد من تحريفه إذا لم يكن قد عقله الإنسان؛ لأنه إذا لم يكن قد عقله فقد يكون معذوراً لهذا التحريف؛ لأنه لم يعقله تمام العقل، فإذا كان قد عقله كان تحريفه أشد وأعظم.

٧- ومن فوائد هذه الآيات: أن هؤلاء الذين حرفوا الكلم عن مواضعه بعد ما عقلوه إنها حَرَفُوهُ وهم يعلمون أنهم حَرَفُون له؛ فيكون تحريفهم إصرارًا على عناد، وليس إصرارًا عن جهل أو تهاون، بل هو إصرار على خطأ متعمّد - نسأل الله العافية.

٨- ومن فوائد هذه الآيات: أن هؤلاء - وأعني بهم بني إسرائيل الذين في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ومن سلك مسلك النفاق صاروا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، ولكنهم إذا خلوا إلى قومهم صار بعضهم ينكر على بعض؛ لقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾؛ أي: آمنا بمحمدٍ ﷺ، لكنهم على خلاف ذلك في الباطن.

٩- ومن فوائد هذه الآيات الكريبات: أن نبوة الرسول ﷺ كانت

معلومة عند بني إسرائيل، وأنهم يعرفونها تمامًا، ويعدونها من الفتح الذي فتحه الله عليهم؛ لقوله: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، وهذا أمر معلوم بيّنه الله - تعالى - في كتابه، في قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد بشر به عيسى قومه، فقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، صلوات الله ﷺ وسلامه عليه.

١٠- ومن فوائد الآيات الكرييات: بيان أن ما علمه أهل الكتاب من صفة النبي ﷺ هو فتح من الله، فتح الله به عليهم، وقد بين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا قبل بعث الرسول ﷺ؛ أي: أنهم يستنصرون بمحمد ﷺ على الكافرين؛ لأنهم يعلمون فيما علموه من التوراة أنه ﷺ منصور، وستكون له العاقبة، ولكنهم - والعياذ بالله - لما بان الحق واتضح، وبُعث النبي ﷺ صدَّهم الحسد عن الإيمان به ﷺ.

١١- ومن فوائد هذه الآيات: أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث؛ لقوله: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾، وقد اتفقت الرسالات السماوية كلها على إثبات البعث، وأن الناس سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

١٢- ومن فوائد الآيات الكرييات: أن الخصومة ستقع بين يدي الله - عَزَّ وَجَلَّ - من المؤمنين والكافرين، يخاصم بعضهم بعضاً، فيفصل الله بينهم، ويقضي بينهم بحكمه؛ ويدل لهذا أيضاً قوله - تعالى -: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [٣١، ٣٠]، وقوله - تعالى -: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، وغير ذلك من الآيات الكرييات الدالة على أن أولياء الله ﷺ أولياء الشيطان يختصمون عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فيقضي بينهم بحكمه وعدله - جلَّ وعلا.

١٣- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: أن ما ذهب إليه هؤلاء - الذين يقولون عند المؤمنين: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض أنكر بعضهم على بعض - مخالف للعقل؛ لقوله - تعالى - ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ فإن مقتضى العقل أن الإنسان إذا آمن عن اقتناع آمن به ظاهراً وباطناً في حضور الخصم وحضور الولي، أما هؤلاء فكانوا مذنبين يؤمنون عند المؤمنين، لكنهم إذا رجع بعضهم إلى بعض وخلا بعضهم إلى بعض أنكروا ما حدث.

١٤- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: إثبات عموم علم الله - عزَّ وجلَّ -، وأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون؛ أي: ما يسرونه من مخالفة الحق وكتمانه، وما يعلنونه عند المؤمنين بقولهم: إنهم آمنوا، وإن صفة النبي ﷺ موجودة عندهم في التوراة.

١٥- ومن فوائد هذه الآيات الكرييات: تهديد المرء وتحذيره عن مخالفة أمر الله - عزَّ وجلَّ - والوقوع فيما يغضبه، سواء أكان سرّاً أم علناً؛ لقوله - تعالى - ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ فإن المراد بذلك تهديد هؤلاء وأمثالهم ممن يظنون أن الله لا يعلم إلا ما كان علناً.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

بيّن الله في هذه الآية الكريمة أن من بني إسرائيل قومًا أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ؛ أي: إلا قراءة؛ فهم يقرءون التوراة، ولكنهم لا يفهمون معناها؛ ولهذا وصفهم الله - تعالى - بالأمية؛ والامي هو الذي لا يعرف أن يقرأ أو يكتب؛ نسبة إلى الأم؛ لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه؛ فإنه لا يعلم شيئًا؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، فمن بني إسرائيل قوم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيّ، إلا قراءة، ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ أي: ما هم إلا يظنون ظنًا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان أن من بني إسرائيل من لا يفهم المعنى، ولكنه يقتصر على اللفظ.

٢- ومن فوائدها: ذم من لا يفهم معنى كتاب الله؛ لقوله: ﴿أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا﴾.

٣- ومن فوائدها: الحثُّ على تعلُّم معاني كتاب الله - عزَّ وجلَّ؛ فقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - الذين يقرءون القرآن لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلموا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا.

٤- ومن فوائدها: الحثُّ على فهم كتاب الله، وأنه ينبغي للإنسان أن

يتعلم معاني الكتاب كما يتعلم لفظه، وأن من المؤسف أن واقع أكثر المسلمين - اليوم - على غير هذا المنهج؛ أي: أنهم يقرءون القرآن للتعبّد بلفظه فقط، دون أن يفهموا معناه، أو أن يطبقوا أحكامه، وهذا - بلا شك - قصور عظيم؛ ولذلك ظهر أثر هذا على المسلمين؛ حيث تخلفوا كثيرًا عما كان عليه السلف الصالح من تطبيق القرآن لفظًا ومعنى وعملاً؛ ففاتهم بذلك خيرٌ كثيرٌ.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من لا يعلم الكتاب إلا لفظًا يقع في الوهم، والظن، والتخبط بما لا يعرف؛ لقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ وعلى هذا فينبغي للمسلم أن يكون حريصًا على فهم كتاب الله - عزَّ وجلَّ -، يتلقى تفسيره من كتب التفسير المعتمدة الموثوق بها، أو من أفواه العلماء المخلصين الذين يوثق بعلمهم.

* * *

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة توعّد الله - سبحانه وتعالى - هؤلاء الذين يكتبون الكتاب بأيديهم، وفي قوله: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ تأكيد لهذه الكتابة أنها من عند أنفسهم، ثم يقولون للناس: هذا من عند الله، يفعلون ذلك لغرض من الدنيا؛ ليشتروا به ثمنًا قليلًا.

ثم بين الله - سبحانه وتعالى - أن هذا الوعيد حاصل على أمرين: الأمر الأول: ما كتبه، والأمر الثاني: ما كسبه من هذه الكتابة؛ فإن هؤلاء يكتبون الكتاب ليس من عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ولكنه من عند أنفسهم؛ من أجل أن ينالوا جاهًا، أو مالًا، أو رئاسة، أو غير ذلك من متاع الدنيا، وهو قليل بالنسبة لمتاع الآخرة؛ فيأثمون على الأمرين: على الكتابة التي يضل بها الناس، وعلى ما كسبه.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- تحريم أن يقول الإنسان القول من عند نفسه، أو أن يكتبه من عند نفسه، ثم يقول للناس: إن هذا من عند الله؛ من أجل أن يشتري به ثمنًا قليلًا، ووجه التحريم الوعيد الذي رُتّب على هذا الفعل؛ لأن التحريم يستفاد إما من لفظ التحريم؛ مثل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وإما من النهي، وإما من ترتيب العقاب عليه، وإما من الوعيد عليه، وللعلم بالتحريم طرق معروفة في أصول الفقه.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن من أسلوب القرآن الكريم تأكيد الشيء بما هو معلوم؛ لقوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ومن المعلوم أن الكتابة تكون باليد، لكن هذا من باب تأكيد هذه الكتابة، وأنها ليست من عند الله، بل هي بأيديهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء هم الذين كتبوا هذا الكتاب بأيديهم، وقالوا: إنه من عند الله؛ من أجل أن يشتروا به

ثمنًا قليلاً؛ وهو كل ما يكون من متعة الدنيا.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما يحصل من الدنيا مهما بلغ فإنه قليل بالنسبة إلى الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث: «إِنَّ مَوْضِعَ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا...»^(١).

٥- ومن فوائدها: أن العمل إذا ترتب عليه سيئات؛ فإن الإنسان يُعاقب على كل سيئة ترتبت على هذا العمل السيئ؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمْ وَلَهُمْ أَعْرَابٌ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾، وإذا كان العمل السيئ يترتب عليه سيئات؛ فإنه يَأْثُمُ بِهِ؛ فالعمل الصالح إذا ترتب عليه حسنات؛ فإن الإنسان يُثَابُ عَلَيْهِ؛ لأن رحمة الله - تعالى - سبقت غضبه؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ...»^(٢).

* * *

ثم قال الله - تعالى - مُبَيِّنًا مَا ادَّعَاهُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبُونَ الْمُفْتَرُونَ -: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ

(١) رواه الترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، رقم (٣٠١٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»؛ وروى نحوه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة الجنة، رقم (٤٣٣٠)؛ ورواه الدارمي (٢/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٢) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر أو كلمة طيبة، رقم (١٠١٧).

مُخْلِفَ اللَّهِ عَهْدَهُ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴿١﴾

هذه المقالة من مقالة اليهود؛ ادَّعوا أن النار لا تمسهم إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، وقد كذبوا فيما ادعوه في الأول وفي الثاني؛ فالنار لن تمسهم أيامًا معدودة فحسب؛ بل هم خالدون مخلدون فيها إذا ماتوا ولم يدخلوا في دين محمد و؛ لقول النبي و: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)؛ فهم - أعني اليهود - من أصحاب النار، مخلدون فيها إذا لم يدخلوا في دين محمد ﷺ، وثانيًا: هم كاذبون في قولهم: إنكم تخلفوننا فيها؛ فإن المسلمين موعدهم الجنة، وهم أصحاب الجنة؛ فكل من مات مؤمنًا بمحمد ﷺ، متبعًا لشريعته؛ فإنه من أهل الجنة، وبين الله - عزَّ وجلَّ - أن هذه الدعوة كذب بطريق السبر والتقسيم، فقال: ﴿أَتُخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾، فإن كان الأمر كذلك؛ فإن الله لن يخلف عهده، ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإذا كان كذلك؛ فإنَّ هذه دعوى مجردة عن العلم فلا تكون مقبولة.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان كذب اليهود، وأنهم أهل كذب، كما أنهم أهل غدر

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيثار برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٣).

وخيانة، لا يوفون بعهد، ولا يقومون بواجب أمانة، بل صفاتهم الكذب، والحسد، والخيانة، والمكر.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حسن استدلال القرآن في مقابلة خصومه؛ حيث قال: ﴿قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۗ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذه الطريق من طرق الحجج مما يفحم الخصم، ومن نظائرها قوله - تعالى -: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٨٠].

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله - عزَّ وجلَّ - لن يخلف عهده؛ لأنه - جلَّ وعلا - أصدق القائلين، وأتم المعاهدين، وأقدر على تنفيذ وعده وعهده؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن اليهود لا يبالون إذا قالوا على الله ما لا يعلمون؛ لنيل مآربهم وأطماعهم.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ۗ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذه الآية ردٌ لدعوى اليهود الذين قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا

مَعْدُودَةٌ ﴿١﴾؛ يَبَيِّنُ اللهُ فِيهَا كَذِبَ هَذِهِ الدَّعْوَى، وَأَنَّهَا بَاطِلَةٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ
 مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ﴾ ﴿٢﴾؛ أَي: مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً كَبْرَى تَكُونُ سَبَبًا لِإِحَاطَةِ خَطِيئَتِهِ بِهِ
 حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُ حَسَنَاتٌ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ سَيِّئَةِ الشَّرْكِ وَالْكَفْرِ، فَهَؤُلَاءِ هُمْ
 أَصْحَابُ النَّارِ الْمَخْلُدُونَ فِيهَا، وَلَيْسُوا الْمُسْلِمِينَ كَمَا زَعَمَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ،
 وَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ هُمْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ.

فوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- إبطال ما ادَّعاه هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ، وَأَنَّهُ
 لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً، ثُمَّ يَخْلِفُهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا.
- ٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا: أَنَّ أَحْكَامَ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - الْجَزَائِيَّةَ مَعْلُوقَةٌ
 بِأَوْصَافٍ لَا بِأَعْيَانٍ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ
 خَطِيئَتُهُ﴾ ﴿٣﴾، مِنْ أَيِّ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَّمِ فَلَهُ هَذَا الْحُكْمُ، سِوَاءَ كَانَ مِنَ
 الْعَرَبِ، أَمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَمْ مِنْ غَيْرِهِمْ.
- ٣- وَمِنْ فَوَائِدِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي النَّارِ إِلَّا
 مَنْ أَحَاطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، أَمَا مَنْ لَمْ تُحِطْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، بِأَنَّ كَانَ عِنْدَهُ عَمَلٌ
 صَالِحٌ وَآخَرٌ سَيِّئٌ؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ الْمَخْلُدِينَ فِيهَا،
 وَلَكِنَّهُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ غَفَرَ لَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ بِذَنْبِهِ، وَقَدْ
 يَجُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُقُوبَةِ شَفَاعَةٌ مِمَّنْ يَشْفَعُونَ عِنْدَ اللهِ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ
 الْأَسْبَابِ الَّتِي تَرْفَعُ عَنْهُ الْعُقُوبَةَ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السَّنَةِ

والجماعة، أن العصاة من المسلمين تحت مشيئة الله إن شاء الله عاقبهم على معاصيهم، وإن شاء غفر لهم؛ كما يدل على هذا قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿مَا دُونَ ذَلِكَ﴾؛ أي: ما دون الشرك لمن يشاء.

وهذه الآية يذهب بعض الناس إلى التعلل بها، فتجده يعمل ما شاء من الذنوب، ويقول: إن شاء الله غفر لي، والذي لا يُغفر هو الشرك، فنقول له: وهل تعلم أن الله شاء أن يغفر لك؟ ربما لا تدخل أنت تحت من شاء الله أن يغفر لهم؛ لأن الله لم يقل: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ وأطلق، بل قال: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ فأنت لا تعلم أنك داخل في هذه المشيئة، ولا يجوز أن تمنى نفسك المحال، بل إن الحزم والعزم أن تتجنب معاصي الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ خوفاً من أن ينالك عقابه.

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن أصحاب النار هم أهلها الذين يبقون فيها؛ لأن مَنْ عُذِبَ فِي النَّارِ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا لَا يُعَدُّ مِنْ أَصْحَابِهَا فِي الْوَاقِعِ؛ إِذْ إِنْ الْمَصَاحِبَةُ هِيَ الْمَلْزَمَةُ؛ وَعَلَى هَذَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ مَخْلُودُونَ فِيهَا تَحْلِيدًا أَبَدِيًّا؛ كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَأْيِيدَ الْخُلُودِ فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، فَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ

وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَحْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه آيات ثلاث فيها التصريح بأن أصحاب النار خالدون فيها أبداً، وبعد هذا التصريح لا يمكن أن نعارض لمجرد أقيسة عقلية، ونصوص عامة؛ لأن اللفظ الصريح لا يرفعه إلا لفظ صريح، ثم إن الظاهر أنه لا يمكن أن يقع لفظ صريح يخالف هذا؛ لأن هذا خبر؛ وخبر الله - سبحانه وتعالى - لا يناقض بعضه بعضاً، والأحكام الشرعية يمكن أن يدخلها النسخ، أما الأحكام الخبرية فإنها لا يمكن أن يدخلها النسخ؛ لأننا لو جَوَّزْنَا نسخ أحد الخبرين بالآخر لزم منه تكذيب أحد الخبرين بالآخر، وهذا محال في كلام الله، وكلام رسوله ﷺ.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٤٧﴾. هذه هي طريقة القرآن: أن الله - سبحانه وتعالى - إذا ذكر أصحاب النار وعقوبتهم، ذكر أصحاب الجنة ومثوبتهم؛ لأن القرآن مثان تُثنى فيه الأحكام والمعاني، ولأجل أن يكون الإنسان دائراً في عبادته بين الخوف والرجاء؛ يقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ آمنوا بالغيب الذي يجب الإيمان به، وقد بَيَّنَّ النبي ﷺ

أركان الإيمان، حين سأله جبريل عن الإيمان قال: «... أن تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وملائكته، وكتبه، ورأسه، واليوم الآخر، والقدر كله خيره وشره...»^(١).

وأما عمل الصالحات؛ فهو القيام بالأعمال الصالحة، والعمل الصالح هو ما جمع بين وصفين: الوصف الأول: الإخلاص لله - تعالى - بالألا يريد بعمله إلا وجه الله ﷻ الدار الآخرة، لا يريد شيئاً من الدنيا. والثاني: المتابعة لرسول الله و؛ بحيث يكون متأسياً به - عليه الصلاة والسلام -، فإن فقد الإخلاص صار في عمل الإنسان إشراك، والله لا يقبل الشرك؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه النبي ﷺ عن ربه: «إن الله قال: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»^(٢)، وإذا لم يكن متبعاً فيه الرسول ﷺ كان عملاً بدعياً؛ والعمل البدعي مردود؛ لقول النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد»^(٣)، وفي رواية: «من عمل عملاً ليس

(١) رواه - عن أبي هريرة - البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي و عن الإيمان والإسلام...، رقم (٥٠)؛ ورواه - ضمن حديث طويل عن عمر - مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان، والإسلام، والإحسان، رقم (٨).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠).

(٣) رواه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور؛ فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)؛ ومسلم:، كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم

عليه أمرنا؛ فَهُوَ رَدٌّ^(١)؛ فالعمل الصالح هو ما جمع هذين الوصفين:
الإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله ﷺ.

ثم بَيْنَ - عَزَّ وَجَلَّ - جزاء هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين:
الإيمان والعمل الصالح، فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾؛ الجنة: هي الدار التي أعدها الله للمتقين، وفيها ما لا
عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان جزاء المؤمنين الذين عملوا صالحًا، وهو أنهم مخلدون في
الجنة.

٢- ومن فوائدها: أنه لا يتم دخول الجنة إلا بهذين الأمرين:
الإيمان والعمل؛ فالإيمان وحده لا يكفي، والعمل وحده لا يكفي؛
لابد من إيمان وعمل؛ ولهذا ينبغي أن نركز في خطابنا في الوعد
والدعوة إلى الله على الأمرين معًا: على الإيمان الذي هو أساس العقيدة،
وعلى العمل الصالح الذي به تتم هذه العقيدة.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن العمل لا ينفع إلا إذا كان
صالحًا، وهو ما جمع بين الإخلاص والمتابعة لرسول الله ﷺ كما أسلفنا
في تفسيرنا لهذه الآية.

(١) سبق نحرجه ص (٤٩).

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بطلان العمل الذي فيه الشرك؛ لأن الله اشترط لتأثير العمل واستحقاق الجزاء عليه أن يكون عملاً صالحاً.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة مخلدون فيها، وتخليدهم أبدي؛ كما دلت على ذلك آيات كثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢١٧).

قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ ﴾؛ الضمير في قوله: ﴿ أَخَذْنَا ﴾ راجع إلى الله - عزَّ وجلَّ - وجاء بهذه الصيغة تعظيماً لله؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يعبر عن نفسه أحياناً بصيغة الجمع، وأحياناً بصيغة الإفراد، والتعبير بصيغة الإفراد ما هو معلوم بأن الله - تعالى - واحد، والتعبير بصيغة الجمع للدلالة على العظمة؛ وذلك لأن ضمير الجمع تارة يُراد به الجمع الذي هو العدد، وتارة يُراد به التعظيم؛ كما في هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾؛ والميثاق هو العهد، وسُمي ميثاقاً؛ لأنه توثقة بين المتعاهدين، وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهم

أبناء عم للعرب؛ لأن العرب من ذرية إسماعيل، وبنو إسرائيل من ذرية إسحاق؛ وإسماعيل وإسحاق أخوان، أبوهما إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام -، هذا الميثاق هو:

أولاً: ألا يعبدوا إلا الله؛ لا يعبدون ملكاً، ولا رسولاً، ولا حجراً، ولا شجراً، ولا غير ذلك مما سوى الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

الثاني: أن يحسنوا إلى الوالدين بالبر إليهما وعدم العقوق.

الثالث: أن يحسنوا إلى ذوي القربى بالصلة وعدم القطيعة.

الرابع: أن يحسنوا إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن

يبلغوا، ويشمل الذكور والإناث من اليتامى.

الخامس: الإحسان إلى المساكين؛ وهم الفقراء المعدمون، وسموا

بذلك؛ لأن الفقر أسكنهم وأذلهم؛ فإن الفقر يوجب سكون الإنسان

وذله - نسأل الله أن يغنيننا بفضلته عن خلقه -.

أما السادس: أن يقولوا للناس حسناً، وهذا يشمل المخاطبة فيما

بينهم وبين الناس، ويشمل ما يدعون الناس إليه مما يكون شريعة؛

بحيث لا يقولون للناس إلا ما هو حسن، ولا يكون المدعو إليه حسناً

إلا إذا كان موافقاً لشريعة الله.

السابع: إقامة الصلاة؛ أي: أداؤها على الوجه الذي أمر الله به.

الثامن: إيتاء الزكاة؛ أي: إعطاء ما يجب إعطاؤه من المال إلى أهله.

ولكن هل هؤلاء الذين أخذ عليهم الميثاق قاموا بذلك؟ يقول الله

— عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾، والخطاب في قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمُ﴾ لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ إلا قليلاً منهم فإنهم قاموا بهذا العهد، وآمنوا بمحمد ﷺ؛ مثل عبدالله بن سلام، والنجاشي؛ وعبدالله بن سلام من اليهود، والنجاشي من النصارى، فهذان وأمثالهما ممن لم يتولوا، بل قاموا بالعهد والميثاق على ما عاهدوا عليه، وواثقوا عليه، ثم قال: ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: أنهم تولوا وهم معرضون، ليس فيهم شيء من الإقبال على ما جاء به محمد ﷺ.

فوائد وأحكام هذه الآية:

- ١- بيان عتو بني إسرائيل، وأنهم مع العهود والمواثيق لا يفون.
- ٢- ومن فوائد هذه الآية: التحذير مما وقع فيه هؤلاء من مخالفة الميثاق، وعدم الوفاء به؛ لأن الله - تعالى - إذا ذكر أخبار من سبق؛ فإنه لا يذكرها على سبيل التلهي بها والنظر المجرد، ولكنه يذكرها - عَزَّ وَجَلَّ -؛ من أجل أن نعتبر بها، وأن نأخذ منها عبرة؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].
- ٣- ومن فوائد هذه الآية: أن الدعوة للإخلاص في جميع الأمم؛ لقوله: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ وهذه الدعوة جاء بها كل الرسل - عليهم الصلاة والسلام -؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وكما قال الله -

تعالى :- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤- ومن فوائد هذه الآية: وجوب الإحسان إلى الوالدين؛ والإحسان يكون بالقول، ويكون بالفعل؛ فالإحسان بالقول معناه أن يُلين الإنسان لهما قوله، وأن يكون قولاً كريماً طيباً سمحاً، والإحسان بالفعل يكون ببذل المال، وبخدمة البدن، وغير ذلك مما يكون إحساناً، والآية مطلقة ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وليعلم أن أحق الوالدين بالصحبة هي الأم؛ كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - حين سئل: مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي ^(١)؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ»، قال: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» ^(٢)، ولكن هذا لا يعني ألا نعطي الأب حقه، بل له حق وللأم حق، لكن لما كانت الأم أنثى والغالب عليها الضعف، وأنها تحتاج إلى لينٍ أكثر صارت أحق الناس بصحبة الولد.

والإحسان للوالدين بالفعل: يكون ببذل ما يحتاج إليه الوالدان من المال من نفقة، وكسوة، وغير ذلك بقدر المستطاع، ويكون أيضاً بالبدن؛ وهو القيام بخدمة الوالدين حينما يحتاجان لذلك؛ ولهذا قال

(١) الصحابة - هنا - بمعنى الصحبة.

(٢) رواه البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن صحابتي، رقم (٥٩٧١)؛ ومسلم:

كتاب البر والصلة، باب بر الوالدين وأنها أحق به، رقم (٢٥٤٨).

الله - تعالى :- ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى ذي القربى؛ أي: إلى أصحاب القرابة، سواء أكانوا من قبل الأم أم من قبل الأب، والإحسان إليهم يكون كالإحسان إلى الوالدين؛ أي: بالقول وبالفعل، ولكن الإحسان إلى الوالدين أوكد وأعظم؛ لأنهم أقرب القربى إليك.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى اليتامى؛ وهم الذين مات آباؤهم قبل أن يبلغوا؛ وذلك لأن هذا اليتيم قد انكسر قلبه بفقد أبيه وراعيه، فكان من رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - وحكمته أن أوصى بالإحسان إليه.

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب الإحسان إلى المساكين عند الضرورة إلى ذلك، ومشروعيته على سبيل الاستحباب إذا لم يكن هناك ضرورة؛ وذلك لأن المساكين قد أسكنهم الفقر وأذلم؛ فهم بحاجة إلى مَنْ يجبرهم بالإحسان إليهم؛ ولهذا وصَّى الله بذلك، وجعله من العهود والمواثيق على بني آدم.

٨- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب القول الحسن في مخاطبة

الناس، وفي دعوتهم؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، والظاهر - والله أعلم - أن القول الحسن إن كان المراد به ما هو ضد القول السيئ؛ فإن القول الحسن هنا يكون واجباً؛ أي: أنه يجب على الإنسان أن يخاطب الناس بما لا يسيء إليهم، بل بما يكون فيه منفعتهم الدينية والدنيوية، ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله؛ فإن هذا كله من القول الحسن، وضده القول السيئ الذي يكون به الإساءة والعدوان على الناس؛ فإنه مُحَرَّمٌ.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: وجوب إقامة الصلاة؛ أي: الإتيان بها على الوجه المشروع، إلزاماً في الواجبات، وندباً في المستحبات، والصلاة معروفة؛ وهي موجودة في جميع الملل؛ كما يفيد قوله - تعالى -: ﴿يَمْرِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وكما تفيد هذه الآية الكريمة من أن بني إسرائيل قد أخذ عليهم الميثاق بأن يقيموا الصلاة.

١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: وجوب إتيان الزكاة، وهي القدر المفروض في المال الزكوي، يؤتى إلى أهل الزكاة لا إلى غيرهم.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عتوب بني إسرائيل، وأنهم - مع هذا العهد والميثاق على هذه الخصال الحميدة - لم ينقادوا، ولم يفوا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عدل الله - عزَّ وجلَّ -؛

وذلك باستثناء هؤلاء القليل ممن تولى؛ إذ لم يحكم بالتولي على جميع بني إسرائيل، وإنما حكم به على من قام به واستحققه، وهذا من كمال عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

١٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل - مع توليهم ونكثهم لهذا الميثاق - كانوا مُعرضين عن الحق، غير متجهين إليه؛ فجمعوا بين الانحراف القلبي والانحراف البدني.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ ۗ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

بَيَّنَّ اللهُ - تعالى - في هاتين الآيتين أنه - تعالى - أخذ ميثاقاً آخر على بني إسرائيل؛ وهو عدم عدوان بعضهم على بعض؛ كما في قوله - تعالى - : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ﴾؛ قوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ يعني: لا تريقونها بالقتل، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ﴾، وإنما أضاف الدماء إليهم

والإخراج إلى الأنفس؛ لأن الأمة الواحدة كأنها نفس واحدة؛ فإخراج بعضهم يكون كإخراج أنفسهم هم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: من كان منكم من دياركم، ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ﴾؛ أي: أنكم مقرون بهذا الميثاق، شاهدون به، ولكن هل استمروا عليه؟ الجواب: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْا هَتُّوْا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ﴾، فلم تفوا بالميثاق، بل قتلتم أنفسكم وأخرجتم فريقًا منكم من ديارهم، أخرجتموهم على وجه من العلو والاستكبار عليهم، ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، ومع ذلك إذا أتوكم أسارى فاديتموهم؛ يعني: لو أسروا؛ فإنكم محرصون على أن تفادوهم مع أن إخراجهم في الأصل حرام عليكم، ففي هذا الفعل تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ﴿أَفْتَوْمُنُونَ بِنَعْصِ الْكُتُبِ﴾؛ مثل إنقاذ من أسر منكم بالمفاداة ﴿وَتَكْفُرُونَ بِنَعْصِ﴾؛ مثل قتل بعضكم بعضًا وإخراج بعضكم بعضًا من ديارهم؛ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ جزاء؛ أي: مجازاته ومكافاته على عمله، وقوله: ﴿مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ احتراز من العموم؛ لأنه ليس كلهم يفعلون هذا، ولكن من يفعل هذا فهذا جزاؤه الخزي في الحياة الدنيا وبيان عيبه، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وإنما يردون إلى أشد العذاب؛ لنكثهم العهد والميثاق الذي بينهم وبين الله - عزَّ وجلَّ -، ثم ختم الله

الآية ببيان كمال علمه ومراقبته في قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

١- العدول عن الكلام بصيغة الغيبة إلى الكلام بصيغة الخطاب؛ لأنه أشد وأوقع في النفس؛ ففي الآية التي سبقت هاتين الآيتين يقول الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وفي هذه الآية يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، فعدّل عن الكلام بالغيبة إلى الكلام بالخطاب؛ لأنه أبلغ وأشد.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: تحريم الدماء في الأمم السابقة كما هو محرم في هذه الشريعة، وقد أعلن النبي ﷺ هذا التحريم في أكبر مجتمع اجتمع به مع أمته، وذلك في حجة الوداع؛ حيث سأهم: «أي يوم هذا؟ وأي شهر هذا؟ وأي بلد هذا؟»، ثم قال: «فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم بينكم حرامٌ؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا»^(١).

والدماء من أعظم العدوان حرمة وجزاء؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، وأخبر النبي ﷺ بذلك؛ فقال:

(١) رواه البخاري: كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع»، رقم (٦٧)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، رقم (١٦٧٩).

«أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة الدماء»^(١).

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تحريم إخراج الإنسان من بلده إلا بمقتضى الشرع؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: استعمال ما يوجب العطف، والحنان، والرحمة في الخطاب؛ لقوله: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾؛ حيث جعل دماء الغير كدماء الإنسان نفسه، وجعل إخراج الغير كإخراج الإنسان نفسه.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان عتو بني إسرائيل؛ حيث إنهم أقرؤا بهذا الميثاق، وشهدوا به، ولكنهم لم يقوموا بتطبيقه والعمل به.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: التحذير من العمل بما عمل به هؤلاء من أخذ الميثاق بين العبد وبين ربه، ثم بعد ذلك ينكثه، ولا يفى به.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن هؤلاء الذين لم يطبقوا الميثاق وصاروا يقتلون أنفسهم، ويخرجون فريقاً منهم من ديارهم

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، كتاب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)؛ ومسلم: كتاب القسامة، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم

يعتبرون مؤمنين ببعض الكتاب وكافرين ببعض، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كفر به جميعاً؛ لقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾؛ وأشد العذاب لا يكون إلا للكافرين؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾﴾؛ فبين الله أن هؤلاء الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض كافرون حقاً، وهذه مسألة خطيرة عظيمة؛ لأن بعض الناس يؤمن ببعض الشريعة ويكفر ببعضها، ثم يقول: إنه مؤمن باعتبار أصل عقيدته، وهذا لا ينفعه؛ إذ لا بد في الإيمان من أن يكون إيماناً شاملاً لكل ما جاءت به الشريعة.

٨ - ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تناقض بني إسرائيل؛ حيث إنهم يخرجون فريقاً منهم من ديارهم متعالين عليهم بالإثم والعدوان، ثم إذا أتوهم أسارى فادوهم، وهذا تناقض؛ كيف يخرجونهم من ديارهم، ثم يفادونهم إذا أتوهم أسارى؟

٩ - ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: أن عمل بني إسرائيل من الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه كان سبباً لهذه العقوبة العظيمة، أنهم يخزون في هذه الدنيا، وفي يوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

١٠ - ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: بيان عدل الله - عزَّ وجلَّ - في

الاحتراز من العموم إذا لم يكن الحكم عامًا؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾، ولم يقل: «فما جزاؤكم» مع أن الخطاب في الأول كان للجميع؛ حيث قال: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾، وقال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾، ثم قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾، وهذا من باب الاحتراز الدال على كمال عدل الله - عَزَّ وَجَلَّ - حتى في التحدث عن الغير.

١١- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: أنه يجب على الإنسان مراعاة العدل فيما يخاطب به غيره؛ فلا يتكلم عن أمة في مدح أو قدح على سبيل العموم إذا لم تكن كذلك، ولا يتكلم أيضًا عن أفعال الشخص المعين من قدح أو مدح على سبيل العموم إذا لم يكن كذلك؛ لأن هذا هو الحق والعدل.

١٢- ومن فوائد الآية الكريمة الثانية: إثبات يوم القيامة والجزاء فيه؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.
١٣- ومن فوائدها: أن العذاب مراتب، بعضه أشد من بعض؛ لقوله: ﴿إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾.

١٤- ومن فوائدها: إثبات الصفات المنفية في صفات الله - عَزَّ وَجَلَّ - بمعنى أن الله موصوف بالإثبات وموصوف بالنفي، في قوله - تعالى -: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، لكن ليُعلم أن الصفات المنفية عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يراد بها مجرد النفي؛ وإنما يُراد بها بيان كمال

ضدها؛ فإذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كان دالاً على كمال علمه، وكمال مراقبته لعباده - عَزَّ وَجَلَّ -، وأنه ليس بغافل عنهم.

١٥ - ومن فوائدها: بيان كمال الله - عَزَّ وَجَلَّ - في عموم علمه ومراقبته؛ لقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأن «ما» من صيغ العموم، والعموم في اسم الموصول أو غيره يدل على السعة والشمول.

* * *

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ - سبحانه وتعالى -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى هؤلاء الذين نكثوا العهد من بني إسرائيل، فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هؤلاء الذين نكثوا العهد إنما نكثوه لأغراض الدنيا وأعراضها؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾؛ أي: أخذوا الدنيا بدلاً عن الآخرة، وهؤلاء حكمهم في الآخرة أنه لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هم ينصرون؛ لأنهم ماتوا وهم ناكثون لعهد الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١ - بيان أن من خالف أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - فإنما يخالفه لغرض من الدنيا.

٢ - ومن فوائدها: بيان سفة هؤلاء الذين نكثوا عهد الله؛ حيث اختاروا الدنيا على الآخرة مع أن الآخرة خير وأبقى؛ كما قال الله - تعالى -:

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

٣- ومن فوائدها: التحذير من اختيار الدنيا على الآخرة، ومن ذلك أن يتعامل الإنسان مع الناس بمعاملات محرمة؛ كالربا، والغش، والكذب، وغير ذلك؛ من أجل أن ينال عَرْضًا من الدنيا؛ فإن هذا من السفه والخطأ؛ لأن الدنيا زائلة فانية، والآخرة هي الباقية، وقد حَذَّرَ النبي ﷺ من هذه الفتنة في قوله ﷺ: «إنها ستكون فتن؛ كقطع الليل المظلم، يُصبحُ الرجلُ مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا، يبيعُ دينه بعرضٍ من الدنيا»^(١).

٤- ومن فوائدها هذه الآية الكريمة: إثبات العذاب والجزاء، وأن من اشترى الحياة الدنيا بالآخرة لا يخفف عنه العذاب؛ لأنه اختار الدنيا على الآخرة؛ فيبقى مخلدًا في النار لا يُخفف عنه العذاب، وليعلم أن أصحاب النار فيها - والعياذ بالله - يقولون لمالك: ﴿ وَتَادَاوَى يَمِينِكَ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ويقولون لخزنة جهنم: ﴿ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفِفْ عَلْنَا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٩]، فأما جواب مالك لهم فيقول لهم: ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مِّنْكُمْ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وأما جواب خزنة النار فيقولون لهم: ﴿ أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ [غافر: ٥٠].

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨).

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أصحاب النار - الذين هم أهلها - لا تنفع فيهم الشفاعة؛ لقوله - تعالى - : ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، والشفاعة نوع من النصر، ولكن هؤلاء المستحقين الخلود في النار لا تنفع فيهم الشفاعة؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿فَمَا تَفَعُّهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

يقول الله - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية: إنه أعطى موسى الكتاب - وهو التوراة -، ويؤكد ذلك الإيعاء بالقسم المقدر، واللام، وقد، وهذا الكتاب الذي أوتي موسى لم يكن آخر كتاب نزل على بني إسرائيل، بل إن الله - تعالى - قَفَّى من بعده بالرسول، فأرسل إلى بني إسرائيل الرسل تباعاً، وختم رسل بني إسرائيل بعيسى - عليه الصلاة والسلام -؛ فقال الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾؛ أي: الآيات البيِّنات، وهي ما حصل من حمل أمه به من غير أب، ومن نطقه في المهدي، ومما جاء به من إخراج الموتى من قبورهم، وإحياء الموتى قبل الدفن، وإبراء الأكمه والأبرص - بإذن الله -، كل هذه الآيات التي جاء

بها آيات بينات، لكن فيها آيات سبقت وجوده - أي: وجود عيسى -، وآيات بعد وجوده ورسالته، ومع هذا فإن عيسى - عليه الصلاة والسلام - مع أنه أوتي البينات قد أيده الله - تعالى - بروح القدس؛ وهو جبريل - عليه الصلاة والسلام -، أيّد الله به عيسى؛ أي: قوّاه به ونصره، ثم قال مخاطباً بني إسرائيل وموبخاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبِرْتُمْ﴾؛ يعني: أفتبلغون إلى هذا الحال إذا جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، وإذا جاءكم رسول بما تهوى أنفسكم قبلتم، ولكن هذا الأخير قد لا تدل عليه الآية الكريمة؛ لأن جميع الرسل الذين جاءوا بالحق إلى بني إسرائيل جاءوا بما لا تهوى أنفسهم - أي: أنفس بني إسرائيل -، ثم انقسم بنو إسرائيل - بالنسبة إلى هؤلاء الرسل - إلى فريقين: فريقاً كذبوا وفريقاً قتلوا، وآخر من كذبوه هو محمد ﷺ؛ فإنهم كذبوه بعد أن جاءهم بالبينات حتى كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولكنهم استكبروا، ولم يقبلوا ما جاء به، بل عاهدوه ونقضوا العهد معه، وقاتلوا أصحابه، وما زالوا إلى يومنا هذا أعداء لأتباع محمد ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، فبين الله - عزَّ وجلَّ - حال بني إسرائيل مع الرسل أنهم على هذين القسمين: إما أن يكذبوا وإما أن يقتلوا؛ فتكذيبهم تكذيب بالحق، وقتلهم قتل بغير حق؛ كما قال الله - تعالى - في آية أخرى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- بيان ما منَّ الله به على موسى ﷺ من إتيان الكتاب، وموسى - عليه الصلاة والسلام - هو أفضل أنبياء بني إسرائيل، والتوراة هي أعظم الكتب المنزلة على بني إسرائيل؛ ولهذا يقرن الله - تعالى - بينها وبين القرآن أحياناً؛ لأن القرآن أفضل الكتب المنزلة على الأنبياء، والتوراة أفضل الكتب المنزلة على بني إسرائيل.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات نبوة موسى ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

٣- ومن فوائدها: أن الله - سبحانه وتعالى - لم يهمل الخلق بلا رسل؛ فإنه قفى من بعد موسى بالرسول تبعاً؛ من أجل هداية الناس، وقد قال الله - تعالى -: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، فكل أمة خلا فيها نذير؛ لتقوم الحجة على العباد؛ فإن العباد إذا لم يأتهم رسل قد يكون لهم حجة على ربهم - عزَّ وجلَّ -، ولكنه - سبحانه وتعالى - منع هذا الاحتجاج بإرسال الرسل؛ كما قال - تعالى -: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

٤- ومن الفوائد المستنبطة المأخوذة من هذه الآية: أن الله - عزَّ وجلَّ - قفى من بعد موسى بالرسول؛ من أجل أن تبقى آثار الرسالة في العباد.

٥- ومن فوائدها: إثبات نبوة عيسى ﷺ؛ حيث قال: ﴿وَأَتَيْنَا

عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴿٦﴾ .

٦- ومن فوائدها: أن الله أعطى عيسى ابن مريم بينات من الأمر تبين رسالته، وأنه عبد الله ﷺ رسوله، والبينات هذه شاملة جميع الرسل؛ فما من رسول إلا آتاه الله ما على مثله يؤمن البشر؛ كما قال الله - تعالى :- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

٧- ومن فوائدها هذه الآية الكريمة: بيان حكمة الله - عزَّ وَجَلَّ ؛ حيث إنه - جلَّ وعلا - إذا أرسل الرسل جعل معهم بينات تشهد لهم بالصدق، وهذا من كمال حكيمته، وكمال رحمته أيضًا؛ لأنه لو جاء رسول من الخلق دون أن تكون معه آية تدل على صدقه؛ لم يقبل الناس منه، ولكن الله - تعالى - بحكيمته ورحمته - جعل مع كل رسول آية تدل على صدقه، وأنه رسول الله حقًا.

٨- ومن فوائدها هذه الآية الكريمة: مِنَّةُ الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم؛ حيث أيدته بروح القدس جبريل - عَلَيْهِ السَّلَامُ - .

٩- ومن فوائدها: بطلان دعوى النصارى بألوهية عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -؛ لأنه أُيِّد بروح القدس، ولو كان إلهًا لم يحتاج إلى تأييد أحد، ولكنه عبد الله ورسوله؛ كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ ﷺ رَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

وروح منه...»^(١)، وقد تبرأ عيسى - عليه الصلاة والسلام - من دعوى من ادعى أنه إله معبود مستحق للعبادة في قوله ﷺ حين يسأله الله يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٰ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٰ بِحَقِّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عٰلِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ۚ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۚ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

١٠- ومن فوائد هذه الآية: إثبات الملك الكريم جبريل - عليه الصلاة والسلام - الذي وصفه الله بأنه روح القدس في هذه الآية وفي غيرها؛ قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون ما جاءت به الرسل، بل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم - أي: بما لا يعتقدون أنه حق - استكبروا.

١٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني إسرائيل انقسموا في

(١) رواه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله - تعالى -: ﴿يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، رقم (٣٤٣٥)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب من لقي ربه بالإيمان - وهو غير شك فيه - دخل الجنة، رقم (٢٨).

جانب الرسل إلى قسمين: فريق كذبوا الرسل، وفريق قتلوهم؛ لقوله:
﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ
فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وقالوا﴾ الضمير يعود على بني إسرائيل؛ لأن هذه الآيات كلها في
التحدث عنهم، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؛ أي: مغلفة لا يصل إليها ما جاء به
محمد ﷺ من الحق، فبين الله - عزَّ وجلَّ - بطلان دعواهم هذه في قوله:
﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أن الله طردهم وأبعدهم عن رحمته
بكفرهم، فران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وإذا ران على القلب
عمل العبد؛ فإنه لن يصل إليه الخير، يُطبع على قلبه فلا يصل إليه
الخير، فيظن أن قلبه لم يُخلق منفتحًا لهذا الخير، ويدَّعي أن قلبه
أغلف، ثم قال - تعالى - : ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: أن إيمانهم قليل؛
بسبب لعنة الله لهم بكفرهم.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

١- أن بني إسرائيل يدعون ما ليس بحق حينما يدعوهم النبي -
عليه الصلاة والسلام - أو غيره من أنبيائهم فيقولون: إن قلوبهم
غلف؛ يعني: مغلفة لا يصل إليها ما دعوتهم إليه، ووجه إبطال هذا
قوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: بل ليس الأمر ما يدعون، وإنما

الأمر أنهم كفروا؛ فلعنهم الله فلا يصل إلى قلوبهم الخير.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: بيان عقوبة الله لهؤلاء باللعنة؛ وهي

الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

٣- ومن فوائدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن الباء -

هنا - للسببية.

٤- ومن فوائدها: أن الكفر - والعياذ بالله - يوجب انطماس القلب،

والطبع عليه؛ بحيث لا يصل إليه الخير؛ لقوله: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ

بِكُفْرِهِمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: أن بني إسرائيل يقل فيهم الإيمان، والقلة هنا إما

أن يكون المراد بها العدم، لقوله: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾، وإما أن يراد بها

أنه قد ترد على قلوبهم أحياناً واردات يكون فيها شيء من الإيمان،

ولكنه شيء قليل لا يصل إلى إزالة الكفر عن هذه القلوب.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

كَفَرُوا بِهِ ۗ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾

قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ المراد به

القرآن؛ فهو من عند الله؛ لأن الله - تعالى - تكلم به وتلقاه جبريل، ثم

نزل به على قلب النبي ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: أن هذا القرآن

مصدق ما معهم من الكتب؛ وتصديق القرآن لما معهم من الكتب على

وجهين: الوجه الأول: أن حكم بصدق هذه الكتب السابقة، وأوجب على الناس أن يؤمنوا بها؛ وهذا يعني أنه قال: إنا صادقة.

والوجه الثاني من التصديق: أن الكتب السابقة أخبرت به؛ فجاء مصدقاً لما أخبرت به مطابقاً له، وكلا الوجهين حق، لما جاءهم هذا الكتاب من عند الله مصدقاً لما معهم.

﴿وَكَاثُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ يعني: أن هؤلاء اليهود كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا؛ أي: يستنصرون عليهم بالرسول الذي وعدوا به، وكانوا يقولون: إنه سيبعث نبي، وسنكون من أتباعه، وسنتنصر عليكم، يقولون ذلك للكافرين، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾؛ أي: جاءهم ما عرفوا أنه الحق، وأنه الرسول الذي كانوا ينتظرونه؛ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ لم يقبلوا ما جاء به؛ ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني: أن هؤلاء لما كفروا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - الذي عرفوه كما يعرفون أبناءهم استحقوا اللعنة من الله - عزَّ وجلَّ -؛ وهي الطرد والإبعاد عن رحمة الله، وهنا قال ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ولم يقل: «فلعنة الله عليهم»، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد؛ منها: الحكم على مرجع الضمير بهذا الوصف الظاهر الذي حلَّ محل الضمير، ومنها: إرادة التعميم فمثلاً لو قال: «فلعنة الله عليهم» لم تشمل غيرهم، ولكن إذا قال: «على الكافرين» شملتهم وشملت غيرهم من الكفار، ثم لو قال: «فلعنة الله عليهم» لم

يتبين أنهم كفار بهذا الكفر، ولكنه قال: ﴿فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾؛
ليحقق بذلك اتصافهم بالكفر.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن بني إسرائيل قد امتد طغيانهم وعتوهم وتكذيبهم للأنبياء
حتى آخر الأنبياء وخاتمهم محمد ﷺ.

٢- ومن فوائدها: أن القرآن الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله
ليس منقولاً عليه.

٣- ومن فوائدها: إثبات كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن القرآن كلام
بلا شك، فإذا كان من عند الله - سبحانه وتعالى - دل هذا على أنه
كلامه، وهذا هو ما يذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن القرآن كلام
الله، حروفه ومعانيه، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود.

٤- ومن فوائدها: الثناء على كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - القرآن؛ لكونه
مصدقاً لما سبقه من الكتب؛ لقوله - تعالى -: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾.

٥- ومن فوائدها: أن الحجة على بني إسرائيل كانت معهم، وبين
أيديهم؛ فكتبهم كلها ناطقة متحدثة عن هذا القرآن الكريم، مصدقة
له، مخبرة به، ومع ذلك كفروا به عتواً وطغياناً.

٦- ومن فوائدها: بيان الحسد العظيم في بني إسرائيل؛ حيث كانوا
من قبل يستفتحون على الذين كفروا ظناً منهم أن النبي الذي تحدثت
عنه كتبهم سيكون من بني إسرائيل؛ فلما تبين أنه من بني إسماعيل

كفروا به؛ قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٧- ومن فوائدها: أن بني إسرائيل كفروا عن عناد وبيان؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

٨- ومن فوائدها: أن الكفر عن معرفة أشد من الكفر عن جهل؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾، ولم يقل: «فلما جاءهم الرسول»، أو «جاءهم صاحب هذا الكتاب»، أو ما أشبه ذلك؛ بل قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾؛ بيانا لشناعة ما حصل منهم.

٩- ومن فوائدها: أن بني إسرائيل لما كفروا استحقوا اللعنة التي أوجبها الله - سبحانه وتعالى - على كل كافر؛ أي: أن لعنة الله حاقة على كل كافر؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِم أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

يقول الله - سبحانه وتعالى - مبينا قبح ما ذهبوا إليه؛ لكونهم اختاروا لأنفسهم الكفر بما أنزل الله؛ حسداً وبغياً منهم أن ينزل الله من

فضله على من يشاء من عباده؛ فإنهم حسدوا العرب حينما جاء النبي ﷺ منهم، واختاروا لأنفسهم الكفر على الإيمان، قال الله - تعالى -: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾؛ أي: أنهم أتوا بغضب على غضب، وهذا لا يعني أنهم باءوا بغضبين فقط، بل بأكثر؛ فهم استحقوا غضب الله - عزَّ وَجَلَّ - بعبادة العجل في زمن موسى - عليه الصلاة والسلام -، وبتكذيب عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -، وبتكذيب محمد ﷺ؛ فهم باءوا بغضب على غضب؛ أي: رجعوا به - والعياذ بالله - والغضب الذي رجعوا به هو غضب من الله - سبحانه وتعالى -، ثم قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وهذه عامة وأول من يدخلها هؤلاء الذين كفروا بمحمد ﷺ؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم الكفر، وإنما قال: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ لأنهم كفروا استكباراً وتعاضلاً وعلواً؛ فكان جزاؤهم هذا العذاب الذي يهينهم ويلحقهم الذل والهوان.

فوائد وأحكام الآية الكريمة:

- ١- بيان قُبْح ما اختاره هؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل؛ لقوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.
- ٢- ومن فوائدها: إثبات أن ما جاء به محمد ﷺ من عند الله؛ لقوله: ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾.
- ٣- ومن فوائدها: أن الذي حملهم على ذلك هو البغي والعدوان،

وهذا من طبيعة بني إسرائيل، أنهم بغاة عتاة متمردون على الحق.

٤- ومن فوائدها: بيان أن العلم الذي يهبه الله - تعالى - للشخص في شريعة الله من فضله، بل هو أعظم فضل يمن الله به على العبد بعد هدايته لدينه أن يرزقه الله - تعالى - العلم، والعلم أفضل من المال؛ لما فيه من النفع الكثير الواسع؛ وقد جاءت آيات كثيرة، بل وأحاديث كثيرة تدل على بيان فضل العلم، وأنه أعظم نعمة من الله بها على العبد.

٥- ومن فوائدها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله - تعالى -: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾، ومشيئة الله - تعالى - عامة، عامة في كل شيء، فيما يفعله هو بنفسه، وفيما يفعله العباد.

٦- ومن فوائدها: أن هؤلاء الذين اختاروا لأنفسهم الكفر بمحمد ﷺ قد باءوا بغضب على غضب؛ أي: تراكم عليهم الغضب من الله - عزَّ وجلَّ -، وهذا يدل على أن الغضب إذا تكرر كان أعظم قبْحًا مما إذا كان غير متكرر.

٧- ومن فوائدها: إثبات العذاب للكافرين، وأنه عذاب مهين يلحقهم بالذل والهوان؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي: لبني إسرائيل الموجودين في عهد الرسول ﷺ ﴿ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ لم يقبلوا هذا القول، بل يردونه بقولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ من الكتب التي نزلت عليهم كالتوراة على اليهود، والإنجيل على النصارى، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾؛ أي: بما سواه، ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾؛ يعني: أن الذي كفروا به هو الحق ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾، والحق هو الشيء الثابت، وضده الباطل الزائل.

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: أن القرآن الكريم صدق ما معهم من كتب، وكان تصديقه لها على وجهين: الوجه الأول: أنه بين أنها كتب مشتملة على الصدق، والوجه الثاني: أنه صدقها؛ حيث كانت تتحدث عنه، وتبينه، وأنه سيكون فكان؛ يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾؛ أي: قل لهم يا محمد: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إذا كنتم تدعون أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فلِمَ تقتلون أنبياء الله الذين جاءوا بالوحي من الله؟ وهل هذا إلا كذب منكم وعدوان واستكبار على الحق؟! ولو كنتم مؤمنين حقًا ما قتلتم الأنبياء الذين جاءوا منكم، وأتوا بالكتب منزلة عليكم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان تعصب اليهود والنصارى لما هم عليه من الطريق، ولو كانت طريقاً خاطئة؛ لأن رسالتي اليهود والنصارى نُسختا بمجيء محمد ﷺ، وصارتا غير مقبولتين عند الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقوله: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

٢- ومن فوائدها: التحذير من التعصب لما مع الإنسان إذا كان باطلاً؛ لأن الله ذكر هذا عن بني إسرائيل؛ تحذيراً من طريقتهم.

٣- ومن فوائدها: أن هؤلاء - أعني: بني إسرائيل - إذا عرض عليهم الحق ردوه، وتعصبوا للباطل الذي هم عليه، وكفروا بما سواه؛ لقوله: ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾.

٤- ومن فوائدها: أنهم - أعني بني إسرائيل - يردون الحق المصدق لما معهم، وكان الذي يجب عليهم - عقلاً وشرعاً - أن يقبلوا الحق، ولا سيما أنه مصدق لما معهم، ومبين أنه الحق؛ لقوله: ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾.

٥- ومن فوائدها: إقامة الحجة على كذب هؤلاء، الذين يدعون أنهم يؤمنون بما أنزل إليهم؛ لأنهم كانوا يقتلون الأنبياء، ولو كانوا صادقين في الإيمان بما أنزل إليهم ما قتلوا الأنبياء.

٦- ومن فوائدها: أنه ينبغي عند المحاجة أن يذكر المحاج ما يفحم

به الخصم، ويبين كذبه، وبطلان دعواه؛ لقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ
أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٧- ومن فوائدها: بيان أن بني إسرائيل لا يقبلون الحق من كل من
جاء به، ولكن إذا جاءهم ما تهوى أنفسهم سكتوا، وإذا جاءهم ما لا
تهوى أنفسهم قتلوا أو يكذبون ويصرّحون بالتكذيب إذا لم يبلغوا إلى
حد القتل كما سبق في آية قبل هذه.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ
الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

في هذه الآية يخاطب الله بني إسرائيل موبخاً لهم على ما حصل
منهم؛ حيث إن موسى عليه السلام جاءهم بالآيات البينات الدالة على
رسالته، وصدق دعوته، ومع ذلك اتخذوا العجل من بعده إلهاً وهم
ظالمون؛ أي: ظالمون لأنفسهم بهذا الاتخاذ

وسبب ذلك أن موسى - عليه الصلاة والسلام - وعده الله -
سبحانه وتعالى - ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر؛ فبقي غائباً عن قومه
أربعين ليلة، وكان قد خلف عليهم هارون - عليه الصلاة والسلام -،
فلما تأخر عن الثلاثين؛ فُتِنوا بما صنعه السامري من العجل المكون من
الذهب الذي استعاروه، وقال لهم: إن هذا هو إلهكم وإله موسى؛
فعبدوا العجل وهم يعلمون أنه من صنعهم، وأنهم هم الذين صنعوه

وأحدثوه، ومع ذلك اتخذوه إلهًا، وقد نصحهم هارون - عليه الصلاة والسلام -، ولكنهم ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، وهذا - لا شك - دليل على سفههم، وعتوهم، وطغيانهم، أن يتخذوا إلهًا على صورة العجل، هم الذين صنعوه بأنفسهم وهو من جملة القبائح التي هم عليها.
فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- في هذه الآية بيان واحد من أمور كثيرة تدل على عتو بني إسرائيل، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم.
- ٢- وفيها - أيضًا - من الفوائد: المناداة إلى سفه هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهًا؛ فعبدوه مع أنه لا يرجع إليهم قولًا، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا.
- ٣- ومن فوائد هذه الآية: أنهم اتخذوا العجل على حال ظلم؛ لأنهم يعلمون أن هذا العجل هم الذين صنعوه، وأنه ليس إلهًا، ولكنهم - والعياذ بالله - تعنتوا هذا التعنت، ونصحهم هارون، ولكنهم لم يقبلوا هذا النصح.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ

إِيْمَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [البقرة: ٩٣].

هذه الآية خطاب لبني إسرائيل في عهد الرسول و، ولكنهم لما كانوا أمة واحدة مع من سبقهم صحَّ أن يُوجَّه الخطاب إليهم بالشناعة عليهم بفعل غيرهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾؛ أي: العهد الثقيل الموثق، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾؛ وهو الجبل المعروف، رفعه الله عليهم؛ تخويفاً وإنذاراً حتى صار كالظلة فوق رؤوسهم، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة؛ أي: أن يأخذوا الكتاب الذي أنزله الله إليهم - وهو التوراة - بقوة في تصديق أخباره، والعمل بأحكامه، وأمرهم أن يسمعوا، ولكنهم عتوا وقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وكان الواجب عليهم - وهم عباد الله الذين خلقوا لعبادته - أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، وكان هذا العصيان والتمرد نتيجة - والله أعلم - لما أُشرب في قلوبهم من حب العجل؛ فإن هذا العجل الذي صنعوه وعبدوه تمكَّن في قلوبهم حتى شربته؛ أي: شربت حبة؛ بسبب كفرهم بالله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فهم لما عدلوا عن الحق عوقبوا بالإغراء بالكفر؛ لأن القلوب إما على حق وإما على باطل، فإذا انتفى الحق ثبت الباطل؛ قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾؛ أي: بئس الأمر الذي يأمركم به إيمانكم من عبادة العجل، والطغيان، والعتوُّ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، ومن المعلوم أن من عبد مع الله غيره؛ فليس بمؤمن ولو ادَّعى أنه مؤمن، ولكن هذه الصيغة التي جاءت في آخر الآية من باب

التحدي لهم؛ إذا كانوا مؤمنين فلماذا يعبدون العجل؟! هل الإيمان يأمر بعبادة غير الله؟! لا.

فوائد هذه الآية الكريمة:

١- من فوائدها: قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ حيث نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، مع أن الجبل من الرواسي؛ فإن الجبال جعلها الله - تعالى - رواسي ثابتة في الأرض، ولكنه إذا أراد شيئاً فإنها يقول له: كن فيكون.

٢- ومن فوائدها: بيان بلوغ الغاية في عتوّ بني إسرائيل؛ حيث إنهم قيل لهم: ﴿خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، ولكنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٣- ومن فوائدها: أن السمع يطلق على الاستجابة والقبول؛ لقوله: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾؛ أي: اقبلوا واستجبوا، لكنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

٤- ومن فوائدها: وجوب الأخذ بقوة فيما نزل على الإنسان من وحي الله، وألا يقابل هذا الوحي بالكسل والضعف؛ يشهد لهذا قول النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، أَحْرَضَ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ

وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»^(١).

٥- ومن فوائدها: أن الإنسان قد يُبتلى بحب الباطل إذا عرض عن

الحق؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾.

٦- ومن فوائدها: إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾؛ فإن

الباء هنا للسببية.

٧- ومن فوائدها: التحذير من ردّ الحق، وأن الإنسان قد يُبتلى إذا

ردّ الحق بمحبة الباطل؛ حتى يبقى عليه، وقد حذّر الله - سبحانه وتعالى

- من هذا بما ذكره في قوله - تعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَ لَهُمْ كَمَا لَمْ

يُؤْمِنُوا بِهِ - أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ فإن

الإنسان إذا ردّ الحق، ولم يستجب له من أول الأمر قد يُبتلى بأن يُقلّب

الله - تعالى - قلبه وبصره؛ حتى يكون في أمر مريب.

٨- ومن فوائدها: تقبيح ما ذهب إليه هؤلاء من محبة العجل،

وعصيانهم، وكفرهم؛ لقوله: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

٩- ومن فوائدها: أنه ينبغي عند الحاجة أن يسلك المحاج ما فيه

التحدي لخصمه؛ حتى يتبين قدرته على المدافعة؛ لأن مقام المتحدّي

أعلى وأقوى من مقام المتحدّي، وقد جاء في القرآن الكريم كثير من هذا

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز...، رقم (٢٦٦٤)

النوع - أعني: التحدي -؛ أي: تحدي الخصم حتى يتبين عجزه، وأنه ليس على حق؛ من ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومثل قوله - تعالى -: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَاهُ رُبَّ لَآ يُؤْمِنُونَ﴾ [٣٣] فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة التي فيها تحدي الخصم حتى يتبين عجزه.

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٤] وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ [٤٥] وَلَتَجِدَبَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [٤٦].

الخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ؛ أمره الله - تعالى - أن يقول لهؤلاء الموجودين في عهده من بني إسرائيل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾؛ وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم هم أهل الجنة، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، ثم يخلفهم المسلمون فيها، ويدعون أنهم أبناء الله تعالى

أحبائِهِ، وأنهم خلاصة الله - تعالى - من البشر، إلى غير ذلك من
الدعاوى الباطلة التي يشهد بطلانها حالهم التي هم عليها، فيقول الله
- تعالى - لنيبه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً
مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المعلوم
أنهم لن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنْ
يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي بسبب ما قدمت أيديهم من
الكفر، والظلم، والطغيان، ومن كانت هذه حاله؛ فإنه لا يمكن أن
يتمنى الموت؛ لأنه لو تمنى الموت في هذه الحال لكان معناه أنه يتمنى
استعجال العقوبة على نفسه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، هذه جملة
استثنائية تبين أن الله - سبحانه وتعالى - يعلم أن هؤلاء ظلمة، وأنهم لا
يمكن أن يتمنوا الموت؛ لما هم عليه من الظلم، ثم قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾؛ أي: لتجدن هؤلاء الموجودين من بني
إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت قليلة، يتمنون أن يبقوا في
هذه الحياة الدنيا ولو قليلاً؛ ليتمتعوا بها فيها من اللذات التي لا تنفعهم
يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾؛ يعني: ولتجدنهم
أحرص الناس على حياة حتى من الذين أشركوا؛ يعني: فهم أحرص
الناس على حياة، ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾؛ يعني: يحب
ويتمنى أن يعمر ألف سنة، ولكنه لو عمّر لم ينفعه ذلك، ﴿وَمَا هُوَ
بِمُزْحَضٍ مِّنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾،

وسيجازيهم الله على أعمالهم بما يستحقون.

فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات:

١- تحدي هؤلاء الذين ادَّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة لهم، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودة، تحديهم بأمرهم قادرين عليه لو شاءوا؛ وهو تمنى الموت إذا كانوا صادقين بأن الدار الآخرة لهم.

٢- ومن فوائدها: أن هؤلاء الموجودين من بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ لا يمكن أن يتمنوا الموت؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل؛ ومن كان يعلم أنه على باطل فلا يمكن أن يتمنى الموت؛ لأنه لو تمناه لكان يستعجل العذاب لنفسه.

٣- ومن فوائدها: بيان علم الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٤- ومن فوائدها: أن التأييد إنما يكون بحسب الحال والقرينة، فلا يكون تأييدًا مطلقًا أبدًا؛ وذلك لأن أهل النار في النار يتمنون الموت؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، وهؤلاء المكذبون لرسول الله ﷺ من بني إسرائيل هم من أهل النار؛ كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيده، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثم يموتُ ولم يؤمنِ

بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»

٥- ومن فوائدها: بيان أن بني إسرائيل أحرص الناس على حياة، وإن كانت حياة زهيدة قليلة؛ لقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ﴾.

٦- ومن فوائدها: أن المشركين أحرص الناس على حياة، ولكن هؤلاء اليهود من بني إسرائيل أشد حرصًا على الحياة من المشركين.

٧- ومن فوائدها: أن طول العمر لا يغني شيئًا إذا لم يكن الإنسان على حق وعلى خير؛ ولهذا جاء في الحديث: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ، قال: فأبي الناس شر؟ قال: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»^(١).

٨- ومن فوائدها: أن عمر الإنسان حقيقة ما أمضاه في طاعة الله، وليس عمر الإنسان ما طال؛ فإن الإنسان قد يكون قصير العمر، ولكن يجعل الله في عمره بركة؛ ينتفع بنفسه وينتفع غيره؛ كما يوجد من بعض العلماء الذين عمّروا قليلاً، ولكنهم خلفوا خيراً كثيراً للأمة.

٩- ومن فوائدها: أنه ينبغي لمن دعا لشخص بطول العمر أن يقرن

(١) سبق تخريجه ص (١٤١)

(٢) رواه الترمذي: كتاب الزهد، باب منه، رقم (٢٣٣٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ وأورده الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥٤)، وقال: «رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح؛ والطبراني بإسناد صحيح؛ والحاكم؛ والبيهقي في الزهد وغيره».

ذلك بطاعة الله فيقول: أطال الله عمرك على طاعته؛ لأن طول العمر بدون طاعة لا يفيد الإنسان شيئاً، بل إذا كان في معصية؛ فإنه لا يزيده إلا شراً.

١٠- ومن فوائدها: إثبات عموم علم الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٦].

وهذا قد دلت عليه النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة؛ حيث دلت على عموم علم الله - سبحانه وتعالى - بكل شيء، سواء من أفعاله أو من أفعال عباده، ذكر الله ذلك جملة، وذكره تفصيلاً؛ فذكره جملة مثل قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والتفصيل مثل قوله - تعالى -: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. ومثل قوله - تعالى -: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتيح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۗ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۗ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وآيات العلم كثيرة في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وكذلك أحاديث النبي ﷺ في علم الله، والفائدة من علمنا بذلك

هي: أن يكون الإنسان مراقباً لربه، يخشى ربه في السر والعلانية، لا يكتُم شراً، ولا يقول شراً، ولا يفعل شراً، ولقد قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ ۗ وَخَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ فبين الله - سبحانه وتعالى - أنه يعلم ما توسوس به نفس الإنسان؛ تحذيراً من أن يضمّر الإنسان في قلبه ما لا يرضاه الله - عزَّ وجلَّ -.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (١٨) ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ ﴿١٨﴾

في هذه الآيات الكرييات يأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لكل من كان عدوًّا لجبريل: ﴿فإنه نزلهُ على قلبك﴾؛ حيث إن جبريل نزل هذا القرآن على قلب النبي ﷺ بإذن الله، وأول من صرح بأنه عدوٌّ لجبريل هم اليهود؛ وذلك لأن جبريل - عليه الصلاة والسلام - ينزل بهذا الوحي من عند الله، فيفضحهم، ويبين جبروتهم وطغيانهم؛ فكان عدوًّا لهم، فأمر الله نبيه بهذه الآية أن يقول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ولا يضر جبريل أن يكون

هو لاء عدوًا له، وإنما خصَّ الله التنزيل على القلب؛ لأن القلب هو محل الوعي، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

وأما قوله - تعالى -: ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، فقد سبق الكلام على معناه، وأما قوله: ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فالمعنى: أن هذا القرآن هدى وبشرى للمؤمنين؛ هدى يهديهم، ويبين لهم الحق، ويبشرهم بما أعد الله لهم من الثواب والنعيم المقيم على إيمانهم.

ثم قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾، هذه الجملة الشرطية فيها بيان أن من كان عدوًّا لله؛ فإنه يكفر، وكذلك من كان عدوًّا لملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ وجبريل وميكال من الملائكة، ولكنها خصًّا بالذكر؛ لأن جبريل يتنزل بما فيه حياة القلوب، وميكايل مأمور بالقطر والنبات وفيه حياة الأرض.

وفي قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ إظهار في موضع الإضمار؛ إذ كان مقتضى السياق أن يقول: فإن الله عدوُّ له، ولكنه أظهر في موضع الإضمار؛ لبيان حكم من كان عدوًّا لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال؛ فإنه كافر، ولأجل أن يكون هذا عامًّا في كل كافر، سواء أكان كفره بسبب عداوته لله، وملائكته، ورسله، وجبريل، وميكال، أم بسبب آخر، ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا

إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٦﴾، يؤكد الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن الله أنزل إلى رسوله ﷺ آيات بينات، وهي هذا القرآن العظيم الذي بين الله فيه كل ما تحتاجه الأمة في معاشها ومعادها، وما يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

فوائد هذه الآيات الكريمات:

١- من فوائدها: إثبات أن جبريل - عليه الصلاة والسلام - نزل بالقرآن الكريم على قلب النبي ﷺ.

٢- ومن فوائدها: بيان فضيلة جبريل؛ حيث كان موكلاً بتنزيل الوحي على رسول الله ﷺ.

٣- ومن فوائدها: أن القلب هو محل الوعي والحفظ.

٤ - ومن فوائدها أيضاً: أن نزول جبريل بالوحي على رسول الله ﷺ كان بإذن الله الشرعي والقدري، وقد قسم أهل العلم إِذْنَ الله - تعالى - إلى قسمين: إِذْن كوني، وإِذْن شرعي: فما تعلق بالمخلوقات فهو من الإِذْن الكوني، وما تعلق بالوحي فهو من الإِذْن الشرعي، ومثال الإِذْن الشرعي قوله - تعالى -: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وقوله: ﴿ قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، ومثال الإِذْن الكوني قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ - مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]؛ أي: بإذن الله الكوني.

٥- ومن فوائدها: بيان أن جبريل - عليه الصلاة والسلام - وإن كان من الملائكة - له أعداء من البشر من بني آدم، ومن أولهم اليهود، كما ذكر ذلك المفسرون.

٦- ومن فوائدها: أن هذا القرآن لا يهتدي به ويتنفع به إلا المؤمن، ولا يكون بشرى إلا للمؤمن، أما غير المؤمن فإنه لا ينتفع بهذا القرآن، ولا يكون القرآن بشرى له.

وفي قوله . تعالى .: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾ إلى آخر الآية، من الفوائد:

١- أن كل من كان عدوًّا لله، أو لملائكته، أو لرسله، أو لجبريل وميكايل؛ فإنه كافر؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾.

٢- ومن فوائدها: أن كل كافر هو عدو لله - عزَّ وجلَّ -؛ ويشهد لهذا قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ١].

٣- ومن فوائدها: أن كل من كان عدوًّا لله؛ فإنه يجب أن يكون عدوًّا للمؤمنين؛ لأن من أحب أحدًا كان وليًّا لمن والاه، وعدوًّا لمن عاداه.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾.

هذه الآية فيها تأكيد من ثلاثة وجوه: اللام، وقد، والقسم المقدر؛ يؤكد الله - عَزَّ وَجَلَّ - فيها أنه أنزل إلى الرسول ﷺ آيات بينات. من فوائد هذه الآية:

١- من فوائدها: تأكيد أن القرآن نزل من عند الله، والآيات في هذا كثيرة جدًا.

٢- ومن فوائدها: أن القرآن آيات بينات، ليس فيها غموض ولا إشكال.

٣- ومن فوائدها: الرد على من قال: إن في القرآن آيات مشتبهات لا يعلم معناها الناس؛ فإن جميع آيات القرآن الكريم معلومة المعنى، وليس فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة، فلو كان فيها شيء مجهول المعنى لجميع الأمة لم يكن القرآن بيانًا، بل كان بعضه بيانًا وبعضه غير بيان.

٤- ومن فوائدها: أنه لا يكفر بهذه الآيات التي أنزلها الله على محمد ﷺ إلا الفاسق الخارج عن طاعة الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٥- ومن فوائدها: أن كل من كان أطوع لله - عَزَّ وَجَلَّ - وأقوم لطاعته؛ كان ظهور الآيات الكريهات في القرآن أبين عنده وأوضح؛ لأن الحكم إذا رُتِبَ على شيء - أي: على وصف - فإنه يثبت بثبوتها، وينتفي بانتهائه.

٦- ومن فوائدها: أنه يجب علينا أن نعني بهذا القرآن الكريم، وأن

نستبين ما فيه من الآيات؛ حتى ننتفع به، وحتى يكون منهجاً نسير عليه في اعتقادنا، وفي عبادتنا، وفي معاملاتنا؛ فإن هذا القرآن شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

يقول الله - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية موبخاً هؤلاء القوم؛ بنذ فريق منهم لما عاهدوا عليه -: ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، ثم يبين أن هذا النبد بالعهد؛ لكون أكثرهم لا يؤمنون ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- توبيخ من عاهد عهداً فنبذته.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنه إذا وقع الخطأ من بعض قوم؛ فإنه لا يُنسب الخطأ إلى الجميع، بل العدل أن يشار إلى أن هذا الذي حصل إنما كان من فريق منهم؛ لئلا يلحق العار جميع القوم مع براءة بعضهم منه.
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن نقض العهد علامةٌ على نقص الإيمان؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن من خصال النفاق الغدر بالعهد.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾.

وهذه الآية كسابقتها، فيها التوبيخ لهؤلاء القوم الذين عرفوا الحق، ولكن فريقاً منهم نبذوه، وكأنهم لا يعلمون به، فيقول - جل وعلا -: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾؛ وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، وذلك من وجهين:

الأول: أن القرآن شهد بصدق ما جاء به موسى وعيسى - عليهما الصلاة والسلام -.

والثاني: أنه صدق ما أخبرا به عن هذا الرسول الذي بُشِّرَ به بنو إسرائيل؛ كما قال عيسى ابن مريم: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وبيّن الله - عزَّ وجلَّ - في هذه الآية - أعني آية البقرة - أنه لما جاءهم هذا الرسول المصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله ﷻ راء ظهورهم، ولم يقل: «نبذ فريق منهم» بل قال: ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾؛ زيادة في التشنيع عليهم؛ حيث أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، ولكنهم نبذوه، والذي نبذه فريق منهم، ومنهم من آمن به وصدق به؛ كالنجاشي - رحمه الله - وكعبدالله بن سلام - رضي الله عنه

؛ فالنجاشي كان من النصارى، فلما بلغته رسالة النبي ﷺ آمن به،
وعبد الله بن سلام كان من اليهود، فلما قدم النبي ﷺ المدينة أتى إليه،
وآمن به، ولم يكن كل اليهود أو النصارى كفروا بمحمد ﷺ ونبذوا
كتاب الله وراء ظهورهم، ثم يبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هؤلاء الذين
نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون الحق، كأنهم جهالٌ به
وهم عالمون به.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- صدق رسالة النبي ﷺ؛ لقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ

اللَّهِ ﷻ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن رسول الله ﷺ مرسل إلى بني

إسرائيل، كما أنه مرسل إلى الأميين - وهم العرب -، بل وإلى الناس

أجمعين؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي -

وَيُمِيتُ فَتَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ -

وَاتَّبِعُوهُ لَعَنَّاكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وثبت عن النبي ﷺ أنه

قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ

ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسِلْتُ به، إلا كان من

أصحابِ النَّارِ»^(١).

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن رسول الله ﷺ كان مصدقاً لما جاءت به الرسل السابقة؛ أي: مُقِرّاً بأنها صدق، وشاهداً بصدقها؛ حيث أخبرت به فجاء طبقاً لما أخبرت به.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: قيام الحجة على بني إسرائيل؛ حيث كان محمدٌ ﷺ مصدقاً لما معهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم من بني إسرائيل نبذوه عن علم؛ لأنهم أوتوا الكتاب، وعرفوا الحق، وقد بيّن الله - تعالى - أنهم يعرفون محمداً ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وهذا أشد لومًا، وتوبيخًا، وجريمة ممن لا يعلم ولم يؤت من الكتاب شيئًا.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن نبذ هؤلاء الفريق من الذين أوتوا الكتاب نبذ لا يرجى معه إقبال؛ لقوله: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾، والذي ينبذ كتاب الله وراء ظهره في الدنيا؛ يؤتى كتابه يوم القيامة من وراء ظهره؛ جزاءً وفاقًا.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن من نبذ عن علم أشد قبحًا ولو مًا

(١) سبق تحريجه ص (١٤١)

من نبذ عن جهل؛ ولهذا قال: ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: التحذير من رد الحق بعد العلم به؛ لأن الله ساق هذه الآية على وجه اللوم والتوبيخ لهؤلاء الذين نبذوا الحق بعد أن عرفوه.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: أن من نبذ الحق بعد العلم به؛ ففيه شبه من بني إسرائيل من اليهود والنصارى الذين ردوا الحق بعد أن علموا به.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ ط
وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا
أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ؕ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ
يَقُولَا إِنَّمَا خُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ ؕ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۖ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ
وَلَيْئَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية يبين الله - تعالى - أن قومًا من بني إسرائيل اتبعوا ما
تتلو الشياطين على ملك سليمان؛ وكانت الشياطين تتلو ما تتلوه من
أنواع السحر، بل ومن أنواع الكفر أيضًا، فتمليه على الناس بما تلقيه في
قلوبهم من ذلك.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۗ﴾؛ لأن سليمان - عليه الصلاة والسلام - قد آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الريح، وسخر له الشياطين كل بناء وغواص، وسليمان هو ابن داود، وهو من أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو من بعد موسى بأزمنة طويلة، يقول - عز وجل -: ﴿كَفَرَسُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾؛ يعني: أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - لم يعلم الشياطين ما تتلوه من السحر فيكون بذلك كافرًا، بل هو - عليه الصلاة والسلام - نبيُّ رسولٍ معصومٍ من الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ۗ وَمَنْ كَفَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾؛ والسحر - بالشعوذة، ودعاء الشياطين، والاستعانة بهم على إيذاء الخلق - نوعٌ من الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَلٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ۗ﴾.

قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۗ﴾؛ يعني: أن ما أنزل على الملكين بابل - وبابل اسم مكان -، والمكان أحدهما هاروت، والثاني ماروت، وهما ملكان من الملائكة أنزلهما الله - عز وجل - إلى الأرض؛ من أجل اختبار الناس، يعلمان الناس السحر بأمر الله - عز وجل -، ولكنها - كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۗ﴾، فيتعلم الناس منها على بصيرة وعلى علم، يتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه من السحر، وهو ما

يسمى بالعطف والصرف، وهو نوعٌ خبيثٌ من أنواع السحر، ومن أشد أنواع السحر ضرراً؛ حيث يفرق به بين المرء وزوجه، ومن المعلوم أن الصلة بين المرء وزوجه من أقوى الصلات؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهذان الملكان يعلمان الناس، ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، ولكن بعض الناس يصمم على أن يتعلم، وهذا من اختبار الله - عزَّ وجلَّ - لعباده، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: أن ما يحصل من الضرر بالسحر صادر عن إذن الله وإرادته - عزَّ وجلَّ -، ولو شاء الله - تعالى - لم يؤثر السحر شيئاً؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾؛ يعني: يتعلمون من السحر ما هو ضرر لهم في دينهم ودنياهم، ولا ينفعهم، وإن قُدِّرَ أنهم انتفعوا به في الدنيا فإن ضرره أكبر من نفعه، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾؛ يعني: علم هؤلاء الذين أصروا على تعلم السحر أن من اشتراه - أي: تعلمه - ما له في الآخرة من خلاق؛ يعني: ليس له في الآخرة نصيب؛ وذلك لأنه أتى الكفر؛ والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إنما يُمتَّع في الدنيا كما تُمتَّعُ الأنعام، والنار مثوى له، قال الله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ

أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾، في هذا قدح لهذا العلم الذي تعلموه، وأنه جدير بالذم والتقييح؛ ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: لبئس ما باعوا به أنفسهم، وهو هذا السحر الذي تعلموه، ثم قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: لو كانوا من ذوي العلم لعرفوا قبحه، وابتعدوا عنه، ولم يحاولوا تعلّمه، هذا معنى الآية إجمالاً، أما ما يستفاد منها من الأحكام والفوائد فكثيرة.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- أن الله - سبحانه وتعالى - سخر الشياطين لسليمان، وامتنح الناس بهم؛ لقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾.
٢- ومن فوائدها: أن سليمان - عليه الصلاة والسلام - لم يكفر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر، وصاروا يتلونه ويلقونه على الناس؛ وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك.
٣- ومن فوائدها: أن العمل بالسحر كفر؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا﴾.

٤- ومن فوائدها: أن تعليم الناس السحر من الكفر؛ لقوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيْطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، والسحر نوعان: النوع الأول: سحر الشياطين الذي يكون بالاستعانة بهم، والتعوذ بهم، والالتجاء إليهم، وهذا كفر لا شك فيه.

والثاني: سحر بالأدوية، والأوراق، والأشجار، وما أشبه ذلك مما

لا علاقة للشياطين به، فهذا لا يصل إلى حد الكفر، لكنه مُحَرَّمٌ تحريمًا شديدًا؛ لما يحصل فيه من الأذية والضرر على الغير، وإذا ثبت السحر على شخص: فإن كان من النوع الأول فإنه يُقتل كفرًا وردةً، وإن كان من النوع الثاني فإنه يُقتل؛ لاتِّقاء شره وأذيته على المسلمين.

٥- ومن فوائدها: أن الحق ما أذن الله فيه وأمر به، ولو كان في نفسه باطلاً؛ فهذان الملكان نزلا إلى الأرض؛ ليعلم الناس السحر، وتعليم السحر - كما سبق - كفرٌ، لكن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أباح لهذين الملكين أن يعلم الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما، والشيء قد يكون كفرًا، وقد يكون طاعة، ولو كان واحدًا من نوعه، وأضرب لهذين مثلين:

المثل الأول: السجود لغير الله كفر وشرك، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة؛ ألم تر قول الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [البقرة: ٣٤]، فهنا نجد السجود لغير الله كان طاعة وعبادة؛ لأن الله أمر به، ويكون شركًا في الحالة التي لم يأمر الله به فيها.

والمثل الثاني: قتل النفس فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب القاتل، ومع ذلك كان طاعة يُمدح عليه، وذلك كما في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل؛ فإن إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فقصَّ الرؤيا على ابنه؛ فقال: ﴿ يَتَأَبَّتِ أَعْمَلُ مَا تُوَمَّرُ

سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢]، فأسلما أمرهما الله، واستسلما لقضاء الله ﷻ شرعه، فلما تلَّ ابنه للجين ليذبحه؛ جاء الفرج من الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿وَنَدَيْنَهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصفات: ١٠٤-١٠٦].

فامتحن الله إبراهيم بأمره بقتل ابنه حتى أسلم لله وانقاد؛ فصار ذبح ابنه طاعة لله، ولكنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - تداركه بلطفه وإحسانه فكتب له أجر الممثل، وقال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، فالملك اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله، وبإذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله - عَزَّ وَجَلَّ -، لكنه - باعتبار المعلم - كفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ﴾.

٦- ومن فوائدها: أن الله - تعالى - قد يسر للإنسان أسباب المعصية؛ ليلوهُ هل يعصي الله أم لا يعصي الله؟ فالله - سبحانه وتعالى - قد يسر للناس تعلُّم السحر بما أنزل على الملكين، وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس.

٧- ومن فوائدها: أنه يجب أن يُبين الأمر لطالبه على وجه صريح، لا لبس فيه؛ فإنَّ هذا من تمام النصيح والبيان؛ لأن الملكين لا يعلمان من أحد حتى يقولوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ﴾، فيبينان حالهما، وحال

المتعلّم منهما؛ يبينان حالهما أنهما نزلا فتنه، ويبينان حال المتعلّم منهما بأن تعلّمه كفر.

٨- ومن فوائدها: أن من أعظم أنواع السحر التفريق بين الرجل وزوجته؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾^ع، وهذا ما يسمى بالعطف والصرف؛ فإن من أنواع السحر ما إذا سُحِرَ به الإنسان انعطف على غيره انعطافاً بالغاً شديداً لا يملك أن يتصرف بنفسه معه، حتى يكون وراء هذا الشخص الذي عطفَ عليه؛ كما تكون الشاة وراء الراعي الذي يدعوها، ومن السحر ما يكون بالعكس، يوضع للشخص ليفرق بينه وبين حبيبه؛ مثل أن يفرق بينه وبين زوجته، فيصبح يرى زوجته وكأنها من أعدى أعدائه أو العكس، وهذا من أشد أنواع السحر إيذاء وضرراً.

٩- ومن فوائدها: أن ما يقع من تأثير السحر إنما يقع بأمر الله - عزَّ وجلَّ - وإرادته؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^ع.

١٠- ومن فوائدها: أنه متى لجأ الإنسان إلى ربّه، واستعاذ به، واستغاثه من الأمر الذي نزل به؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - قادر على أن يصرفه عنه، ولو كان قد نزل به الشر؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^ع.

١١- ومن فوائدها: الإشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى

الله - تَعَالَى - وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق، وإخلاص، وضرورة؛
 فإن الله - تعالى - يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ
 وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]،
 وقد يكون لجوء الإنسان إلى الله - في الحال التي يصاب فيها
 بالسحر - وشدة تضرعه إليه من أقوى الأدوية تأثيرًا إن لم يكن أقوى
 الأدوية تأثيرًا؛ ولهذا لما سُحِرَ النبي ﷺ بسحر عظيم؛ أنزل الله عليه
 سورتي المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛
 فرقاها بهما الملك؛ فشفاه الله - تعالى - من ذلك.

١٢- ومن فوائدها: أنَّ السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على
 غيره، وإن ظنَّ الساحر أنه ينتفع بذلك، وأنه يكسب من ورائه؛ فإنَّ
 هذا الكسب الذي حصده كسب خبيث لا يزيده من الله إلا بُعْدًا، ولا
 يزيده إلا خَسَارًا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

١٣- ومن فوائدها: أنَّ الساحر كافر؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَقَدْ
 عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾.

١٤- ومن فوائدها وأحكامها: تقييح ما حصل من هؤلاء من تعلم
 السحر؛ حيث قال: ﴿وَلَيْتَسَىٰ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء باعوا أنفسهم وخسروها؛
 من أجل تعلم هذا السحر القبيح الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَلَيْتَسَىٰ مَا
 شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.

١٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء الذين اختاروا تعلم السحر وأهلكوا أنفسهم به كانوا من أجهل الناس، سواء علموا ذلك أو لم يعلموه، مع أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ يدل على أنهم يعلمون أن الساحر ليس له نصيب في الآخرة، فيكونون قد خالفوا وعصوا على بصيرة - والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

في هذه الآية يَعْرِضُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - على هؤلاء الذين كفروا بتعلم السحر، يَعْرِضُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عليهم الإيمان والتقوى، ويبين أن المثوبة التي عند الله لهم بإيمانهم وتقواهم خير مما يُحْصِلُونَهُ في الدنيا من جزاء السحر لو كانوا من ذوي العلم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- سَعَةُ فَضْلِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وإحسانه، وكرمه؛ فهؤلاء الذين عتوا وبعغوا على الخلق بما يتعلمونه من السحر، ويضرون به الناس يَعْرِضُ اللهُ عليهم أن يؤمنوا ويتقوا؛ حتى يكون لهم المثوبة، وهذا أنموذج من نماذج سعة رحمة الله، وفضله، وإحسانه؛ ومن نماذجه:

أن الله - تعالى - قال في سورة البروج ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البروج: ١٠]؛

فهؤلاء الذين قتلوا أولياءه وأحرقوهم في النار يَعْرِضُ اللهُ عليهم التوبة فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا فِي عَذَابٍ مُّحْرَقِينَ﴾، فلو تابوا لنجوا من عذاب النار، هؤلاء أيضاً لو أنهم آمنوا - أعني: الذين تعلموا السحر وأضروا الناس به - لو أنهم آمنوا واتقوا؛ لمحا الله عنهم الآثار السيئة لهذا السحر، وأثابهم على ذلك، وكان خيراً لهم.

٢- ومن فوائدها: أن ما عند الله من الثواب خير مما يحصل في الدنيا من المكاسب، وهذا ظاهر بالأثر والنظر؛ أما الأثر فقد بيّن الله - تعالى - في غير آية أن الآخرة خيرٌ من الدنيا؛ فقال الله - تعالى -: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقال للنبي ﷺ: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٤]، وقال - تعالى -: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ الآية [الشورى: ٣٦]؛ يعني: لمن اتقى، والآيات في هذا كثيرة، وقال النبي ﷺ: «... وموضع سوطٍ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها...»^(١)، وهنا قال - تعالى -: ﴿لَمْ تُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴿١٦﴾﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء الذين تعلموا السحر - مع علمهم بأن من اشتراه لا خلاق له في الآخرة - من ذوي الجهالة،

(١) رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

وكانهم لا يعلمون؛ لذا قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: الحث على العلم والعمل به، وأن من لم يعمل بعلمه فهو كالجاهل، بل أشد قبحًا من الجاهل؛ لأن الجاهل قد يُعذر، وقد يستقيم إذا علم الحق، بخلاف من خالف الحق مع علمه به؛ فإنه ليس بمعذور، ورجاء رجوعه إلى الحق بعيد.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا

أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

يخاطب الله - تعالى - المؤمنين بصفة الإيمان؛ لينهاهم عن هذه الكلمة التي كانت اليهود تقولها لرسول الله ﷺ ﴿رَاعِنَا﴾؛ يريدونها من الرعونة لا من الرعاية، فتكون ﴿رَاعِنَا﴾؛ يعني: «إنك ذليل»، وليس المراد الرعاية؛ فهي الله عباده المؤمنين أن يقولوا هذه الكلمة، ولكنه أرشدهم إلى كلمة خير منها، وهي بمعناها قال: ﴿وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يعني: اسمعوا ما نهيتكم عنه، ولا تخالفوه؛ فإن مخالفته من الكفر.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم؛ لأنه شديد - والعياذ بالله - كما بيّن الله - تعالى - شدة عذاب النار في آيات كثيرة من القرآن، وبينها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة من السنة.

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله المؤمنين بوصف الإيمان ويناديهم

بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- أن من خصال المؤمن أن يمثل؛ لأنه مؤمن؛ والمؤمن يهديه إيمانه إلى امتثال أمر الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي أن يُنادى الإنسان بأحب الأوصاف إليه، ولا شك أن أحب أوصاف المؤمن إليه أن ينادى بإيمانه.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن مخالفة ما ذكر نقص في الإيمان، وأن موافقته من مقتضى الإيمان؛ ولهذا وُجِّه الخطاب إلى المخاطب بوصف الإيمان.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: تحريم الخطاب بالكلمات المحتملة للحق والباطل بالنسبة لرسول الله ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

٥- ومن فوائدها: النهي عن مشابهة غير المؤمنين؛ لأن هذا الخطاب «راعنا» مما ينددن به اليهود إذا خاطبوا النبي ﷺ.

ومن فوائد وأحكام قوله: ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾:

١- أنه إذا ذكر باب ممنوع مسدود أمام الناس؛ فإن الحكمة تقتضي أن يُذكر لهم ما يستغنون به عنه من الأشياء المباحة؛ ولهذا قال: ﴿وَقُولُوا أَنْظِرْنَا﴾؛ فهو لم ينههم ويجعلهم عائمين لا يدرون ما يقولون، بل

أرشدهم إلى القولة المباحة؛ وهي قوله: ﴿أَنْظُرْنَا﴾، فإذا نهيت الناس عن شيء يحتاجون إليه فافتح لهم باباً يغني عنه؛ حتى يسهل تركهم لما نُهوا عنه، وفعلهم هذا الذي أرشدوا إليه، ونظير ذلك ما ثبت في الصحيح: «أن رسول الله ﷺ أتى إليه بتمر جيد؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: كنا نأخذ الصاع بالصاعين، والصاعين بالثلاثة - أي: نأخذ الصاع من هذا التمر بالصاعين من الرديء، والصاعين بالثلاثة - فأخبرهم النبي ﷺ أن هذا عين الربا^(١)، وأرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ثم يشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، ومنعهم من أخذ الصاع بالصاعين أو الصاعين بالثلاثة؛ لأنه ربا؛ فإن بيع التمر بالتمر يجب فيه التساوي في الكيل والتقابض في مجلس العقد، ولما أخذوا الصاع بالصاعين لم يلتزموا بالتقابض؛ فأرشدهم النبي ﷺ وبَيَّنَ لهم أن هذا ممنوع، وأرشدهم إلى البيع المباح بأن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم، ويشتروا بالدراهم تمرًا جيدًا، وهذا نظير هذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ هذا ممنوع، ﴿وَقُولُوا أَنْظُرْنَا﴾ هذا بدل عنه.

٢- ومن فوائدها: وجوب السمع والطاعة لأوامر الله - عَزَّ وَجَلَّ؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأَسْمَعُوا﴾.

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول ومن غير علم...، رقم (٧٣٥٠، ٧٣٥١)؛ ومسلم: كتاب المساقاة، باب بيع الطعام مثلاً بمثل، رقم (١٥٩٣).

٣- ومن فوائدها وأحكامها: ثبوت الجزاء على العمل؛ لقوله:
﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٤- ومن فوائدها: أن مخالفة أمر الله ورسوله من الكفر؛ لأنه أعقب النهي عن قول: «راعنا» والإذن في قول: «انظرنا» - أي: الإرشاد إليه والأمر بالسمع - بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ فدل هذا على أن المخالفة لأمر الله - عَزَّ وَجَلَّ - نوع من أنواع الكفر.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿مَا يَوَدُّ﴾؛ يعني: ما يحب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾؛ وهم الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾؛ يعني: ولا الذين كفروا من المشركين، لا يودون أن ينزل إلى رسول الله ﷺ وأمته من خير؛ لأنهم حسدة؛ والحاسد لا يحب أن ينزل الله الخير على غيره؛ ولهذا قال: ﴿مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: يخص من شاء من عباده رحمة خاصة غير الرحمة العامة لجميع الخلق؛ لأن رحمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - نوعان: رحمة عامة: تشمل جميع الخلق حتى الكفار؛ فإن الله ينزل عليهم الغيث، ويخرج لهم الزرع، ويكثر لهم المال والولد، وهذه رحمة - وكذلك يفعل بالمؤمنين -،

والرحمة العامة رحمة متعة فقط، يستوي فيها جميع الخلق حتى البهائم.
 أما الرحمة الخاصة: فهي التي قال الله عنها: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ويقول
 الله - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَاللَّهُ سَخَّطَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾؛ يعني: فليس
 لأحد أن يجبر على الله أن ينزل فضله على مَنْ يشاء من عباده.

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾؛ أي: صاحب الفضل العظيم، العظيم
 كميةً، والعظيم كيفيةً، والعظيم شمولاً في المكان، وشمولاً في الزمان،
 فبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - في هذه الآية حقد الكفار من المشركين، واليهود،
 والنصارى الذي بلغ بهم إلى هذا الحد.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان أن اليهود، والنصارى، والمشركين لا يودون الخير
 للمسلمين، وهذا ليس خاصاً بزمن الرسول؛ بل هو عام إلى يوم
 القيامة؛ لأن الكفار من اليهود، والنصارى، والمشركين أعداء لنا،
 وأعداء لربنا، وأعداء لكتابنا، وأعداء لرسولنا، ومن كان كذلك فإنه لا
 يمكن أبداً أن يجب نزول الخير إلينا.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: الحذر من مكر الكفار من اليهود،
 والنصارى، والمشركين؛ فلا نغتر بما يبذلونه لنا من حلاوة اللسان،
 وإظهار انشراح الصدر بنا؛ لأنهم إنما يفعلون ذلك من أجل خير عائد
 عليهم أكثر مما يتحملونه من كراهتهم للخير النازل إلينا؛ أو لأنهم

يتربصون بنا الدوائر حتى يقضوا على ما لنا من الخير.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن من كره الخير للمؤمنين عموماً، أو لبعض منهم على سبيل الخصوص؛ فإن فيه شبهاً من اليهود، والنصارى، والمشركين.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: تحريم كراهة نزول الخير للمؤمنين، وكراهة نزول الخير للغير هو الحسد؛ ولهذا قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: إنَّ التفسير الصحيح للحسد ليس أن يتمنى الإنسان زوال نعمة الله على غيره، ولكن التفسير الصحيح للحسد ليس أن يكره الإنسان ما أنزل الله على غيره من الخير، سواء تمنى زواله أو لم يتمنَّ، وهذا التفسير - لشيخ الإسلام - هو الأقرب.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: بيان ما منح الله هذه الأمة من الربوبية الخاصة؛ ولهذا قال: ﴿مِن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وربوبية الله لعباده المؤمنين ربوبية خاصة، والربوبية نوعان: عامة وخاصة؛ فالعامة: هي الشاملة لجميع الخلق؛ ومنها: قوله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

والخاصة: هي الربوبية المضافة للمؤمنين أو للرسل؛ مثل قوله عن عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإن هذه الربوبية خاصة، وقد اجتمع النوعان في قوله - تعالى -:

﴿قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿[الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛
فقوله: ﴿بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هذه الربوبية العامة، وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ﴾ هذه الربوبية الخاصة.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أَنَّ فضل الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد يختص
لأناس دون آخرين؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.
٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات المشيئة لله؛ لقوله: ﴿وَاللَّهُ يُخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾.

ولا شك أن ما كان من أفعال الله؛ فإنه صادر عن مشيئة منه - عَزَّ
وَجَلَّ -، وكذلك ما صدر من أفعال العباد؛ فإنه صادر عن مشيئة منه
وإذن منه بذلك؛ كما مرَّ علينا في قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فكل شيء يقع في السموات والأرض - من أفعال الله أو أفعال
الخلق -؛ فإنه واقعٌ بمشيئة الله؛ قال الله - تعالى -: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨،
٢٩]، ولكن هل في هذه الآية وما في معناها من النصوص حجة
للعاصي على معصيته؛ بحيث يقول: إن معصيتي لله ليست بمشيئتي
ولكنها بمشيئة الله؛ لأن الله - تعالى - يقول: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ
﴾ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]،
ويقول - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ويقول:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وجوابنا على هذا أن نقول: ليس للعاصي حجة على معصيته؛ لأن الله - تعالى - أمده وأعدّه؛ أمده بالعقل؛ وأعدّه لمعرفة الهدى والحق، وأرسل إليه الرسل، وقد قطع الله الحجة على الخلق بإرسال الرسل؛ فقال - تعالى -: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

فالعاصي ليس له حجة على معصيته، بل ليس له حجة على الله في معصيته؛ لما ذكرنا؛ ولهذا نجد العاصي يختار من الأمور ما شاء، ويُقدم عليه؛ يختار أن يسافر إلى مكة، يختار أن يسافر إلى المدينة، يختار أن يسافر إلى البلد الفلاني أو الفلاني بإرادته وقدرته، ولا يحتج بالقدر على ذلك، فإذا كان هكذا فلم يحتج بالقدر على معصية الله ولا يحتج بالقدر على السفر، والذهاب، والمجيء، والأكل، والشرب، واللباس، وغير هذا؟ ثم إنَّ القدر سرٌّ مكتوم لا يُعلم عنه إلا بعد وقوعه، فكيف يحتج العاصي بالقدر على معصيته قبل أن تقع المعصية؟ لماذا لم يقدر هذا العاصي أن الله كتب له أن يكون من المتقين؟ فيتقي الله - عزَّ وجلَّ -؛ ولهذا أبطل الله هذه الحجة في قوله: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ۚ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

قَبْلَهُمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۗ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

فهنا قال الله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾، ومن المعلوم أنهم لن يذوقوا بأس الله إلا حين يرتكبون معصيته، وتبطل حجتهم بما احتجوا به من مشيئة الله - عزَّ وَجَلَّ -.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات أن الله - تعالى - موصوف بالفضل العظيم؛ حيث قال - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: أنه لا يليق بالإنسان أن يطلب الفضل من غير الله؛ بل يجب أن يطلب الفضل من الله وحده؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، والإنسان إذا طلب الفضل من الله؛ فقد طلب الفضل من أهله؛ وهو - عزَّ وَجَلَّ - أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، فإذا دعاه الإنسان وسأله من فضله بنية صالحة، وعزم صادق، وافتقار إلى الله - سبحانه وتعالى - سهَّل الله أمره، وآتاه من فضله.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦١﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٦٢﴾﴾.

قوله - تعالى - : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾؛ النسخ بمعنى الرفع والإزالة؛ أي: ما نرفع آية أو حكمها؛ إلا أتينا بخير منها أو مثلها؛ وذلك أن النسخ يكون إلى ما هو خير من المنسوخ، أو إلى ما هو مثله، أو إلى ما هو دونه؛ فأما النسخ إلى ما هو خير من المنسوخ فلا ريب في أنه خير، والنسخ إلى مثل المنسوخ لا ريب أنه خير؛ لأنه يكون مماثلاً للمنسوخ من حيث العمل، ولكنه ليس مماثلاً له من حيث النتيجة، والثواب، والأجر - كما سنبينه - إن شاء الله - تعالى -؛ وأما النسخ إلى ما هو دونه فإن ذلك لن يكون، ولن يليق بحكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن النسخ إلى ما هو دون المنسوخ يكون تدنيًا من الأعلى إلى الأسفل؛ وهذا لا يليق بجلال الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

يقول - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾؛ أي: ننسخ لفظها أو حكمها، ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾؛ أي: ننسخها رسول الله ﷺ؛ حتى لا يذكرها، ما يحصل هذا إلا أتى الله بخير منها أو مثلها؛ بخير منها عملاً وثواباً، أو مثلها عملاً وخير منها ثواباً، ثم قال: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ومن قدرته - عَزَّ وَجَلَّ - أن يمحو ما يشاء ويثبت، وينسخ ما يشاء ويحكم.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، وإذا كان له ملك السموات والأرض فهو - عَزَّ وَجَلَّ - له التدبير المطلق في هذا الملك، ولا أحد ينازعه في ملكه، لا تقديراً ولا تدبيراً، ﴿ وَمَا لَكُمْ مِّنْ

دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ*؛ فهو الذي يتولى أموركم، وهو الذي ينصركم إذا استنصرتموه وقمتم بأسباب النصر، هذا هو معنى الآيتين الكريميتين.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريميتين:

١- ثبوت النسخ في آيات الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ وهو رفع الحكم أو اللفظ، أو اللفظ والحكم جميعاً؛ فالنسخ يكون على ثلاثة أقسام: نسخ اللفظ وبقاء الحكم، ونسخ الحكم وبقاء اللفظ، ونسخها جميعاً؛ فأما نسخ اللفظ وبقاء الحكم فمثل له العلماء بآية الرجم؛ أي: بآية رجم الزاني إذا زنى وهو محصن؛ فإنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، سواء أكان رجلاً أم امرأة؛ واستدلوا على ذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال - وهو جالس على منبر رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةَ الرِّجْمِ؛ قَرَأْنَاهَا، وَوَعَيْنَاهَا، وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى أَنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرِّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؛ فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَإِنَّ الرِّجْمَ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبْلُ أَوْ الْإِعْتِرَافُ»^(١)، فهنا لا نجد في القرآن الكريم

(١) رواه البخاري: كتاب الحدود، باب رجم الحبلى في الزنا إذا أحصنت، رقم (٦٨٣٠)؛ ومسلم:

كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، رقم (١٦٩١)، واللفظ له.

الذي بين أيدينا آية تدل على الرجم في حق الزاني المحصن؛ فهي منسوخة لفظاً باقية حكماً.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ؛ فمنه: قوله - تعالى -: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ أَلَسَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦]، فالآية الأولى نُسخت بالثانية، وبقيت الأولى متلوة في كتاب الله - عزَّ وجلَّ -.

وأما نسخها معاً - أعني: اللفظ والحكم - فمثلوا له بحديث عائشة الثابت في صحيح مسلم، أنها قالت: «كَانَ فِيهَا أَنْزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحْرَمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ، فَتَوَفَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُنَّ فِيهَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»^(١)، ونحن لا نجد هذه الآية - أعني أن عشر رضعات معلومات يحرمن، لا نجدها ولا نجد خمس رضعات معلومات يحرمن - أيضاً - فيكون النسخ باعتبار عشر رضعات نسخاً للحكم واللفظ، وباعتبار الخمس نسخاً للفظ دون الحكم، ولا يشكل على هذا قولها - رضي الله عنها -: «فتوفي رسول الله ﷺ وَهُنَّ فِيهَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»؛ لأن الذين يتلوها من القرآن لم يعلموا

(١) رواه مسلم: كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم (١٤٥٢).

بالنسخ فصاروا يتلونها؛ فهذه أقسام ثلاثة للنسخ.

فإن قال قائل: ما الحكمة من نسخ اللفظ وبقاء الحكم؟

قلنا: الحكمة في هذا - والله أعلم - في آية الرجم هي بيان فضل هذه الأمة؛ حيث عملوا بالرجم بشيء لا يجدونه في القرآن، على العكس من أهل الكتاب - اليهود - الذين كتموا آية الرجم، ولم يعملوا بها مع أنها موجودة نصًّا في التوراة.

وأما نسخ الحكم وبقاء اللفظ: فالحكمة من ذلك أن يتعبد الناس بتلاوته، وأن يذكروا نعمة الله عليهم بهذا النسخ الذي كان فيه التخفيف.

وأما نسخها معًا: فالحكمة فيما نسخ لفظًا وحكمًا هو أن هذا الذي نسخ لفظًا وحكمًا لم يبق له أثر بالنسبة للعمل به، ولا بالنسبة لتلاوته، فصار من الحكمة أن ينسخه الله - عَزَّ وَجَلَّ - لفظًا وحكمًا.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أن الله - تعالى - قد يُنسي الرسول ﷺ الآية من كتاب الله إذا شاء الله - عَزَّ وَجَلَّ - ألا يبقى حكمها في عباده؛ قال الله - تعالى -: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۗ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۗ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

٣- ومن فوائد هذه الآية: أن النسخ إذا وقع فإنه يكون إلى خير من المنسوخ، لكنه خير منه أو مثله، والخير قد يكون بالنسخ من الأخف إلى الأشد، أو من الأشد إلى الأخف، أو من مماثل للمماثل، وكل ذلك

مطابق للحكمة؛ فالنسخ من الأسهل إلى الأصعب نسخ الصيام؛ حيث كان الصيام أول ما فرض مخيراً فيه بين الصوم والإطعام، ثم بعد ذلك تعيّن الصيام؛ فإن التخيير بين شيئين أيسر من تعيّن أحدهما، ولكن الله بحكمته جعل فرض الصوم متطوراً هكذا؛ ليسهل على النفوس قبوله، والخيرية في النسخ من الأخرى إلى الأشد هي استكمال الأجر في هذا الأشد من وجه، وبيان حكمة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في تشريعه لعباده؛ حيث كان يدرجهم من الأسهل إلى استكمال الشرع بأشد.

وأما العكس - وهو النسخ من الأشد إلى الأخرى - ففيه الخير، وهو التيسير على العباد، ومن ذلك ما ذكرناه في آيتي المصابرة؛ حيث فرض الله في الآية الأولى المنسوخة أن يصابر الإنسان عشرة، ثم خفف ذلك، وأوجب أن يصابر الإنسان اثنين، ولا شك أن هذا تخفيف من الله - تعالى - على العباد، وتيسير عليهم.

وأما إذا كان النسخ لمماثل ففيه خير - أيضاً - وهو بيان امتثال المكلف؛ ومن ذلك نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة؛ فإن هذا النسخ باعتبار عمل المكلف لا يختلف؛ لأن المكلف ليس عنده فرق بين أن يستقبل بيت المقدس أو أن يستقبل الكعبة من حيث تكلف العمل والمشقة فيه، ولكن فيه خير باعتبار بيان امتثال المكلف، وأنه تابع لأمر الله، إذا أمره بشيء فعله، وإذا نهاه عن شيء تركه، ويشير إلى هذا قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ

يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ﴿البقرة: ١٤٣﴾؛ وعلى هذا يكون المراد بقوله - تعالى -: ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾؛ أي: مثلها في العمل، وليس المعنى: أو مثلها في الخيرية؛ لأنه لو كان هذا هو المعنى؛ لكان النسخ عبثاً لا فائدة فيه.

٤- ومن فوائد هذه الآية: إثبات القدرة لله - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأن القدرة متقررة عند الإنسان بفطرته.

٥- ومن فوائد هذه الآية: عموم قدرة الله في كل شيء، في قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو قادر - عَزَّ وَجَلَّ - على الموجود أن يعدمه، وعلى المعدوم أن يوجد.

٦- ومن فوائد الآية الثانية: تقرير ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ - للسموات والأرض؛ لقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٧- ومن فوائدها: اختصاص ملك السموات والأرض لله - عَزَّ وَجَلَّ -، لا يملكها أحد سواه؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾، وقال - تعالى -: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴿٢٣﴾﴾؛ فملك السموات والأرض لله وحده، لا

يشاركه أحد في ذلك.

فإن قال قائل: أليس الله - تعالى - قد أثبت للإنسان ملكًا فقال:
﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [النور: ٣٣].
وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَفِظُونَ ﴿٦٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

فالجواب: بلى، أثبت الله للإنسان الملك، ولكن ملك الإنسان لما
يملكه مُلْكٌ مُّقَيَّدٌ؛ مُّقَيَّدٌ من جهة العموم؛ حيث لا يملك الإنسان كل
شيء، لا يملك إلا ما كان في حوزته، مقيد من حيث التصرف والتدبير؛
فالإنسان لا يملك أن يفعل في ملكه ما شاء؛ لأنه مقيد بالشرع، فلا
يتصرف في ملكه إلا بما تقتضيه الشريعة، مقيد من جهة الزمن؛ فملك
الإنسان لما يملكه ليس دائماً، قد يتلف هذا المملوك، وقد يبيعه الإنسان
بخلاف ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فإنه مُلْكٌ شامل دائم، فلا منافاة بين ما
أثبت الله للعبد من الملك، وبين ما أثبتته لنفسه من الملك.

٨ - ومن فوائد الآيتين: بيان أنه لا ولي لأحد إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -،
ولا ناصر لأحد إلا الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وليعلم أن ولاية الله عامة
وخاصة؛ فالعامة: هي تولى أمور الخلق، وهذه عامة لكل أحد حتى
للكفار؛ وخاصة: وهي الولاية التي تتضمن العناية والتوفيق والسداد،
وهذه خاصة بالمؤمنين.

فمن المعنى الأول قوله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ

تَوَفَّقَهُ رُسُلْنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقِّ ﴿٦٧﴾ [الأنعام:

[٦٦، ٦٧]

ومن المعنى الثاني قوله - تعالى -: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٨٨﴾.

الخطاب في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ لهذه الأمة، لأصحاب النبي ﷺ والمراد: ﴿رَسُولِكُمْ﴾ محمد ﷺ، يقول الله - عزَّ وجلَّ -: أتريدون أن تسألوا النبي ﷺ آيات تقترحونها كما سُئِلَ موسى من قبل فقبل له: أرنا الله جهرة؟ وهذا الاستفهام للإنكار عليهم؛ يعني: لا تسألوا الآيات وتقترحوها كما فعل ذلك من قبلكم؛ فإن هذا نوع من الكفر؛ لأن الإنسان إذا كان لا يؤمن إلا حيث أتى بالآيات التي يقترحها صار إيمانه تبعاً لهواه لا تبعاً لهدهاه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾؛ أي: يأخذ الكفر بدلاً عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأ سواء السبيل؛ وسواء السبيل: وسطه المستقيم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- توبيخ الأمة لو سألت كما سأل أصحاب موسى.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: بيان حال قوم موسى من التعنت، والتشدد، واقتراح الآيات.
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات أن موسى - عليه الصلاة والسلام - رسول.
- ٤- ومن فوائدها وأحكامها: بيان أن موسى - عليه الصلاة والسلام - قد أودى من قبل، وأن إيذاء الرسل - عليهم الصلاة والسلام - من ديدن المكذبين الذين أشركوا برسالتهم.
- ٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن من أخذ الكفر بديلاً عن الإيمان؛ فإنه ضال مخطئ مهما ازدهرت له الدنيا، ومهما زانت في وجهه؛ فإنه ضال سواء السبيل.
- ٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن من تبدل الإيمان بالكفر فقد هدي؛ ويتفرع على هذه القاعدة أنه إذا منَّ الله عليه بالهداية بعد الضلال فليحمد الله على ذلك؛ فإنه قد أصاب سواء السبيل.
- ٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن جميع الكفار قد أخطئوا سواء السبيل، ووقعوا في السبيل المعوج الذي يتيهون به عن طريق الحق.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

﴿ وَذَكَرْنَا ﴾ ؛ يعني: أحبب، والوَدُّ خالص المحبة، ففي هذه الآية يخبر الله أن كثيرًا من أهل الكتاب يودون أن يردوا أصحاب رسول الله ﷺ كفارًا من بعد الإيمان، وأنه لا يحملهم على ذلك إلا الحسد، حسد المسلمين على ما أنعم الله به عليهم من اتباع محمد ﷺ، وكان هؤلاء اليهود - فيما سبق - يستفتحون على الذين كفروا ويقولون: سيبعث نبيٌّ وسوف ننصر به عليكم، فلما جاءهم ما عرفوه كفروا به - والعياذ بالله - ؛ حسدًا من عند أنفسهم، وهذا الحسد من عند أنفسهم كان بعد أن تبين لهم الحق، وأن الحق مع ما جاء به النبي ﷺ، وما كان عليه أصحابه، وفي هذه الحال أمر الله المؤمنين أن يعفوا ويصفحوا ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ أن يعفوا فلا يؤاخذوهم بالذنب ويصفحوا؛ فيعرضوا عما حصل إعراضًا كليًا.

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ؛ وهو الأمر بقتالهم، وهذا حكم مغيبٌ بغاية، والحكم المغيبٌ بغاية يزول بزوال الغاية وانتهائها، فلما جاء الله بأمره وأمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، صار هذا الحكم - وهو العفو والصفح - منتهيًا بانتهاء مدته وأمدِهِ الذي جعله

الله - تعالى - له، وبين الله - تعالى - في ختام الآية أن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء، ولا يمنعه شيء.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

- ١- بيان ما عليه أهل الكتاب من الحسد العظيم لهذه الأمة.
- ٢- ومن فوائدها: أن من كان فيه حسد للناس على ما آتاهم الله من فضله؛ فإن فيه شبهًا باليهود.
- ٣- ومن فوائدها: الحذر من كيد الأعداء ومخادعتهم؛ لأنهم يودون أن يردونا كُفَّارًا؛ فإنهم لم يألوا جهدًا في سبيل الوصول إلى هذه الغاية منذ عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا؛ ولهذا نجد النصارى يرسلون الفرق والطوائف المنصرة إلى البلاد الإسلامية، ولا سيما البلاد الفقيرة التي يسيطرون عليها من هذه الزاوية؛ ليخرجوا الناس من الدين الحق إلى الدين المنسوخ الذي لا يقبله الله - عزَّ وَجَلَّ -.
- ٤- ومن فوائدها: أن هذا الحسد من أهل الكتاب نابع من عند أنفسهم، لم يؤذن لهم فيه، ولم يكن عن رويَّة وتعقل.
- ٥- ومن فوائدها: الحذر من محبة المسلمين للكفر، وكذلك يجب الحذر من محبة المعاصي أن تنتشر بين المسلمين.
- ٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء الذين يودون هذا لهذه الأمة يودونه عن عمدٍ وعنادٍ من بعد ما تبين لهم الحق.
- ٧- ومن فوائدها وأحكامها: التدرج في معاملة الكفار؛ حيث أمر

الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية أن نغفرو ونصفح حتى يأتي الله بأمره.

٨ - ومن فوائدها وأحكامها: أن الأحكام التي يحكم الله بها تنقسم إلى قسمين: أحكام مؤمّدة - أي إلى أمد - وأحكام مؤبّدة - أي إلى الأبد - فمن الأحكام المؤمّدة: هذه الآية: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾، ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله - تعالى -: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَجِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥]، فهنا قال: ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾، وقد جعل الله لهن سبيلاً؛ فقد أعلن ذلك رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «... البكر بالبكر جلد مئة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مئة والرجم»^(١).

٩ - ومن فوائدها وأحكامها: أن الإنسان يُعذر بجهله إذا خالف الأمر أو النهي؛ لقوله: ﴿مَنْ بَعَدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾، وهذا الأصل قد دلّ عليه الكتاب والسنة؛ ففي القرآن يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقول - تعالى -: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب حد الزنى، رقم (١٦٩٠).

ويقول - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥]، ويقول الله - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

وأما السنة: فمن أدلتها أن النبي ﷺ لم يأمر المسيء في صلاته أن يقضي ما فعله جاهلاً - وكان المسيء في صلاته لا يطمئن في ركوع، ولا سجود، ولا قيام، ولا قعود - حتى يبين له النبي ﷺ، ولم يأمره بالإعادة - أي: بإعادة ما سبق من الصلوات - مع أنه كان لا يطمئن، فالقول الصحيح الراجح أن من لم تبلغه الدعوة؛ فإنه ليس عليه حرج فيما إذا مات وهو مسلم، لكن يفعل ما يخرج من الإسلام جهلاً، أو يترك ما يجب الإيمان به جهلاً.

١٠ - ومن فوائدها وأحكامها: إثبات عموم قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿ إِبْنَ اللَّهِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ولا يستثنى من هذه القضية الكلية العامة شيء؛ كل شيء فالله قادر عليه؛ قادر على إيجاد المعدوم، وعلى إعدام الموجود، وعلى تغيير الشيء من حال إلى أخرى، وهنا نذكر ما يقوله بعض الناس عند الحديث عن قدرة الله؛ حيث يقول: إنه على ما يشاء قدير؛ فإن هذا يقتضي تقييد القدرة بما يشاء الله، والله - تعالى - قادر على ما يشاء وما لا يشاء، وتقييد القدرة بما يشاء تضيق معناها العام الذي أراده الله - تعالى - بها؛ فالواجب أن تجرى على عمومها

بدون استثناء، ويُقال: إن الله على كل شيء قدير.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

في هذه الآية يأمر الله - تعالى - بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة،
والصلاة تشمل الفرض والنفل، وهي معروفة، والزكاة هي الفرض
فقط؛ لأن ما سوى الزكاة يسمى صدقة أو نفلاً، أو ما أشبه ذلك؛
والزكاة هي المال الذي أوجبه الله - تعالى - على عباده في أشياء معينة من
الأموال، ويخرج منها الإنسان قدرًا معينًا حسب ما عليه من المئونة؛
ففي الحبوب والثمار: يكون فيما سُقي بلا مئونة العشر كاملًا، وفيما
سُقي بمئونة نصف العشر، حسب ما ينظر ولي الأمر في ذلك، ثم يَبْنِ
اللهُ - عزَّ وجلَّ - أن كل ما تقدمه من الخير فإنما تقدمه لأنفسنا، ونجد
ثواب ذلك عند الله - تعالى - مُدَّخَرًا؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ
مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾، ثم يَبْنِ الله - تعالى - أنه عليم بكل ما نعمل،
بصير به، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا
لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله - تعالى - عباده أن يقيموا الصلاة

وأن يأتوا بها مستقيمة بشرروطها، وأركانها، وواجباتها، ويتموا ذلك بمكملاتها، وأن يؤتوا الزكاة؛ أي: يعطوها أهلها المستحقين لها؛ والزكاة هي المال الواجب أو هي نصيب يقدر شرعاً في مال مخصوص. ثم يبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن ما تقدمه لأنفسنا من الخير فإنه لن يضيع، بل سيوجد عند الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وفي آية أخرى يقول - تعالى -: ﴿ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠].

ويختتم الله الآية بأنه بصير بما نعمل؛ حثاً منه لنا على العمل الصالح، واجتناب العمل المحرم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- وجوب إقامة الصلاة؛ لقوله - تعالى -: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾، وهذا - أعني: إقامة الصلاة الواجبة - فيما هو واجب؛ كالشروط، والأركان، والواجبات، أما ما كان مستحباً؛ فإن الأمر بإقامته على سبيل الاستحباب.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب إيتاء الزكاة؛ لقوله - تعالى -: ﴿ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ﴾؛ أي: أعطوها مستحقها، وقد بينت السنة كيف تكون إقامة الصلاة، وكيف يكون إيتاء الزكاة على وجه مبين مفصل؛ فما توفي رسول الله ﷺ إلا وقد أبا ن للأمة كل ما تحتاج إليه في أمور دينها ودنياها؛ قال أبو ذر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: لقد توفي رسول الله ﷺ

وما طائر يقرب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: الحث على تقديم الخير؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها أيضًا: أن ما تقدمه من الخير لن يضيع، بل سنجده عند الله - عَزَّ وَجَلَّ - مُدَّخَرًا، أحوج ما نكون إليه، ولكن يجب أن ننتبه هنا إلى أن ما نجده يوم القيامة من الخير قد يكون لغيرنا؛ كما قال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمَفْلُسُ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع؛ فقال: «إِنَّ الْمَفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي، يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ؛ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن الله - سبحانه وتعالى - بصير بكل ما نعمل من خير وشر؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٦- ومن فوائدها: تحذير العباد من المخالفة؛ لأن الله - تعالى - إنما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ تحذيرًا من أن نخالف أوامرنا،

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

وأن نقع في نواهيها، فإننا إن فعلنا ذلك؛ لن يخفى عليه - سبحانه وتعالى - شيء من أحوالنا.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

﴿ وَقَالُوا ﴾؛ أي: اليهود والنصارى: ﴿ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا ﴾ يقوله اليهود، ﴿ أَوْ نَصْرِيًّا ﴾ يقوله النصارى؛ يعني: وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة، لكن الله ردّ عليهم زعمهم هذا؛ فقال - تعالى -: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾؛ أي: هذه أمانى وأوهام باطلة لا تستند إلى شيء من الوحي المنزّل على الرسل - عليهم الصلاة والسلام -؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾؛ أي: قل لهؤلاء القائلين هذه المقولة متحدثاً لهم: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾؛ أي: أعطونا حجتكم التي تثبتون بها ما زعمتم من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تقولون، ومن المعلوم أنهم لن يجدوا حجة لما قالوه؛ ولهذا قال بعدها: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾؛ «بلى»: فيها إبطال لما سبق من دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، ثم بيّن الله - عزّ وجلّ - من الذي يدخل

الجنة؛ حيث يقول: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.
 وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ أي: جعله مستسلياً لله - عَزَّ وَجَلَّ - ،
 مقبلاً عليه.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله؛ والإحسان هو اتباع شريعة النبي ﷺ،
 فشرط الله - سبحانه وتعالى - أمرين:

الأمر الأول: الإخلاص؛ بأن يكون أسلم وجهه لله.
 والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ؛ بأن يكون قد أحسن، فهذا له
 أجره عند ربه؛ أي: ثوابه، وسمى الله الثواب أجراً؛ لأن الله - تعالى -
 التزم به لمن عمل صالحاً؛ فصار بمنزلة الأجر الذي يستوفيه المستأجر
 على العمل ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل
 من أمرهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى من أمرهم.

فوائد وأحكام هاتين الآيتين:

في الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١- بيان دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنه لا يدخل
 الجنة إلا من كان مثلهم؛ يهودياً أو نصرانياً.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن أهل الكتاب يؤمنون بالبعث
 والجزاء؛ لأن الجنة إنما يدخلها أهلها بعد البعث يوم القيامة.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن يُقدّم المناظر الحكم على قول
 مناظره، ثم يطلب منه الحجّة على إثباته؛ ولهذا قال: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠١﴾، ونظير ذلك أن يقول قائل: هذا واجب لا بُدَّ من فعله، فأقول: هذا قولك فهات دليلك إن كنت صادقًا، فيُثبِت المناظِر أو لا أن هذا قول المناظر، وأن هذا ليس له أصل، ثم يتحداه بطلب الدليل.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: قوة المحاجة في كتاب الله - عَزَّ وَجَلَّ - التي تدحض الخصم وتفحمه؛ تدحض حجته وتفحمه؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ومن المعلوم أنه لا برهان لهم في ذلك؛ فإن دخول الجنة ليس معلقًا باليهودية أو النصرانية؛ بل هو مُعَلَّقٌ بها ذكره الله - تعالى - فيما بعد.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: الإنصاف في معاملة الخصم، وإلا فإنه يكفي أن يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - هذا باطل، ولكنه - سبحانه وتعالى - حكم عدل؛ فطلب من هؤلاء المدَّعين أن يأتوا بالحجة والبرهان.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أنه لا تُقبل الدعوى إلا بينة؛ فمن ادَّعى حُكْمًا من أحكام الله الأخروية أو أحكامه الدنيوية فإنه عليه أن يبرهن على ما قال، فإن أثبت ما قال بالبرهان والدليل وإلا وجب رده عليه.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن اليهود والنصارى لا حُجَّة لهم إطلاقًا فيما ادَّعوه من أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، وما أكثر دعاوى اليهود والنصارى بأنهم أهل الجنة، وبأنهم يُخرجون

من النار إن عذبوا بها، وبأنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل هذه الدعاوى يبطلها الله - عَزَّ وَجَلَّ - ، ويبين كذبها.

أما الآية الثانية ففيها من الفوائد والأحكام:

١- أن الثواب لا يحصل إلا بأمرين:

الأمر الأول: إسلام الوجه لله؛ وذلك بأن يخلص الإنسان قصده؛ فلا يقصد بعبادة الله - تعالى - ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا، ولا محابة لأحد، ولا توصلًا لسلطان أو جاه أو مال، وإنما يقصد بذلك ربه - عَزَّ وَجَلَّ - ، وهذا المفهوم من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

الأمر الثاني: أن العبادة لا تقبل ولا تنفع إلا بالإحسان؛ وهو متابعة النبي ﷺ؛ بحيث تكون العبادة على وفق ما جاء عن رسول الله ﷺ.

ودليل هذين الأصلين العظيمين قوله - تبارك وتعالى - : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ - أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله - تعالى - : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ - جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله - تعالى - : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما

نوى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ،
وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا؛ فَهَاجَرَتْهُ إِلَى مَا
هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(١).

وثبت عنه ﷺ أَيضًا أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ
عَنِ الشُّرْكِ؛ مَنْ عَمَلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشَرَكُهُ»^(٢).
وثبت عنه ﷺ أَيضًا أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ
رَدٌّ»^(٣)؛ فَلَا بَدَ لِقَبُولِ الْعَمَلِ مِنْ شَرْطَيْنِ:

أحدهما: الإِخْلَاصُ لِلَّهِ.

والثاني: المِتابَعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّ المِتابَعَةَ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا

إِذَا وَافَقَ الْعَمَلُ الشَّرِيعَةَ فِي أُمُورِ سِتَّةٍ:

الأول: فِي الجِنْسِ.

والثاني: فِي الصِّفَةِ وَالكِيفِيَةِ.

والثالث: فِي القَدْرِ.

والرابع: فِي السَّبَبِ.

والخامس: فِي العَدَدِ.

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (١)؛

ومسلم: كتاب الجهاد، باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، رقم (١٩٠٧).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠)

(٣) سبق تخريجه ص (٤٩)

والسادس : في الزمان والمكان.

فمن شرع عبادة لسبب لم يجعله الشارع سبباً لها؛ لم تقبل منه هذه العبادة، ومن تعبد لله بعبادة على سبب لم يجعله الشارع سبباً لها؛ فإنها لا تُقبل منه، ومن تعبد لله بجنسٍ غير ما شرع؛ فإنه لا يُقبل منه؛ مثل أن يُضَحِّي الإنسان بفرس؛ فإن ذلك لا يُقبلُ منه أضحية، ولو كان الفرس أعلى؛ لأنه من جنس غير ما أُذن فيه، ولو أنه خالف الشرع في القدر؛ بأن صَلَّى الظهر خمساً أو ثلاثاً؛ فإنها لا تُقبل منه؛ لأنه خالف الشرع في القدر، ولو خالف الشرع في الزمن؛ بأن ضَحَّى الإنسان في غير أيام الذبح؛ فإنها لا تقبل منه، أو حجَّ في رمضان؛ فإن ذلك لا يُقبل منه؛ لأنه في غير الزمن المحدد شرعاً، ولو خالف الشرع في المكان؛ لم تُقبل منه العبادة؛ مثل أن يعتكف في غير المسجد؛ فإن هذا الاعتكاف لا يُقبل منه؛ لأنه في غير المكان الذي عيَّنه الشرع للاعتكاف، وكذلك لو خالفت العبادة الشرع في الهيئة والكيفية؛ بأن صَلَّى صلاة منكسة؛ يبدأ بالسجود قبل الركوع، أو يتوضأ منكساً؛ يبدأ بالرجلين قبل بقية الأعضاء؛ فإن ذلك لا يصح.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن من عمل عملاً مبنياً على الإخلاص والمتابعة؛ فإن أجره يثبت له عند الله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن من وُفِّق للعمل على هذا الوجه؛

فإن ذلك من ربوبية الله له، الربوبية الخاصة؛ لقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾. ٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن من قام بالعبادة على هذا الوجه -: الإخلاص والمتابعة -: فإنه لا خوف عليه في مستقبله، ولا حزن عليه في ماضيه؛ لأنه سوف يصل إلى النعيم والسعادة؛ قال الله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن من لم يتَّصف بهذه الصفة - أي: من لم يسلم وجهه لله وهو محسن - فإن عمله هباء، ليس فيه أجر؛ فلو عمل الإنسان عبادة أشرك فيها مع الله؛ فهي مردودة عليه، ولو عمل عبادة ليست متمشية مع السنة التي جاء بها الرسول ﷺ؛ فإن عبادته مردودة عليه.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن من لم يتعبد لله بهذين الشرطين: الإخلاص والمتابعة؛ فإنه يحل به الخوف والحزن؛ الخوف في المستقبل، والحزن في الماضي؛ ولهذا يتمنى الكفار يوم القيامة أن يردوا إلى الدنيا؛ ليعملوا عملاً صالحاً، فيقولون: ﴿يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَدِّبُ بِغَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، وقال الله - تعالى -: ﴿بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا تُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن الثواب والأجر الذي يحصل لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ثوابٌ عظيم؛ لأن الله أضافه لنفسه، فقال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، والثواب من العظيم يكون عظيمًا ولا شك.

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

اليهود هم أتباع موسى - عليه الصلاة والسلام - والنصارى أتباع عيسى - عليه الصلاة والسلام - وكل منهما يضلل الآخر؛ كما في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ يضلل بعضهم بعضًا.

﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، وهم يعلمون من هو على الحق، ولا شك أن النصارى كانوا على الحق حين كانت ملتهم قائمة قبل بعثة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وأن اليهود كانوا على باطل؛ حيث كفروا بعيسى - عليه الصلاة والسلام - مع أنه مرسل إليهم؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ

بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ ﴿[الصف: ٦]﴾، وبعد أن بُعث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كانوا كلهم على دين منسوخ، وليسوا على شيء؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وكانوا أولياء بعضهم لبعض؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

وصارت النصرارى كاليهود في كونهم علموا الحق ولم يتبعوه؛ قال الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: قال أهل الجهل والضلال مثل قولهم؛ أي: في أنهم على الحق، ومن سواهم على الباطل، وليس على شيء، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، إذا بُعث الناس فإن الله يفصل بين الخلق من هو على الحق، ومن هو على الباطل.

أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة:

١- بيان عداوة اليهود والنصارى بعضهم لبعض، وأن كل طائفة منهم تضلل الطائفة الأخرى، ولكن هذه العداوة بعد بعثة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - صارت ولاية؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وقال الله - تعالى -: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن هذه المقالة التي قالتها اليهود، وقالتها النصارى يقولها أيضًا كلُّ من كان جاهلاً؛ أي: كل من كان ذا جهالة، وليس عنده علم؛ فإنه يقول مثل هذا القول الباطل الذي يريد أن يدحض به الحق.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الجزاء يوم القيامة؛ لقول الله - تعالى -: ﴿فَاللَّهُ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الذين اختلفوا في الكتاب وفي الرسل سوف يقضي الله - تعالى - بينهم يوم القيامة، ويبيِّن من هو على الحق، ومن هو على الباطل، وقد ذكر الله - سبحانه وتعالى - في سورة النساء أنه يحكم بين الناس، وأنه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات يوم القيامة - وهو اليوم الآخر -؛ فالإيمان به أحد أركان الإيمان الستة؛ لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لجبريل حين سأله أن يخبره عن الإيمان، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾؛ يعني: لا أحد أظلم - فالجملة استفهام بمعنى النفي -؛ فلا أحد أظلم من شخص أو طائفة تمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه؛ أي: تمنع الناس من دخول مساجد الله ليذكروا فيها اسم الله - عَزَّ وَجَلَّ - بالصلاة وغيرها.

﴿ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾؛ أي: أن منَعَ المساجد أن تُدخَلَ ويُذكر فيها اسم الله خراباً لها؛ فإن عمارة المساجد إنما تكون بما يُقام فيها من ذكر الله، وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن هؤلاء الذين منعوها وكان لهم السلطة سوف تدور عليهم الدوائر حتى لا يدخلوها إلا خائفين؛ أي: لا يدخلون هذه المساجد إلا وهم في خوف، وقلق، واضطراب من المؤمنين الذين آلت هذه المساجد إليهم.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ هذا النفي يحتمل أن يكون المعنى ما كان لهم شرعاً أن يدخلوها إلا خائفين، أو ما كان لهم قَدَرًا أن يدخلوها إلا خائفين، والمعنيان كلاهما صحيح، ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ﴾؛ أي: عار وذل. ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فينالون بعد العز، والسلطة، والغلبة ذلًا في الدنيا، وعذابًا عظيمًا في الآخرة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- تحريم منع مساجد الله من أن يُذكر فيها اسمه.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن المساجد إنما بُنيت لذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ ؛ لقوله: ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، وقد جاءت السنة مصرحة بذلك؛ ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: «بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزرموه»^(١)، فتركوه حتى بال، ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعا فقال له: «إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القدر؛ إنما هي لذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والصلاة، وقراءة القرآن» أو كما قال رسول الله ﷺ^(٢).
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن ما يتعلق بأمر الدنيا من بيع، وشراء، وإجارة، ونحوها لا يحل إيقاعه في المسجد؛ ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «إذا رأيتُم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا أربح الله تجارتك... فإن المساجد لم تُبن لهذا»^(٣).

(١) أي: لا تقطعوه، والإِزْرام: القطع

(٢) رواه مسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، رقم (٢٨٥)

(٣) رواه مسلم: كتاب المساجد، باب النهي عن نشد الضالة في المسجد، رقم (٥٦٨)، والترمذي، كتاب البيوع، باب النهي عن البيع في المسجد، رقم (١٣٢١).

٤- ومن فوائدها وأحكامها: ذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - يكون بذكر اسمه؛ وذلك يقتضي أن يكون باللسان، وذكر الله - سبحانه وتعالى - يكون باللسان، ويكون بالقلب، ويكون بالجوارح.
 أما ذكر الله بالقلب: فإن يكون الإنسان متفكرًا متأملًا في آيات الله - سبحانه وتعالى - الدالة على عظيم سلطانه، وما تقتضيه رحمته وحكمته.

وأما الذكر باللسان: فهو يتناول كل قول يقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - من قراءة القرآن، والتسبيح، والتكبير، والتحميد، والتهليل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وغير ذلك من كل قول يقرب إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

وأما الذكر بالجوارح: فيشمل كل فعل يتقرب به الإنسان إلى ربه؛ كالوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، والصدقة، وغير ذلك من أفعال الجوارح.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن عمارة المساجد إنما هي بذكر الله - عَزَّ وَجَلَّ - وما يفعل فيها من الطاعة؛ لقوله: ﴿أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾. والسعي في خرابها كما يشمل منع ذكر الله - تعالى - فيها يشمل أيضًا الخراب الحسي؛ وذلك بهدمها حتى لا يقام الذكر في هذه البقعة؛ لقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: البشري للمؤمنين أن هؤلاء الذين

سُلطوا على المؤمنين؛ بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله
سوف تكون العاقبة عليهم؛ أي: على هؤلاء المتسلطين المانعين؛ لقوله:
﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾، وهذه العاقبة
تؤيدها آيات أخرى؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ
إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ
اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَالْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء المتسلطين على عباد الله؛
بمنعهم من مساجد الله أن يذكروا فيها اسم الله ستناهم عقوبتان:
عقوبة في الدنيا؛ وهي الخزي - أي: الذل والعار -، وعقوبة في الآخرة؛
وهي العذاب العظيم.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: التحذير من هذا العمل - أعني: منع
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه - بأن الإنسان سوف يعاقب مرتين: مرة
في الدنيا، ومرة في الآخرة؛ كما ذكر الله - تعالى - في هؤلاء.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾.
﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ أي: له كل شيء؛ لأن كل شيء فهو إما

مشرق وإما مغرب؛ فمغرب قوم يكون مشرق قوم آخرين وهكذا؛
 فله المشرق والمغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾؛ أي: تتجهوا ﴿فَتَمَّ وَجْهَ
 اللَّهِ﴾؛ أي: فهناك وجه الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾؛
 أي: محيط بكل شيء، وواسع الصفات، وواسع الهبات، وواسع
 الفضل، ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أي: عليم بكل شيء؛ فالله - تعالى - يبيِّن في هذه
 الآية أنه - تعالى - محيط بكل شيء، وأن الإنسان مهما تولى؛ فإن الله -
 تعالى - محيط به، عالم به.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- عموم ملك الله - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ
 وَالْمَغْرِبُ﴾.

٢- بيان أن هذا العموم لا يتأتى لأحد سوى الله؛ لقوله: ﴿وَلِلَّهِ
 الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾؛ فإن تقديم الخبر يفيد الحصر؛ كما قرر ذلك علماء
 البلاغة.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن الإنسان مهما تولى واتجه إلى شيء؛
 فتمَّ وجه الله، واختلف المفسرون في المراد بوجه الله هنا: هل هو وجه
 الله الذي هو صفة من صفاته أم المراد الجهة؟ فإن الوجه يأتي بمعنى
 الجهة، فيقال: وَجْهَةٌ، ووجه، وجهة؛ كما يقال: سافر فلان إلى هذا
 الوجه؛ أي: إلى هذه الجهة، والآية تحتلها جميعاً؛ أي: القولين.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الإنسان إذا صلى إلى جهة مجتهداً

معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة؛ فإن صلاته تصح؛ لقوله - تعالى - :
﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ .

٥- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات وجه الله - سبحانه وتعالى -
والواجب إجراء الآية على ظاهرها، وأن يعتقد المرء أن الله - سبحانه
وتعالى - وجهًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته، ولا يماثل أوجه
المخلوقين، وهكذا بقية صفاته كاليدين والعينين؛ فإن الواجب على
المؤمن إثبات ذلك على حقيقته، لكن بدون أن يكيّفه؛ أي: بدون أن
يتصوّر له كيفية معينة؛ لأنه مهما بلغ الإنسان في التخيل؛ فإن الله -
سبحانه وتعالى - أعظم مما يتخيّله، ومن غير تمثيل؛ فلا يجوز أن يعتقد
الإنسان أو يتصور أن وجه الله - تعالى - كأوجه المخلوقين؛ لأن الله
ليس كمثل شيء وهو السميع البصير.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات سعة الله - عزّ وجلّ -؛ أي:
سعة علمه وإحاطته بكل شيء؛ وذلك أن كل الأشياء بالنسبة إليه -
تعالى - صغيرة؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ
السَّجِلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. وقال الله - تعالى - : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ
قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ
بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات العلم لله - عزّ وجلّ -، وعلمه -

تعالى - محيطٌ بكل شيء؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسَهُ﴾ [ق: ١٦].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الحذر من مخالفة الله - عزَّ وجلَّ - بترك أو امره أو فعل نواهيه؛ لأنه عالم - سبحانه وتعالى - بذلك، وعلمه بذلك يقتضي الحذر من مخالفته.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قٰنِیْنٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٦، ١١٧].

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير يعود إلى كل من تفوه بهذه المقالة الكاذبة المنكرة من اليهود، والنصارى وغيرهم؛ فاليهود قالوا: عزيز ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله، وكل هؤلاء قالوا فرية عظيمة، وإثمًا مبینًا؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿سُبْحٰنَهُ ۗ﴾؛ أي: تنزيهاً له أن يكون له ولد؛ لأن الله غني عن كل شيء، وهو مالك لكل شيء؛ والولد إنما يتخذه من كان محتاجاً مفتقراً، أما الرب - عزَّ وجلَّ - فإنه ليس بحاجة إلى أحد؛ لأن له الملك المطلق، بل له ما في السموات والأرض؛ ولأن كل أحد خاضع لله، ذليل له،

منقاد لأمره الكوني، والمؤمن منقاد لأمره الشرعي؛ لقوله: ﴿كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ﴾.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: خالقهما ابتداءً على غير مثال سابق؛ فهو - سبحانه وتعالى - الذي خلق السموات والأرض، وهو قادر على كل شيء؛ فكيف يجعلون له ولدًا وقد خلق كل شيء، وبدع السموات والأرض ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾؛ أي: قضاه قدرًا وكونًا؛ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، كلمة واحدة لا تتنى مرة أخرى يقوؤها - جل وعلا - للشيء مهما كان؛ فيكون في الحال، فليس بغريب أن يخلق الله - تعالى - عيسى ابن مريم بلا أب، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين:

ففي الآية الأولى من الفوائد والأحكام:

١- بيان هذه الفرية العظيمة التي افتراها الظالمون على ربهم - جل وعلا -؛ وهي أن الله اتخذ ولدًا، وقد بينا أن اليهود قالوا: عزيز ابن الله، وأن النصراني قالوا: المسيح ابن الله، وأن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: بيان تنزيه الله - عزَّ وجلَّ - عن كل عيب ونقص؛ لقوله: ﴿سُبْحٰنَهُ﴾؛ ومن ذلك تنزيهه عن اتخاذ الولد.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: بيان كمال غنى الله - عزَّ وجلَّ - عن

اتخاذ الولد؛ حيث إنه - سبحانه وتعالى - مالك السموات والأرض وما فيها.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن جميع الخلق قانت لله، ومنهم: عزيز، والمسيح، والملائكة؛ كل قانت لله - عَزَّ وَجَلَّ - ذليل له؛ فلا يمكن أن يكون ولد له - سبحانه ويحمده.

وفي الآية الثانية من الفوائد والأحكام:

١- بيان أن الله - سبحانه وتعالى - لا ينبغي أن يتخذ ولدًا؛ لأنه خالق السماوات والأرض؛ فهو مستغن عن الولد.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: إقامة الدليل على بطلان الشبهة التي احتج بها النصارى على كون المسيح ابن الله؛ حيث قالوا: إنه خُلِقَ بلا أب، فأبوه هو الله، فبيّن الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه خالق السموات والأرض، وهي أعظم من خلق البشر؛ كما قال - تعالى -: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وخالق السموات والأرض لا يمتنع عليه أن يخلق البشر.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: بيان كمال قدرة الله - عَزَّ وَجَلَّ - في قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأمر مهما كانت عظمته؛ فإن الله - تعالى - قادر عليه بكلمة واحدة وهي «كن»؛ فيكون كما أراد الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ ولهذا لما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.
 ٥- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات القول لله، وأن الله يقول، وأن
 قوله بحروف؛ لقوله: ﴿كُنْ﴾؛ فإن هذه الكلمة حروف، وفيه ردُّ على
 من يقول: إن كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ - وقوله هو المعنى القائم بنفسه،
 وليس حروفاً أو أصواتاً تسمع، وإنما كلامه هو المعنى القائم بالذات،
 وما يسمع من ذلك فإنه عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، ولا
 شك أن هذا القول خطأ عظيم فاحش؛ فإن القول الذي يكون في
 النفس لا يُطلق عليه اسمُ القول؛ بل لا بُدَّ أن يُقَيَّدَ كما قال - تعالى -:
 ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

أما القول عند الإطلاق فإنه القول الذي يسمع ويكون من حروف
 يسمعها مَنْ وَجَّهَ إليه الخطاب، وقد قال الله - تعالى - في موسى - عليه
 الصلاة والسلام -: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال:
 ﴿وَنَدَّيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، وهذا
 - أعني كون كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ - من حروف وأصوات مسموعة - هو
 قول السلف، وأئمة الخلف، ولا عبرة بمن خالف طريقهم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن كل شيء يسمع كلام الله - عَزَّ
 وَجَلَّ - إذا وجَّهَ إليه الكلام؛ لأنه يوجَّه الأمر «كن» إلى الشيء المراد؛
 فيكون على ما أراد الله - عَزَّ وَجَلَّ -.

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿١١٨﴾ .

قوله : ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ أي : ليس عندهم شيء من العلم ، بل هم في جهل وجهالة : ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ يقولون ذلك لرسولهم ؛ يطلبون آية يقترحونها على الله - عزَّ وجلَّ - وذلك أن يكلمهم الله - تعالى - .

﴿ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ أي : علامة على صدق ما جاءت به الرسل ، فبين الله - عزَّ وجلَّ - أن هذا القول قد قاله من قبلهم .

ولقد اقترحت قريش على رسول الله ﷺ آيات متعددة ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ﴿١١٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾ ﴿١١٧﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ ﴿١١٨﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ ﴿١١٩﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ﴿١٢٠﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ ﴿الإسراء: ٩٠-٩٤﴾

فهم يطلبون آيات يقترحونها مع أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - جاءوا بآيات بينات ؛ ما من رسول أرسله الله إلا أعطاه من

الآيات ما يؤمن على مثله البشر؛ قال الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾؛ أي: مثل هذا القول الذي قالوه قاله مَنْ سبقهم، واقترحوا آيات على رسلهم؛ ومن ذلك قول بني إسرائيل لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وإذا تشابهت القلوب تشابهت الأعمال؛ لأن الأعمال تصدر عن القلب؛ لقول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١)، فمتى صلح القلب صلحت الجوارح، ومتى فسد القلب فسدت الجوارح، نسأل الله أن يصلح قلوب الجميع، ﴿تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وإذا تشابهت قلوبهم تشابهت أقوالهم وأعمالهم؛ قال الله - تعالى -: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ يعني: قد أظهرنا إظهارًا يبين به الأمر.

و﴿الآيَاتِ﴾؛ أي: العلامات الدالة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام -، لكن لا ينتفع بها إلا الموقن ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، أما من ليس بموقن، بل هو في شك وريب؛ فإنه لا تنفعه الآيات؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال - تعالى - فيمن إذا تليت عليه آيات الله قال: أساطير

(١) تقدم تحريجه ص (٥٩).

الأولين: ﴿كَلَّا بَلَّ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان عظم عناد الكفار المحادين لله ورسله؛ لقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾؛ ووجه ذلك أن الله - تعالى - أتى الرسل آيات يؤمن على مثلها البشر.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: بيان كذب هؤلاء المعاندين؛ لأن طلبهم هذا يتضمن ادعاءهم بأنهم لم تأتهم آيات، وهذا كذب محض؛ فالآيات جاءتهم، وبيّنت لهم، لكنهم - والعياذ بالله - قد حَقَّتْ عليهم كلمة الله، وَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْمِنُ؛ قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن القلوب إذا تشابهت تشابهت الأقوال والأعمال؛ لقوله حين حكى عمن سبق أنهم قالوا كما قال المكذبون لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن القلوب هي الموجهة للبدن؛ لقوله: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت

فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

٥- ومن فوائدها وأحكامها: تشابه أعمال الكفرة؛ أي: مشابهة لاحقيهم لسابقيهم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن الله - سبحانه وتعالى - بين وأوضح الآيات التي تدل على صدق ما جاءت به رسله؛ لقوله - تعالى -: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن هذه الآيات البيّنات بنفسها لا تبيّن إلا لموقن؛ ويتفرع على هذه الفائدة: أن من كان عنده شك؛ فإن الآيات لا تبين له ولا تظهر له، بل لا تزيده الآيات إلا عمى وضلالاً؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن الناس ينقسمون في آيات الله - تعالى - على قسمين: قسم موقن؛ فهذا ينتفع بالآيات التي آتاها الله الرسل، وقسم غير موقن، بل هو في شك، وأقبح منه من كان في عناد وإنكار؛ فإن هذا لا ينتفع بالآيات؛ لأن الله - تعالى - خصَّ

(١) سبق تخرجه ص (٥٩).

الانتفاع بالآيات لقوم يوقنون، ومن ذلك ما يقوم بقلوب بعض الناس من الشك في نفع بعض الآيات التي رُتّب عليها فوائد؛ مثل قول النبي ﷺ في آية الكرسي: «من قرأها في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح»^(١)، وإن بعض الناس يقرأ هذه الآية ولكنه في شك من هذا الخبر، أو يقول: أقرؤها وأجرب؛ فإن مثل هذا لا ينتفع بها أبداً؛ فلا ينتفع بها إلا من أيقن بأنه إذا قرأها لا يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، وهكذا بقية الآيات التي أخبر النبي ﷺ بشيء من فوائدها؛ فإن الواجب على المرء أن يتلوها وهو موقنٌ بصحة ما أخبر به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ حتى يتم إيمانه، وحتى ينتفع بها.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنَّا صَحَابَ الْجَحِيمِ﴾.

المُرْسَل هو الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والخطاب للرسول ﷺ؛ فهو الرسول، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يكون تبيانا للمُرْسَل به؛ فإن ما جاء به الرسول ﷺ حق، وما سواه باطل، ويحتمل أن يكون تبيانا للرسالة؛ أي: أن رسالتك حق، ليس فيها شيء من الباطل، والمعنيان صحيحان؛ فرسالة النبي ﷺ حق، وما أُرْسِلَ به من العلم، والإيمان،

(١) رواه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٥).

والعمل الصالح هو حق.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ صفتان من صفات الرسول - صلى الله عليه وآله

وسلم - أنه بشير وأنه نذير؛ فهو بشير للمؤمنين، وهو نذير للكافرين؛

قال الله - تعالى -: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ

يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ

الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾

مَكْتُوبٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا هُمْ

بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ

يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿الكهف: ١-٥﴾ .

فهو ﷺ بشير للمؤمنين بالثواب العاجل والآجل، ونذير

للكافرين بالعقاب العاجل والآجل، ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ

الْجَحِيمِ﴾؛ أي: لا يسألك الله - تعالى - عن أصحاب الجحيم بعد إذ

أنذرتهم؛ فإن سيئاتهم على أنفسهم، أما أنت فقد بلغت الرسالة،

وأديت الأمانة، ونصحت الأمة.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- إثبات رسالة النبي ﷺ؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن رسالة النبي ﷺ حق؛ لقوله: ﴿إِنَّا

أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ .

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب اتباع النبي - صلى الله عليه وآله

وآله وسلم -؛ لكونه رسول الله، ولكون ما جاء به حقاً، وضد الحق الباطل؛ فمن خالف النبي ﷺ فهو على باطل، ثم إن هذا الباطل قد يكون شاملاً لجميع أعماله؛ كالكافر بما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام -، وقد يكون الباطل في بعض أعماله؛ كمن فعل معصية لا تخرجه من الإسلام؛ فإن هذه المعصية تكون باطلاً وما معه من الحق يكون حقاً.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليس له حق من الربوبية والتصرف في الخلق؛ إنها هو بشير ونذير.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: الحث على فعل ما يكون بشارة للعبد، وتلك هي الأعمال الصالحة، فإن من عمل عملاً صالحاً؛ فله البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة؛ له البشرى في الحياة الدنيا؛ لأن توفيق الله له لهذا العمل دليل على أن الله يسره لليسرى؛ فيبشر بذلك، ويفرح، ويسر؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «... من سرته حسنته، وساءته سيئته فذلك المؤمن»^(١)؛ فأنت إذا رأيت الله - تعالى - قد وفقك للعمل الصالح فأبشر بالخير؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار»، قالوا: يا رسول

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٨/١)؛ والترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، غريب من هذا الوجه...»؛ والبيهقي في

السنن الكبرى (٧/ ٩١)؛ وانظر المستدرک، للحاكم (١/ ٥٨ - ٥٩)

الله، فلم نعمل؟ أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا؛ فكلٌ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥٠﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٥١﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٥٢﴾﴾ إلى آخر الآية [الليل: ٥-٧] (١).

وعلى هذا فينبغي للإنسان إذا رأى أن الله ييسره للعمل الصالح، وهدايه له، وسهله عليه أن يحمد الله على هذه النعمة، وأن ييسر بذلك؛ قال الله - تعالى - في الحديث القدسي: «... يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك - أو قال: سوى ذلك - فلا يلومنّ إلا نفسه» (٢)، وإذا وجد من نفسه أن العمل الصالح ثقيل عليه، وأن نفسه تنقاد بسرعة إلى العمل السيئ فليرجع إلى الله - عزّ وجلّ -، وليتب إليه، وليحذر مما هو عليه.

٦- من فوائدها وأحكامها: أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يسأل عن ضلال الضالين، ومن كان من أصحاب الجحيم؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾.

٧- من فوائدها وأحكامها: أن الإنسان إذا أدّى ما عليه من إبلاغ الشرع والدعوة إليه؛ فإنه لا يناله من ضلال الضالين شيء، إنما يضلون

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري: كتاب الجنائز، باب موعظة المحدث عند القبر، رقم (١٣٦٢)؛

ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٢٦٤٧)

(٢) رواه - ضمن حديث - مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

على أنفسهم؛ قال الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم -:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال - تعالى -: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾
[الشورى: ٤٨]، وقال الله - تبارك وتعالى -: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾
لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿١٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ﴿١٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٦].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أن أصحاب الجحيم - الذين هم أهل
الجحيم - لا يستفيدون برسالة النبي ﷺ شيئاً؛ لأنهم قد حقت عليهم
كلمة العذاب - والعياذ بالله.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

يقول الله - تعالى - مخبراً عن حال اليهود والنصارى، وشدة
معاداتهم لما جاء به الرسول ﷺ: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ
حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وقد بينا - فيما سبق - أن اليهود هم أتباع موسى،
وأن النصارى هم أتباع عيسى.

فاليهود أتباع موسى - عليه الصلاة والسلام -، وشريعتهم التي
كانوا عليها نسخت بشريعة عيسى - عليه الصلاة والسلام -، ووجب

عليهم أن يؤمنوا ببعيسى ويتبعوه، ولكنهم - والعياذ بالله - أبوا ذلك، وكفروا ببعيسى - عليه الصلاة والسلام -، وادعوا أنهم قتلوه وصلبوه، وقد أنكر الله ذلك عليهم في قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

أما النصارى فهم أتباع عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين محمد ﷺ رسول، وهم كانوا على دين حق حتى بُعث النبي ﷺ، فلما بُعث النبي ﷺ وجب عليهم أن يتبعوه، فلما كفروا به صاروا كافرين حتى ببعيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام -؛ لأن عيسى ابن مريم قد بشرهم بمحمد ﷺ؛ كما ذكر الله - تعالى - ذلك في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦]؛ فأحمد الذي بشر به عيسى - عليه الصلاة والسلام - هو محمد ﷺ؛ والدليل على هذا قوله: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، ولكنهم كفروا بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - فكانوا كافرين ببعيسى وبشارته؛ ولهذا لا يقبل الله دينهم، ولا ينفعهم هذا الدين الذي هم عليه يوم القيامة؛ قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقول - تعالى -: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾؛ أي: دينهم الذي هم عليه؛ فاليهود يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون يهوديًا، والنصارى يقولون: لا نرضى عنك حتى تكون نصرانيًا، قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ﴾؛ أي: منكرًا عليهم: ﴿إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾، وليس ما أنتم عليه أيها اليهود ولا ما أنتم عليه أيها النصارى، بل هدى الله هو الهدى؛ وهدى الله بعد بعثة الرسول محمد ﷺ هو ما كان عليه محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ضمير فصل، وضمير الفصل يفيد إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما سواه؛ لأنه - أعني: ضمير الفصل - من أدوات الحصر.

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ يعني: من اتبع أهواء هؤلاء اليهود أو النصارى، وهو ما يريدونه من أن يكون الناس نصارى أو يهودًا، فمن اتبع هذا بعد ما جاءه من العلم برسالة محمد ﷺ؛ فإنه معرض نفسه لهذه العقوبة: ما له من الله من ولي يتولاه؛ فيحيطه بما ينفعه، ولا نصير ينصره؛ فيمنعه مما يضره.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- ومن فوائدها وأحكامها: التحذير الشديد من اليهود

والنصارى؛ لأنهم لن يرضوا عن الإنسان حتى يتبع ملتهم.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: بيان أن اليهود والنصارى يرضون

بمن يتبع ملتهم، بل يفرحون بذلك، ويسرون به، ويستبشرون به.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن الهدى لا يختص بأمة أو طائفة معينة؛ فليس الهدى لليهود فقط، ولا للنصارى فقط، بل الهدى هدى الله، فمن اتبع هدى الله على أي رسول؛ فقد اهتدى بهدى الله، ومعلوم أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، وأنه جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه، وأن شريعته نسخت جميع الشرائع؛ وعلى هذا نقول لليهود والنصارى: الملة الصحيحة ما كان عليه المسلمون؛ لأنها هي هدى الله الذي بعث به محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: التحذير من اتباع أهواء اليهود والنصارى؛ أي: اتباع ما يهوونه من الباطل؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن العقوبات إنما تقع على العبد بعد أن يأتيه العلم، وأما الجاهل فلا عقوبة عليه؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، وهذا الأصل يشهد له آيات متعددة؛ منها: قوله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله - تعالى -: قد فعلت. ومنها أيضاً قوله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ومنها قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ومنها قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ

الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي
الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ [القصص: ٥٩]، والآيات في هذا المعنى
كثيرة، وهو أنه لا عقوبة إلا بعد العلم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أنه لا أحد يمنع ما أراد الله - عزَّ وجلَّ -
من خير أو من شر؛ ففي الحديث الصحيح عن النبي - صلى الله عليه
 وآله وسلم - في الأذكار التي تقال بعد الصلاة: «... اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا
أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيٍّ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»^(١)؛ أي: لا
ينفع صاحب الحظ والغنى حظه وغناه من الله - عزَّ وجلَّ -، بل الله -
تعالى - محيط بكل شيء، وقادر على كل شيء.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أنه إذا كان هذا التحذير موجهاً إلى
رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إلى
آخر الآية؛ فكيف بمن دونه؟! فإن هذا التحذير يشمله وأولى، ولقد
قال الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ
ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ
وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥].

ثم قال الله - تعالى -: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ
أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة: ١٢١]

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم (٨٤٤)؛ ومسلم: كتاب المساجد
ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم (٥٩٣).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾؛ أي: أعطيناهم الكتاب، والمراد بالكتاب هذا الجنس؛ فيشمل الكتاب الذي أنزله الله على محمد ﷺ؛ وهو القرآن، والكتاب الذي أنزله على موسى؛ وهو التوراة، والكتاب الذي أنزله على عيسى؛ وهو الإنجيل.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي: يتبعونه؛ والتلاوة يُرادُ بها ثلاثة أمور:

التلاوة اللفظية، والتلاوة المعنوية، والتلاوة الحكيمة العملية.

أما التلاوة اللفظية: فأن يقيم الإنسان حروف الكتاب الذي أنزل.

وأما التلاوة المعنوية: فأن يقيم معناه؛ أي: معنى الكتاب الذي أنزل؛ وذلك بأن يفسره بما أراده الله - عَزَّ وَجَلَّ -، لا بهوى نفسه؛ فلا يحرف الكلم عن مواضعه.

وأما التلاوة الحكيمة العملية: فأن يؤمن بأخباره، ويقوم بأوامره، ويتجنب نواهيه.

﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾؛ أي: التلاوة الحق، فهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾؛ يعني: هؤلاء هم الذين يؤمنون به حقًا، وأما من لم يتله حق تلاوته، إما في اللفظ أو في المعنى، أو في الحكم والعمل؛ فإنه لم يؤمن به، وقد نقص من إيمانه به بقدر ما نقص من تلاوته، وبين - عَزَّ وَجَلَّ - في هذه الآية أن من كفر بالكتاب الذي آتاه الله إياه؛ فإنه خاسر؛ خسر الدنيا والآخرة خسرانًا كاملاً إن

كان لم يؤمن به إطلاقاً، وخسرانا ناقصاً إن كان آمن به على وجه ينقص الإيمان؛ لأن الله - تعالى - حكم عدل، فمن كان معه الإيمان كله؛ فله الربح كله، ومن كان معه الكفر وليس معه الإيمان؛ فله الخسران كله، ومن كان معه إيمان وكفر؛ فله الربح فيما آمن والخسران فيما كفر.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- الشاء على من آتاه الله الكتاب فتلاه حق تلاوته، وفيها حقيقة

الإيمان بالكتاب: أن يتلوه الإنسان حق تلاوته.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن من لم يقيم حروف الكتاب فإنه لم

يؤمن به حق الإيمان؛ لأنه لم يتله حق تلاوته؛ ويتفرع من هذه الفائدة

وجوب تلاوة القرآن على الوجه الذي أنزل من حيث الترتيب، ومن

حيث الحروف؛ فلا يُبدلُ حرفٌ بحرف، ولا تُقدَّمُ آية على آية، ومن

حيث الإعراب؛ فلا يفتح ما كان مضمومًا أو مكسورًا ولا العكس.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: تحريم تفسير القرآن بالرأي والهوى؛

لأن من فعل ذلك فإنه لم يتل القرآن حق تلاوته باعتبار المعنى؛ ويتفرع

على هذا بيان خطر ما ذهب إليه المحرفون لآيات الصفات؛ مثل قولهم:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؛ أي: استولى. ومثل قولهم:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ أي: نعمتاه مبسوطتان وما أشبه

ذلك؛ فإن هذا - بلا شك - تحريف للكلم عن مواضعه، وقد يكون هذا

أشد من التحريف في آيات الأحكام العملية؛ وذلك لأن باب الصفات

من باب الخبر المحض الذي ليس للعقول مدخل في تفاصيله؛ فيجب تلقيه من كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله ﷺ.

فمن حَرَّفَ نصوص الكتاب والسنة في آيات الصفات وأحاديثها؛ فهو أشد خطراً ممن حَرَّفَهَا فيما يتعلق بالأحكام البدنية؛ وعلى هذا فالواجب إجراء نصوص الصفات في الآيات والأحاديث على ظاهرها اللاتق بالله بلا تمثيل ولا تحريف، فنقول: إن معنى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]؛ أي: علا على العرش علواً يليق بجلاله وعظمته من غير تمثيل، ونقول في قوله - تعالى -: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]: هما يدان حقيقتان بهما يأخذ وبهما يقبض، ولكنهما لا تماثلان أيدي المخلوقين، وهكذا بقية الصفات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجب علينا أن نؤمن بها على ظاهرها لكن من غير تمثيل؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومن غير تكييف أيضاً؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]؛ فلا يجوز لأحد أن يمثل لصفات الله بصفات خلقه، ولا يُكَيِّف صفات الله - عزَّ وجلَّ -؛ لأن ذلك قول على الله بلا علم.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن التلاوة تنقسم إلى قسمين: تلاوة

تامة؛ وهي حق التلاوة، وتلاوة ناقصة؛ وهي أن يتلوه بعض التلاوة.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن من لم يقم بالعمل الصالح الذي دلّ عليه الكتاب؛ فإنه لم يتله حق تلاوته، فيكون ناقص الإيمان، وهذا هو طريق أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص؛ يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية أو غيرها من أسباب نقصه.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: الثناء على المتبعين، بل على التالين لكتاب الله حق تلاوته؛ لقول الله - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن الكافر بالكتاب الذي أنزله الله على رسله خاسر في الدنيا والآخرة، حتى وإن ربح في الدنيا أموالاً، وقصوراً، ومراكب، وأنعم عليه بالأهل والبنين؛ فإنه خاسر؛ لإطلاق الخسران في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾، ولم يقل: في الدنيا، ولم يقل في الآخرة؛ فيكون ذلك عامّاً؛ قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَا ذٰلِكَ هُوَ الْخٰسِرَانُ الْمُمِينُ ﴿١٥﴾ هُم مِّنْ فَوْقِهِمْ ظَلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ اللّٰهُ بِهِ عِبَادَهُ رَبِّ يَعْبَادُ فَاتَّقُوا﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

* * *

ثم قال الله - تعالى - في سورة البقرة: ﴿يٰۤاِسْرٰٓءِيْلُ اٰذْكُرْ اَوَّلَ نِعْمَتِي الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلٰى الْعٰلَمِيْنَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٢٢].

هذه الآية الكريمة سبق مثلها، بل شبهها في أول السورة؛ ينادي الله - تعالى - بني إسرائيل - وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن

إبراهيم -، يناديهم مُذَكِّرًا إياهم نعمته التي أنعمها عليهم، ويأمرهم بتذكرها، فيقول: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، وقد أنعم الله على بني إسرائيل بنعم عظيمة؛ منها: الإيمان؛ حيث آمنوا بموسى - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ومنها: أن الله أهلك عدوهم (فرعون وقومه)، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

ومنها: أن الله - تعالى - ظلَّ عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى، ونعم الله عليهم كثيرة.

ومنها: أن الله فضَّلهم على العالمين؛ أي: جعلهم أفضل من العالمين، وذلك في زمانهم؛ فإن بني إسرائيل الذين آمنوا برسولهم أفضل العالمين في وقتهم، أما بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فإن أفضل الأمم أمة رسول الله ﷺ الذين آمنوا به؛ كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»^(١)، يقول الله - تعالى - في هذه الآية مخاطبًا بني إسرائيل ومذكِّرًا لهم بهذه النعم: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) رواه البخاري: كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، رقم (٨٧٦)؛ ومسلم: كتاب الجمعة، باب

هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم (٨٥٥).

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- أنه يجب على المرء أن يتذكر نعمة الله عليه؛ ليقوم بشكرها، وبشكر النعم تزداد، وبكفرها ترتفع؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنه يجب على بني إسرائيل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأنه مرسل إليهم، فعليهم أن يتبعوه شكراً لله - تعالى - على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي تميزوا بها عن العالمين في وقتهم.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: تفاضل الناس؛ فالناس يتفاضلون عند الله في الأعمال، ويتفاضلون في الإيمان؛ قال الله - تعالى -: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال - تعالى -: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿تِلْكَ أَلْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وسئل النبي ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله - عزَّ وجلَّ -؟ فقال: «الصَّلاة على وقتها، قال: ثم أيُّ؟ قال: بر الوالدين، قال: ثم أيُّ؟ قال: الجهاد في سبيل الله»^(١)؛ فالأعمال تتفاضل، والعاملون يتفاضلون

(١) رواه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم (٥٢٧)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله - تعالى - أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

بحسب ما عندهم من العلم، والإيمان، والعمل الصالح.
 ٤- ومن فوائدها وأحكامها: أنه يجب على من فضّله الله على غيره بعلم أو مال أو عمل من الشكر ما لا يجب على من هو دونه؛ وذلك أن الناس قسمان: قسم أنعم الله عليهم فابتلاهم بالنعمة؛ ليشكروا أو يكفروا، وقسم آخر ابتلوا بالمصائب؛ ليعلم الله - تعالى - هل يصبرون أم لا يصبرون؟ ولكل فيما ابتلي به وظيفة؛ فمن ابتلي بالخير فعليه وظيفة الشكر، ومن ابتلي بضده فعليه وظيفة الصبر، وكلما عظمت النعمة كان الشكر عليها أوجب.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفِيعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾.

﴿وَاتَّقُوا﴾ ؛ واحذروا ﴿يَوْمًا﴾ ؛ هو يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ ؛ لا تغني عنها شيئاً حتى الوالد لا يغني عن ولده شيئاً، والولد لا يغني عن والده شيئاً؛ كما قال الله - تبارك وتعالى - في سورة لقمان: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقال - تعالى -: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿١٦﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿١٧﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿١٨﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ ؛ أي: لا يقبل منها ما تدفعه عدلاً؛

أي: فدية عنها ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾؛ والشفاعة هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة؛ ففي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدًا إلا من أذن له الرحمن ورضي له قَوْلًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: ولا هم يمنعون من عذاب الله.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- وجوب الحذر من عذاب يوم القيامة؛ لأنه هو المراد بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنه في يوم القيامة لا ينفع أحد غيره شيئًا بخلاف الدنيا؛ فإنه قد ينفعه بشفاعة أو غيرها، أما في الآخرة فلا.
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الحذر من هذا اليوم العظيم الذي لا تنفع فيه قرابة، ولا ينفع فيه الفداء، ولا تنفع فيه الشفاعة؛ وإنما الإنسان وعمله.
- ٤- ومن فوائدها وأحكامها: نفي نفع الشفاعة لمن ليس من أهلها؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ﴾، أما من كان من أهل الشفاعة فإن الشفاعة تنفعه، وليعلم أن الشفاعة قسمان: قسم عام، وقسم خاص، والخاص هو الذي لا يقوم به إلا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهي الشفاعة العظمى التي يتراجع فيها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - حتى تصل إلى محمد - صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيأتون

إلى آدم يطلبون منه الشفاعة فيعتذر، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، ثم إلى موسى، ثم إلى عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - محمد؛ فيقوم ويشفع بإذن الله - سبحانه وتعالى -، وهذه خاصة بالنبى - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وقسم عام: تكون للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولغيره من المؤمنين من الملائكة والبشر؛ ومنها: الشفاعة للميت بالصلاة عليه؛ قال النبى - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يَشْرُكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(١)، وهذه عامة - كما قلنا - تكون للأنبياء والصالحين من البشر، وتكون كذلك للملائكة.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: قطع آمال المشركين الذين يعبدون الأصنام، ويتخذونها شفعاء عند الله؛ فإنها لا تنفعهم يوم القيامة، خلافاً لما يتوهمونه من أنها تنفعهم؛ حيث يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر: ٣]. وقال - تعالى -: ﴿ وَيَقُولُونَ هَتُوْا لَهُ شُفَعَاتُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]؛ فلا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا.

* * *

(١) رواه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفعا فيه، رقم (٩٤٨).

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

يقول الله - تعالى - : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ؛ أي: اختبره؛ وإبراهيم عليه السلام هو ابن آزر، وهو خليل الرحمن - سبحانه وتعالى -؛ يخبر الله - تعالى - أنه ابتلاه بكلمات، ﴿ وَإِذِ ﴾ هنا متعلقة بمحذوف، والتقدير: واذكر إذ ابتلى إبراهيم؛ أي: اذكر للناس هذه القصة العجيبة الدالة على فضل إبراهيم؛ ابتلاه الله - تعالى - بكلمات؛ والكلمات هذه كلمات شرعية ابتلاه الله - تعالى - بها؛ وهي الأوامر والنواهي، ولم يبين الله - سبحانه وتعالى - عين هذه الكلمات ولا نوعها، لكننا نعلم أنها كلمات تكليفية قام بها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على الوجه الذي ابتلاه الله - تعالى - بها حسب ما يرضي الله - عزَّ وجلَّ -؛ ومن ذلك: أن الله - تعالى - أمره أن يذبح ابنه إسماعيل بعد أن بلغ معه السعي؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَمِيعٌ ﴾ ١١ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ فَبَشِّرْنَهُ بَعْلَمٍ حَلِيمٍ ﴾ ١٢ فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنِي لِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْخُوكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ١٣ قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ١٤ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ١٥ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يٰإِبْرَاهِيمُ ١٦ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ١٧ إِنَّ

هَذَا هُوَ الْبَلْتُؤُ الْمُبِينُ ﴿ [الصفات: ٩٩-١٠٦] (١).

فابتلى الله - تعالى - إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بكلمات: أوامر ونواه؛ ﴿فَأْتَمَّهُنَّ﴾، وهذا هو محل الثناء، لما ابتلى بذلك أتمهنَّ على الوجه الذي يرضى به الله - عزَّ وَجَلَّ؛ فَأَثَابَهُ اللهُ - تعالى - ذلك الثواب العظيم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾؛ أي: قدوة يقتدي بك الناس. ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؛ يعني: واجعل من ذريتي إمامًا، أو اجعل من ذريتي أئمة، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فتعهد الله له بذلك إلا أنه استثنى فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ومن أكبر الأئمة - بل هو أكبر الأئمة - من ذريته محمد ﷺ؛ فهو إمام المتقين - صلوات الله وسلامه عليه -، بل هو إمام الأنبياء ﷺ، وإن كان آخرهم؛ كما تبدى ذلك في قصة الإسراء والمعراج؛ حيث صلى بهم - صلوات الله وسلامه عليه - إمامًا، ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: من كان ذا ظلمٍ لنفسه بالإشراك بالله؛ فإنه لا يمكن أن يكون إمامًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- أن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يذكر للناس ما حصل من الابتلاء لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ والفائدة من ذلك: الاقتداء به؛ أي: بإبراهيم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا

(١) أسلمًا: أي: انقادا لأمر الله - تعالى -، وتله للجبين: أي: تله على وجهه؛ ليذبحه من قفاه.

إِلَيْكَ أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[النحل: ١٢٣].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -، وأنه إمام؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: شفقة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على ذريته؛ حيث قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وهذا يشبه من بعض الوجوه ما سأل موسى - عليه الصلاة والسلام - ربه - جل وعلا - أن يشرك أخاه هارون في الرسالة.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الله - سبحانه وتعالى - أعطى إبراهيم ما سأل؛ بأن يجعل من ذريته أئمة، لكنه استثنى من ذلك الظالم؛ فإنه لا يكون إمامًا.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن كل من كان أقوم لله - تعالى - بما أمر به كان أحرى بالإمامة من غيره؛ وذلك لأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إنما كان إمامًا؛ لأنه أتم ما ابتلاه الله به؛ ولذلك قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمَهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمَهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمَهُمْ سِلْمًا»^(١).

(١) رواه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أحق بالإمامة، رقم (٦٧٣).

٦- ومن فوائدها وأحكامها: كراهية الله - تعالى - للظلم؛ ولذلك لم يجعل لظالم إمامة.



ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥].

قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: واذكر إذ جعلنا؛ ومعنى جعلنا: صيرنا، والمراد بالبيت: بيت الله الحرام (الكعبة).

﴿ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾؛ أي: مرجعاً يرجعون إليه ويثوبون إليه، ﴿ وَأَمْنَاً ﴾ يأمنون به؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، ومقام إبراهيم - معروف - شرقي الكعبة المعظمة، وسُمي مقاماً؛ لأنه قام عليه حين بناء الكعبة؛ لما ارتفع البناء وضع هذا الحجر، فصار يرتفع عليه؛ من أجل إتمام البناء، وما زال هذا المقام محفوظاً إلى يومنا هذا.

وقوله: ﴿ مُصَلًّى ﴾؛ أي: مكاناً للصلاة، وقد فسر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك بفعله حينما انتهى من الطواف - طواف القدوم -، فتقدم إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ

مُصَلِّيًّا ﴿٤٤٥﴾، فصلَّى خلف المقام ركعتين، وبينَّ الله - سبحانه وتعالى - في هذه الآية أنه عهد إلى إبراهيم وإسماعيل؛ أي: عهد عهدًا ألقاه إلى إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما الصلاة والسلام -، وإسماعيل هو أكبر أولاد إبراهيم، وهو من سريته هاجر، وقد أبقاهما - عليه الصلاة والسلام - في هذا المكان، أبقاهما؛ أي: أبقى إسماعيل وأمه في هذا المكان حتى شبَّ، وكبر، وأتاه الأولاد الذين هم العرب المستعربة، فكان إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - مع أبيه في هذا المكان، فأمره الله - عزَّ وجلَّ - أن يطهر بيته للطائفين، والعاكفين، والرُّكَّع السُّجُود؛ قال: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وسيأتي ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة المعظمة.

وقوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾؛ أي: الطائفين بهذا البيت ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾؛ أي: في المسجد ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾؛ أي: المصلين، وإنما بدأ بالطائفين؛ لأنهم أخص بهذا المكان؛ فإن الطواف لا يصح إلا في الكعبة، ولا يشرع إلا بالكعبة، ثم ثنى بالعاكفين؛ لأنهم أخص من المصلين - وإن الاعتكاف لا يكون إلا في المساجد، فلا يكون في كل أرض، ثم ثلث بالرُّكَّع السُّجُود؛ أي: المصلين؛ لأن ذلك أعم؛ فإن الصلاة تصح في كل مكان من الأرض إلا ما استثني من ذلك؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «... وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا

وطهورًا»^(١)، وذكر الركوع والسجود؛ لأنها ركنان من أركان الصلاة؛ قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للرجل الذي صلى ولكنه لم يطمئن في صلاته: «... ثم اركع حتى تطمئن راکعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا»^(٢).

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١ - أن الله - تعالى - جعل البيت مثابة للناس وأمنًا؛ أي: مرجعًا لهم وأمنًا؛ ومن ذلك أنهم يترددون إليه في كل موسم حج، وفي غير موسم الحج؛ فأفتدة الناس تهوي إلى هذا المكان للحج، والعمرة، وغيرهما من الطاعات.

٢ - ومن فوائدها وأحكامها: أن مكة بلد آمن، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «... إِنَّ مَكَةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يَجْرِمِهَا النَّاسُ؛ فَلَا يَجِلُّ لِأَمْرِي يَوْمَ يَأْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةٌ...»^(٣)؛ فلا يجل القتال في مكة لأحد إلا لرسول الله ﷺ حين الفتح فقط، فهي لم تحل لأحد قبله، ولن تحل لأحد بعده؛ ولهذا يحرم القتال في مكة المكرمة إلا على سبيل الدفاع عن

(١) رواه البخاري: كتاب التيمم، باب وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾، حديث رقم

(٣٣٥)؛ ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب (بدون)، رقم (٥٢١).

(٢) تقدم تخريجه ص (٣٨).

(٣) رواه البخاري: كتاب العلم، باب ليلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٤)؛ ومسلم: كتاب

الحج، باب تحريم قتلها وصيدها...، رقم (١٣٥٤).

النفس؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿وَلَا تُقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ ط فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١].

٣- ومن فوائدها وأحكامها: الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم، وقد بيّننا أن النبي ﷺ بيّن ذلك بكونه صلى خلف المقام ركعتين، وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

واختلف العلماء - رحمهم الله - في وجوب هاتين الركعتين؛ فمنهم من قال: إنها واجبتان؛ لأن الله - تعالى - أمر بهما، وبينهما النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بفعله، والأصل في الأمر الوجوب. ومنهم من قال: إنها سنة؛ لأنها من توابع الطواف، والمشروع في هاتين الركعتين أن يخففهما، وألا يمكث بعدهما عند المقام، وأن يقرأ فيهما في الركعة الأولى بعد الفاتحة: ﴿قُلْ يَتَأَيُّمَ الْكَافِرُونَ﴾ وفي الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وبهذا نعرف أن ما يفعله بعض الناس من التطوع خلف المقام من غير طواف، أو التطوع بأكثر من ركعتين، أو إطالة الركعتين، أو الجلوس بعدهما في هذا المكان لقراءة القرآن، أو للذكر، أو للدعاء غير مشروع؛ لأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أحرص الناس على الخير بلا شك، ومع ذلك فقد صلى خلف المقام ركعتين خفيفتين ثم انصرف؛ ولأن هذا المكان يختص بالطائفين الذين يصلون ركعتين، فكون الإنسان يبقى فيه بدون سبب شرعي فيه شيء من الجنابة على غيره، ولكن لو سألنا سائل: إذا كان

المطاف مزدحمًا، وكان الطائفون يطوفون من وراء مقام إبراهيم، فهل للإنسان الحق أن يصلي ركعتين بين الطائفتين، فيعيق سيرهم ويؤذيهم أم ليس له الحق في ذلك؟

الجواب: أنه ليس له الحق في ذلك؛ لأن حقَّ الطائفتين أولى بالمراعاة من حق المصلي؛ إذ إن المصلي يمكنه أن يصلي بعيدًا عن مكان الطواف، فيصلي ركعتين، ويجعل المقام بينه وبين البيت، ولو كان في آخر صحن المطاف، بل ولو كان تحت السقف، لكن الطائف ليس له إلا هذا المكان، وبهذا نعرف خطأ من يفعلون هذا الفعل، تجدهم يصلون خلف المقام مع ازدحام المطاف، واحتياج الناس إلى الطواف، فمثل هؤلاء لا حقَّ لهم في هذا المكان ما دام الطائفون محتاجين إليه.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: تعليية شأن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ حيث أمرنا الله - تعالى - أن نتخذ من مقامه مصلى، وهذا من جملة ما يترتب على الإمامة التي قال الله - تعالى - فيها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: عهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل - أي: وصى إليهما - وأمرهما بأن يطهرا بيته للطائفتين، والعاكفين، والركع السجود.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة إبراهيم وإسماعيل؛ حيث أوكل إليهما هذا الأمر العظيم.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الطواف؛ لقوله: ﴿طَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾، ولا شك أن الطواف من الأعمال الجليلة الفاضلة؛ ولهذا كان ركناً في الحج والعمرة؛ فلا يتم حج الإنسان ولا عمرته إلا أن يطوف بالبيت.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب تطهير البيت للطائفين، والعاكفين، والركع السجود، وتطهير البيت ينقسم إلى قسمين: تطهير معنوي، وتطهير حسي؛ أما التطهير المعنوي: فأن يطهر من الشرك والمعاصي؛ وذلك لأن الشرك نجاسة؛ كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ فلا يجوز أن يركن أحد في هذا البيت إلى الإشراك بالله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ وهو أن يدعو نبياً، أو ولياً، أو ملكاً، أو غيره من دون الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ٢٨]، فنهى أن يقربوا المسجد الحرام فضلاً عن أن يكونوا في البيت الحرام.

والطهارة الحسية: أن يطهر من الأقدار؛ من البول، والغائط، والدم، وما أشبه ذلك من الأشياء النجسة؛ فالواجب أن يطهر منها، فهذا الحكم - أعني التطهير من النجاسة الحسية - ثابت للمسجد الحرام ولغيره من المساجد؛ ولهذا لما بال أعرابي في مسجد النبي ﷺ في المدينة أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: الإشارة إلى أن المشروع للطائف أن يكون متطهراً؛ لأنه إذا أمر بتطهير البيت من أجله فتطهيره بنفسه، وتطهير ما لبسه من الثياب من باب أولى؛ فالمشروع للطائف أن يكون طاهراً من الأنجاس، كما أن المشروع له أن يكون طاهراً من الأحداث؛ فلا يطوف وهو محدث حدثاً أصغر أو أكبر؛ ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - على قولين في هذه المسألة: لو طاف وعليه حدث أصغر؛ هل يصح طوافه أم لا؟ اختار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن طوافه صحيح، وقال أكثر أهل العلم: إن طوافه غير صحيح.

١٠- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الاعتكاف؛ حيث أمر أن يطهر البيت من أجل العاكفين.

١١- ومن فوائدها وأحكامها: مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام؛ لقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾، وهذا أمر لا إشكال فيه، وقد قال عمر: «يا رسول الله، إني نذرتُ في الجاهلية أن أعتكفَ ليلة في المسجد الحرام، قال: «فأوفِ بِنَذْرِكَ»^(١).

١٢- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة الركوع والسجود؛ حيث عبّر بهما عن الصلاة كاملة؛ قال أهل العلم: وإذا عبّر الله عن العبادة ببعضها دلّ على وجوب هذا البعض فيها، وقد بينّا أن الركوع

(١) رواه البخاري: كتاب الاعتكاف، باب إذا نذر في الجاهلية أن يعتكف ثم أسلم، رقم (٢٠٤٣)؛ ومسلم: كتاب الأيمان، باب نذر الكافر وما يفعل فيه إذا أسلم، رقم (١٦٥٦).

والسجود من أركان الصلاة، وحد الركوع أن ينحني القائم، أن ينحني ظهره بحيث يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيام التام، وقيل: حده أن ينحني بحيث يمكنه مس ركبتيه إذا كان معتدل اليدين لا طويلهما ولا قصيرهما، وأما السجود فقد بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه لا بد من السجود على أعضاء سبعة؛ فقال: «أمرتُ أن أسجدَ على سبعة أعظم: الجبهة - وأشار بيده على أنفه -، واليدين، والرجلين، وأطراف القدمين...»^(١).

١٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن تطهير المساجد من فروض الكفاية؛ لقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾؛ فوجه الأمر إليهما، وإن كانت هذه الفائدة، أو هذا الحكم قد يكون مأخذه من هذه الآية الكريمة ضعيفاً، لكنه يؤخذ - أي: وجوب تطهير المساجد من الأذى والقذر - من أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الصحابة - رضي الله عنهم - أن يريقوا على بول الأعرابي الذي بال في المسجد ذنوباً من ماء؛ أي: دلواً من ماء؛ فإن هذا يدل على الوجوب، وعلى أنه وجوب كفايي؛ وعلى هذا فإذا رأيت في المسجد قذراً فأزله إن أمكنك، فإن لم يمكنك وجب عليك أن تبلغ من عليه تطهيره.

* * *

(١) رواه البخاري: كتاب الأذان، باب السجود على سبعة أعظم، حديث رقم (٨١٠)؛ ومسلم: كتاب الصلاة، باب أعضاء السجود...، رقم (٤٩٠)، واللفظ له.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦٦﴾ ۞ .

قوله - تعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ۞ متعلق بمحذوف - كسابقه - والتقدير: «واذكر إذ» ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ۞ ﴾؛ ففي هذه الآية الكريمة يأمر الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يُذَكِّرَ الناس ويبلغهم ما قاله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من الدعاء للبيت الحرام وأهله؛ حيث قال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ۞ ﴾؛ أي: آمناً من كل خوف، ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ۞ ﴾؛ أي: أعطهم من الثمرات؛ أي: ثمرات الأشجار من النخيل، والأعناب، وغيرها.

وإنما سأل إبراهيم ذلك؛ لأن مكة بلد غير ذي زرع، فسأل إبراهيم ربه أن يرزقهم من الثمرات؛ فأجاب الله دعاءه؛ كما بينه - سبحانه وتعالى - بقوله: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۞ [العنكبوت: ٦٧]، وقال في آية أخرى: ﴿ تَجِبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا ۞ [القصص: ٥٧]، ولكن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قيّد ذلك بقوله: ﴿ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۞ ﴾ وهذا من تمام أدبه - عليه الصلاة والسلام - أنه سأل الله أن يرزق أهل هذا البيت من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر؛ وذلك تأدباً من قوله - تعالى -: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۞ ﴾؛ حيث قال في الأول حين

قال الله له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، فأطلق إبراهيم بسؤال الإمامة، ولكن الله قيدها بأنها خاصة بمن ليس بظالم، فهنا قال إبراهيم: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ولكن الله - عَزَّ وَجَلَّ - يَبَيِّنُ أن رزقه لأهل هذا البيت يشمل؛ قال - تعالى -: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾؛ يعني: وأعطي من كفر من الخيرات التي تجبى لهذا البلد - أعني: مكة -، أما من كفر: ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيُؤَسِّسُ الْمَصِيرُ﴾؛ أمتعته في هذه الدنيا بما أعطيه من الثمرات والخيرات، لكنه متاع قليل؛ إذ إن الدنيا كلها فانية تمضي لحظة فلحظة، ولا يدري الإنسان إلا وقد بلغ الأجل، وحلَّ به الموت؛ فهي - مهما طال بالإنسان - قليلة، ثم إنَّ الدنيا إذا طالت بالإنسان، وأمد له في الأجل؛ فإنه يرجع إلى أرذل العمر، وقد قال الشاعر:

لا طيبَ للعيش ما دامت منغصَةً لذاته بادِّكارِ الموتِ والهَرَمِ

قال - تعالى -: ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾؛ يعني:

أمتعته قليلاً ثم أدفعه مضطراً إلى عذاب النار يوم القيامة؛ كما قال الله -

تعالى -: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]؛ فهم - والعياذ

بالله - يدفعون دفعاً، وكأنهم إذا شاهدوا النار كأنهم يتلكثون ولا

ينطلقون؛ فيدعون إلى نار جهنم دعاً، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ

وَيُؤَسِّسُ الْمَصِيرُ﴾ هذا قدح وثناء بالشر على مصير أهل النار - نسأل الله

العافية.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- نُصِحَ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِلْبَلَدِ مَكَّةَ؛ حَيْثُ قَالَ:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ؛ قَالَ اللَّهُ -

تَعَالَى -: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾

[التين: ١-٣]، وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ

مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -

سَأَلَ اللَّهَ - تَعَالَى - أَنْ يَرْزُقَ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ، مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ، فَسَأَلَ شَيْئِينَ: الْأَمْنَ، وَرَغَدَ الْعَيْشِ؛ فَأَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَهُ أَيضًا؛

فَكَانَتْ مَكَّةَ - وَإِنْ لَمْ تَكُنْ بَلَدًا زُرَاعِيًّا - تُجْبَى إِلَيْهَا ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ

كُلِّ قَطْرٍ؛ فَأَهْلُهَا آمِنُونَ، وَبِالْعَيْشِ رَاغِدُونَ؛ فَكَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ

طَاعَةِ اللَّهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ عَلَى غَيْرِهِمْ؛ شُكْرًا لِلَّهِ - تَعَالَى - عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ.

٣- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: حَسَنَ أَدَبِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

وَالسَّلَامُ -: لِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

٤- وَمِنْ فَوَائِدِهَا وَأَحْكَامِهَا: أَنَّ الْإِيْمَانَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنْ

أَسْبَابِ الرِّزْقِ وَالْأَمَنِ، وَكَلِمَا كَانَ الْإِنْسَانُ أَقْوَى إِيْمَانًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ كَانَ أَكْثَرَ آمِنًا؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا

إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن الله - تعالى - قد يعطي السائل أكثر مما سأل؛ لحكمة تقتضي ذلك؛ فإبراهيم سأل أن يرزق الله أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، ولكن الله قال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، وهنا قد يرد إشكال: هل قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ يقتضي إقرار الكافر على كفره في مكة أم لا؟ والجواب: لا يقتضي ذلك؛ لأن الله - تعالى - قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الرزق للكافر؛ فالكافر رزقه من الله - عزَّ وجلَّ -، ولكنه مسئول عن هذا الرزق يوم القيامة، محاسبٌ عليه؛ قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣]؛ فالكافر - وإن نعم برزق الله - محاسبٌ على هذا الرزق يوم القيامة.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن الدنيا - وإن طالت - متاعها قليل؛ لقول الله - تعالى -: ﴿فَأَمْتَعُهُ قَلِيلًا﴾، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه

- قال: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها»^(١).
- ٨- ومن فوائدها وأحكامها: أن أهل النار يضطرون إلى دخولها اضطرارًا، ويدفعون إليها دفعًا؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾.
- ٩- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات النار، وأنها جزاء للكافرين؛ لقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾.
- ١٠- ومن فوائدها وأحكامها: الثناء بالشر على النار ومن كانت مصيرًا له؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، نسأل الله - تعالى - أن يجيرنا وإياكم من النار، وأن يدخلنا الجنة دار القرار؛ إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

إبراهيم هو خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام -، وهو أبو الأنبياء بعد نوح - عليهما الصلاة والسلام -؛ قال الله - تبارك وتعالى - ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، أما ابنه إسماعيل فهو أبو العرب، ومن سلالة خاتم الأنبياء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، و﴿الْقَوَاعِدَ﴾ أساس البنيان ﴿مِنَ الْبَيْتِ﴾ البيت هنا هو الكعبة، رفعا القواعد وهما يقولان:

(١) سبق تحريجه ص (٢٧٦).

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ لأن العمل إذا لم يقبل صار تعباً وضياعاً.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- فضل إبراهيم وإسماعيل؛ حيث رفعا قواعد هذا البيت الذي أضافه الله - تعالى - إلى نفسه في قوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: تواضع الأنبياء لشريعة الله - عزَّ وجلَّ -، وتعظيمهم لحرماته؛ حيث بنى إبراهيم وابنه إسماعيل هذا البيت؛ تواضعاً لله - عزَّ وجلَّ - وتعظيماً لحرماته.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن كل أحد مهما عظمت درجته وعلت منزلته مفتقر إلى ربه، وإلى قبوله - جلَّ وعلا -؛ لقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: طرد العُجب من النفس، فلا يقول الإنسان: أنا عملت، أنا فعلت، أنا قلت، بل يعمل العمل، وهو مفتقر إلى ربه - عزَّ وجلَّ - في قبوله.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن الشأن - كل الشأن - في قبول العمل، لا في نفس العمل، وإذا كان كذلك؛ فإنه ينبغي على هذا أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على ما يكون به القبول؛ وهو الإخلاص لله - عزَّ وجلَّ -، والمتابعة لشريعته؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿﴾ [الكهف: ١١٠].

٦- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الإيمان بهذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «السميع» ﷻ «العليم»؛ السميع لكل مسموع مهما خفي، والعليم بكل معلوم مهما تباعد.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات صفتي السمع والعلم لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لأن السميع والعليم اسمان مشتقان من السمع والعلم؛ فلا بد أن يتضمنا هذه الصفة، ولا نقول - كما قال أهل البدع - : إنه سميع بلا سمع، وعليم بلا علم، وسمع الله - سبحانه وتعالى - ينقسم إلى قسمين: سمع بمعنى الإجابة، وسمع بمعنى إدراك الصوت وإن خفي؛ فمن الأول قوله - تعالى - عن إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]؛ أي: لمجيب الدعاء، وقول المصلي: سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب لمن حمده؛ ومن الثاني - أي: إدراك الصوت - قوله - تعالى -: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

أما في هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فتحتمل المعنيين جميعًا؛ أي: تحتمل سمع الصوت، وسمع الإجابة، هذا وقد قَسَمَ العلماءُ سمع الصوت - بحسب ما يقتضيه السياق - إلى عام وخاص؛ فالعام: هو الذي يتضمنه هذا الاسم الكريم في القرآن أو في غيره، ومقتضاه إدراك كل صوت مهما خفي؛ ولهذا لما نزلت هذه الآية:

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية [المجادلة: ١]، قالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات؛ لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها وما أسمع ما تقول»^(١).

وأما السمع الخاص فمقتضاه: النصر والتأييد؛ مثل قوله - تعالى - لموسى وهارون: ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦].
أما العليم فهو - كما أسلفنا - متضمنٌ لصفة العلم، وعلم الله - سبحانه وتعالى - أزلي أبدي لم يسبق بجهل، ولا يلحقه نسيان؛ قال موسى - عليه الصلاة والسلام - لفرعون حين سأله: ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ قال عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿ [طه: ٥١، ٥٢]، والله - عَزَّ وَجَلَّ - واسع العلم، عليم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً وأبداً، فلم يسبق علمه جهل، ولا يلحقه نسيان - سبحانه وتعالى -، وقد جاء ذكر العلم جملة وتفصيلاً؛ فمن التفصيل قوله - تعالى -: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) انظر: فتح الباري (١٣ / ٤٦٠)؛ ومسند الإمام أحمد (٦ / ٤٦)؛ وسنن النسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)؛ وسنن ابن ماجه: كتاب المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

ولكن ما الذي نستفيدة من هذين الاسمين الكريمين: السميع،
والعليم؟

نستفيد من الناحية المسلكية فائدة؛ وهي أن نحذر من أن نتكلم بما
لا يرضي الله؛ لأننا إن تكلمنا سمعه الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ونحذر من أن
نضمّر في نفوسنا أو نعمل بجوارحنا ما لا يرضي الله - سبحانه وتعالى -
عنا؛ لأنه سوف يعلمه، ثم ينبئنا بما عملنا يوم القيامة.

* * *

ثم يقول الله - عَزَّ وَجَلَّ - في ذكر ما قاله إبراهيم وإسماعيل - عليهما
الصلاة والسلام - وهما يرفعان القواعد من البيت -: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا
مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

قوله: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ﴾؛ أي: منقادين لأمرك على وجه
الإخلاص لك؛ لأن الإسلام لله يتضمن الإخلاص له والانقياد لأمره
- جل وعلا .

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا ﴾؛ يعني: واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك، وهي
أمة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ لأنها هي الأمة التي يصدق
عليها أنها من ذرية إبراهيم وإسماعيل، أما بنو إسرائيل فهم من ذرية
إبراهيم؛ فهم ليسوا من ذرية إسماعيل، بل هم بنو عمهم.

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾؛ أي: مواضع نسكنا، ألهمنا إياها حتى نراها.

﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ ومعنى التوبة من الله على عباده: أن يوفقهم للتوبة أولاً، ثم لقبوها ثانياً، والتوبة في الأصل: الرجوع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ التواب: كثير التوبة على عباده مهما عظمت ذنوبهم؛ لقوله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقد نزلت هذه الآية في التائبين؛ والتوبة من الذنوب - مهما عظمت الذنوب - تهدم ما قبلها؛ لقول النبي ﷺ: «التوبة تهدم ما قبلها»، أو قال: «تجب ما قبلها». والتوبة تكون من أعظم الذنوب في حق الله وفي حق العباد، وتقبل؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٦﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلَدُ فِيهِ - مُهَانًا ﴿٦٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١]، والرحيم ذو الرحمة التي بها حصول النعم واندفاع النقم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- أن كل أحد محتاج إلى ربه - عَزَّ وَجَلَّ -، بل مضطر إليه في أن يوفقه للاستسلام له ظاهراً وباطناً؛ لقول إبراهيم - عليه الصلاة

والسلام - وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن الداعي إذا استمع إليه من يؤمن على دعائه؛ فإن الدعاء يكون لهما جميعاً؛ لأن الظاهر أن الذي يدعو إبراهيم، وإسماعيل يؤمن، والمستمع المؤمن مع الداعي كالداعي تماماً؛ ودليل ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨-٨٩]، فقال - تعالى -: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ مع أن الداعي موسى، قال العلماء: لأن موسى يدعو وهارون يؤمن.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: فضل إبراهيم وإسماعيل على هذه الأمة؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله له عقباً صالحاً؛ لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وهذا كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن كل إنسان مهما عظمت درجته وعلت مرتبته مفتقر إلى علم الله له؛ لقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أهمية معرفة موضع العبادة إذا كانت

العبادة مُقيّدة بمكان معين، وكذلك أهمية معرفة وقت العبادة إذا كانت مقيّدة بوقتٍ معيّن؛ وينبني على هذا أنه ينبغي أن نعتني بمعرفة أوقات الصلوات الخمس حتى نُؤديها في الوقت الذي حدّده اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لعباده؛ لقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]؛ ومن ثمَّ أُحذّرُ إخواننا المؤذنين من أن يؤذنوا قبل دخول وقت الصلاة، أولاً: لأن الأذان إعلام بدخول وقت الصلاة، والأذان قبل دخول وقتها لا يصح أن يكون إعلامًا بدخول الوقت، وثانياً: أنهم إذا أذنوا فربما يتعجّل أحد في البيوت من النساء أو من الرجال الذين لا تلزمهم صلاة الجماعة لعذر شرعي، فيصلون فور انتهاء المؤذن من أذانه، وتكون صلاتهم قبل دخول الوقت، ومن المعلوم أنّ الإنسان لو كَبَّر تكبيرة الإحرام قبل دخول الوقت، ثمَّ أتمَّ الصلاة بعد دخوله؛ فإن صلاته لا تصح؛ يعني: لو تقدّمت الصلاة بتكبيرة الإحرام فقط قبل دخول الوقت؛ فإنها لا تصح.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أنّ كل إنسان مهما علّت منزلته وارتفعت درجته مفتقر إلى توبة الله - عَزَّ وَجَلَّ - عليه؛ لقول إبراهيم: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾، وقد منَّ اللهُ - سبحانه وتعالى - على نبيه محمد - صلى اللهُ عليه وآله وسلم - بتوبته عليه؛ فقال: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: 117].

والتوبة هي الرجوع إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - من معصيته إلى طاعته،
ولابدَّ فيها من شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله بالألا يحمله على التوبة إلا رضا الله - عَزَّ وَجَلَّ -
- وابتغاء ثوابه؛ فلا يحمله عليها خوفٌ من سلطان أو من أناس.

والثاني: الندم على ما فعل من المعصية.

والثالث: الإقلاع عن المعصية في الحال.

والرابع: العزم على ألا يعود في المستقبل.

والخامس: أن تكون التوبة قبل إغلاق زمن التوبة؛ وعلى هذا فلا
تصح التوبة إذا حضر الأجل؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
الْأَنفَ﴾ [النساء: ١٨]، ولا تصح التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها؛
لقوله - تعالى -: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ
ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٨- ومن فوائدها وأحكامها: التوسل إلى الله - تعالى - بأسمائه عند
الدعاء؛ لقوله - تعالى -: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ
رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا
إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأعراف: ١٨٠]،
وهنا قال: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وينبغي أن يكون
التوسل بالاسم المناسب لما دعوت به؛ فإذا دعوت للتوبة فتوسل إلى

الله باسمه «التواب»، وإذا دعوت للمغفرة فتوسل إلى الله باسمه «الغفور»، وإذا دعوت لطلب الرزق فتوسل باسمه «الرزاق»، وما أشبه ذلك.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «التواب» و«الرحيم»؛ أما التواب فهو الذي يقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، وهو الذي يوفق من يشاء إلى التوبة؛ فيتوب؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، وأما الرحيم فهو ذو الرحمة العظيمة الواسعة؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال عن الملائكة وهم يدعون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧].

وقد قسم العلماء - رحمهم الله - رحمة الله - عزَّ وجلَّ - إلى قسمين: رحمة مخلوقة، ورحمة هي صفته، ومثلوا للرحمة المخلوقة بقوله - تعالى - في الحديث القدسي - للجنة: «أنتِ رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي»^(١)، وأطلق عليها اسم رحمته؛ لأنها محل رحمته؛ ولأنها مقر عباد الرحمن، وسكن الرحماء من عباد الله.

والقسم الثاني: رحمة هي صفته - جل وعلا - وهي غير مخلوقة؛ فإن

(١) رواه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وتقول هل من مزيد﴾، رقم (٤٨٥٠)؛ ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٦).

جميع صفات الله غير مخلوقة؛ فإن الله - تعالى - بصفاته هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهذه تنقسم إلى قسمين: رحمة عامة تشمل جميع الخلق من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وعاقل وبهيم، ورحمة خاصة بعباد الله المؤمنين؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومقتضى الرحمة العامة إيجاد ما به تقوم مصالح المرحومين، وتندفع مضارهم، وأما مقتضى الرحمة الخاصة فهو توفيق هؤلاء، وتسديد أمورهم، وإصلاح أحوالهم على وجهٍ أخص مما تقتضيه الرحمة العامة.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾؛ أي: في الذرية، وأعاد الضمير إليها بالجمع؛ لأن معناها الجمع، والبعث، والإرسال بمعنى واحد؛ قال الله - تعالى -: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال الله - تعالى -: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اٰخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿البقرة: ٢١٣﴾.
 وقوله - تعالى -: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هو محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ لأنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل، وليس في ذرية إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾؛ يقرؤها عليهم حتى يفهموها علمًا، وفهمًا، وعملاً؛ ولهذا قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ الكتاب الذي هو القرآن، والحكمة التي هي السنة وما تتضمنه أحكام القرآن والسنة من الحكم والأسرار، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ ينمي أخلاقهم وأعمالهم؛ ولهذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - متممًا لمكارم الأخلاق؛ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الجملة - هنا - جملة توسلية؛ توسل بها إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لقبول ما دعا به وتحقيقه، و﴿الْعَزِيزُ﴾ يعني: ذا العزة الكاملة؛ وهي عزة القدر، وعزة القهر، وعزة الامتناع؛ فالله - سبحانه وتعالى - له هذه الأنواع من العزة؛ فهو ذو قدر عظيم، وقهر بالغ، وامتناع عن كل سوء وعيب، وأما الحكيم فهو ذو الحكمة والحكم؛ أي: أن الحكيم من الأحكام، وهو الإتيان، ومن الحكم.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- حاجة البشر إلى الرسل؛ ولهذا دعا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - أن يبعث في هذه الذرية رسولاً منهم؛ يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم، وهذا أمر معلوم بالضرورة؛ فإن

العقول مهما كبرت لا يمكن أن تستقل بمعرفة الله - تعالى - بأسمائه وصفاته على وجه التفصيل، ولا يمكن أن تتعبد لله - تعالى - إلا بما شرعه لعباده؛ فهم في أشد الضرورة إلى الرسل.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن هذا الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - يتلو عليهم آيات الله، وقد حصل ما دعا به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ فإن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعلم أصحابه القرآن الكريم، ولا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل، ثم ألقوا هذا القرآن الكريم إلى من بعدهم بكل ثقة وأمانة، وهكذا تداوله المسلمون إلى يومنا هذا - والله الحمد -، ولم يجرؤ أحد على العدوان على هذا القرآن الكريم، وإذا اعتدى وجد - والله الحمد - من يصدّه ويردّه على عقبه.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن ما جاء به الرسول ﷺ آيات؛ أي: علامات دالة دلالة قطعية على أنه نزل من عند الله - عزَّ وجلَّ -، وعلى أنه شرع الله.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة العلم، وأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علّم أمته الكتاب والحكمة؛ ولهذا لم يدع النبي ﷺ شيئاً يحتاجه الناس في معاشهم ومعادهم إلا علّمهم إياه؛ قال أبو ذر - رضي الله عنه -: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يُقلّب جناحيه

إلا ذكر لنا منه علمًا»^(١).

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن هذه الشريعة جاءت بالحكمة المطابقة للمصالح؛ ولهذا كانت مبنية على جلب المصالح، ودرء المفاسد.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات القياس في الشريعة الإسلامية إذا كان قياسًا صحيحًا؛ ووجه ذلك أن إلحاق النظير بنظيره في الحكم من الحكمة؛ فيكون داخلًا فيما علمه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أمته، ودلائل هذا كثيرة؛ فكل مثل ضربه الله في القرآن فإنه دليل على ثبوت القياس، وكذلك كل مثل ضربه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فإنه دليل على ثبوت القياس، وقد كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يذكر المحسوس ليقاس عليه المعقول؛ فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ولدي غلامٌ أسود، فقال: «هل لك من إبل؟»، قال: نعم، قال: «ما ألوانها؟» قال: حُمْرٌ، قال: «هل فيها من أورك؟»^(٢)، قال: نعم، قال: «فأنى ذلك؟»، قال: لعل نزعهُ عرْقٌ، قال: «فلعلَّ ابنك هذا نزعهُ»^(٣)؛ فافتنع الرجل اقتناعًا كاملاً؛ لأن إلحاق النظير بنظيره من الحكمة، لكن أكثر

(١) تقدم تحريجه ص (٢٦).

(٢) الأورق: ما لونه بين السواد والبياض.

(٣) رواه البخاري: كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد، رقم (٥٣٠٥)؛ ومسلم: كتاب

اللعان، رقم (١٥٠٠).

ما يحصل في القياس أنه لا يكون صحيحًا؛ حيث يقيس القائس شيئًا على ما لا يماثله؛ وحينئذ يحصل الخطأ، وتكثر مجانبة الصواب.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن نبينا ﷺ بُعِثَ لِيَتِمَّ لِأُمَّتِهِ الْمَكَارِمَ، وينمي فيها الفضائل؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وربما تشمل التزكية التعديل الذي هو ضد الفسق، وذلك أن من تمسك بهذه الشريعة؛ فإنه يكون عدلًا مقبولًا.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات التوسل إلى الله - تعالى - بأسمائه، ودعاؤه بها؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما: «العزیز» و«الحكيم».

١٠- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات العزة، والحكمة، والحكم لله؛ فأما العزة فقد سبق الإشارة إلى أنها ثلاثة أنواع: عزة قدر؛ وهي أن الله - تعالى - ذو قدر عظيم لا يماثله شيء في قدره، وعزة قهر وغلبة؛ وهي أنه - سبحانه وتعالى - قاهر لكل شيء، غالب على كل شيء، وعزة امتناع؛ وهي أن الله - تعالى - يمتنع عن كل نقص وعيب؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

١١- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الحكمة لله؛ والحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به، ثم هي نوعان:

حكمة في جعل الشيء على صفة معينة، وحكمة في الغاية من هذا

الشيء، وتكون في الشرع، وتكون في القدر؛ ولنضرب لهذا مثلاً بالقمر؛ القمر وضعه الله - تعالى - في السماء، وجعله مقدرًا بمنازل، وهذا التقدير يختلف به حجم القمر؛ أي: الحجم المضيء من القمر؛ فكونه على هذه الصفة المعينة يزداد حجم المضيء فيه رويدًا رويدًا حتى ينتهي، ثم يعود في النقص، هذه حكمة بلا شك؛ لأن الإنسان بمجرد أن ينظر إليه، فيجد ضوءه ناقصًا يعرف أنه في الربع الأول من الشهر مثلاً، وإذا وجدته ممتلئًا عرف أنه في الأخير من الربع الثاني - هكذا -، ثم إن الغاية منه هو أن نعرف عدد السنين والحساب، فكان هذا حكمة في كون القمر على صفة معينة وفي غاية تقديره منازل؛ لنعلم - بذلك - عدد السنين والحساب.

كذلك أيضًا في الصلاة - وهي شرعية - نجد أن كونها على هذه الصفة المعينة في غاية الحكمة؛ قيام لله - عَزَّ وَجَلَّ - وتقرُّب إليه بتلاوة كتابه، ومناجاته به، ثم ركوع يفيد قوة التعظيم لله - عَزَّ وَجَلَّ -، ثم قيام بعده حتى يخر الإنسان ساجدًا له - عَزَّ وَجَلَّ - من أعلى انتصاب له إلى أسفل انخفاض له؛ حيث يضع أعلى ما في بدنه، وأشرف ما في بدنه وهو الوجه على الأرض التي هي موطن الأقدام وأ أسفل ما يكون إلى الجسم؛ تواضعًا لله - عَزَّ وَجَلَّ - وتعظيمًا له؛ ولهذا كان العبد إذا سجد أقرب ما يكون من ربه، ثم قعود بعد ذلك وهكذا؛ فكون الصلاة على هذه الصفة في غاية الحكمة، ثم الثمرات المرجوة من هذه الصلاة أيضًا

حكمة عظيمة وهي حكمة الغاية؛ وحكمة الغاية من الصلاة هي سعادة الدنيا والآخرة؛ قال الله - تبارك وتعالى - في نفع الصلاة في الأمور الكونية والقدرية: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وفي نفع الصلاة في الأمور الشرعية قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ فأنت ترى أن حكمة الله - عزَّ وجلَّ - كائنة في الأمور في صفتها التي هي عليها، ثم في الغاية منها.

١٢- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الحكم لله، وأن الحكم لله وحده، أما كوننا؛ فإنه لا مشارك له في حكمه، ولا يمكن لأحد أن يشارك الله في حكمه؛ فلا يمكن لأحد أن يمنع الموت إذا حضر، ولا يمكن لأحد أن يخلق شيئاً مهما ضعف؛ يقول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فحكم الله الكوني لا يمكن لأحد مخالفته، ولا مضادته، ولا معارضته؛ ولهذا نجد أن الفيضانات العظيمة والعواصف المدمرة، والصواعق المحرقة تنزل على أعظم دولة وأقواها صناعة، واقتصاداً، وسلاحاً، وتدمر ما شاء الله أن تدمره، ولا يملكون ردها.

أما الحكم الشرعي؛ فإنه قد يغيَّر وقد يبدَّل، لكن تغييره وتبديله اعتداء على حكم الله - عزَّ وجلَّ -، يلقي جزاءه من بدَّل أو غيَّر، ولكن

مع ذلك لو بُدِّل أو غُيِّر فإنه باقٍ، ولا سيما شريعة الإسلام التي بُعثَ بها محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ لأنها مكتوب لها البقاء إلى يوم القيامة؛ ولهذا يحاول المبطلون المعتدون الملحدون أن ينالوا من هذه الشريعة، ولكن يقبض الله لها من يكبح جماحهم، ويرد عدوانهم؛ إذن الحكيم من الحكم ومن الحكمة، والحكمة حكمة الشيء على الوصف الذي هو عليه، وحكمة الشيء في الغاية والثمرة المرجوة منه، والحكم كوني وقدري؛ وعلى هذا فيكون الحكم الكوني له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية، والحكم الشرعي له حكمتان: حكمة وصف، وحكمة غاية.

١٣- ومن فوائدها وأحكامها: الفائدة المسلكية العظيمة؛ وهي أن الإنسان إذا علم أن الله هو العزيز؛ فإنه لن يستمد العزة إلا من عنده - عَزَّ وَجَلَّ -، والعزة المستمدة من عند الله تكون بأمرين: إذا استقام على دينه، وبدعائه وسؤاله العزة؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال - تعالى -: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل

١٤- ومن فوائدها وأحكامها: الفائدة المسلكية في أن الإنسان يرضى بما قدره الله عليه، وبما شرعه له؛ لأنه يعلم أنه مبنيٌّ على الحكمة، فإذا علمت أن ما قدره الله عليك صادرٌ عن حكمة؛ فإنك سوف تقتنع؛ لأنك تعلم أن الله أعلم بمصالحك، وكذلك إذا علمت أن شريعة الله مبنية على الحكمة؛ فإنك تنقاد لها، وترضى بهذه الشريعة، وتعلم أنها حق، وأن مخالفتها هو السفه والباطل.

١٥- ومن فوائدها وأحكامها: الفائدة المسلكية أيضًا في أنك إذا علمت أن الحكم لله - تعالى - كونًا وشرعًا؛ فإنك لن تتجاسر على مخالفة أحكامه الشرعية، كما أنك لن تتمكن من مخالفة أحكامه القدرية؛ وحينئذ تكون مسلمًا لله ظاهرًا وباطنًا، كونًا وشرعًا.

* * *

ثم قال الله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

لما ذكر الله - جل وعلا - ما قام به إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - من الأفعال الجليلة، والأقوال الحميدة، والدعوات المستجابة، والإخلاص التام لله - عزَّ وجلَّ - قال: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ ﴾؛ يعني: لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم، وهي دينه الذي هو عليه - عليه الصلاة والسلام -، ﴿ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ ﴾ يعني:

إلا من رضي لها السفه؛ والسّفه ضد الرشد؛ وهو - أعني: السفه -
التصرف على وجه الخطأ، وبين الله - عَزَّ وَجَلَّ - فضله على إبراهيم في
قوله: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ فيكون من اتبع ملته مصطفى في
هذه الدنيا، ويكون في الآخرة من الصالحين، كما كان إبراهيم - عليه
الصلاة والسلام.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- الثناء على ملة إبراهيم؛ وهي دينه المبني على الإخلاص لله،
والتابعة لشرعه، ولقد أمر الله نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - أن
يتبع ملة إبراهيم حنيفاً؛ قال الله - تعالى -: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ
مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن اتّباع ملة إبراهيم هو العقل،
والرشد، والصلاح.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن من رغبَ عن ملة إبراهيم فهو
السفيه، الذي أوقع نفسه في السفه، وإذا كان الناس يعدون من تصرف
في ماله خبط عشواء سفيهاً؛ فإن من رغب عن ملة إبراهيم أسفه منه
وأشد سفيهاً.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: الثناء على إبراهيم - عليه الصلاة
والسلام -؛ لكون الله - تعالى - اصطفاه في الدنيا، ووعده وأكد أنه في
الآخرة من الصالحين.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن طريق إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وملته صفوة أعمال الخلق؛ لأنها شريعة الله، ولأنها صادرة عن اصطفاه الله؛ فتكون هي الصفوة من أعمال الخلق التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات الآخرة؛ وهي اليوم الآخر الذي يقوم فيه الناس من قبورهم لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لينالوا جزاء أعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أن الصلاح وصفٌ حميدٌ حتى للرسول؛ فهم - أي الرسل - قمة الصالحين، والصلاح قد يكون قسيماً للنبوة والرسالة إذا ذكر أو قرن معها في الذكر؛ قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، لكن إذا ذكر الصلاح وحده فهو عام للجميع.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: جواز وصف النبي ﷺ بالصالح؛ لقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وفي حديث المعراج: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا مرَّ بالنبِيِّ في السموات يقول: «مَرْحَبًا بالنبِيِّ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الصَّالِحِ»، وإبراهيم قال: «مَرْحَبًا بالنبِيِّ

الصالح والابن الصالح^(١).

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١].

﴿ إِذْ ﴾ هذه متعلقة بشيء محذوف، والتقدير: اذكر - منوهاً ومثنيًا على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حين ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ ﴾؛ أي: أسلم لله - عَزَّ وَجَلَّ - إسلامًا شرعيًّا؛ كما أنه مسلم له إسلامًا كونيًّا قدرنيًّا، ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فكان الجواب جواب مبادرة وفورية، لم يتأخر، ولم يتوان، ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾، ولم يقل: «أسلمت لربي»؛ لأن قوله: ﴿ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ اعم واشمل، وهو كالتعليل للحكم؛ أي: الإسلام؛ يعني: أسلمت لله؛ لأنه رب العالمين الذي يتصرف في عباده كما يشاء.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- فضيلة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ حيث أضاف الله ربوبيته إليه في قوله: ﴿ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ ﴾.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: التنويه بذكر إبراهيم وبيان فضله، وهذه من عادة الله - عَزَّ وَجَلَّ - أنه - سبحانه وتعالى - لا يضيع أجر من

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٤٩)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله وإلى السموات وفرض الصلوات، رقم (١٦٣).

أحسن عملاً؛ فإن الله يرفع ذكر من أحسن عملاً بعد مماته، ويقىض من يبعث حياته وإن كان ميتاً؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

* * *

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].
 ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة؛ وهي الإسلام لله - عزَّ وجلَّ -؛ فإن إبراهيم وصى بها بنيه، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي: وصى بها بنيه أيضاً؛ ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم؛ فيكون إبراهيم جدَّ له. ﴿يَبْنَئَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾؛ اختاره لكم ديناً تدينون به لله - عزَّ وجلَّ -، تقومون بحقه وحق عباده؛ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: استمروا على إسلامكم إلى الموت.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- أهمية الإسلام لله - عزَّ وجلَّ -؛ حيث إن الأنبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام - وصوا به أبناءهم.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن البنين الذكور هم أهل القيام بهذه المهمة العظيمة؛ الإسلام لله، والدعوة إليه، ونشره بين الأمة.
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: تفضيل الذكور على الإناث.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: بيان أن يعقوب - وهو ابن إبراهيم - وصّى بها بنيه أيضاً، ومن أبنائه: يوسف الذي أنزل الله - تعالى - في قصته سورة كاملة.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن الله - تعالى - اصطفى هذا الدين لعباده المؤمنين، واختاره لهم.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب شكر الله - تعالى - على نعمته بالدين الإسلامي؛ حيث اختاره الله - عزَّ وجلَّ - لعباده، ثم شكر الله - سبحانه وتعالى - أن وفق العبد للقيام بهذا الدين الذي اصطفاه الله - تعالى - له.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب استمرار الإسلام لله - عزَّ وجلَّ - إلى الموت؛ وهذا يتفرع عنه فائدة أخرى؛ وهي حرص الإنسان على الثبات على دينه إلى أن يلقى الله - عزَّ وجلَّ - وهو مسلم له.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ هنا في معنى «بل»، وهمزة الاستفهام، والتقدير: «بل أكنتم شهداء» ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾، والمقصود بهذا تقرير هذه الوصية التي وصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾؛ يعني: أي معبود تعبدونه من بعدي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وهو الله رب العالمين، وذكرُ إسماعيل هنا من باب التغليب والتبعية؛ لأن إسماعيل ليس من آباء يعقوب، ولكنه عمه، وقد قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «أما شعرت أن عمَّ الرجل صنو أبيه»^(١).

وقوله: ﴿إِلَهًا وَحِدًا﴾ هذا تأكيد التوحيد؛ يعني: لا نعبد معه غيره، بل نعبد هو ﴿إِلَهًا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ﴾؛ أي: لهذا المعبود - وهو رب العالمين - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: مستسلمون له ظاهرًا وباطنًا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان حرص يعقوب - عليه الصلاة والسلام - على أن يكون بنوه على توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، والاستسلام له ظاهرًا وباطنًا؛ ووجه ذلك أنه سأل بنيه عن هذا الأمر العظيم وهو في سياق الموت.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: اعتبار قول المحتضر، وأن قوله المعتبر معمولٌ به، وهذا يختلف باختلاف أحوال الناس؛ فمن الناس من إذا احتضر، ونزل الملك لقبض روحه؛ غاب عن شعوره، ولم يدر ما يقول، وهذا لا عبرة بقوله، ومن الناس من يبقى معه فكره وإحساسه وإن

(١) رواه مسلم: كتاب الزكاة، باب تقديم الزكاة ومنعها، رقم (٩٨٣).

كان في سياق الموت، وهذا هو الذي يعتبر قوله.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: حرص الأب على أبنائه، وأنه ينبغي أن يورث بعده ذرية طيبة تعبد الله - سبحانه وتعالى - ولا تعبد غيره.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الآباء والأجداد يكونون أسوة لأبنائهم وأبناء أبنائهم، فإما أسوة حسنة وإما أسوة سيئة، فهؤلاء البنون - أعني: بني يعقوب - قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾، والكفار الذين عاندوا المرسلين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢].

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي للرجل إذا كان مبتلى بمعصية من المعاصي أن يحرص على ألا يشاهده أهله عليها؛ وأضرب لذلك مثلاً بشرب الدخان؛ فإن بعض الناس يكون مبتلى بهذه المعصية، ثم يشربها أمام أبنائه فيألفون هذا، وربما يشربونها كما يشربها أبوهم، فيكون - بذلك - دالاً على سيئة، عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إطلاق اسم الأب على الجد؛ لقوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وهو دليل على القول الراجح من أقوال أهل العلم في أن الجد في الميراث بمنزلة الأب؛ فيحجب الإخوة، سواء كانوا أشقاء، أو لأب، أو لأم.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إطلاق لفظ الأب على العم تغليباً؛

لقوله: ﴿ءَابَايَكَ إِتْرَاهِعْمَرَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: أن التوحيد لا يتم إلا باعتقاد وحدانية الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ بحيث لا يعتقد الإنسان له شريكاً؛ لقوله: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة بني يعقوب؛ حيث قالوا: إنهم يعبدون الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ويسلمون له في قوله - تعالى -: ﴿وَوَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، نسأل الله - تعالى - أن يحقق لنا جميعاً الإسلام له؛ حتى نلقاه على أحسن حال يرضى بها عنا.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

﴿تِلْكَ﴾ المشار إليه مَنْ سبق من الأمم، حيث إن بعض الناس يظن أن انتسابه إلى أحد من الأنبياء أو غيرهم من الأولياء ينفعه عند الله؛ فيقول: أنا أبي فلان، فقال الله - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: عما كان يعمل هؤلاء، بل كل يسأل عما عمل.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- قطع تعلق الإنسان بالنسب، وأن نسبه لا ينفعه عند الله؛ وإنما الذي ينفعه هو العمل الصالح الذي يكون قرينه في قبره وفي حشره،

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد؛ يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله»^(١).

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن كسب الآباء لا ينتفع به الأبناء، وأن كسب الأبناء لا ينتفع به الآباء إلا إذا كان ذلك سبباً؛ فإنه يؤجر المتسبب للخير على ما تسبب به؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وهو في الحقيقة من كسبه؛ فمن اقتدى بك في العمل الصالح وانتفع بما عملت؛ فإن أجره ينالك منه؛ لأن الدال على الخير كفاعله.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأبناء والأحفاد لا يسألون عما يعمله الآباء؛ فخطيئة الآباء عليهم، وخطيئة الأبناء عليهم؛ لقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

* * *

ثم قال: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

قالت اليهود للنبي ﷺ وأصحابه: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، وكذبوا في ذلك؛ فإن الهداية باتباع

(١) رواه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)؛ ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، رقم (٢٩٦٠).

شريعة الله - عَزَّ وَجَلَّ -، وبعد بعثة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لا اهتداء ولا هداية إلا بالدين الذي جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -؛ وهو ملة إبراهيم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ أي: بل تتبع ملة إبراهيم؛ أي: دينه الذي هو عليه، ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: بدون ميل إلى الشرك والكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ بل كان من المخلصين لله - عَزَّ وَجَلَّ -.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- أن أهل الباطل لا يألون جهداً في الدعوة إلى باطلهم وتضليلهم الناس؛ لقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن أهل الباطل قد يدعون ما يعلمون أنه باطل؛ لقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾؛ فإن اليهود والنصارى آتاهم الله الكتاب، وهم يعرفون النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما يعرفون أبناءهم؛ كما قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لكنهم - والعياذ بالله - كتموا الحق، وقالوا: الحق معنا، ومن تبعنا فهو الذي قد اهتدى.
- ٣- ومن فوائدها وأحكامها: عناية الله - سبحانه وتعالى - بهذه الأمة؛ حيث ردَّ على هؤلاء المضللين؛ اليهود والنصارى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.
- ٤- ومن فوائدها وأحكامها: أنه يجب على من بين الباطل أن يبين

الحق؛ ليسير الناس عليه؛ لأن الناس لا بد لهم من دين يدينون به، ومن عمل يسلكونه وينهجونه، فإما خير وإما شر؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ بَلَّ﴾؛ أي: بل لا نكون هودًا ولا نصارى، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفًا.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: بيان منقبة عظيمة من مناقب إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -؛ حيث كان على غاية من الإخلاص لله حنيفًا، ولم يكن من المشركين.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - معصومون من الشرك، كيف لا وهم قد جاءوا لإبطال الشرك، والقضاء على أهله: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

* * *

ثم قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

الخطاب في قوله: ﴿قُولُوا﴾ لهذه الأمة، لكل من كان من بني آدم

بعد نزول هذه الآية؛ فالخطاب - إذن - مُوجَّهٌ لكل أمة الدعوة.
﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ أي: أقررنا بوجوده، وأذعنا لأمره، وقبلنا خبره،
والإيمان بالله - سبحانه وتعالى - يتضمن عدة أمور؛ يتضمن: الإيمان
بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه
وصفاته، فمن انتقص شيئاً من هذه الأمور الأربعة؛ فإن إيمانه ناقص،
وقد يكون إيمانه معدوماً.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ وهو القرآن، ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾؛ وهؤلاء كلهم أنزل إليهم، يهتدون به،
ويهدون به، وما من رسول إلا أنزل الله عليه كتاباً؛ قال الله - تعالى -:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ
النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقوله: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ قيل: إن المراد بهم أبناء يعقوب، وقيل:
المراد بالأسباط القبائل التي تفرق إليها بنو إسرائيل؛ قال الله - تعالى -:
﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]؛ أي: ما أنزل على
الأسباط بواسطة أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام -؛ فإن الله - تعالى -
بعث في بني إسرائيل أنبياء كثيرين، وهذا القول أصح من الذي قبله.
وقوله - تعالى -: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ﴾؛ أي: ما أوتي موسى من الآيات، وما أنزل عليه من الوحي،
وهو التوراة، وكذلك ما أوتي عيسى من الآيات وما أنزل عليه من

الوحي، وهو الإنجيل .

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ؛ على سبيل العموم من الآيات التي يؤمن على مثلها البشر؛ فإن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر...»^(١)؛ وذلك أنه لا بد أن يكون للأنبياء آيات تبين للناس صدق ما بعثوا به؛ لأن الناس لن يصدقوا إذا جاءهم شخص وقال: أنا رسول الله إليكم إلا بآيات تدل على صدقه؛ ولهذا جعل الله - عزَّ وجلَّ - لكل نبي آية، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ ؛ أي: لا نفرق بين أحد من هؤلاء الرسل - عليهم الصلاة والسلام - والمراد أننا لا نفرق بينهم في أصل الإيمان؛ فإننا نؤمن بأنهم كلهم صادقون فيما جاءوا به من الوحي، وأنهم رسل الله - عزَّ وجلَّ - إلى خلقه، ولكننا نفرق بينهم من حيث الأحكام والشرعة - أي: الشرائع؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ فالشرائع لا تلزمنا - أي: شرائع من قبلنا -، وإنما تلزمنا شريعتنا التي جاء بها نبينا محمد - صلى الله عليه وآله وسلم -، أما شرائع من قبلنا فإن وافقت شريعتنا آمننا بها؛ بناء على أن شريعتنا جاءت بها، وإلا فإنها تكون منسوخة بشريعتنا، وقوله - تعالى -: ﴿وَوَحَّيْنَاهُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ؛ أي: ونحن لله مسلمون؛ أي:

(١) رواه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)؛ ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد وإلى جميع الناس، رقم (١٥٢).

منقادون لأمره، متبعون لشرعه، وهذه الآية فيها أصول عظيمة؛ ولهذا كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يقرأ بها في سنة الفجر أحياناً؛ يقرأ بها في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية يقرأ: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ أَلْكُتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وأحياناً يقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ أَلْكُتَبِ﴾ [الكافرون: ١]، وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

- ١- وجوب الإيمان بها ذكر؛ لقوله - تعالى -: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.
- ٢- ومن فوائدها وأحكامها: الإيمان على وجه التفصيل بما أنزل إلينا وهو القرآن؛ فنؤمن بأن القرآن كلام الله - عَزَّ وَجَلَّ -، أنزله على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - بواسطة جبريل الأمين؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٠٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن الكريم من الأخبار، وأنها أخبار حق، ونؤمن كذلك بما تضمنه هذا القرآن من الأحكام؛ وهي الأوامر والنواهي، وأنها أحكام مبنية على العدل، والرحمة، وتحقيق المصالح؛ ولهذا لا رحمة للخلق أعظم من رحمتهم بهذا الدين الإسلامي.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الإيمان بما أنزل الله - تعالى - على الرسل المذكورين؛ كالصحف التي أنزلت على إبراهيم؛ كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وكذلك ما أنزل إلى إسماعيل وإسحاق... إلخ.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن هؤلاء الرسل المذكورين كلهم قد أنزل إليهم، إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط؛ يعني: أنبياء الأسباط على القول الرجح.

٥- ومن قوائدها وأحكامها: وجوب الإيمان بما أوتي موسى وعيسى من الآيات البيئات الشرعية والكونية.

فمن آياتها الشرعية: التوراة التي جاء بها موسى، والإنجيل الذي جاء به عيسى، ومن آياتها الشرعية أيضًا: أن مع موسى - عليه الصلاة والسلام - عصا، إذا وضعها في الأرض انقلبت حيّة، وإذا حملها عادت عصا، وأنه يدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ أي: من غير برص، لكنه بياض نور.

أما آيات عيسى - عليه الصلاة والسلام -: فإنه لا يمسخ ذا عاهة إلا برأ؛ فهو يبرئ الأكمه والأبرص، وأبلغ من هذا أنه يحيي الموتى - بإذن الله -؛ يأمر الميت فيحيا، وأبلغ من هذا أنه يخرج الموتى من قبورهم؛ يقول للميت في قبره: اخرج؛ فيخرج، ولكنه - بإذن الله -؛ لأن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لا يملك أن يحيي أحدًا من الخلق،

ولا أن يميت أحداً من الخلق؛ فالذي يحيي ويميت هو الله - عَزَّ وَجَلَّ - ولكنَّ الله - تعالى يجعل قول عيسى سبباً، فإذا قال عيسى للميت: قُمْ حَيًّا وما أشبه ذلك؛ قام حياً، وإذا وقف على القبر وقال: اخرج حياً؛ خرج حياً، وكان أيضاً يخلق من الطين كهيئة الطير؛ صورة الطير - فينفخ فيها فتكون طيراً يطير بإذن الله، ينفلت من يده طائراً، وهذا النفخ الذي نفخه عيسى - عليه الصلاة والسلام - هو نفخ للروح في هذا التمثال الذي كهيئة الطير - فتبارك الله رب العالمين.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب الإيمان بما أوتي الأنبياء عموماً من الآيات، وأنها حق، وأنها ليست سحراً، بل هي تكون بقدره الله - تعالى - وإذنه.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: أنه يجب علينا الإيمان بما أنزل على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، نؤمن بذلك إيماناً لا نفرق فيه بين واحدٍ وآخر، وهذا من حيث الخبر؛ فيجب علينا أن نصدق أخبارهم، ونؤمن بها، أما من جهة الأحكام؛ فلكلُّ جعلَ اللهُ شرعةً ومنهاجاً، وكل أمة تعمل بما جاء في شريعته من الأحكام.

٨- ومن فوائدها وأحكامها: فضيلة هذه الأمة؛ حيث كانت الآخرة؛ لتصدق جميع الأنبياء السابقين؛ فيكون لها فضيلة الإيمان بكل الأنبياء السابقين.

٩- ومن فوائدها وأحكامها: إعلان الإخلاص لله في قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

قوله: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا﴾؛ يعني: المكذبين للرسول، بل المكذبين لرسول الله ﷺ من اليهود، والنصارى، والمشركين، ﴿بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾؛ أي: بالقرآن الكريم، والباء قيل: إنها زائدة، والمعنى: فإن آمنوا مثل ما آمنتُم به؛ أي: على صفة ما آمنتُم به، ونحن قد آمنا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وآمنَّا بالقدر خيره وشره، والتزمنا بأحكام شريعة محمد و، فإذا آمنوا مثل هذا الإيِّان الذي آمنت به هذه الأمة؛ ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾، وهذا مقابل قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥]؛ فيكون الاهتداء حقيقة من كان مسلماً مؤمناً بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم -.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ يعني: أعرضوا عن الإيِّان بمثل ما آمنتُم به. ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ أي: في تباعد عن الدين ومنازعة فيه، وهذا لا يضركم، ولكنه يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي: فسيكون الله كافياً لك بالنسبة لهم، وسينصرك

عليهم، وقد حصل هذا - والله الحمد -؛ فإن اليهود والنصارى أذْهَمَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لما كان المسلمون أعزَّةً بدين الله، قائمين بأمر الله؛ صار اليهود والنصارى أذلاءً بين أيديهم، يؤدون الجزية أو يسلمون، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ سبق الكلام عليه عند قول الله - تبارك وتعالى - عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]؛ فلا حاجة إلى إعادة الكلام عليه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان أنه لا هداية بغير الإيمان بما آمنت به هذه الأمة؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾، وإذا فات الشرط فات المشروط.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن اليهود والنصارى ضالون، تائهون، بعيدون عن الحق؛ لقوله: ﴿فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾؛ فمفهومه إذا لم يؤمنوا كذلك فلا هداية لهم.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: ضلال من ظن أن دين اليهود والنصارى - اليوم - دين قائمٌ مشتمل على الهداية، مقبول عند الله، ومن زعم ذلك فإنه كافر خارج عن الملة - والعياذ بالله -، مُكذَّبٌ لقول الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولقول النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم

يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار»^(١)، ومعلوم أن من شهد أو اعتقد أن دين اليهود والنصارى دين حق - اليوم - سيجعلهم - أي: اليهود والنصارى - من أصحاب الجنة؛ فإنه يكون بهذا مكذباً لقول الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «إلا كان من أصحاب النار».

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أن الأمم السابقة قبلنا تبع لنا، يلزمهم أن يؤمنوا بشريعتنا، ويتبعوا شريعتنا، وهذا من نعمة الله - تعالى علينا؛ فنحن الآخرون زمنًا، السابقون فضلًا، السابقون يوم القيامة حشرًا، ونشرًا، وإعطاء للكتب، وعبورًا على الصراط، ودخولًا للجنة - والله الحمد.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: تهديد المتولين عن شريعة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -، وأنهم في شقاق؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّمَّا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾؛ أي: في شق بعيد عن الدين الحق المقبول عند الله.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: البشري السارة في قوله: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾، وأن الله - سبحانه وتعالى - سيكفي نبيه كل عدو للمسلمين من اليهود، والنصارى، وغيرهم؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: تنشيط المسلم على التمسك بدينه،

(١) سبق تحريجه ص (١٤١).

وأنه على حق، وأنه منصور، ولا بد أن الله - تعالى - كافيه أعداءه؛ لقوله - تعالى -: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وقوله - تعالى - في آية أخرى -: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [الحج: ٣٨].

٨ - ومن فوائدها وأحكامها: بيان عظمة الله - عزَّ وَجَلَّ -، وعزته، وقدرته؛ حيث قال: ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾، وهو شامل لكل عدو لرسول الله ﷺ.

٩ - ومن فوائدها وأحكامها: إثبات هذين الاسمين الكريمين من أسماء الله؛ وهما «السميع والعليم»، وإثبات ما دل عليه هذان الاسمان الكريمان من الصفة؛ فهو - سبحانه وتعالى - موصوف بالسمع، وموصوف بالعلم، فسمعه واسع للأصوات كلها، وعلمه محيط بكل شيء؛ ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٨].

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: الزموا صبغته
الله؛ أي: دين الله - عزَّ وَجَلَّ - ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾؛ أي: لا أحد أحسن من الله صبغته ﴿ وَنَحْنُ لَهُ ﴾؛ أي: الله - عزَّ وَجَلَّ - وحده ﴿ عِبِيدُونَ ﴾؛ أي: متذللون بالطاعة بامثال أمره، واجتناب نبيه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- فضيلة ما نحن عليه من دين الله؛ حيث أضافه الله إلى نفسه، فقال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أن أحسن شريعة يستمسك بها الخلق شريعة الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب إقرار العبد بأنه عبد لله، ومقتضى هذه العبودية أن يكون ممتثلًا لأمر الله - سبحانه وتعالى -، مجتنبًا لنهيه؛ لأن العبودية مأخوذة من التعبد؛ وهو التذلل محبة وتعظيمًا.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب إخلاص العبادة لله؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿قُلْ أَتَحَايُونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

﴿قُلْ﴾؛ أي: يا محمد، ويصح أن يكون خطابًا لكل من يتوجه إليه الخطاب. والاستفهام في قوله: ﴿أَتَحَايُونَنَا فِي اللَّهِ﴾ للإنكار، والمحااجة هي المخاصمة؛ لإقناع الخصم؛ لأن كل واحد من الخصمين يدلي بحجته؛ ليلزم بها الآخر.

وقوله: ﴿فِي اللَّهِ﴾؛ أي: في دينه وشرعه، فتقولون: نحن الذين على

الحق مع أن الحق مع من اتبع ما جاء به رسول الله ﷺ .

﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾: باتفاقنا واتفاقكم أنه رب الجميع، وإذا كان هذا إقراركم؛ فإن الواجب عليكم أن تأخذوا بشرعه الآخر فالآخر؛ لأنه رب؛ فهو أعلم بمصالح عباده، فهو الذي يملك ما شاء من أمورهم، فيأمرهم وينهاهم على حسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾؛ يعني: أن الرب واحد، وأن لكل ذي عمل عملاً خاصاً به؛ فعمله خاص به وحده؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

فكيف تحاجونا في الله - عَزَّ وَجَلَّ -، ونحن نتفق جميعاً على أنه ربنا، ولكن أنتم تخالفون هذا الرب، فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، ثم ختم الآية بذكر الإخلاص لله - عَزَّ وَجَلَّ -، وإخلاص الشيء تنقيته مما يشوبه؛ فالمعنى: نحن له مخلصون في العبادة، لا نعبد غيره، ولا نتخذ رباً سواه.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- الإنكار على من يجاج في الله بغير علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه؛ لقوله - تعالى -: ﴿قُلْ أَتَحٰجُونَنَا فِي آلِهَةٍ﴾.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي عند الحاجة ذكر ما يتفق عليه الطرفان؛ ليكون ملزمًا للآخر فيما يقتضيه هذا الاتفاق؛ لقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وقد سبق في تفسيرها ما يتبين به وجه ذلك.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: التبرؤ من أعمال المشركين، والاعتزاز بأعمال أهل الحق؛ لقوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ﴾.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: أنه ينبغي للمؤمن أن يكون له قوة شخصية، يعتز بها في دينه، وفي شرعه، وفي منهاجه؛ لقوله: ﴿وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ﴾.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: الحذر من التشبه بغير المسلمين؛ لأنه إذا كانت أعمالهم لهم - وهذه قضية مسلمة - فلا يجب أن نتشبه بهم فيما يختص بهم من أعمالهم؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(١).

٦- ومن فوائدها وأحكامها: فضل هذه الأمة بإخلاصها لله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾؛ أي: له لا لغيره.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ

(١) سبق تخرجه ص (٣٢).

أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ [البقرة: ١٤٠].

﴿أمر﴾ هنا بمعنى «بل، وهمزة الاستفهام»؛ أي: بل أتقولون، والاستفهام هنا للإِنكار؛ يعني: أن الله - تعالى - ينكر عليهم هذا القول: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾، وهل هذا يعقل أن يكون إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط المتقدمون هودًا أو نصارى، واليهودية والنصرانية لم تحدثا إلا من بعدهم؟! هذا ليس بالمعقول؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْآ أَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٦٥].

يقول - عزَّ وجلَّ - عن هؤلاء اليهود والنصارى منكرًا عليهم: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، ومن المعلوم أن الجواب: بل الله - عزَّ وجلَّ - هو الأعلم، وإذا كان الله - تعالى - أعلم، وقد بيَّن أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وبنيه، ويعقوب وبنيه كلهم كانوا على الحق، كلهم كانوا على الإِخلاص، فكيف تأتون أنتم وتقولون: إن إبراهيم كان يهوديًا أو إن إبراهيم كان نصرانيًا؟!.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾؛ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾

«من» استفهام، والاستفهام هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله؛ لأن الواجب على المستشهد أن يشهد ولا

يكنتم، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ﴾، وتقدير الجواب لهذا الاستفهام أن نقول: لا أحد أظلم من هذا، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾! هذه نافية، ﴿وَمَا﴾ هذه نافية، ﴿بِغَفِيلٍ﴾ خبر المبتدأ، ودخلت عليه الباء لزيادة التأكيد؛ فلم يكن الله - تعالى - غافلاً عما يعمل هؤلاء؛ لكمال علمه ومراقبته - جل وعلا.

فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة:

١- بيان بطلان هذه الدعوة الباطلة الكاذبة من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط كانوا هودًا أو نصارى.

٢- ومن فوائدها وأحكامها: الإنكار عليهم، والمناداة عليهم بالجهل؛ لقوله: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

٣- ومن فوائدها وأحكامها: اتخاذ هذه القاعدة العظيمة لرد دعوى أهل التعطيل الذين أنكروا ما وصف الله به نفسه، وقالوا: لا يمكن أن يتصف الله بهذا؛ لأن هذا حادث، أو لأن هذا يقتضي التجسيم، أو ما أشبه ذلك، فنقول لهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ فإن قالوا: نحن أعلم؛ فقد نادوا على أنفسهم بالضلال، وإن قالوا: بل الله أعلم؛ قلنا: إذن أثبتوا ما أثبت الله لنفسه من الأسماء والصفات على حقيقته، وانفوا ما نفى الله عن نفسه من الأسماء والصفات.

٤- ومن فوائدها وأحكامها: وجوب نشر الإنسان ما علمه الله -

عَزَّ وَجَلَّ - من العلم، لاسيما في أعظم الأمور؛ وهو توحيد الله - عَزَّ وَجَلَّ ؛ لقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.

٥- ومن فوائدها وأحكامها: أن من كتم ما علمه الله - عَزَّ وَجَلَّ ؛ فإنه من أظلم الناس، وأظلم كتم للشهادة أن يكتم الإنسان ما أشهده ربه عليه.

٦- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات كمال علم الله - عَزَّ وَجَلَّ - ومراقبته؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

٧- ومن فوائدها وأحكامها: إثبات صفات النفي في حق الله، ولكن يجب أن نعلم أن النفي المحض في صفات الله لا يوجد؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم ليس بشيء، ولكن لا توجد صفة منفية عن الله إلا تضمنها كمالاً؛ ولهذا نقول: كل صفة نفاها الله عن نفسه فإنها متضمنة لشيئين: أولهما: نفي تلك الصفة المذكورة، وثانيهما: إثبات كمال ضدها؛ فمثلاً قال الله - تعالى -: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]؛ فنفي الظلم عن نفسه لماذا؟ لكمال عدله - عَزَّ وَجَلَّ - لا لعجزه عن الظلم، ولكن لكمال عدله لم يظلم أحداً، وعلى هذا فقس.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤١].

وقد سبق نظيرها في الآية الرابعة والثلاثين بعد المئة، وتكلمنا على

ما فيها من أحكام، حَسَبَ ما فَتَحَ اللهُ به علينا، ونكتفي بما سبق.

* * *

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

السين في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ للتنفيس، وتفيد أمرين:

الأمر الأول: تحقيق مدخولها.

الأمر الثاني: قرب وقوع مدخولها.

﴿السُّفَهَاءُ﴾: جمع سفیه، وهو مَنْ جَانَبَ الرُّشْدَ في تَصَرُّفَاتِهِ القولية والفعلية، وفي عقيدته أيضًا؛ لقوله تَعَالَى -: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠].

﴿مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾، يعني: أي شيء ولاهم، أي: صَرَفْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، والقبلة التي كانوا عليها هي بيت المقدس؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ، صَارَ يَتَّجِهُ فِي صَلَاتِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ نَحْوَ سِتَّةِ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ - تَعَالَى - أَنْ يُوَلِّيَ وَجْهَهُ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، أي: الكعبة - كما سيأتي في الآيات إن شاء الله - فَرَدَّ اللهُ - سبحانه وتعالى - هذا الاعتراض مِنْ هَوْلَاءِ السُّفَهَاءِ بقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، أي: هو مالِكُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وله أَنْ يَتَّصِفَ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وَمَنْ هَدَاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هَذِهِ الْأُمَّةُ، حَيْثُ هَدَاهُمْ إِلَى الْقِبْلَةِ الْأَصْلِيَّةِ، وَهِيَ الْكَعْبَةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: إِنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ قِبْلَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ حَرْفَ الْقِبْلَةِ إِلَى بَيْنِ الْمَقْدَسِ كَانَ مِنْ تَصَرُّفِ أَتْبَاعِ أَوْلِيَاءِ الْأَنْبِيَاءِ.

وعلى هذا فالصُّراطُ المُستقيم الذي لا اعوجاج فيه هنا، هو الاتجاه إلى الكعبة المشرفة في الصلاة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- عِلْمُ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِمَا سَيَكُونُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾، وَمَنْ الْمَعْلُومُ أَنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَأَنَّ عِلْمَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بِالْأَشْيَاءِ مُحِيطٌ بِهَا جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَعِلْمُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَزَلِّيٌّ لَمْ يُسْبَقْ بِجَهْلٍ، أَبَدِيٌّ لَا يَلْحَقُهُ نَسْيَانٌ.

٢- أَنَّهُ لَا يَعْتَرِضُ عَلَى شَرَعِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ كَانَ سَفِيهًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ السَّفِيهَ لَا يَعْرِفُ الْحِكْمَةَ، أَوْ يَعْرِفُهَا وَيَسْلُكُ خِلَافَهَا، وَمَنْ لَا يَعْرِفُ الشَّيْءَ لَا يَرْتَضِيهِ؛ لِذَلِكَ سَوْفَ يَعْتَرِضُونَ عَلَى مَا سَيَفْعَلُهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -، بَلْ عَلَى مَا سَيَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْإِتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

٣- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَّجِهُ - قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالِاتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ، قِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَافِقَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِيهَا لَمْ يُؤْمَرْ بِخِلَافِهِ؛ وَهَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا قَدَّمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ، كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَافِقَ

أهل الكتاب فيما لم يؤمر بخلافه، ثم صار يأمر بمُخَالَفَةِ أهل الكتاب.

٤- عمومُ مُلْكِ الله - سبحانه وتعالى - لكل شيء: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ﴾، أي: هو المالك لكل شيء، وهو المتصرّفُ فيما يشاء بما يشاء - عَزَّ وَجَلَّ -؛ على ما تقضيه حكمته البالغة.

٥- أن الهداية بيد الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فهو الذي يهدي مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم، فلا تُطلب الهداية إلا من الله - عَزَّ وَجَلَّ -؛ وهذا ينفي الإعجاب بالنفس والافتخار بالعمل.

ولكن لو قال قائل: هل هداية الله سبحانه مَنْ يشاء بمُجَرَّدِ المشيئة، أم أنها مقرونةٌ بِالْحِكْمَةِ؟

فالجواب على ذلك أن نقول: بل هي مقرونةٌ بالحكمة، وما من شيءٍ يحكم الله به، إلا وهو مقرونٌ بالحكمة، سواءً كان ذلك الحُكْمُ الذي حَكَمَ الله به شرعيًّا أم كونيًّا؛ ودليل ذلك قوله - تبارك وتعالى -: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿٢١﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]؛ فبين - سبحانه وتعالى - أن مشيئته تابعةٌ لِعِلْمِهِ وحكمته.

وهداية الله سبحانه وتعالى نوعان:

هداية دلالة: وهذه عامةٌ لكل أحد؛ للكفار والمؤمنين، والفُجَّار

والأبرار.

وهداية توفيق: وهذه خاصة بمن وفقه الله - سبحانه وتعالى -
 لا تَبَاعُ الْحَقُّ؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى -: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا
 كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ
 مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فهذه هي دلالة التوفيق وقال - تعالى -:
 ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذه هي الهداية
 العامة أو هداية الدلالة والإرشاد.

مثال الأولى العامة لكل أحد: قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ
 إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، يعني: الإنسان، وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ
 فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: دَلَلْنَاهُمْ عَلَى
 الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى.

٦- أن طريق الله - تعالى - مستقيم، ليس فيه اعوجاج ولا انحراف،
 وَكَوْنُ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - يَصِفُ طَرِيقَهُ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، يدلُّ على
 أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ وَاسِعٌ، لَيْسَ مَحْجُورًا عَلَى أَحَدٍ. بَلْ كُلُّ مَنْ شَاءَ مِنْ
 النَّاسِ دَخَلَهُ، وَيَدُلُّ - أَيْضًا - عَلَى أَنَّ هَذَا الطَّرِيقَ لَيْسَ فِيهِ اعْوْجَاجٌ وَلَا
 انْحِرَافٌ، بَلْ هُوَ مُوَصَّلٌ إِلَى دَارِ كِرَامَةِ اللَّهِ - سبحانه وتعالى - بدون
 انحراف، ولا تردد.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ
 عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ١٤٣﴾.

﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثلما ذَكَرَ مِنْ هدايةِ الله - سبحانه وتعالى - مَنْ يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: صَيَّرْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، أي: عدلاً خياراً.

والأُمَّةُ: هي الطائفة من الناس، وتَرِدُ في القرآن على معانٍ مُتعددة: منها: الطائفة من الناس؛ كما في هذه الآية.

ومنها: الإمام؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].

ومنها: الدين؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: على دينٍ ومِلَّةٍ.

ومنها: الزَّمن؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

فهذه أربعة معانٍ.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتَصِيرُوا شهداء على الناس، على الأنبياء والرُّسل وعلى الأمم؛ فنحنُ آخرُ الأمم، نشهد على مَنْ سبقنا، فنشهدُ لِمَنْ سبقنا مِنَ الرُّسل - عليهم الصلاة والسلام - أَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، ونشهدُ على مَنْ سبقنا مِنْ أُمَّهَمُ أَنَّ الرِّسَالَ

بَلَّغْتَهُمْ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مُكْذِبِينَ، وَمِنْهُمْ مُصَدِّقِينَ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا جَاءَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

﴿الرَّسُولُ﴾: هو محمد ﷺ؛ لَأَنَّ (أَل) هُنَا لِلْعَهْدِ الذَّهْنِيِّ، وَلَا مَعْهُودٍ فِي الذَّهْنِ حِينَ نَزُولِ هَذَا الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسْلِ إِلَّا مُحَمَّدٌ ﷺ.

﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يشهد عليكم بأنه بلَّغَ رسالةَ رَبِّهِ؛ ولهذا لَمَّا خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ عَرَفَةَ، قَالَ: وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، قَالَ: (اللَّهُمَّ اشْهَدْ) ثلاث مرات (١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾، أَي: مَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا، وَهِيَ اسْتِقْبَالُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالِاتِّجَاهِ إِلَى الْكَعْبَةِ.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا صُرِفَتِ الْقِبْلَةُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ، صَارَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ شَكٌّ وَارْتِيَابٌ، وَرَبَّمَا ارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِسَبَبِ هَذَا التَّوْجِيهِ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ يَقُولُ هَذَا الشَّاكُّ الْمُرْتَدُّ: كَيْفَ تَكُونُ قِبْلَتُهُ بِالْأَمْسِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَقِبْلَتُهُ الْيَوْمَ الْكَعْبَةُ؟

وقوله - تَعَالَى -: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ هو عالمٌ جلٌ وعلا من قبل أن يحصل

(١) رواه مسلم كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

هذا الاتباع والمخالفة، لكن المراد بالعلم هنا - وفيما يشبهه من الآيات الكريمة -: العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب؛ وذلك أن علم الله - تعالى - السابق بما يكون من عباده، لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب إلا بعد التكليف؛ إذا كلفهم الله - عزَّ وجلَّ -، ترتب على هذا التكليف الثواب والعقاب؛ الثواب لمن وافق، والعقاب لمن خالف. ولا يظنَّ الظانُّ أن علم الله - سبحانه وتعالى -، ولا يكون إلا بعد وقوع المعلوم؛ فإن هذا ليس بصحيح؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - عالمٌ بكل شيء قبل أن يكون.

﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبْ﴾ والرَّسُولُ هنا هو محمدٌ ﷺ؛ إذ لا رسول عهده سواه، ويحتمل أن تكون للعهد الذكري؛ لأنه سبق ذكر الرسول ﷺ، وإذا أتت «أل» داخلَةً على ما سبق ذكره، فإنهم يقولون: إنها للعهد الذكري؛ كما في قوله - تعالى -: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٦، ١٥]. فالرَّسُولُ هنا هو موسى - عَلَيْهِ السَّلَامُ -؛ لِسَبْقِ ذِكْرِهِ.

﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾؛ أي: مِمَّنْ يَنْكِصُ إِلَى الْوَرَاءِ، وذلك بارتداده عن دين الإسلام، وعدم رضاه بما وقع.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾، يعني: وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْحَالُ، أَوْ هَذِهِ الْقَضِيَّةُ.

﴿لَكَبِيرَةٌ﴾: شاقَّة.

﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾؛ فَإِنَّ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَوَقَّفَهُمُ لِلْحَقِّ

يَسْهُلَ عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَوَافِقَةٍ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَلَا تَكُونَ الْأُؤَامِرَ كَبِيرَةً وَسِقَاةً إِلَّا عَلَى مَنْ ضَعُفَ إِيمَانُهُ.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ هذا التعبير يدلُّ على امتناع الشيء غاية الامتناع، أي: إذا جاءت (ما كان الله ليفعل كذا وكذا)، فهو مُتَمَنِّعٌ غاية الامتناع.

وقوله: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾، أي: ما آتتم به، ومنه صلاتهم إلى بيت المقدس سابقاً؛ لأنه قد يقع في قلوب بعض الناس الإشكال عما سبق من الصلوات إلى بيت المقدس، هل تكون باطلة - لأن القبلة صُرفَتْ إلى الكعبة - أم لا؟ فبيِّن الله - سبحانه وتعالى -: أن الله لا يُضِيعُ ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الرءوف: مأخوذٌ من الرَّأْفَةِ، وهي أشدُّ الرَّحْمَةِ، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسان إلى خَلْقِهِ، والإنعامُ عليهم.

وفي هذه الآية من الحُكْمِ والفوائد ما يلي:

١- بيان فضيلة هذه الأمة؛ لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

٢- أن هذه الأمة ذاتُ شهادةٍ على مَنْ سَبَقَهَا مِنَ الْأُمَمِ.

٣- تعديلُ الله - عَزَّ وَجَلَّ - لهذه الأمة؛ حيث جعلهم شُهَدَاءَ عَلَى سَائِرِ

الأمم، ولم يجعلهم الله - سبحانه وتعالى - شُهَدَاءَ إِلَّا لِيَقْبَلَ شَهَادَتَهُمْ.

٤- أن رسول الله ﷺ كان شهيداً على أمته، فهو شهيدٌ عليهم ما دام فيهم، أمّا فيما بعد موته، فإنه تُعَرَّضُ عليه أعمالُ أمته و، كما جاء في بعض الأحاديث^(١)، فإذا صحّت، فإنه يكون شهيداً عليهم في حال حياته وبعد مماته، وإلا فإنه سيكون شهيداً عليهم يوم القيامة.

٥- أن الله - سبحانه وتعالى - قد يتلى العباد بشرع بعض الشرائع ونسخه؛ لقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾.

٦- أن علم الله - عزّ وجلّ - ينقسم إلى قسمين:
 علمٌ يترتبُ عليه الثواب والعقاب، وهو ما يحصلُ بعد موافقة العبد لأمر الله، أو مخالفته، وهو الذي يترتب عليه الثواب والعقاب.
 وعلمٌ سابقٌ: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو علم الله - تعالى - الثابت في الأزل قبل امتحان العبد، فعلمُهُ - سبحانه وتعالى - يكونُ قبل وجود المعلوم، ويكون بعد وجود المعلوم، فالعلمُ الأول: لا يترتب عليه الثواب والعقاب، وهو المراد في هذه الآية وأشباهاها.
 ٧- الإشارة إلى أن أتباع رسول الله ﷺ هو الطريق الصحيح

(١) منها: قوله ﷺ: «أكثرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ؛ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ» رواه أحمد (١٥٧٢٩)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي، كتاب الجمعة، باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣٦).

السليم؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ﴾.

٨- ثبوت النسخ، أي: أن الله - سبحانه وتعالى - ينسخ من أحكامه ما يشاء. والنسخ هو: رفع الحكم السابق، فتارة يكون النسخ من بدلٍ إلى بدلٍ أخف منه، وتارة يكون من بدلٍ إلى بدلٍ أثقل منه، وتارة يكون من بدلٍ إلى بدلٍ مساوٍ له، وتارة يكون إلى غير بدل:

فَمِثَالُ نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَى بَدَلٍ أَشَقَّ مِنْهُ: نَسْخُ التَّخْيِيرِ بَيْنَ الصِّيَامِ وَالْإِطْعَامِ فِي رَمَضَانَ، إِلَى تَعْيِينِ الصِّيَامِ؛ فَإِنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ - أَوَّلُ مَا فُرِضَ - كَانَ يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ أَنْ يَصُومَ أَوْ يُطْعِمَ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٤، ١٨٣]؛ فهذه الآية ظاهرة في التخيير بين الصيام والإطعام، وقد ثبت ذلك صريحًا في الصحيحين» من حديث سلمة بن الأكوع: أن الصيام أول ما فرض كان يُخَيَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ بَيْنَ الْإِطْعَامِ وَالصِّيَامِ، ثُمَّ نُسِخَ هَذَا التَّخْيِيرُ إِلَى وَجُوبِ الصِّيَامِ عَيْنًا^(١).

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾، رقم (١١٤٥) ..

والحكمة في ذلك: هو أن الله - سبحانه وتعالى - إذا أراد أن يحكم حكماً، وكان فيه شيءٌ من المشقة على النفوس، بدأ - سبحانه وتعالى - بالأخف فالأخف، حتى ترتاح النفس، ويسهل عليها قبول الأشق أو الأثقل.

ومثال النسخ إلى بدلٍ أخف منه: قوله - تبارك وتعالى - في آيتي المصابرة: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِصِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، فجعل الله - تعالى - الصبر مشروطاً بأن يقابل العشرون مئتين، وأن يقابل المئة مئتين ألفاً من الذين كفروا، وهذا لا شك أن فيه مشقة، لكن الله - سبحانه وتعالى - لطف وخفف في قوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فصار الصبر يتحقق في مقابلة الواحد لمثلثيه.

ومثال النسخ إلى بدلٍ مساوٍ: ما نحن فيه الآن، نسخ استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة شرفها الله؛ فإن هذا البدل مساوٍ للبدل الآخر بالنسبة للمكلف؛ إذ لا فرق عند المكلف من حيث التعب البدني والمشقة البدنية بين أن يستقبل بيت المقدس، أو يستقبل الكعبة المشرفة.

ومثال النسخ إلى غير بدل: ما أوجب الله - سبحانه وتعالى - على

المسلمين مِنَ الصَّدَقَةِ عند مناجاة النبي ﷺ؛ فإن الله أوجب على المسلمين إذا أرادوا أن يناجوا رسول الله ﷺ أن يتصدقوا^(١)، ولكن الله - تَعَالَى - خَفَّفَ ذلك عنهم ونسخ هذا الوجوب.

ولا شك أن النسخ قد يكون سبباً لفتنة بعض الناس، وارتدادِهِ أو شكِّهِ، ولكنَّ الحقيقة أن النسخ يدل دلالة واضحة على أن رسول الله ﷺ، رسولُ الله حقاً، وأَنَّهُ صادقٌ فيما بَلَغَ عن ربه، تبارك وتعالى.

ثم إنَّ في النسخ بياناً لحكمة الله - سبحانه وتعالى - في شرعه وأَنَّهُ - جل وعلا - يتعبَّد عبادهُ بما شاء، على الوجه الذي يكون به صلاحهم.

٩- أن النسخ يكون شاقاً على كثير من النفوس، إلا على مَنْ هداهم الله؛ فإنه يكون يسيراً عليهم؛ لأنهم يعلمون أن هذا النسخ لم يصدر إلا عن حكمة بالغة، ولا يزيدُهم النسخ إلا طمأنينة وثقةً بِشريعة الله سبحانه وتعالى؛ لقوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

١٠- لطفُ الله - سبحانه وتعالى - بعباده؛ حيث لم يُهدِرْ ثواب الأعمال المنسوخة، ولم يُضَيِّعْ أجرها على مَنْ تعبَّد لله بها؛ لقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ﴾.

١١- أن فيها دليلاً لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، من أن الأعمال داخلةٌ في مُسمَّى الإيمان؛ لقوله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ

(١) كما في سورة المجادلة، آية: ١٢.

إِيْمَانِكُمْ ﴿١١﴾، ووجه دخول الأعمال في مسمى الإيمان، أنها صادرة عن إيمان: فلولا الإيمان ما تعبد الناس لله - عَزَّ وَجَلَّ -، لولا إيمان الناس بأن هذه شريعة الله، وأنه يثيب عليها، ما تعبدوا لله - تَعَالَى - بها؛ ولهذا أطلق الله الإيمان هنا على الصلاة إلى بيت المقدس سابقاً.

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: «الرؤوف» و«الرحيم»، وإثبات ما تضمنناه من صفة؛ فإن كل اسم من أسماء الله، فإنه مُتَضَمِّنٌ لصفة من صفاته، ولهذا نقول: الصفات أوسع من الأسماء؛ لأن كل اسم من أسماء الله مُتَضَمِّنٌ لِصِفَةٍ مِنْ صفاته، وليس كل صفة من صفات الله يُشْتَقُّ له منها اسم، فباب الصفات أوسع من باب الأسماء، وباب الأخبار عن الله أوسع من باب الصفات أَيضاً؛ فالأسماء والصفات أخبار، فمثلاً: الاسم يتضمن الصفة، والصفة لا يُشْتَقُّ منها الاسم، والأخبار يُجَبَّرُ بها عن الله بالشيء الذي لا يمكن أن يُوصَفَ به، فتقول مثلاً: إن الله شيء، لكن لا تُصِفُه بذلك؛ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩].

* * *

ثم قال الله - جلَّ ذكره -: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْنِكَ قِبَلَةٌ تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿البقرة: ١٤٤﴾.

﴿قَدْ نَرَى﴾: جملة فعلية مؤكدة بـ(قد)، والرؤية هنا: رؤية بصر، وجاء الفعل بصيغة المضارع دون الماضي، إشارة إلى تكرار الفعل من النبي ﷺ، فَتَكَرَّرَتْ رُؤْيَا اللَّهِ - تَعَالَى - له.

﴿تَقَلَّبَ وَجْهَكَ﴾ هو أن النبي ﷺ كان يقلب وجهه في السماء ترقباً لنزول الوحي بأمره بالاتجاه إلى الكعبة المعظمة.

﴿فَلَنُؤَلِّينَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، أي: لنوجهنك إلى قبلة ترضاها، أي: تطمئن إليها وتستقر؛ لأنه ﷺ راضٍ بكل ما شرعه الله له، سواءً في استقبال الكعبة، أو بيت المقدس، لكن طمأنينته لاستقبال الكعبة أشد؛ ولهذا فرع عليها قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: جهة المسجد الحرام، وهو الكعبة، وسُمِّيَ مسجداً حراماً لحُرْمَتِهِ وتعظيمه، ولهذا ثبت له من خصائص التحريم ما لم يثبت لغيره.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾، يعني: في أي مكان كنتم من مشارق الأرض ومغاربها.

﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ الخطاب هنا للأمة عموماً، والخطاب الذي قبله لرسول الله ﷺ، الخطاب الذي لرسول الله ﷺ خطاب له وللأمة، كما سنذكره إن شاء الله قريباً.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى.

﴿لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾، أي: ما حصل مِنَ الاتجاهِ إلى الكعبة، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾؛ ولكنَّهم قومٌ معاندون مستكبرون؛ ولهذا توعَّدَهُم اللهُ بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

في هذه الآية من الحِكَمِ والفوائد ما يلي:

١- إثبات رؤية الله - تَعَالَى - لِمَا يَفْعَلُهُ العباد؛ لقوله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾.

٢- إثبات علوِّ الله - سبحانه وتعالى -؛ لأن النبي ﷺ يقلِّب وجهه في السماء تَرْقُبًا لِنُزُولِ الوحي من الله - سبحانه وتعالى - .
وعلوُّ الله - سبحانه وتعالى - في السماء أمرٌ مفطورٌ عليه الخلق، ودلَّت عليه الشرائع والعقول، وقد اجتمعت الأدلة الخمسة: الكتاب، والسُّنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، على إثبات علوِّ الله - سبحانه وتعالى - فوق خلقه.

وقد قَسَمَ العلماء - رحمهم الله - العلو إلى قسمين:

الأول: علوُّ ذات، بِمَعْنَى أَنَّ الله - تَعَالَى - فوق كل شيء.

والثاني: علوُّ صفة، بِمَعْنَى أَنَّ صفات الله - سبحانه وتعالى - هي

أعلى ما يكون مِنَ الكمال.

فأمَّا الأول: فأدلَّته ما أشرتُ إليها: الكتاب، والسُّنة، والإجماع،

والعقل، والفطرة، وتفصيل ذلك في كتب العقائد.

وأما الثاني: فَلهُ أدلَّةٌ سمعيةٌ وعقليةٌ:

منها: قوله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]،
أي: الوصف الأعلى الأكمل، وهذا دليلٌ سمعيٌّ.

وأما الدليل العقلي: فلأنَّ الربَّ لا بد أن يكون أكمل من المربوب،
وأعلى من المربوب، وصفاً وقدرًا، وهذا هو الواقع.

٣- وعُدَّ الله - سبحانه وتعالى - لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يُؤْتِيَهُ قِبْلَةً يَرْضَاهَا،
وقد فعل - جلَّ وعلا - فقال: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

٤- أنَّ الخطاب الموجَّه للرسول ﷺ خطابٌ له ولأُمَّتِهِ، ولكن في
هذا تفصيل؛ وذلك أنَّ الخطاب الموجَّه إلى رسوله ﷺ، إمَّا أن يقوم
الدليل على أنَّه موجَّه له وحده، أو على أنَّه موجَّه له ولِلْأُمَّةِ، أو لا يكون
هناك دليلٌ، لا على هذا، ولا على هذا:

فأما الأول: فيكون خاصًّا به؛ مثل قوله - تعالى -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ
صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾
[الشرح: ١-٣]، ومن المعلوم أنَّ هذا خاصٌّ برسول الله ﷺ.

وأما الثاني: - وهو الذي دلَّ الدليل على عموم الحكم له ولأُمَّتِهِ -:
فمثل قوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ
لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، فهنا صدرَّ الخطاب بِخِطَابٍ مُوجَّهِ إِلَى الرَّسُولِ
ﷺ، بأداة النداء، في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾، ولكنه جعل الحُكْمَ عامًّا،
فقال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، ولم يقل: «إِذَا طَلَّقْتُ»؛ وهذا
يدلُّ على أنَّه عامٌّ له ولأُمَّتِهِ و، ومنه هذه الآية: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿٥﴾ .

وأما القسم الثالث: فكثير في القرآن الكريم، يكون الكلام بصيغة الخطاب للواحد، وهذا ظاهره أنه موجه إلى الرسول ﷺ، ف قيل: إنه موجه له ولأمته، لكن خص الخطاب به؛ لأنه قائد الأمة وإمامها، وقيل: بل هو موجه له وحده، وأمته - في ذلك - يشملها الخطاب من باب التأسّي والاقْتداء، والخلاف في هذا لفظي؛ لأن كلا القولين ينصب في أن الأمة تفعل ما ووجه إلى الرسول ﷺ.

٥- وجوب استقبال القبلة في أي مكان من الأرض؛ لقوله:

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ .

٦- أن الواجب الاتجاه إلى الجهة، لا إصابة عين الكعبة؛ لقوله:

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: جهته، وهذا ما لم يتيسر استقبال عين الكعبة، فإن تيسر استقبال العين، كان واجبا، ومن المعلوم أن من كان في المسجد الحرام، يتيسر له أن يتجه إلى عين الكعبة غالباً؛ لأنه يشاهدها، ومن كان خارج المسجد الحرام، ولا يسعه أن ينظر إلى الكعبة، فإنه لا يمكنه أن يشاهد الكعبة، فيكفيه الاتجاه إلى الجهة والجهة واسعة، وكلما بعدت المسافة، اتسعت الجهة؛ ولهذا قال العلماء - رحمهم الله -: إنه لا يضر الانحراف اليسير عن القبلة، وإنما الذي يضر أن تكون القبلة عن يمينك، أو عن شمالك، أو خلف ظهرك، أما الانحراف اليسير فإنه لا يضر؛ واستدلوا بقول النبي ﷺ: «ما بين

المشرق والمغربِ قِبْلَةً»^(١)، قاله لأهل المدينة، وَمَنْ كَانَ عَلَى سَمْتِهِمْ، ولقوله و: «لا تستقبلوا القبلة بغائطٍ ولا بول، ولا تستدبروها، ولكن شَرِّقُوا أو غَرِّبُوا»^(٢).

ويُستثنى مِنْ وجوب الاتجاه إلى القبلة، ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: عند الخوف، إذا كان الإنسان هاربًا من عدوٍّ، فإنه يُصَلِّي حيثُ كان وجهه.

المسألة الثانية: العجز، إذا كان الإنسان مريضًا، ولا يستطيع أن يتوجّه إلى القبلة بنفسه، ولا بِمَنْ يُوجِّهه، فإنه يُصَلِّي حيثُ كان وجهه.

المسألة الثالثة: النَّافِلَة في السَّفَر؛ فَإِنَّ الإنسان يُصَلِّي على راحلته مِنْ سَيَّارة، أو بعير، أو طائرة، حيثُ كان وجهه؛ لأن النبي ﷺ كان يفعل ذلك.

أما الدليل في المسألتين الأوليين، الخوف والعجز: فهو قوله - تَعَالَى -: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٧- أن أهل الكتاب يعلمون الحق الذي جاء به النبي ﷺ، ولكنهم معاندون مستكبرون، وقد قال الله - تَعَالَى - في آية أخرى: إنهم يعرفون

(١) رواه الترمذي كتاب الصلاة، باب ما جاء أن ما بين المشرق والمغرب قبلة، رقم (٣٤٢).

(٢) وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة، باب القبلة، رقم (١٠١١).

(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب لا تستقبل القبلة بغائط أو بول، رقم (١٤٤)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الاستطابة، رقم (٢٦٤).

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم^(١)، وذلك بما ذَكَرَ من أوصافه عندهم التي لا تنطبق على بشرٍ سواه، ومن ذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ^٤ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ^٥ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥]؛ فإنَّ هذه الأوصاف منطبقة تمامًا على رسول الله الهاشمي القرشي و، وهم يعلمون ذلك، لكنهم كانوا مستكبرين حسادًا؛ كما قال الله - تَعَالَى -: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

٨- ذمُّ مَنْ علم الحق ولم يتبعه، وتعريضه نفسه للعقوبة؛ لقوله -

تَعَالَى -: ﴿ لِيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾.

٩- إثباتُ أَنَّ الله - تَعَالَى - موصوف بالإثبات، وموصوف بالنفي؛

فهو - سبحانه وتعالى - قد جمع فيما وصف به نفسه بين النفي والإثبات، والإثبات أكثر من النفي؛ ولهذا يأتي الإثبات مفصلاً، ويأتي النفي مجملاً، إلا فيما يحتاج إلى التفصيل فيه. قال أهل العلم: وصِفَاتُ الله -

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٦، وسورة الأنعام، آية: ٢٠.

سبحانه وتعالى - التي نفاها عن نفسه لا يُقصد بها مجرد النفي؛ لأنَّ مجرد النفي ليس وصفاً كاملاً، ولكن كلُّ صفة نفاها الله عن نفسه، فالمراد بها إثبات كمال ضدها مع النفي:

فمثلاً قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ يدل على انتفاء غفلة الله عما يعملون مع ثبوت كمال العلم والمراقبة، وفي قوله - تعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾، إثبات كمال العلم والقدرة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، فلا يمكن أن تجد نفيًا محضًا في صفات الله، وتعليه أن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس فيه كمال، وكلُّ ما نفاه الله عن نفسه، فالمراد به نفي ما نفاه مع إثبات ما تضمنه من كمال الصفة التي هي ضد ذلك النفي، فلم ينف عن نفسه الظلم، إلا لِكَمالِ عدله، ولا العجز، إلا لِكَمالِ علمه وقدرته، ولا الغفلة عن أعمال العباد، إلا لِكَمالِ علمه ومراقبته،،، وهلمَّ جرًّا.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ آتَيْتَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ.

﴿بِكُلِّ آيَةٍ﴾، أي: بكلِّ دليل على ما أتيت به.

﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾؛ وذلك لأنهم لا يريدون الحق، وإنما يريدون

العلوَّ والاستكبار.

﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ شرع النبي ﷺ نَسَخَ جميع

الشرائع، فهم بريئون منك، وأنت بريءٌ منهم، وهذا كقوله - تَعَالَى -:

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِكُفْرُوتِهِمْ ۖ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۗ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا

أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ١-٣] إلى آخر السورة.

﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾، يعني: أن أهل الكتاب - أَيْضًا -

مختلفون، فلا يتَّبِعُ بعضهم بعضًا في القبلة والاتجاه؛ فالنصارى لهم

اتِّجَاهٌ، واليهودُ لهم اتِّجَاهٌ، ومع ذلك فهم فيما بينهم أولياء ضدَّ المؤمنين.

﴿وَلِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ

الظَّالِمِينَ﴾، يعني: إن قُدِّرَ أَنَّكَ دَاهَتَهُمْ واتبعت أهواءهم - مِنْ بَعْدِ

ما جاءكَ مِنَ الْعِلْمِ - لَكُنْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وهذا التعليق لا يلزم منه

وجودُ الْمُعَلَّقِ؛ فَإِنَّ «إِنْ» الشرطية تدخل على شيء مُتَعَدِّرٍ، بل مستحيل؛

كقوله - تَعَالَى -: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾

[الزخرف: ٨١]، فلا يعني ذلك: أنه يمكن أن يكون لله ولد. فـ«إِنْ» هنا:

داخلة على شيء مُسْتَحِيلٍ، وكذلك قوله - تَعَالَى -: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ

وَأَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

[الزمر: ٦٥]، لا يقول قائل: إنَّ الرِّسُولَ يُمَكِّنُ أَنْ يُشْرِكَ، بل هذا على

فرض وقوع ذلك، والفرض يمكن أن يرد على شيءٍ مستحيل.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

١- بيان تمرد الذين أوتوا الكتاب واستكبارهم، وأثمهم لو أتوا بكل آية ما قبلوها؛ لعنادهم واستكبارهم.

٢- أن المؤمن بريء من كل دين يخالف الإسلام، حتى من دين من يزعمون أنهم على دين، كالذين أوتوا الكتاب.

٣- وجوب مخالفة المشركين فيما يختص بهم؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَمَا

أنت بتابع قبلتهم﴾؛ ولهذا حذر النبي ﷺ من مشابهة الكفار، فقال:

«من تشبه بقوم فهو منهم»^(١)، وقال: «خالفوا المجوس؛ وفرّوا اللّحي،

وحفوا الشوارب»^(٢)؛ فلا يحل للمؤمن أن يتشبه بالكفار فيما يختص بهم

من لباس، أو هيئة، يعني: في الجسم، كالشعور مثلاً، يُصَفِّفُها على ما

يُصَفِّفُها الكفار، وغير ذلك؛ لهذا الحديث الذي ذكرت، ومن المعلوم

أن التشبه بالكفار يؤدي إلى فرحهم وسرورهم، ومن المعلوم - أيضاً -

أن المتشبه في حالٍ ومرتبةٍ دون المتشبه به، فتشبهنا بالكفار والمشركين،

يؤدي إلى اعتلائهم وترفعهم علينا، واعتقادهم أننا لهم تبع، ولا شك

(١) رواه أحمد رقم (٥٠٩٣، ٥٦٣٤)، وأبو داود كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، رقم (٤٠٣١)..

(٢) رواه البخاري كتاب اللباس، باب تقليد الأظفار، رقم (٥٨٩٢)، ومسلم كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٩) عن ابن عمر، ولقظه: «خالفوا المشركين». ورواه مسلم عن أبي هريرة، رقم (٢٦٠) بلفظ: «خالفوا المجوس».

أَنَّ هَذَا إِهَانَةٌ وَإِغَاظَةٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَقِدَ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ هُوَ الْأَعْلَى؛ لِأَنَّهُ يَدِينُ اللَّهَ - تَعَالَى - بِدِينٍ عَالٍ عَلَى كُلِّ الْأَدْيَانِ؛ كَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة: ٣٣، والصف: ٩]، وَقَالَ - تَعَالَى -: ﴿ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٤- بيان اختلاف أهل الكتاب، وأن بعضهم لا يدين بما يدين به الآخر؛ لقوله - تَعَالَى -: ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعِ قِبَلَةِ بَعْضٍ ﴾، وهذا هو الواقع، فلننظر الآن إلى اليهود ماذا قالوا عن عيسى؟ قالوا: إنه ابن زانية - والعياذ بالله - وقالوا عن أمه: إنها زانية بغي. وماذا قال النصارى عنه؟ قالوا: إنه ابن الله، وقالوا: إن الله ثالث ثلاثة: الله، والمسيح، وأمّه، فنجد الطرفين متناقضين بينهما أكثر مما بين المشرق والمغرب، وقال المسلمون في عيسى بن مريم وأمّه: إن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن أمه مريم صديقة، أبعدها ما تكون عمًا رماها به اليهود.

٥- التحذير من متابعة أهواء أهل الكتاب؛ لأن الله - تَعَالَى - حذّر نبيه منه، وما حذّر منه الرسول ﷺ، فنحن نحذرون منه.

٦- الإشارة إلى أن ما قاله أهل الكتاب من الحق، فلا حرج علينا في اتّباعه؛ لأن الله - تَعَالَى - قال: ﴿ وَلِئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾، فأما ما جاؤوا به من الحق فإننا نقبله؛ لأن الحق يقبل من كل من جاء به؛ ولهذا لما

جاء الحُبْرُ إلى رسول الله ﷺ وقال: «يا مُحَمَّد، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يجعلُ السَّمَوَاتِ على إصْبَعٍ، والأَرْضِينَ على إصْبَعٍ...» وذكر الحديث. ضَحِكَ النبي ﷺ تصديقاً لقوله، وقرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] (١).

٧- أنه يُشترط للإثم بالعمل: العلمُ بالتحريم، فلا يَأثم العامل بالإثم، وهو لا يعلم أن عمله محرم؛ لقول - تَعَالَى -: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، فلا يُوْثَمُ الإنسانُ بفعلِ شيءٍ هو جاهلٌ به؛ ويدلُّ هَذَا الأَصْلُ العَظِيمُ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال - جلَّ وعلا -: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فقال الله - تَعَالَى -: «قَدْ فَعَلْتُ» (٢).

وقال الله - تَعَالَى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال - تَعَالَى -: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ رقم (٤٨١١)، ومسلم كتاب صفة القيامة، رقم (٢٧٨٦).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان، باب بيان قوله - تَعَالَى -: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُوهُ﴾ رقم: (١٢٦).

ظَلِمُونَ ﴿ [القصص: ٥٩]، وقال - تعالى -: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَعَلَّ يُكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال - تعالى -: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]. والآيات في هذه كثيرة، تدلُّ على أنه لا تأثيم مع الجهل، وهذا من رحمة الله بالعباد، ألا يؤثِّمهم بما يجهلون؛ لأنَّ الإنسان بشرٌ ضعيفٌ، وإذا لم يأثم به لم يترتب عليه فديةٌ ولا كفارة؛ إلا ما كان من قتل الخطأ، فإنَّ فيه الكفارة؛ لعِظَمِ حَقِّ النفسِ المعصومة.

* * *

ثم قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود والنصارى.

﴿ يَعْرِفُونَهُ ﴾، أي: يعرفون النبي ﷺ.

﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾، أي: كمعرفة أبناءهم؛ وذلك لما علموا من صفته في التوراة والإنجيل، وخصَّ الأبناء؛ لأنَّ تعلقَ النفوسِ بهم أعظمُ من تعلقها بالبنات غالبًا.

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ ﴾ فريقًا منهم، أي: طائفة من هؤلاء الذين أوتوا

الكتاب، وهم علماء بني إسرائيل.

﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، أي: يعلمونه، ولكنهم يكتُمونه

ويخفونه عن الناس؛ إما حسداً لأمة محمد ﷺ، وإما للخوف على رئاستهم وسلبهم أموال الناس، وإما لغير ذلك.

ثم قال - تعالى -: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

[البقرة: ١٤٧]:

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ هذا تثبيتٌ للرسول ﷺ: أن الحق من ربك،

وقد أتاك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؛ نهاه الله - عزَّ وجلَّ - عن ذلك، وهو

لا يمكن أن يمتري؛ لأن الضغوط العظيمة، والكلمات القوية من الذين أتوا الكتاب ومن المشركين على رسول الله ﷺ، قد تُطِئُحُ بالشخص، إلا أن يُثبته الله - تعالى - كما قال - تعالى -: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

في هاتين الآيتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أن أهل الكتاب - اليهود والنصارى - يعرفون النبي ﷺ تمام

المعرفة؛ وذلك بما ذكر من أوصافه في التوراة والإنجيل.

٢- تمام عدل الله - عز وجل -؛ حيث قال: ﴿وَإِنْ فَرِيقًا مِّنْهُمْ

لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: «وإنهم ليكتمون الحق»؛ لأن

منهم من أقر بالحق وآمن؛ كعبد الله بن سلام من اليهود، والنجاشي من

النصارى، ولو جاء التعميم: «وإنهم ليكتمون الحق»، لم يكن في هذا

بيان لفضل أولئك الذين آمنوا بالرسول ﷺ. ثم إن في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أن النبي ﷺ على الحق؛ لأن فريقًا من أهل الكتاب آمنوا به وصدقوه، فيكون في ذكر «الفريق» دون التعميم فائدتان:

الفائدة الأولى: العدل، وأن لا يهضم الذين آمنوا حقهم.

الفائدة الثانية: إثبات صدق الرسول ﷺ عند أهل الكتاب؛ حيث إن فريقًا منهم آمنوا به وصدقوه.

٣- ذم من كتم الحق وهو يعلمه، ويشهد لهذا قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

ولهذا كان واجبًا على أهل العلم أن يبينوا العلم كلما احتاجت الأمة إليه، إما بالسؤال المباشر عن العلم، وإما بلسان الحال، بحيث يقع الناس في أمر يحتاجون إلى بيانه؛ لأن النبي ﷺ توعد من سئل عن علم، فكتمه، والسؤال عن العلم - كما أشرت إليه - يكون بلسان الحال، ويكون بلسان المقال:

أما بلسان الحال: فأن يقع الناس في أمر يحتاجون إلى التنبيه عليه.

وأما بلسان المقال: فإن يأتيك شخص يسألك عن مسألة شرعية، وأنت تعلمها، فيجب أن تبينها له، إلا إذا علمت أن هذا الرجل لا يريد الوصول إلى الحق، وإنما يريد أن يوقع بين العلماء؛ لأنه ربما يحصل بينهم اختلاف في الرأي، أو يريد الإعانة والمشقة على المسؤول، فحينئذ يكون المسؤول مخيراً بين إجابته، وترك إجابته.

٤- أن الحق من عند الله - عز وجل -؛ لأنه صادر من الله - تعالى - وما صدر من الحق فهو حق، وما خالفه فهو باطل.

٥- فضيلة الرسول ﷺ؛ حيث أضاف الله - تعالى - الربوبية إليه في قوله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، وهذه ربوبية خاصة، تقتضي عنايةً أخص. والربوبية تنقسم إلى قسمين: ربوبية عامة لجميع الخلق، وربوبية خاصة لمن اجتباهم الله - عز وجل -، ومن الأمثلة الجامعة للعامة والخاصة: قوله - تعالى - عن سحرة آل فرعون: ﴿قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وهذه عامة، ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]، وهذه خاصة.

٦- تثبيت النبي ﷺ وتقويته في قوله - تعالى -: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وهو ﷺ لم يمت، ولم يشك، ولكن هذا من باب تقويته وتثبيته؛ لأن النبي ﷺ بشر ويحتاج إلى التثبيت والتأييد؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وقد بين الله - تعالى - أن ثبات النبي ﷺ كان بفضلته ورحمته، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ

تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ
ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء: ٧٤-٧٥].

٧- ورود النهي عما لا يمكن وقوعه؛ لقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ﴾، والامتراء من الرسول ﷺ ليس بواقع، ولا يتوقع - أيضًا -
لأنه ﷺ أقوى الناس إيمانًا بالله - تعالى -.

* * *

ثم قال - سبحانه وتعالى -: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا
الْخَيْرَاتِ ۗ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
[البقرة: ١٤٨].

﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾، أي: لكل من المسلمين وأهل الكتاب، وجهة هو
موليها، وإن شئت فقل: ولكل، أي: لا بد لكل أحد، من وجهة هو
موليها، فمن الناس من يولي وجهه شطر الإيمان والإصلاح.
﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾، أي: تسابقوا إلى الخيرات، والخيرات هي:
ما جاء به الرسول ﷺ من الحق.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾، يعني: في أي مكان
تكونون، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يأتي بكم جميعًا، وذلك إذا
حشر الناس؛ فإن الله - تعالى - يحشر الناس جميعًا، من أي مكان كانوا
من قبل، يحشرون كلهم جميعًا كنفس واحدة، يقومون لله - عز وجل -
من قبورهم، قيام رجل واحد؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ

فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ [يس: ٥١]، وقال - تعالى -: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقال - تعالى -: ﴿فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٥٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

فالله - سبحانه وتعالى - يأتي بالخلق جميعاً أينما كانوا في الأرض، يأتي بهم جميعاً ويحشرهم في مكان واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فهو قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، بدون عجز ولا ضعف.

وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي:

١- أن كل واحد من الناس له وجهة يتولاها، ويتوجه إليها، وهم فرق متباينة؛ كما قال - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

٢- الأمر بالتسابق إلى الخير؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ [الْخَيْرَاتِ]، ثم إن الخيرات منها ما يجب، ومنها ما يستحب، على حسب ما جاءت به الشريعة.

٣- إثبات الحشر يوم القيامة، وأن جميع الناس سوف يحشرون إلى الله - عز وجل -؛ لقوله - تعالى -: ﴿أَيُّنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾.

٤- إثبات اسم من أسماء الله، وهو «القدر»، وما دل عليه من

الوصف، وهو: القدرة، فله - سبحانه وتعالى - القدرة التامة في كل شيء ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩].
وهذه الآية للتوكيد كما سبق؛ لأن المقام مقام عظيم، والأمر مهم جدا، ولا يشعر إنسان بهذا المقام وأهميته، إلا لو كان موجودا ذلك الوقت - أي: حين تحويل القبلة - لأنه أمر جليل عظيم، أكدته الله - عز وجل - في هذه الآية، وفي الآية التي بعدها.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: من أي مكان خرجت، وإلى أي جهة اتجهت، فلا بد أن تولي وجهك شطر المسجد الحرام، أي: جهته.

﴿وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾، أي: إن ما ذكر من توليك شطر المسجد الحرام، للحق من الله، وهذه جملة مؤكدة بـ«إن»، وبـ«اللام»، وتأكيد الجملة يدل على أهميتها، وأن الأمر فيها يحتاج إلى توكيد وتثبيت في قلوب الناس.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقال فيها كما قيل في الآية السابقة، أي: أنه لكمال مراقبته وعلمه، لا يغفل عما يعمله العباد.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تأكيد الأمور الهامة، حتى ترسخ في النفوس، وتطمئن إليها القلوب، ولا يعد هذا من التكرار الزائد، بل هو من التكرار البليغ؛ لأن الشيء كلما كان هاماً، فإن البلاغة في العناية به، والاهتمام به.

٢- أن الإنسان في أي جهة خرج، من بر أو بحر أو جو، فإنه يتعين عليه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام في الصلاة، ولكن سبق أنه استثنى من ذلك مسائل: الخوف، والعجز، والنافلة في السفر.

٣- أن الإنسان لو تبين له في أثناء الصلاة أنه إلى غير القبلة، فإنه يجب أن ينحرف إلى القبلة، فلو أن الإنسان في البر، واجتهد في القبلة، واتجه إلى جهة ما، ثم جاءه رجل أعلم منه بالجهات، وقال له: إن القبلة عن يمينك، أو عن يسارك، وجب عليه أن يتجه إلى ما أرشده إليه هذا الرجل، ولا يلزمه أن يستأنف الصلاة؛ لأن ما حصل منه في أول الصلاة، صادر عن اجتهاد، ولكن لو استمر على الجهة التي هو عليها بدون علم، فإنه يجب عليه إعادة صلاته؛ لأن اتجاهه إلى غير القبلة فيما بقي من صلاته، باطل.

والصلاة لا تتجزأ، فينسحب البطلان إلى أولها، ولهذا لما جاء رجل إلى أهل قباء، وهم يصلون صلاة الفجر، متجهين إلى بيت المقدس،

والكعبة خلف ظهورهم، قال لهم: إن النبي ﷺ أنزل عليه الليلة القرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاتجهوا إلى الكعبة واستقبلوها، وصار بيت المقدس خلف ظهورهم، بعد أن كان قبل وجوههم؛ لأن هذا هو الواجب.

٤- أن ما جاءت به الشريعة - شريعة محمد ﷺ هو الحق؛ وعلى هذا فيكون ما سواه باطلاً، ويتفرع على هذه الفائدة: بطلان البدع بجميع أنواعها؛ لأن البدع مخالفة لما جاء به النبي ﷺ؛ فإن البدعة المذمومة هي: التعبد لله - تعالى - بما لم يشرعه الله، من عقيدة أو قول أو عمل، فكل بدعة فهي باطلة؛ لأنها مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ.

٥- كمال علم الله - تعالى - ومراقبته؛ للمفهوم من قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يوفقنا للعمل الذي يرضيه، وأن لا يعلم منا إلا ما يرضى به عنا؛ إنه جواد كريم.

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

وهذه الآية - كما هو معلوم - هي الآية الثالثة التي كرر فيها وجوب

الاتجاه إلى الكعبة المعظمة، وذلك للتأكيد، وكل جملة منها أعقبت بمعنى عظيم:

أما الأولى: وهي قوله - تعالى -: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، فأعقبها الله - تعالى - ببيان أن ذلك هو الحق، وأن الذين أتوا الكتاب يعلمون ذلك.

وأما الثانية، ففيها: بيان الحكمة من تحويل القبلة، وتثبيت المؤمنين على ما يورد عليهم من الشبهات حول هذا الموضوع؛ يقول الله - تعالى -: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾، أي: من أي جهة خرجت، من أي مكان خرجت.

﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أي: جهة المسجد الحرام.
 ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ في أي مكان؛ من بر، أو بحر، أو جو.
 ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

ثم بين الحكمة من ذلك بقوله: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: لئلا يحتج الناس عليكم، يعني: أوجبنا عليكم ذلك؛ لئلا يحتج الناس عليكم، فمن الذي يحتج؟ يحتج من الناس طائفتان:
 الطائفة الأولى: أهل الكتاب.

الطائفة الثانية: المشركون.

أما المشركون: فإن النبي ﷺ لو بقي على الاتجاه لبيت المقدس، لقالوا: هذا الرجل ترك قبلة آبائه، إلى بيت المقدس.

وأما اليهود: فإنهم يقولون: هذا الرجل ترك قبلتنا، وأخذ بقبلة قومه.

فبين الله - عز وجل - أنه أوجب علينا أن نتجه إلى الكعبة؛ لئلا يحتج هؤلاء وهؤلاء، فبطلت حجة المشركين، باتجاه النبي ﷺ إلى الكعبة، ورجع إلى ما كانت عليه القبلة زمن إبراهيم - عليه السلام -، وبطلت حجة اليهود الذين قالوا: يتركنا ويرجع إلى دين آباءه؛ لأن النبي ﷺ إنما يفعل ذلك امتثالاً لأمر الله - سبحانه وتعالى - وتحققاً لما عرفوه هم فيما عندهم من الكتاب؛ ولهذا قال الله - عز وجل -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم اليهود والمشركون، على الوجه الذي ذكرنا آنفاً.

ثم نهى الله عباده عن خشية الناس، ولو كانوا ظالمين، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، يعني: دعوا خشية هؤلاء الظالمين، واخشوني؛ فإن خشية الله - سبحانه وتعالى - يندفع بها كل شر، وكل ظلم.

﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿لَعَلَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، أي: وأمرتكم بأن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام؛ لأتم نعمتي عليكم بالاتجاه إلى الكعبة المعظمة، التي هي أول بيت وضع للناس.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ «لعل» هذه: للتعليل، أي: لعلكم تكونون من

ذوي الهداية، الذين وفقوا لهداية العلم، وهداية الرشد.

- في هذه الآيات الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:
- ١- تأكيد الاتجاه إلى الكعبة المعظمة - وقد سبق الكلام عن ذلك - وبيان أن الاتجاه إلى الكعبة المعظمة واجب، من شروط صحة الصلاة، إلا ما استثني من المسائل السابقة.
 - ٢- أن أحكام الله - تعالى - الشرعية، معللة، أي: لها علة وحكمة، وليست لمجرد المشيئة التي ليس لها حكمة ولا علة؛ لقوله: ﴿لَعَلَّأ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾.
- وفيهما: رد على من يقول من أهل البدع: إن أفعال الله - سبحانه وتعالى - وأحكامه لا تعلل بعلل؛ لأنه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فنقول: إن القرآن والسنة مملوءان من ذكر تعليل الأحكام بالعلل والمصالح، وأما قوله - تعالى -: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾، فهو لا يسأل عما يفعل؛ لكمال أفعاله، ولكونها لا تصدر إلا عن حكمة بالغة. ثم إن هناك أفعالاً لله - تعالى - وأحكاماً لا تعلم عللها وحكمتها؛ فلا مطعن فيها، ولا معارضة لله - تعالى - فيها؛ لأن عقول الخلق قاصرة عن إدراك كل حكمة لله - تعالى -.
- ٣- أنه ينبغي للإنسان أن يتجنب كل سبيل يكون فيه حجة عليه، حتى ولو كانت الحجة من أهل الظلم، ما لم يخالف بذلك شريعة الله - تعالى - فدرء الإنسان عن نفسه ما يقبح به، ويسب به: أمر مطلوب.
 - ٤- أن الظالمين أهل عناد وشقاق، وأنهم يعاندون ويشاقون حتى

فما تبين فيه الحق؛ لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾.

٥- تحريم خشية الناس في إضاعة حقوق الله؛ لقوله - تعالى - : ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ويترتب على هذه الفائدة: أنه لا تجوز المداهنة في دين الله - عز وجل -، بل يجب أن يكون الإنسان قويا، حازما، معتزا بدينه الذي من الله به عليه.

٦- بيان نعمة الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة بإتمام النعمة، حيث قال: ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، وما أكثر نعم الله - تعالى - على هذه الأمة، الدينية والدينية؛ كما قال الله - تعالى - : ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

٧- أن امتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهي الله ورسوله، سبب للهداية، وكلما ازداد الإنسان تقوى لله، ازداد هداية؛ كما قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

٨- ثم إن الآية الكريمة تشير إلى أن هناك أناسا ضد الدين الإسلامي، يحتجون على المسلمين، في كل ما جاء من شرعهم، ولكن على المسلمين أن يصمدوا، وأن يثبتوا على ما هم عليه، كما أمرهم الله في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وأهل العدوان يحتجون أحيانا على القرآن

الكريم، وأحياناً على رسول الله ﷺ، وأحياناً على ما تضمنته رسالة النبي ﷺ من الشرائع أو الشعائر.

نسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يجعلنا ممن يعتز بدينه، وأن يكفينا شر أعدائنا، وأن يجعل شرورهم في نحورهم، إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢].

قوله: ﴿ كَمَا ﴾ «الكاف» هنا: للتعليل؛ كقوله - تعالى -: ﴿ وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨]، أي: لهدايته إياكم. و﴿ مَا ﴾ مصدرية، وتقدير الكلام كإرسالنا فيكم رسولاً، وهو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾، أي: منكم أيها العرب؛ لأنه ﷺ من العرب، فهو هاشمي قرشي، وهو من بني إسماعيل، وليس من بني إسماعيل نبي سوى محمد ﷺ.

﴿ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا ﴾، أي: يقرؤها، والمراد بها: القرآن الكريم. ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾، أي: يزكي عبادتكم، ويزكي أخلاقكم، ويزكي نفوسكم؛ فالدين كله تزكية، على يد الرسول ﷺ.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعلمكم الكتاب - وهو القرآن - لفظه ومعناه، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي السنة التي جاء بها رسول الله ﷺ، وكذلك ما تضمنه القرآن من الحكم والأسرار، في الأحكام التي جاء بها. ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، أي: ما لم تكونوا تعلمون من قبل؛ فإن العرب كانوا قبل الرسالة أمة أمية، لا يعرف واحد منهم أن يكتب اسمه، ولكن الله - تعالى - من عليهم بهذا الرسول الكريم، فحصل لهم علم وزكاة وحكمة.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- منة الله - سبحانه وتعالى - علينا؛ حيث أرسل فينا هذا النبي الأمي، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة.
- ٢- أن رسول الله ﷺ حق من عند الله، قام بما يجب عليه من تلاوة آيات الله علينا وتزكيتنا، وقد علمنا ﷺ كل ما نحتاج إليه في أمور ديننا ودينانا، حتى قال أبو ذر - رضي الله عنه -: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقرب جناحيه في السماء، إلا ذكر لنا منه علماً»^(١).
- ٣- ثبوت التزكية، وإن شئت فقل: ثبوت الزكاة لمن اهتدى بما يتلوه النبي ﷺ من آيات الله؛ لقوله: ﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾، ومن عرف حال العرب قبل الإسلام، عرف كيف زكاهم الإسلام، وهذب أخلاقهم،

(١) رواه أحمد (٢٠٨٥٤، ٢٠٩٢٨).

وأزال عنهم عصبية الجاهلية.

٤- الحث على تعلم الكتاب والحكمة، أي: تعلم الكتاب والسنة؛ لأن الله جعله مما من الله به علينا، حيث قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. فضل النبي ﷺ على أمته بما يتلوه عليهم من آيات الله، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لا يعلمون.

٥- الإشارة إلى أن من تلا على عباد الله آيات الله، وزكاهم بما يقدم لهم من المواعظ، وعلمهم كتاب الله وسنة رسوله و، كان وارثاً لرسول الله ﷺ، ولهذا كان العلماء الربانيون، ورثة الأنبياء؛ لأنهم يرثونهم في أممهم، يعلمون الأمم ما خلفه الرسل من العلم والهدى، ويدعونهم إلى الخير، ويعينونهم على البر والتقوى.

٦- أن القرآن والسنة مشتملان على الحكمة، والحكمة هي: وضع الأشياء في مواضعها، بحيث تكون الأحكام مشتملةً على ما تكون فيه المصالح، وتدرأ به المفسد.

٧- فضيلة العلم؛ لقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾، حتى انتقلت أمة العرب من أمة أمية جاهلية، إلى أمة عالمة متقدمة.

٨- أنه ينبغي للإنسان أن يذكر الناس بنعمة الله عليهم في إرسال محمد ﷺ، الذي يتلو علينا آيات الله، ويزكينا، ويعلمنا الكتاب والحكمة، ويعلمنا ما لم نكن نعلم.

قال الله - تعالى :- ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

[البقرة: ١٥٢].

أمر الله - تعالى - بذكره، وبين ثوابه وجزاءه، فقال: ﴿ فَادْكُرُونِي ﴾، وهذا أمر بالذكر.

﴿ أذْكُرْكُمْ ﴾، وهذا الثواب والجزاء.

﴿ وَأَشْكُرُوا لِي ﴾، أي: اشكروني على ما أعطيتكم من النعم.

﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ فتجحدوا نعم الله عليكم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- الأمر بذكر الله، وذكر الله - تعالى - ينقسم إلى قسمين: ذكر واجب، وذكر تطوع ليس بواجب، فالصلاة - مثلاً - من الأذكار الواجبة، وهي متضمنة لذكر الله ؛ لأن فيها قراءة القرآن، وفيها الركوع والسجود، والقيام والقعود، والتسبيح والتعظيم لله - عز وجل -، ودعاء الله - عز وجل -، والنوع الثاني: ذكر تطوع؛ كالتسبيح، والتهليل، والتكبير، والصلوات النافلة.

وينقسم الذكر من وجه آخر إلى قسمين:

ذكر بالجوارح: كالأقوال والأفعال، وهذا يقع من المؤمن والمنافق.

وذكر بالقلب: وهذا لا يقع إلا من المؤمن.

٢- أن جزاء الذاكرين لله أن يذكرهم الله، وقد ثبت في الحديث

الصحيح: أن الله - سبحانه وتعالى - قال: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم»^(١)، وهم: الملائكة. وعلى هذا فينبغي للإنسان الإكثار من ذكر الله - عز وجل -، والمؤمن يمكنه أن يكون ذاكرًا لله - تعالى - دائمًا، وذلك بأن يشاهد نعمة الله عليه؛ فإن نعم الله - سبحانه وتعالى - على العبد لا تحصى، كل نعمة أنعم الله - سبحانه وتعالى - بها عليك، فإنها تذكرك بالله - عز وجل -، وبإحسانه وبفضله وإنعامه؛ ولهذا أثنى الله - تعالى - على الذاكرين على كل حال، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، وقال الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿١١١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢].

٣- وجوب شكر الله - عز وجل -، وذلك بالقيام بطاعته، وصرف نعمه إلى ما أمرنا الله بصرفها إليه، فلا نستعين بنعمه على معصيته.

٤- تحريم كفر النعمة؛ لقوله: ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾.

فنسأل الله - تعالى - أن يعيننا على ذكره، وشكره، وحسن عبادته؛

إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.



(١) «رواه البخاري كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَدِّثُكُمْ أَنَّهُ نَفْسُهُ﴾ رقم

(٧٤٠٥)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله، رقم (٢٦٧٥).

قال الله - تعالى :- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ هذا نداء من الله - عز وجل - وجهه إلى المؤمنين بوصف الإيمان، وهو الوصف العظيم الذي يعتز به كل مؤمن، وهو لا شك وصف تكريم وحث وإغراء؛ ولهذا قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : «إذا سمعت الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه»، وإذا صدر الله الخطاب بهذا النداء، فإنه يستفاد منه ثلاث فوائد:

الأولى: أهمية ما سيوجه إلى المؤمنين.

الثانية: أن امثال ما سيوجه إليهم من مقتضيات الإيمان.

الثالثة: أن مخالفته نقص في الإيمان.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، أي: اطلبوا

العون بالصبر والصلاة:

الصبر على الأمور، ومصابرتها: إن كانت من المأمور بها، فأن تصبر على أداء ما أمرت به، وإن كانت من المنهي عنها، فأن تصبر على اجتنابك لها؛ وذلك لأن النفوس ضعيفة، قد تشق عليها الأوامر، فتراجع وتنسحب، ولا تكمل الواجب، وقد يشق عليها اجتناب النواهي، فتعجز عن الصبر، وتنتهك المحرمات؛ فلهذا أمر الله -

سبحانه وتعالى - بالصبر: ﴿أَصْبِرُوا﴾، والاستعانة به، وما أعطي الإنسان عطاءً أحسن وأوسع من الصبر؛ فإن الإنسان إذا صبر وعود نفسه على الصبر، خفت عليه الأمور.

وأما الاستعانة بالصلاة: فإن الإنسان يقف بين يدي الله - عز وجل - يناجيه بكلامه، ويتقرب إليه بالثناء عليه ويدعوه، قال النبي ﷺ: «وأما السجود، فأكثروا فيه من الدعاء؛ فممن أن يستجاب لكم»^(١)، فالصلاة تعين الإنسان على شدائده، ويذكر عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة^(٢).

ثم قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾؛ وهذا ترغيب في الصبر؛ لأن الإنسان إذا علم أن الله معه، سهل عليه معالجة نفسه بالصبر.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- فضيلة الإيمان، وأنه وصف ينبغي للإنسان أن يعتز به؛ لقوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢- أن يستعين الإنسان على أموره بالصبر.

٣- جواز الاستعانة بغير الله، فيما يكون سبباً للعون؛ لأنه قال:

(١) رواه مسلم كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود، رقم: (٤٧٩) بلفظ: «فاجتهدوا في الدعاء».

(٢) رواه أحمد (٢٢٧٨٨)، عن حذيفة - رضي الله عنه - قال: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ صلى)، وأبو داود كتاب التطوع، باب وقت قيام النبي ﷺ، رقم (١٣١٩).

﴿أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ ، وهذه استعانة مقيدة غير متعبد بها. أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها، فلا تكون إلا لله وحده؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

٤- فضيلة الصبر، وأنه عون للإنسان على مهمات أموره، وهذا شيء مجرب؛ فإن الإنسان قد يستثقل أن يقوم في آخر الليل؛ ليتوضأ بالماء البارد ويصلي في البرد، وفراشه أذفاً له، ولكن نقول: اصبر، اصبر على هذا، واحتسب الأجر، وكذلك ربما يشق عليه أن يتردد إلى المسجد، فنقول: اصبر واحتسب، وربما يشق عليه أن يصوم، فنقول: اصبر على الجوع، اصبر على العطش؛ فإن هذا كله خير لك، وكذلك إذا نزلت به مصيبة فصبر وانتظر انكشافها، هانت عليه.

٥- أن الإنسان إذا حزبه أمر، واشتد عليه، فليفرغ إلى الصلاة؛ لقوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

٦- فضيلة الصلاة، وفوائدها، ومن تأمل الواقع، وجد أن للصلاة تأثيراً بالغاً في تنشيط الإنسان وتقويته، وتسهيل الأمور أمامه.

٧- إثبات أن الله مع الصابرين، والمعية هنا لا تقتضي الاختلاط، يعني: لا تقتضي أن يكون معهم في أماكنهم؛ فإن الله - تعالى - منزه عن ذلك، وهو - سبحانه وتعالى - فوق كل شيء، كما قال الله - تعالى -: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، لكن هذه المعية تقتضي: النصر والتأييد والتثبيت، وهذه معية خاصة، وأما المعية العامة لكل أحد

فتقتضي: الإحاطة بالخلق؛ علمًا وقدرةً وسلطانًا، وغير ذلك من معاني ربوبيته - تعالى - كقوله - تعالى -: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

٨ - الترغيب في الصبر؛ لأن قول الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، يراد به - مع إثبات المعية - الحث على الصبر، والترغيب فيه.

وللصبر فوائد كثيرة:

منها: الأجر الكثير؛ فإن الله - تعالى - قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ومنها: ترويض النفس على الانضباط، والحكمة، وعدم الملل؛ وذلك أن الإنسان لا بد أن يفعل، فإذا صبر على الفعل الذي هو متلبس به، لعلمه بفائدة الاستمرار فيه، فقد روض نفسه على معاناة الأمور وتحملها.

ومنها: أن الصبر سبب لحسن العاقبة؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

ومنها: أن الله مع الصابرين، وهذه أعظم فائدة: أن يكون الله معك؛ فإنه من كان الله معه، فإنه منصور.

ومنها: أن الإنسان تهون عليه المصائب، فيما إذا أصيب بمصيبة، ثم صبر واحتسب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مرها فلتصبر ولتحتسب؛ فإن لله ما أخذ وله ما أبقى، وكل شيء عنده بأجل مسمى»^(١).

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤].

في هذه الآية ينهى الله - سبحانه وتعالى - عباده المؤمنين أن يقولوا للذي يقتل في سبيل الله: أموات، أي: أن يقولوا في شأن هؤلاء: إنهم أموات، ومعلوم أن من قتل في سبيل الله، فقد مات حتمًا؛ ولهذا يدفن في الأرض، كما يدفن غيره من الأموات؛ لأن روحه فارقت جسده، لكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله، في الواقع: أحياء حياةً برزخيةً، ليست كحياة الدنيا المادية الحسية.

﴿ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾؛ لأن حياتهم من عالم الغيب، وعالم الغيب لا يمكن أن نشعر به في عالم الشهادة، لكن يجب علينا أن نؤمن بكل ما أخبر الله به من أمور عالم الغيب؛ لأنه صادر عن أعلم العالمين، وأصدق القائلين، وهو الله - سبحانه وتعالى -.

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «لا يُعَدَّبُ الميت ببعض بكاء أهله»، رقم (١٢٨٤)، ومسلم كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت، رقم (٩٢٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- نهي المسلم أن يقول لمن قتل في سبيل الله: إنه ميت، هذا إذا قلنا: إن القول: قول اللسان، أما إذا قلنا: إن القول قول القلب - يعني: اعتقاد القلب - فإنه لا حرج أن نعتقد أنه مات ميتة حسية؛ لأن ذلك هو الواقع، لكنهم أحياء عند الله - تعالى.

٢- فضيلة من يقتل في سبيل الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ﴾، أي: بل هم أحياء.

٣- جواز إطلاق الوصف باعتبارين؛ فإن الذين قتلوا في سبيل الله أموات باعتبار الحياة الحسية؛ لأن أرواحهم فارقت أجسادهم، لكنهم أحياء باعتبار الحياة البرزخية، فهم أموات من وجه، وأحياء من وجه آخر، وذلك لاختلاف الأحوال، ولكن لا نصفهم بالوصف الأدنى، وهو الموت.

٤- أن علم الآخرة غير مشعور به؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنه أمر غيبي لا يمكن إدراكه حسا.

٥- أن عذاب القبر أو نعيم القبر أمر لا يطلع عليه، هذا هو الأصل، لكن قد يطلع الله عليه من شاء من عباده، كما أطلع الله نبيه محمداً ﷺ، على الرجلين اللذين كانا يعذبان في قبريهما، حيث قال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، أما أحدهما: فكان لا يستبرئ من

البول - أو قال: لا يستتر من البول - وأما الآخر: فكان يمشي بالنميمة»^(١).

٦- قصور علم الإنسان؛ حيث يكون الذي قتل في سبيل الله عنده حيا، وهو لا يشعر بحياته، وهذا يدل على نقص علم الإنسان، وهو كذلك؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

* * *

قال - تعالى -: ﴿ وَنَبَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

في هذه الآية يؤكد الله - سبحانه وتعالى - أنه سيبلو عباده ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾، كلها فيها الابتلاء والامتحان، ويؤكد الله - سبحانه وتعالى - ذلك بثلاث مؤكدات: اللام، ونون التوكيد، والقسم المقدر؛ لأن تقدير الكلام: والله لنبلونكم بشيء من الخوف، وهو: الذعر، سواء أكان هذا الخوف من عدو حقيقي مائل أمام الإنسان، أو من عدو غير معلوم: كالخوف الذي يلقيه الشيطان في قلب الإنسان؛ كما قال - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفكم أوليائه.

(١) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

﴿وَالْجُوع﴾، وهو: نقص الطعام، سواء أكان ذلك بفقد النقود التي يشتري بها الإنسان طعامه، أو بفقد الطعام نفسه، بحيث لا تنبت الأرض، أو لا يجلب إلى البلد.

﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ نقص من الأموال: بما يحدث من الجوائح والفيضانات وغيرها، مما يرسله الله - سبحانه وتعالى - على عباده عند معصيتهم إياه، ونقص الأنفس: بالموت؛ كالأوبئة ونحوها، ونقص الثمرات: أن ما يخرج من الأرض؛ كالأشجار والزرع وغيرها، تصاب بنقص: إما في فساد ثمرتها، أو هلاكها، أو ضعفها، أو ما أشبه ذلك.

وكل هذه مصائب يقدرها الله - عز وجل -؛ ليلو عباده: أيصبرون أم لا يصبرون؟ ولهذا قال: ﴿وَنَشِيراً لِّلصَّابِرِينَ﴾، أي: أخبرهم بما يسرهم، وهم الذين يصبرون على هذا البلاء: الخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات.

والخطاب في قوله: ﴿وَنَشِيراً لِّلصَّابِرِينَ﴾: إما للرسول و، أو لكل من يصح توجه الخطاب إليه، إلى يوم القيامة.

ثم بين صفة من صفات الصابرين، يتميزون بها عن غيرهم، وبين ثوابهم، فقال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]:

﴿أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾، أي: من المصائب السابقة في الآية قبلها، أو

غيرها.

﴿قَالُوا﴾، أي: بألسنتهم، معترفين بها في قلوبهم.

﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، أي: له، ملكًا وعبيدًا؛ فله أن يفعل بنا ما شاء.

﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، أي: في جميع شؤوننا، ومنها أننا سنبعث

ونلاقيه؛ كما قال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا

فَمُلْقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، الصلوات من الرب على

العبد، قيل: إنها، الرحمة، والصلوات: أن الصلوات غير الرحمة؛ لأن الله

- تعالى - قال: ﴿صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾، والعطف يقتضي المغايرة،

فما هي الصلاة على العبد؟ «الصلاة على العبد» أحسن ما قيل فيها ما

قاله أبو العالية - رحمه الله - حيث قال: «صلاة الله على العبد: ثناؤه عليه

في الملأ الأعلى»، يعني: أن الله - تعالى - يثني على المصلئ عليه، في الملأ

الأعلى عند الملائكة.

وعلى هذا: فمعنى الآية: ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾، أي: لهم ثناء

من الله - تعالى - عند الملأ الأعلى.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: رحمة يحصل بها مطلوبهم، وينجون بها من

مرهوبهم.

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾، أي: إن الذين إذا أصابتهم مصيبة، سلموا الأمر

الله، وقالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

و«هم» هذه يسميها علماء اللغة: ضمير الحصر، يعني: أنها تحصر الحكم فيما بعدها، ويتضح هذا بالمثال، فإذا قلت: فلان القائم، أو قلت: فلان هو القائم، صار قولك هو القائم، أكد في الحصر والاختصاص من قولك: فلان القائم؛ ولهذا فهي - في الحقيقة - مع إفادتها الحصر، تفيد: التوكيد.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، أي: الذين اهتدوا بهداية الله - تعالى -

لهم.

في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- جواز التوكيد بالقسم في الأمور الهامة؛ لقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾، ولكن ينبغي أن يعلم أنه لا ينبغي للإنسان أن يكثر من الأيمان، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وإلا فإنه يلقي الخبر على ما هو عليه، بدون توكيد، لكن عند الحاجة لذلك يؤكد بالقسم.

٢- أن الخوف والجوع ونقص الأموال ونقص الأنفس ونقص

الثمرات، كلها من المصائب والبلاء.

٣- بيان حكمة الله - عز وجل - في تدبيره لخلقه، حيث يقدر لهم

الضراء والسراء؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً؛ كقوله - تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ﴾

[محمد: ٣١].

٤- أنه ينبغي للإنسان أن يشعر بقدر نعمة الله عليه، بالأمن، والعيش الرغيد، ونمو الأموال والأنفس والثمرات.

٥- أن نقص هذه الأشياء مصيبة، فتكون زيادة هذه الأمور، نعمةً ومنحةً، ولا شك أنه كلما كثرت الأموال، وصرفت في طاعة الله، واستعمل الناس حياتهم في طاعة الله، فإن ذلك خير.

٦- أنه ينبغي للإنسان أن يبشر أهل العمل الصالح، بما يكون من ثواب هذا العمل؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

والمبتلى بمصيبة من المصائب المذكورة، لا يخلو من أربع حالات:

الحالة الأولى: التسخط والتضجر.

الحالة الثانية: الصبر.

الحالة الثالثة: الرضا.

الحالة الرابعة: الشكر.

هكذا قسم بعض العلماء من يصابون بالمصائب، إلى هذه الأقسام الأربعة:

فأما الحال الأولى:

وهي التسخط، فهي حرام، لا يحل للإنسان أن يتسخط على قضاء الله وقدره، لا بقلبه، ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا يعني ذلك أن نقول: إنه لا يحزن، قد يحزن الإنسان، ولا يستوي عنده المصيبة وعدمها،

فتكون المصيبة أشد وقعاً عليه، ويحزن لها، لكن يصبر؛ وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ في ابنه إبراهيم حين مات، قال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»^(١).

الحال الثانية: الصبر، وهو: أن يتجرع ألم المصيبة ويتألم، ولا يستوي عنده وجود المصيبة وعدمها، بل هو متكدر منها، لكنه لا يقول ما يغضب الله، ولا يفعل ما يغضب الله، وهذا واجب، يجب على الإنسان أن يصبر، ولا يجوز أن يتسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله.

الحال الثالثة: أن يرضى بقضاء الله، أي: يرضى بهذه المصيبة التي أصابته، والفرق بين الرضا والصبر: أنه في حالة الصبر، يتألم الإنسان من المصيبة قلبياً، لكن لا يظهر التسخط، لا بقوله، ولا بقلبه، ولا بفعله، لكنه يتألم، إلا أنه صابر عن فعل ما لا يرضي الله، أما في حالة الرضا: فإنه لا يتألم، بمعنى: أن وجود هذه المصيبة عنده كعدمها؛ لأنها من الله، لا يكون في قلبه ألم أو حسرة، ومعلوم أن هذه الحالة أعلى من الحال الأولى، وإن كانت الحال الأولى أشد من جهة المعاناة، معاناة منازعة النفس.

أما الحال الرابعة: فهي الشكر على هذه المصيبة، ولكن قد نقول:

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزونون» رقم (١٣٠٣)، ومسلم كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان، رقم (٢٣١٥).

كيف يشكر الإنسان على مصيبة ألمت به، وأثرت عليه؟ فنقول: نعم، يشكر الله؛ لأن هذه المصائب عقوبات معجلة على ذنوب فعلها، فيشكر الله - سبحانه وتعالى - على أن عجل عقوبة هذه الذنوب في الدنيا، قبل أن تكون في الآخرة، وأيضًا: هو يشكر الله - سبحانه وتعالى - على ما يحصل له من ثواب هذه المصيبة، فيكون شكر الله منه على هذه المصيبة، من وجهين:

الوجه الأول: أن عقوبته عجلت، والعقوبة في الدنيا أهون من عقوبة الآخرة.

والوجه الثاني: أن الله - تعالى - يشبه على هذه المصيبة أكثر مما يتوقع. فهذه أحوال من أصيب بمصيبة.

٧- أن من تمام الصبر، تفويض الأمر إلى الله - سبحانه وتعالى - عند المصائب؛ لقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ ولهذا ينبغي لمن أصيب بمصيبة أن يسترجع فيقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، وأن يقول ما جاءت به السنة: «اللهم، أجزني في مصيبتى، وأخلف لي خيرًا منها»؛ فإن من قال ذلك، أجره الله في مصيبتة، وأخلف له خيرًا منها، قالت أم سلمة - رضي الله عنها -: إنه حين مات زوجها أبو سلمة - رضي الله عنه - وهو من أحب الناس إليها - قالت ما ذكره النبي ﷺ قالت: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهم، أجزني في مصيبتى، وأخلف لي خيرًا منها، فكانت تقول في نفسها: من خير من أبي سلمة،

فإذا برسول الله ﷺ يتزوجها بعد أبي سلمة، فأعطاها الله سبحانه خيراً مما أخذ منها^(١).

٨- أن العباد لله - عز وجل -، خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ فهو يفعل فيهم ما يشاء.

٩- الإيمان باليوم الآخر؛ لقوله: ﴿وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.
أما قوله - تعالى -: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾،
فمن فوائدها:

١٠- أن الله - تعالى - يعطي الصابرين هذا الثواب الجزيل.
١١- علو منزلة هؤلاء الصابرين؛ حيث قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.
﴿أُولَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد؛ وذلك لعلو مرتبتهم.

١٢- بيان الثواب العظيم والجزيل للصابرين؛ حيث نالوا من الله - سبحانه وتعالى - الثناء عليهم في الملا الأعلى؛ لقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

١٣- بيان ضعف القول بأن الصلاة من الله هي: الرحمة؛ وذلك لأن الله - تعالى - عطف الرحمة على الصلوات، والعطف يقتضي المغايرة؛ فدل ذلك على أن الصلوات غير الرحمة، وكما أسلفنا أن أبا

(١) رواه مسلم كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (٩١٨).

العالية - رحمه الله - قال: «إن صلاة الله على عبده، ثناؤه عليه في الملائكة الأعلى».

١٤- أن هؤلاء الصابرين موفقون للهداية؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

نسأل الله أن يجعلنا من الصابرين على البلاء، الشاكرين على الرخاء، المهتدين بهداية الله، إنه جواد كريم.

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ط فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

الصفاء والمروة: جبلان معروفان، شرقي الكعبة المشرفة، ويسمى الأول: جبل أبي قبيس، جبل كبير من جهة غزة، وعليه بيوت الآن!! والثاني: جبل المروة، وكان عليهما صنمان لقريش، فتخرج الصحابة - رضي الله عنهم - من أن يطوفوا بهما، فأنزل الله هذه الآية: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

والشعائر: جمع شعيرة، وهي الخصلة المعظمة في كتاب الله - عز وجل -؛ كما قال - تعالى -: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعِيرَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ «أو» هنا: للتنويع، يعني: أن من

حج، أو اعتمر، فليسع بينهما: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ويستفاد من قوله - تعالى -: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أن الإنسان مأمور بالطواف بهما؛ فإن شعائر الله معظمة، ومن تعظيمها أن يطوف المسلم بين الصفا والمروة.

و«الجناح» هنا بمعنى: الإثم، و﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، أي: بينهما. ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْرًا﴾، أي: من فعل طاعة؛ فإن الطاعة خير. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يشكر هذا الفاعل، فيعطيه جزاءه: الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- أن الصفا والمروة من شعائر الله، ويتفرع على ذلك أن الطواف بهما قربة إلى الله - عز وجل -.

٢- أن السعي بين الصفا والمروة، من شعائر الحج والعمرة؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾.

أن نفي الجناح لا يمنع أن يكون الشيء مأمورًا به؛ لأنه قد ينفي الشيء، خوفًا من توهمه، مع بقاء أصل المشروعية.

٣- أنه لا بد أن يستوعب الإنسان ما بين الصفا والمروة؛ لقوله: ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، ولا يمكن تحقق الطواف بهما، إلا إذا استوعب ما بينهما؛ ولهذا قال العلماء: «لا بد أن يستوعب الساعي، ما بين الصفا والمروة». وفي الوقت الحاضر علامة الاستيعاب، هي: منتهى الشبك -

الممر - الذي جعل للعربات، فإنه بانتهائه يكون انتهاء المسعى القديم.
 ٤- الحث على فعل الطاعة؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾.

٥- إثبات هذين الاسمين من أسماء الله وهما: «الشاكر» و«العليم»
 وإثبات ما تضمنناه من صفة، وهى: «الشكر» و«العلم»، ولكن لا شكر
 إلا على فعل محمود؛ فالله - تعالى - يشكر من فعل ما يقربه إليه ويرضيه.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
 وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
 اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ
 وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠].

هاتان الآيتان فيمن آتاه الله علمًا فكتمه، توعدده الله - تعالى - بهذا
 الوعيد الشديد: أن الله يلعنه، ويلعنه - أيضًا - اللاعنون؛ وهذا كقوله -
 تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا ۖ أُولَٰئِكَ عَلَيْنَا لَعْنَةُ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، إلا أن الله - تعالى - استثنى
 من تاب وأصلح وبين، ووعد من قام بذلك، أن الله يتوب عليه، وأن
 الله - سبحانه وتعالى - هو التواب الرحيم.

في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي:

١- تحريم كتم ما أنزل الله من البينات والهدى، وأنه من كبائر

الذنوب؛ لأن الكاتم مستحق لللعنة الله ولعنة اللاعنين.

٢- علو الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ ﴾،

وعلو الله - سبحانه وتعالى - ينقسم إلى قسمين:

علو ذاتي: بمعنى أنه - تعالى - بذاته فوق كل شيء.

وعلو معنوي: بمعنى أن صفاته كلها عليا، ليس فيها نقص بوجه

من الوجوه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠].

٣- أن ما أنزله الله - عز وجل - بيان للناس وهدي؛ وهذا كقوله -

تعالى - في وصف القرآن: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى

لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

٤- أن ما نزل من عند الله، فإنه هدي يهتدي به كل من شاء الله -

تعالى - هدايته؛ لقوله - تعالى -: ﴿ مِّنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ ﴾.

٥- أن الله - تعالى - بين للناس في الكتب ما يحتاجون إليه في أمور

دينهم ودنياهم، فما من شيء يحتاجه العباد في عبادة الله، إلا بينه - عز

وجل -، وما من شيء يحتاجونه في المعاملات بينهم، إلا بينه الله - عز

وجل -، حتى يكون الناس على بصيرة من أمرهم، وحتى تقوم عليهم

الحجة؛ لقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ ﴾.

٦- أن أولئك الكاتمين يستحقون اللعنة؛ لقوله: ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ

وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾، ويترتب على ثبوت اللعنة لهؤلاء، أنه يجب على

أهل العلم أن يبينوا للناس ما أنزل الله - تعالى - من العلم، ولا يكتموا شيئاً منه؛ مدهانةً، أو محاباةً لبعض الناس.

٧- ومن الفوائد والحكم في الآية الثانية، وهي قوله - تعالى -: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، ما يلي:

٨- أن من تاب من ذنب، فإن الله - تعالى - يتوب عليه، وهذا مستفيض مشهور في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولكن التوبة لا بد لها من شروط:

الشرط الأول: أن تكون بإخلاص، بألا يحمل الإنسان على التوبة إلا وجه الله، ورجاء ثوابه، لا يريد بذلك جاهاً، ولا رياسةً، ولا مدحاً من الناس.

الشرط الثاني: أن يندم على ما جرى عليه من المعصية، سواء كانت المعصية بترك واجب، أم بفعل محرم.

الشرط الثالث: أن يقلع عما هو عليه من الذنب، فإن كان إهمالاً لواجب، قام به، أي: بالواجب، وإن كان فعلاً لمحرم، نزع عنه، وإذا كان حقاً لآدمي، فإنه لا بد أن يستحله، أو يؤديه حقه.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل، فإن قال: إنه تائب، ولكن من نيته أن يعود، فإن هذه التوبة ليست بصحيحة.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، وهي

بالنسبة لكل فرد، تنتهي بحضور أجله، وبالنسبة لعموم الناس، تنتهي بطلوع الشمس من مغربها، ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله - تعالى :- ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك يعني: طلوع الشمس من مغربها، فإنها إذا طلعت من مغربها، آمن الناس كلهم، ولكنه: ﴿ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾.

٩- أنه لا بد في التوبة من الإصلاح؛ لقوله - تعالى :- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا ﴾، فإذا ترتب على فعل المعصية فساد شيء من الأشياء، فلا بد أن يقوم التائب بإصلاح هذا ما أمكنه.

١٠- أن من كانت معصيته بذنب، فلا بد أن يأتي في التوبة بما يقابل هذا الذنب، وهؤلاء كانت معصيتهم بالكتمان - كتمان ما أنزل الله - فلهذا لا بد أن يبينوا؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا ﴾، فإن قال: إنه تائب عن كتمان ما أنزل الله، ولكنه لم يبين؟ فنقول: إن هذه التوبة لا تنفعه؛ لأنه لا بد أن يصلح الإنسان ما فسد على يديه بمعصيته، فالكاتم لا يمكن أن تقبل توبته وتكون صحيحة، إلا إذا بين.

١١- أن من تاب من ذنب، فإن الله يتوب عليه، وعد من الله - عز وجل -؛ لقوله - تعالى :- ﴿ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾، وهذا عام في كل

زمان، فمن تاب - من أي ذنب كان - فإن الله يتوب عليه؛ لقول الله - تعالى -: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

١٢- إثبات اسمين من أسماء الله هما: «التواب»، و«الرحيم».

ف«التواب» هو الذي يوفق للتوبة، ويقبل التوبة؛ والدليل على ذلك: أن الله - سبحانه وتعالى - قال - في الذين خلفوا في غزوة تبوك -: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨]، فقوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: قدر لهم التوبة حتى قاموا بها؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾.

أما المعنى الثاني للتوبة فهو: قبول التوبة، ودليله قوله - تعالى -: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٥].

وأما «الرحيم»، فهو: ذو الرحمة، ورحمة الله - تعالى - نوعان:

عامة، تشمل كل الخلق، حتى الكفار فإنها تشملهم.

وخاصة: بالمؤمنين، لا تشمل الكافرين؛ ودليلها قوله - تعالى -:

﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

* * *

ثم قال - تبارك وتعالى -: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾، أي: كفروا بالله، وبما يجب الإيمان به.

والكفر نوعان: نوع جحود، ونوع استكبار.

فالجحود: يتعلق بالأخبار.

والاستكبار: يتعلق بالأوامر والنواهي.

فمن كذب خبراً من أخبار الله أو أخبار رسوله الثابتة عنه ﷺ، فإنه يكون كافراً، وكفره هذا كفر جحود وتكذيب، ومن صدق، ولكن استكبر، فإنه يكون كافراً، إذا استكبر عن جميع ما أمر الله به، وكفره هذا كفر استكبار، ومنه كفر إبليس؛ حيث قال الله له مع جملة الملائكة: ﴿ اسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾، يعني: استمروا في كفرهم حتى الموت.

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ كل يلعنهم -

والعياذ بالله - كل يتبرأ منهم، بل هم أنفسهم في النار ﴿ كَلَّمَا دَخَلَتُ أُمَّةٌ لَعْنَتَ أَخْتِهَا ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾، أي: في اللعنة؛ وهي الطرد والإبعاد من رحمة

الله، هم خالدون فيها، والعياذ بالله.

﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ لا يخفف عنهم؛ أي: بقلة ألمهم.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: لا يمهلون بتأخير العذاب عنهم، بل العذاب يعجل - والعياذ بالله -، ويؤخذون على ما فعلوه.

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- أن الكافر لا يستحق الوعيد إلا إذا مات على الكفر؛ لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، هذه هي القاعدة العامة في الشريعة: أن الإنسان لا يعذب عذاب الكفرة، إلا إذا مات على الكفر، ومن ذلك قوله - تعالى -: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ - فَيُتِمَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٢- خلود أهل النار في لعنة الله؛ لقوله - تعالى -: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وقد وردت آيات ثلاث تدل على أن عذاب النار مؤبد، ففي سورة النساء قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]، وفي سورة الأحزاب قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥]، وفي سورة الجن قال الله - تعالى -: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ ؕ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]؛ ولهذا لا يعرف عن أهل السنة وأئمة السلف، إلا هذا القول، أي: القول بأن جهنم يخلد فيها أصحابها أبد الأبدين - والعياذ بالله.

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

والخطاب هنا لجميع البشر: يخبر الله - تعالى - أنه إله واحد، ويؤكد ذلك بقوله: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا إله حق إلا هو، والإله بمعنى: المعبود حبا وتعظيماً.

ويبين - عز وجل - بعد ذلك أنه الرحمن الرحيم، وفي هذا - والله أعلم - إشارة إلى أن ألوهيته وربوبيته مبنية على الرحمة بعباده؛ ولهذا ترى ما أمر الله به أمراً ليس بشاق على الناس، بل إذا وجدت المشقة، وجد التسهيل؛ لقول النبي ﷺ: «إن هذا الدين يسر»^(١)، وقوله ﷺ وهو يبعث البعوث: «إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(٢)، وقوله ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٣).

في هذه الآية من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- إثبات ألوهية الله، ووحدانيته في هذه الألوهية؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

٢- أنه ينبغي في الكلام الهام أن يؤكد بما يؤيده؛ لقوله: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٢) رواه البخاري كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، رقم (٢١٧).

(٣) رواه البخاري كتاب التقصير، باب إذا لم يطق قاعداً صَلَّى على جنب، رقم (١٠٦٦).

٣- إثبات اسمين من أسماء الله، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وإثبات ما تضمنناه من صفة، وإذا ذكر هذان الاسمان جميعاً، صار الأول للصفة، والثاني للفعل، وإن أفرد أحدهما شمل الآخر، وعلى هذا فيكون: «الرحمن»، أي: ذو الرحمة الواسعة، و«الرحيم»، أي: الموصل رحمته لعباده، وفي «الرحيم» إثبات أن رحمة الله - عز وجل - تتعدى للمرحوم؛ ولهذا قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨].

٤- إثبات وحدانية الله - تعالى - في الألوهية؛ لقوله: ﴿وَالنُّهْكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

٥- الرد على المشركين الذي يعبدون مع الله إلهًا آخر، والعجب أنهم يعبدون مع الله إلهًا آخر، ويقولون في حق النبي ﷺ: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فيقال: إن العجاب كل العجاب، ما أنتم عليه من الشرك، كيف تعبدون مع الله غيره، وهو خالق السموات والأرض، المتفرد بخلقهما؟!!

٦- تأكيد الجملة الخبرية بما يؤيدها، لا سيما في الأمور الهامة، ولا يعد هذا تكرارًا في الكلام؛ لقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٧- الرد على النصارى المثليين، الذين يقولون: إن الله ثالث ثلاثة؛ فإن الله - تعالى - يقول: ﴿وَالنُّهْكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

ثم قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

هذه جمل تدل على آيات عظيمة، لكن لا ينتفع بهذا إلا أهل العقل؛ لقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالأول قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، في خلق السموات والأرض آيات عظيمة ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كيف جعل الأرض على هذا الوجه، وأرساها بالجبال؟! وجعل السماء على هذا الوجه، وزينها بالنجوم؟! وكيف تكون هذه الأرض على ما فيها من سعة عظيمة، تكون ملجأً للخائفين، ومزدرعاً للحارثين؟! وكذلك السماء بأفلاكها ونجومها، وشمسها وقمرها، كلها إذا تأملها الإنسان، وجد فيها آيات عظيمة.

وقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أيضًا فيه ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. اختلاف الليل والنهار: بالطول والقصر، كذلك - أيضًا - بما يحدث فيها من حوادث، وحروب، وأمن، ورخاء، وشدة، وقحط، وغيث، وغير ذلك.

﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ وهذا - أيضًا - من

الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلُونَ﴾، الفلك: هي السفينة، تجري في البحر، في هذه المياه العميقة الواسعة التي تتلاطم بالأمواج، وهذه الفلك تجري في البحر بما ينفع الناس: بحمل بني آدم من جهة إلى جهة، وتحمل الأرزاق من بلد إلى بلد، وغير ذلك من الآيات العظيمة في ﴿وَالْفُلكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا - أيضاً - من آيات الله؛ فهذا المطر الذي ينزل على الأرض القاحلة الميتة الهامدة، فتصبح الأرض مخضرة، كل هذا من آيات الله - عز وجل -، وقول الله - عز وجل -: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، يعني: في هذا - أيضاً - آيات لقوم يعقلون، ويريد بالماء الذي ينزل من السماء، يريد به - تبارك وتعالى - المطر، يحيي به الله الأرض بعد موتها، فتجد الأرض هامدة، يابسة، فإذا بها مخضرة تهتز، في هذا آيات على كمال قدرة الله - عز وجل -، وعلى قدرته على إحياء الموتى؛ كما يستدل الله - سبحانه وتعالى - على ذلك في آيات كثيرة من القرآن.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾، أي: نشر في الأرض من كل دابة من الدواب الكثيرة، التي لا يمكن تعداد أجناسها، فضلاً عن أفرادها، وهذه الدواب كلها رزقها على الله - عز وجل -؛ كما قال - تعالى -: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي

كَتَبَ مُبِينٍ ﴿٦﴾ [هود:٦].

والدابة هنا: اسم لكل ما يدب على الأرض، من صغير وكبير، وإنسان وحيوان.

﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾، يعني: تحريفها من جنوب إلى شمال، ومن شرق إلى غرب، وهناك تصريف آخر: من حارة إلى باردة، وتصريف ثالث: من مثيرة للسحاب، إلى ملقحة له، كل هذا التصريف فيه آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذا التصريف للرياح، لو اجتمعت الخليفة كلها على أن تأتي بمثله، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لو جمعت جميع المكائن النفاثات، وبكل قواها، ما استطعت أن تأتي بأدنى ريح من هذه الرياح.

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ هذا السحاب الذي ينسحب في الجو حاملاً المياه العظيمة، بل قد قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَّابًا فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور:٤٣]، هذا السحاب المسخر المذلل بأمر الله - تعالى - بوجهه حيث شاء.

في هذا كله يقول الله - عز وجل -: ﴿لَا يَتْلُو لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: لقوم عندهم عقول، يستدلون بهذه الأشياء وغيرها، على قدرة الله، تبارك وتعالى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي:

- ١- ما أشار الله إليه في آخرها: ﴿لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.
- ٢- الإشارة إلى خلق السموات والأرض، وأن خالقهما - جل وعلا - له من القدرة العظيمة ما يبهر العقول، ولقد بين الله - تعالى -: أنه خلقها في ستة أيام، وما مسه من لغوب، جل وعلا^(١).
- ٣- العبرة باختلاف الليل والنهار على الوجه الذي شرحناه فيما سبق. وفيها - أيضًا - نعمة الله - سبحانه وتعالى - بهذا الاختلاف، وقد أشار الله - تعالى - إلى ذلك في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].
- ٤- بيان نعمة الله - تعالى - بالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، حيث تنقل الناس من بر إلى بر، وتنقل الأطعمة وما يحتاجه الناس، حتى ينتفع الصادر منهم ذلك، والوارد إليهم.
- ٥- تمام قدرة الله - تبارك وتعالى - بإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض به.
- ٦- بيان حكمة الله حيث جعل هذا المطر ينزل من علو، ليشمل ما ارتفع من الأرض، وما نزل منها.
- ٧- بيان إحاطة علم الله - سبحانه وتعالى - بكل شيء في هذه

(١) سورة (ق)، آية: ٣٨.

الأرض: من الدواب الصغيرة والكبيرة؛ حيث إن الله - تعالى - نشر في هذه الأرض هذه الدواب، حتى إن الإنسان لينزل أحياناً في أرض قفر ليس حولها أحد، فإذا به يرى النمل، ويرى غيرها مما خلق الله - عز وجل -.

٨- بيان قدرة الله - عز وجل - بتصريف الرياح، وهذا التصريف له حكم عظيمة؛ لأنه من فعل الله - تعالى - وكل فعل من أفعال الله، فإنه مقرون بالحكمة البالغة؛ لأن من أسماء الله: «الحكيم»، وهو: المحكم، المتقن، لكل ما صنع، ولكل ما شرع.

٩- أن هذا السحاب مسخر، أي: مذل، يصرفه الله - تعالى - حيث يشاء، ولا أدل على ذلك من استسقاء النبي ﷺ في خطبة الجمعة، حيث جاءه رجل فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا، فرفع النبي ﷺ يديه، وقال: «اللهم، أغثنا - ثلاث مرات - فما نزل من المنبر إلا والمطر يتحدر من لحيته»^(١).

وكذلك قصة الرجل صاحب الحديقة: حين سمع رجل آخر صوتاً من السحاب يقول: اسق حديقة فلان، فنزل المطر في حدة، ثم جرى في شرج منها حتى أروى تلك الحديقة، فجاء الذي سمع الصوت إلى صاحب الحديقة يسأله: من أنت؟ حتى ذكر له الاسم

(١) رواه البخاري كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في المسجد الجامع، رقم (١٠١٣)، ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء رقم (٨٩٧).

الذي سمعه من السماء، فلما سأله صاحب الحديقة: ما شأنك؟ أخبره بأنه سمع صوتاً من السحاب، يقول: اسق حديقة فلان، ثم سأله: ماذا كنت تصنع في هذه الحديقة؟ فأخبره أنه يجعلها أثلاثاً: يجعل ثلثاً للقيام عليها، وثلثاً لنفقته وعياله، وثلثاً يتصدق به^(١).

١٠ - فضيلة العقل، وأن العقل يهتدي به صاحبه إلى معرفة آيات الله - عز وجل -، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - أنه لا يعقل هذه الأمثال، وهذه الآيات إلا العالمون، فقال - تعالى -: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضِرُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

* * *

قال الله - عز وجل -: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

في هذه الآية يذكر الله - سبحانه وتعالى - أن من الناس - يعني: أن بعض الناس - يتخذ من دون الله أنداداً، أي: نظراء وأمثالاً، يسوونهم بالله - عز وجل -، في المحبة؛ فيحبونهم كحب الله، ويشير بهذا - سبحانه وتعالى - إلى أولئك العابدين لأصنامهم، الذين يحبونها كما يحبون الله - عز وجل -، فيجعلونها شريكة مع الله في المحبة.

قال الله - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وهذا كالأستثناء

(١) رواه مسلم كتاب الزهد والرفائق، باب الصدقة في المساكين، رقم (٢٩٨٤).

الذي يخرج المؤمنين الذين يحبون الله - عز وجل -، أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم، أو من هؤلاء لله؛ يعني: أن المؤمنين يحبون الله، ويتعلقون به أشد حبا وتعلقاً من هؤلاء بأصنامهم؛ لأن محبة المؤمنين لله - عز وجل -، محبة تقتضيها الفطرة والشريعة، أما محبة هؤلاء لأصنامهم كحب الله، فهي محبة لا ترضيها الشريعة، ولا تقتضيها الفطرة.

ويجوز أن يكون المعنى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، أي: أشد حبا لله من هؤلاء، وذلك لأن محبة المؤمنين لله، محبة خالصة لا يشركها محبة أحد من الخلق، ومحبة هؤلاء لله - تعالى - محبة فيها شرك، بحيث يحبون هذه الأصنام كمحبة الله، وإذا كانت الآية تحتمل المعنيين، وأحدهما لا ينافي الآخر، فإن الواجب حملها على المعنيين جميعاً؛ لأن ذلك أعم وأشمل.

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، يعني: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا باتخاذهم أنداداً يحبونهم كحب الله.

﴿إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾، أي: يشاهدونه، ويعاينونه يوم القيامة.

﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأن أصنامهم ليس لها قوة ولا حول، بل هي أضعف وأهون من أن يكون لها قوة، وقد قال الله - تعالى -:

﴿يَنَاءِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ^٤ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ^٥ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا

يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿[الحج: ٧٣]﴾، وهنا يقول: ﴿وَلَوْ
يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وأنه لا قوة
لأصنامهم، فتنقذهم من عذاب الله.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، يعني: ويرون أن الله شديد العقاب.
يعني: لو رأوا ذلك، لتبدلت أحوالهم، ولعرفوا أنهم على خطأ
وضلال.

في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي:

- ١- تحريم تشريك المحبة لله - تعالى - مع غيره، بحيث يتخذ أصنامًا
يجبها كحب الله، سواء كانت هذه الأصنام من الشجر، أو الحجر، أو
البشر، فمن أحب أحدًا كمحبة الله - عز وجل -، فإنه قد أشرك مع الله -
تعالى - في المحبة، ويسمى هذا النوع من الشرك: شرك المحبة.
- ٢- أنه يجب إخلاص المحبة لله - عز وجل -، والمراد بها: محبة
التذلل والخضوع والعبادة، وأما المحبة الطبيعية التي تكون من الإنسان
وبين ما يلائمه، من بشر، أو مأكول، أو ملبوس، أو مركوب، فهذه لا
تعلق لها بهذا الباب، وكذلك محبة الإنسان لأبنائه، وبناته، وأصحابه،
لا تدخل في هذا الباب؛ لأنها ليست محبة مع الله، وهي من نوع آخر.
- ٣- شدة محبة المؤمنين لله - عز وجل -، وأنها محبة كاملة، أكمل من
محبة هؤلاء لأصنامهم، ومحبة خالصة، وأخلص من محبة هؤلاء لله -
عز وجل - .

٤- الوعيد الشديد لهؤلاء الذين جعلوا لله شريكاً في المحبة، يؤخذ من قوله - تعالى -: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.

٥- أن هؤلاء الذين جعلوا لله شريكاً في المحبة كانوا ظالمين، أي: ظالمين لأنفسهم، حيث انتقصوها حقها، وهكذا كل عاص لله، فإنه ظالم لنفسه؛ لأن نفسه أمانة عنده، يجب أن يرهاها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك، فتهلك؛ ولهذا قال الله - تعالى - في آيات متعددة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦].

٦- إثبات أن القوة لله - تعالى - جميعاً، فجميع القوى لله - عز وجل -، حتى ما يجعله، أو يخلقه في بعض المخلوقات من القوى، فإنه لله، ملكه، لو شاء لسلب ذا القوة قوته؛ ولهذا يقول المؤمن: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

٧- التحذير من عذاب الله؛ لقول الله - تعالى -: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، وقد بين الله - سبحانه وتعالى - في آيات متعددة، أن شدة عذابه إنما تكون لمن يستحقه من الكفار والعتاة، ولكنه مع ذلك غفور رحيم؛ كما قال الله - تعالى -: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٥١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال -

تعالى :- ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

٨- أن المحبة تتفاضل، فيحب الإنسان شيئاً أكثر مما يحب الشيء الآخر. وإذا كانت محبة الله - تعالى - من الإيمان، ومن أفضل العبادات، وكانت تتفاضل، فهو دليل على أن الإيمان يتفاضل، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فقد صرح أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يتفاضل، وأنه يزيد وينقص، وأن من أسباب زيادته: طاعة الله - عز وجل -، ومن أسباب نقصانه: معصية الله - عز وجل -، بل إن الإيمان يزيد وينقص حتى في العلم الحاصل في القلب، فإن العلم الحاصل في القلب يتفاوت بحسب الطرق الموصلة إليه، فالإنسان يعلم بخبر الاثنین أكثر مما يعلم بخبر الواحد، وكلما تعدد المخبرون، ازداد الإنسان يقيناً.

٩- أن يحذر الإنسان مما وقع لهؤلاء الذين جعلوا الله شريكاً في المحبة، فأحبوا الأنداد كما يحبون الله، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعاً من أحبابه وأوليائه، وأن يهب لنا منه رحمةً، إنه هو الوهاب.

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى :- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [المائدة: ١٦٦] وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦ - ١٦٧].

هذه الآية: آية البراءة، أي: براءة أهل الشرك ممن اتخذوهم أندادًا يوم القيامة، وكذلك براءة المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة. يقول الله - عز وجل -: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾، «إذ»، هذه مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر إذ تبرأ الذين اتبعوا، وهم: السادة القادة الذين يقودون الناس، سواء قادوهم باسم الشرع، وهم محرفون للشرائع؛ كأئمة اليهود والنصارى ونحوهم، أو قادوهم باسم الإمرة والسلطة؛ كأمرء السوء.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾: يتبرؤون منهم، وذلك أن الذين اتبعوا يحتجون على الذين اتبعوا، ولكن الذين اتبعوا يتبرؤون منهم حين يرون العذاب.

وقوله - تعالى -: ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، يعني: أن المتبعين رأوا العذاب، وأنهم على ضلال.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾؛ قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: يعني: المودة؛ يعني: أن المحاب التي كانت بينهم وبين هؤلاء المتبوعين، تقطعت؛ لأن هؤلاء الأتباع يظنون أن هؤلاء المتبوعين ينفعونهم يوم القيامة، ولكنهم لا ينفعونهم، بل يتبرؤون منهم، وحينئذ يكون عليهم اتباعهم حسرة؛ لأنهم يندمون حين لا ينفع الندم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾:

«لو»، هنا: للتمني، يعني: قالوا: ليت لنا كربة، أي: رجوعًا إلى

الدنيا، فتتبرأ منهم، كما تبرؤوا منا في الآخرة، ولكن أنى لهم ذلك، بل لا يزيدهم هذا إلا حسرة؛ ولهذا قال الله - تعالى -: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، أي: هم من أهلها الذين لا يخرجون منها.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- التحذير من اتباع أهل السوء؛ لأن هؤلاء المتبوعين قادوا أتباعهم إلى ما وصلوا إليه من العذاب والحسرات، ودخول النار دخولاً لا يخرجون منها.

٢- أن كل من كان بينه وبين شخص علاقة لغير الله، فإنه سوف يندم على هذه العلاقة، ويتبرأ كل من الآخر؛ ويشهد لهذا قول الله - تعالى -: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣- أن كل سبب ليس مبنيًا على أصل صحيح، فإنه سوف ينقطع، ولا يوصل صاحبه إلى مقصوده؛ لقوله - تعالى - هنا: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

٤- تتابع الحسرات على هؤلاء التابعين، الذين ضلوا بضلال متبوعيه؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾، والحسرة: شدة الندم.

٥- بيان أن هؤلاء المتبوعين ليسوا يدعون إلى هدى وصلاح، وإنما

يدعون إلى ضلال وفساد، ووجه ذلك: أن الله أخبر بأن هؤلاء التابعين ليسوا بخارجين من النار، فإذا كان التابعون لا يخرجون من النار، فالمتبوعون من باب أولى.

٦- الإشارة إلى أن النار مؤبدة؛ لأنهم إذا كانوا لا يخرجون منها - وقد ذكر الله - تعالى - في آيات ثلاث أن أصحاب النار خالدون فيها أبداً - دل ذلك على أن النار لا تفتنى؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

* * *

قال الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يعم المؤمنين والكافرين.

﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ الأمر هنا للإباحة، أي: كلوا مما أخرج الله من الأرض حال كونه حلالاً لكم طيباً، وليس بخبيث، والإشارة في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾ إلى أنه يجب على الإنسان أن يكون مكسبه على وجه مباح حلال؛ لأن الكسب المحرم خبيث.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ﴾، أي: لا تتبعوا الشيطان في خطواته، كلما خطا خطوة، مشيتم عليها؛ فإنه لا يجركم إلا إلى النار، وبئس القرار؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ومن المعلوم أن

عدوك إذا خطا واتبعته، سيوقعك في المهالك.

ثم بين - تبارك وتعالى - ماذا يدعو إليه الشيطان، فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾: بالسوء، أي: بالعمل السيئ، وهو ما دون الفحشاء، والفحشاء: العمل الكبير الذي يستفحش في العقول والشرائع.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي: وأن تفتروا على الله كذباً، إما في ذاته، أو في أسمائه، أو في صفاته، أو في أحكامه، أو في أفعاله؛ فإن الشيطان يدعو إلى أن يقول الإنسان على ربه ما لا يعلم، وهذا من المحرمات في جميع الشرائع.

في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد، ما يلي:

١- وجوب العناية بما ذكر الله - تعالى - فيها من أحكام، ووجه ذلك أن الله - تعالى - صدرها بالنداء، والتصدير بالنداء يدل على أهمية ما وجه إلى المنادى.

٢- أن الخطاب في الأكل مما في الأرض يعم المؤمنين والكافرين؛ لقوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وكلمة ﴿النَّاسُ﴾ عامة، لكن جاء في آيات أخرى توجيه ذلك للمؤمنين، فقال - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فهل نخصص عموم هذه الآية بالآية الأخرى، ونقول: إن المؤمنين يؤذن لهم بالأكل مما في الأرض، وأما

الكافرون: فإنه لا يحل لهم الأكل مما في الأرض، بل سيحاسبون على ذلك، أو نقول: إن هذه الآية عامة، وأن ما في الأرض يأكل منه الكافرون والمؤمنون، على أنه حلال لا يحاسب عليه الكافر؟ ولكن المعنى الأول أصح، وأن المراد بالناس هنا إما عموم الناس، وخصص بالمؤمنين، أو أن المراد بها الخصوص؛ يعني: عبر بـ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، والمراد بها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ويدل لهذا قول الله - تبارك وتعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ [المائدة: ٩٣]، ومفهوم قوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ أن غير المؤمنين العاملين للصالحات، عليهم جناح فيما طعموا، ويؤيد ذلك - أيضاً - قوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وعلى هذا فيكون ما في الأرض حلالاً للمؤمنين، ليس فيه تبعة عليهم، وحلالاً للكافرين، بمعنى: أننا لا نمنعهم من تناوله، ولكن عليهم تبعة، وأنهم سيحاسبون عليه يوم القيامة، فيقال لهم: لم أكلتم نعمة الله وكفرتم به؟

٣- أن كل ما في الأرض حلال لنا، وهذا كقوله - تعالى -: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وعلى هذا فيكون الأصل فيما في الأرض أنه حل لنا، فمن ادعى تحريم شيء مما في الأرض، قلنا له: ائت بالدليل، فإن جاء بالدليل، وإلا فالأصل الحل،

ولا فرق في ذلك بين الحيوان والجماد، والأشجار والثمار، وغيرها، والأصل فيها الحل، حتى يقوم دليل على المنع، والحيوانات كلها، الأصل فيها: الحل حتى يقوم دليل على المنع.

٤- الإشارة إلى أنه يجب أن يكون كسب الإنسان لهذا الحلال على وجه طيب، والطيب هنا ضد الخبيث، والخبيث: كل ما يحرم من تصرف؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث، وكسب الحجام خبيث»^(١)، فيستفاد من هذا أنه يجب أن يكون ما تأكله مما في الأرض من الحلال، مكتسباً على وجه مشروع.

ويتفرع على هذه القاعدة: أنه لا يحل للإنسان ما اكتسب بوجه محرم، فمن اكتسب مالا بالغش، أو الكذب، أو الربا، أو ما أشبه ذلك، فإنه لا يحل له أكله، بل هو حرام عليه، لكن من جاءه موعظة من الله وانتهى وتاب، فقد قال الله - تعالى - في الربا: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٥- تحريم اتباع خطوات الشيطان، فإن قال قائل: بأي طريق نعلم خطوات الشيطان؟ قلنا: بما ذكر الله - عز وجل - في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١]، فإذا هممت بمعصية صغيرة، فذلك من أمر الشيطان، وإن هممت بمعصية كبيرة

(١) رواه مسلم كتاب المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب ...، رقم (١٥٦٨).

فاحشة، فذلك - أيضًا - من أمر الشيطان، فكل معصية تهم بها، فإنها من أمر الشيطان، فإن اتبعت هواك فيها، فقد اتبعت خطوات الشيطان.

٦- التحذير من الشيطان؛ لقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، والتحذير من الشيطان يتفرع عنه التحذير من أولياء الشيطان، الذين يأمرون بالفحشاء والمنكر؛ فإن هؤلاء هم أولياؤه، فالواجب على المسلم الحذر من الشيطان؛ لأنه عدو، والحذر من أولياء الشيطان؛ لأنهم - أيضًا - عدو.

ويدل لهذا قوله - تبارك وتعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، وقوله - تعالى - في المنافقين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، فالواجب الحذر من الشيطان وأتباعه؛ لأنهم أعداء لنا.

٧- بيان ما يأمر به الشيطان، وهو: أنه يأمر بالسوء، وهو: المعاصي الصغار، والفحشاء، وهي: المعاصي الكبار.

٨- تحريم القول على الله بلا علم، وهذا يشمل تحريم القول عليه في ذاته، وتحريم القول عليه في أسمائه، وتحريم القول عليه في صفاته، وتحريم القول عليه في أحكامه الكونية والشرعية، وذلك من قوله -

تعالى :- ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فإن هذا يشمل القول على الله في ذاته، وفي أسمائه، وصفاته، وأحكامه الكونية والشرعية:

أما القول على الله في ذاته: فإن يقول قائل: إن ذات الله - تعالى -، مثل ذواتنا، يعني: مكونة من أجزاء، ينفصل بعضها عن بعض، ويبقى بعضها دون بعض، وما أشبه ذلك، وهذا محرم نفاه الله - تعالى - عن نفسه في قوله - تعالى -: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ونهى - سبحانه وتعالى - أن تضرب له الأمثال، في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

أما القول على الله في أسمائه: فيشمل أن يثبت الإنسان لله أسماء لم يسم بها نفسه، كما سماه النصارى: «أبًا»، فهم يعنون بالأب، يعني: الرب - عز وجل -؛ لأنهم يعتقدون أن المسيح ابن الله، فيكون قولاً على الله بلا علم، ويشمل القول على الله في أسمائه - أيضاً - أن ينكر شيئاً من أسمائه، كما فعل أهل الجاهلية، حين قيل لهم: ﴿أَسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فأنكروا أن يكون «الرحمن» من أسمائه، وهذا قول على الله بلا علم، بل بما يعلم أن الأمر بخلافه.

ومن القول على الله بلا علم في صفاته: أن نقول: إن صفات الله - تعالى - كصفاتنا، كما قاله أهل التمثيل، فقالوا: إن كل ما ذكر الله من أوصافه، فإنه مماثل لصفاتنا؛ فالوجه، واليد، والعين، كلها مثل ما لنا من ذلك، وقد كذبوا فيما ادعوا، وخالفوا المسموع والمعقول فإن الله -

تعالى - يقول - وهو أعلم بنفسه - ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وينهانا - سبحانه وتعالى - أن نضرب له الأمثال، وأن ذلك لا
يمكن؛ لأننا لا نعلم، والله - تعالى - يعلم أنه لا مثيل له.

ويشمل القول على الله بلا علم في صفاته - أيضًا -: إنكار الصفات،
حيث زعم أهل التعطيل، الذين أنكروا أن يكون لله صفات، أو أثبتوا
بعض الصفات وأنكروا بعضها بحجة أن العقل يمنع من ثبوتها لله،
فقالوا على الله في ذلك ما لا يعلمون؛ لأننا نقول لهم: أين العقل الذي
يمنع أن يكون الله متصفاً بصفات الكمال؟! كل عقل يمنع أن يكون الله
متصفاً بصفات الكمال، فهو عقل فاسد، وعقل مريب، وإلا فإن العقل
الصريح السالم من الشبهات والشهوات - ونعني بالشهوات: الإرادات
السيئة - لا يمكن أن ينكر ما أثبت الله لنفسه في كتابه أو على لسان
رسوله ﷺ.

ومن القول على الله بلا علم، في أحكامه القدرية: أن ثبت لشيء
من الأشياء سببية، دون علم من الله، فيقول القائل مثلاً: إذا فعل
الإنسان كذا، حدث كذا، وهو لم يعلم ذلك، لا بنص، ولا بتجربة،
فيكون قد قال على الله ما لا يعلم، ومن ذلك ما يفعله بعض
المشعوذين، بأن يعلق التائم الشركية على المرضى الذين فيهم المرض في
أجسامهم، أو في نفوسهم، ويدعي أن ذلك يزيل هذا المرض، دون

علم من شرع، ولا علم من واقع، فيكون قد قال على الله في أحكامه القدرية ما لا يعلم.

وأما القول على الله بما لا يعلم الإنسان، في الأحكام الشرعية: فما أكثرها [اليوم]!! ما أكثر الذين يتصدون للفتوى، وهم من أجهل الناس!! فيكونون قد قالوا على الله بلا علم، والمفتي لعباد الله، بما يزعم أنه شريعة الله، هو معبر عن الله في الحقيقة؛ لأنه يقول: هذا حكم الله، أو هذا حرام حرمه الله، أو ما أشبه ذلك، فلا بد أن يكون على علم من كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، أو الإجماع، أو القياس الصحيح، أما أن يفتي بلا علم، فإنه يدخل في أوامر الشيطان، ويكون عبداً مطيعاً للشيطان، ولقد كان السلف الصالح بورعهم، وتوقي المسؤولية، يتدافعون الفتوى، كل واحد منهم لا يريد أن يكون هو المفتي، وهم يعلمون أن هذا المستفتي سيجد من يفتيه بكتاب الله، وسنة رسوله، وإلا فمن المعلوم: أنه لا يجوز للإنسان إذا سئل عن علم يعلمه، والسائل محتاج إلى بيانه، أن يكتمه، فقد ذكر الله - تعالى - أن من كتم ما أنزل الله، فإن عليه الوعيد الشديد.

وعلى هذا فإننا نحذر إخواننا طلبة العلم - والعامة - أيضاً - أن يفتوا بلا علم، بل عليهم أن يلتزموا الورع، وأن يقولوا لما لا يعلمون: لا نعم؛ فإن هذا - والله - هو العلم. لكن إذا كان الإنسان عالماً بحكم المسألة من عالم يثق بقوله، وأراد أن ينقل قول هذا العالم للمستفتي،

فإن هذا لا بأس به، مثل أن يأتيه شخص ويقول: ما تقول في كذا وكذا؟ والمسؤول عامي، لكن يقول: سمعت الشيخ الفلاني يقول: إن حكمه كذا وكذا - وهو متيقن أن هذا: ما سمعه من العالم - فإن هذا لا بأس به، ويكون هذا راويًا، لا مفتيًا. وعلى كل حال، فإني أعيد وأكرر: التحذير من الفتوى بغير علم، وأقول للإنسان: أنت في حل - إذا لم يكن عندك علم - أن تصرف المستفتي إلى شخص آخر. وكان الإمام أحمد - رحمه الله - إذا سئل عن شيء ولا علم له به، يقول: أسأل العلماء. وهذا يدل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يعين شخصًا معينًا عندما يحيل الناس إلى استفتاء شخص آخر، بل يقول: «أسأل العلماء». اللهم إلا أن يخشى أنه إذا قال: «أسأل العلماء»، أن يذهب هذا السائل إلى شخص جريء يتجرأ على الفتوى بغير علم، فهنا يعين من يحيله عليه، فيقول: اذهب إلى الشيخ الفلاني، فعنده العلم.



قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أُولَوْ كَانُوا أَبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المتبعين لأهوائهم، المقتدين بكبرائهم، من الآباء، أو غيرهم: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا﴾، «بل» هنا: للإضراب

الإبطالي، أي: بل لا تتبع ما أمرتمونا به، بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا. ﴿الْفَيْنَا﴾، أي: وجدنا عليه آباءنا، و«ألفينا»، بمعنى: وجدنا، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفِيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، أي: وجداه عند الباب.

قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿أُولَٰئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، أي: أيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ.

وقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾، أي: لا يفهمونه، ولا يفقهونه، وليس المعنى: لا يعرفونه، هم يعرفون الأشياء، وهم أذكىاء، لكن ليس عندهم عقول يهتدون بها إلى ما ينفعهم، ويتركون بها ما يضرهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ لأنهم وإن كانوا أذكىاء، وعندهم علم وفهم، لكن ليس عندهم عقل. وهناك فرق بين العقل وبين الذكاء: العقل يحمل صاحبه على حسن التصرف، وأما الذكاء فقد يحمل صاحبه على حسن التصرف إن كان مقرونا بالعقل، وقد يحمل على الطيش وعدم حسن التصرف إذا لم يكن مصحوبا بعقل.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أن هؤلاء المخالفين للرسول، معاندون؛ لقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾.

٢- أنه يجب اتباع ما أنزل الله، فيما نص الله عليه، وفيما أرشد إليه:

أما ما نص الله عليه: فمثل قوله تعالى: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [الحج: ٧٨] وأما ما أرشد الله إليه: فمثل قوله - تعالى -: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩، محمد: ٣٣].

وهذا يدلنا على أن ما أمر به الرسول ﷺ، فإنه مطاع كالذي أمر الله به. ومما يدخل في الإرشاد، قوله تعالى: ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

فأحالنا الله - عز وجل - إلى أهل الذكر - إذا كنا لا نعلم - لأن العامي قد لا يعلم حدود ما أنزل الله على رسوله، ولكن يجب عليه في هذه الحال، أن يسأل أهل الذكر، أي: أهل العلم.

٣- أن الوحي نازل من عند الله؛ لقوله: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾.

٤- إثبات علو الله - عز وجل -؛ لأن الشيء إذا نزل منه، كان دليلاً على علوه.

وهذا - أعني: إثبات علو الله - هو قول أهل السنة والجماعة، حيث قالوا: إن الله تعالى علي بذاته، علي بصفاته.

٥- قبح التعصب المبني على الجهل والضلال؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين قالوا: ﴿ بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾.

٦- أن للبيئة تأثيراً، فإذا عاش الإنسان في بيئة صالحة، كان ذلك من أسباب صلاحه، والعكس بالعكس؛ ويؤيد هذا قول رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو

بمجانسه»^(١).

٧- توبيخ من اتبع آباءه على غير هدى وعقل؛ لقوله تعالى: ﴿أُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

٨- نعت هؤلاء الآباء بأنهم لا عقول لهم؛ لقوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، و«شيئاً»: نكرة في سياق النفي. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

فإن قال قائل: العقل ضده الجنون، فإذا انتفى العقل صار الجنون، والمجنون غير مكلف، فكيف يكون التوبيخ؟

فالجواب: أن العقل، عقلان: الأول: العقل الذي هو شرط التكليف، فهذا ضده الجنون، والعقل الذي ضده السفه، هو: عقل الرشد، أي: أن يكون الإنسان رشيداً؛ ولهذا لو وجدنا شخصاً عاقلاً من حيث التكليف - أي: ليس بمجنون - لكن لا يحسن التصرف، قلنا: هذا سفه، ولنا أن نقول: إنه غير عاقل، أي: العقل الذي يحمله على الرشد. فأما العقل الذي لا يحمل على الرشد، فإنه يسمى ذكاءً، ولا يسمى عقلاً؛ ولهذا يجب أن نفرق بين العقل والذكاء، فنقول: العقل عقلان: العقل الذي هو شرط التكليف، وهذا ضده الجنون، والعقل الذي هو شرط حسن التصرف، وهذا ضده السفه، وهو المراد هنا في قوله تعالى: ﴿أُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾.

(١) رواه البخاري كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات...، رقم (١٣٥٩، ١٣٥٨)، ومسلم كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة...، رقم (٢٦٥٨).

٩- أنه ربما يستدل بها على أن الأجداد يسمون: آباء؛ وهذا كثير في اللغة وفي القرآن، أن «الآباء» تطلق ويراد بها الأجداد، والآباء الأذنون. ويتفرع على ذلك مسألة فرضية، وهي: أنه إذا مات الميت وترك جدا من قبل أبيه، وإخوانا، فإن ماله لجده من قبل أبيه، وليس لإخوانه شيء؛ وذلك لأن جده من قبل أبيه بمنزلة أبيه، بل هو أب حقيقةً والأب لا يرث معه الإخوة شيئاً، وهذا - أعني: القول بأن الجد من قبل الأب يجب الإخوة مطلقاً - هو القول الراجح الذي اختاره كثير من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وشيخنا عبدالرحمن بن سعدي - رحمه الله -.



قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْقُلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

المثل: بمعنى الشبه، وبمعنى الصفة. وكلا المعنيين صحيح، يعني: صفة هؤلاء الذين كفروا كصفة الذي ينعق بما لا يسمع، أو شبه هؤلاء، كشبه الذي ينعق بما لا يسمع. والذي ينعق هو منادي الحيوانات، والذي لا يسمع إلا دعاءً ونداءً هو الحيوان، يعني: كمثل الراعي ينعق للإبل، ينعق للغنم، ينعق للبقرة، فتقبل إليه من غير أن تدري ماذا يصنع، حتى إنه ربما ينعق بها ليذبحها، فتأتي وهي لا تدري. فالله - سبحانه وتعالى - يخبر أن حال هؤلاء الكفار، وشبه هؤلاء

الكفار، كهذا الذي ينطق بما لا يسمع - أي: ينطق بالدابة والبهائم - لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، لا يدري ما هو، ووجه الشبه: أن هؤلاء الكفار يتبعون من يتبعون من آباءهم وكبرائهم، وهم لا يعلمون أنهم يجرونهم إلى الهلاك؛ ولهذا وصفهم بأنهم صم عن الحق؛ فلا يسمعون، بكم عن الحق؛ فلا ينطقون به، عمي عن الحق؛ فلا يبصرونه - والعياذ بالله -.

فهم بناءً على فقد هذه الحواس منهم: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يعقلون العقل السليم، الذي يحثهم على الرشد، ويحذرهم من الغي.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد العظيمة والأحكام ما يلي:

١- سوء مثل الكفار، حيث شبهوا بالذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً، وهم أهل لذلك، بل هم أضل من هذه الأنعام؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحاف: ٥]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

٢- التحذير من التعصب والمتابعة لغير من يعلم، أو يغلب على الظن أنه على هدى؛ لأن الله تعالى ذم هؤلاء الذين يتبعون الكفار، وبين أنهم كالذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً.

٣- نفي الكمال عمن لم ينتفع به؛ فإن الصمم، والبكم، والعمى، نقص، وهؤلاء الكفار قد يكونون من أقوى الناس بصراً، وأشدهم سمعاً، وأفصحهم لساناً، لكن لما كانوا لا يستفيدون من ذلك، صاروا

كالفاقدين له؛ لقوله تعالى: ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

٤- الإشارة البينة إلى الفرق بين العقل والذكاء؛ فإن هؤلاء الكفار الذين يتبعون من يتبعونه من آبائهم وكبرائهم، هم أذكىاء، ولا يفوتهم شيء مما يشتهونه ويهوونه، لكنهم غير عقلاء في الواقع؛ لأنهم لم يحسنوا التصرف لأنفسهم، حيث أوقعوها في الكفر والضلال - والعياذ بالله ﴿فَهَمَّ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

هنا وجه الخطاب للمؤمنين في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. ونقول حول هذا: تصدير الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ لأن النداء يستلزم أن يسترعي المنادى انتباهه، ويتنبه لما وجه إليه، ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على فضل الإيـان، وأن المتصف به أهل لأن يلقى إليه الخطاب، ويوجه إليه النداء. ثم إن توجيهه إلى الذين آمنوا يدل على أن هذا من مقتضيات الإيـان، كما إذا قال القائل لشخص ما: يا أيها الكريم، نزل عليك ضيف، يعني: ومن مقتضى كرمك أن تكرم هذا الضيف، كذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يعني: من مقتضى إيمانكم أن تمشثوا ما أمركم الله به في قوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. ومن ذلك - أي: مما يتعلق بتصديره بـ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الإشارة إلى أن

ترك الامتثال - ممن وجه إليه هذا النداء - إخلال بالإيمان ونقص له.
يقول - عز وجل - ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ والأمر هنا: ﴿كُلُوا﴾ للإباحة، ومعنى ، أي: أعطيناكم، ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ﴾: معطوفة على ﴿كُلُوا﴾، يعني: اجمعوا بين الأكل والشكر. قال العلماء: والشكر هو: الاعتراف بالقلب للمنعم، والتحدث بالنعمة باللسان، شكرًا لا افتخارًا، والعمل بطاعة المنعم، تصديقًا للأخبار، وتنفيذًا للأحكام. وعلى هذا: فالشكر أمر عظيم، ليس بالعمل الهين، ولا يكفي فيه أن يقول الإنسان: أشكر الله، أو: أنا شاكر لله، بل لا بد من هذه الأمور الثلاثة؛ الأول: التحدث بها بالقلب. والثاني: الاعتراف بها باللسان، بأنها من الله - عز وجل - ونشرها بين الناس، لا افتخارًا ولا علواً، ولكن إظهارًا للنعمة الله - سبحانه وتعالى - عليه. والثالث: العمل بالجوارح فيما يرضي المنعم - عز وجل -.

وقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، يعني: أن من مقتضى العبادة الحق أن يشكر الإنسان ربه - عز وجل -.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أهمية هذا الأمر الذي وجه للمؤمنين، ووجه هذا أنه صدر

بالنداء ويوصف الإيمان.

٢- فضيلة الإيمان، حيث كان أهله محلاً لإلقاء الخطاب إليهم.

٣- وجوب الأكل من الطيبات؛ لقوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، والأصل في الأمر: الوجوب، ولكن دلت السنة على أن الأكل يكون أحياناً مباحاً، وأحياناً يكون مستحجاً، وأحياناً يكون واجباً؛ فيكون واجباً إذا ترتب عليه بقاء الإنسان؛ ولهذا نقول: إن الذين يضرّبون عن الطعام والشراب، حتى يهلكوا: متحرون، أي: بمنزلة الذين نحرّوا أنفسهم؛ لأنه - أي: الأكل والشرب - يجب عند خوف الهلاك.

٤- الإشارة إلى أن ما في الأرض من عطاء الله - عز وجل -؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وهذا يستلزم أن نشكر الله - سبحانه وتعالى - على ما رزقنا، وألا نتكل على أنفسنا، وألا نفخر بعملنا، وألا نكون كالذي قال الله عنه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].
فنسأل الله تعالى أن يرزقنا جميعاً شكر نعمته، وحسن عبادته، وأن يزيدنا من فضله.

٥- أن الشكر محله القلب، واللسان، والجوارح؛ كما قال الشاعر:
أفادتكم النعماء مني ثلاثةً يدي ولساني والضمير المحجبا
وبين الشكر وبين الحمد عموم وخصوص، فمن جهة ما يكون به الشكر: فالشكر أعم، ومن جهة مورد الشكر وموقعه: فالحمد أعم؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يحمد على كمال صفاته وكمال إنعامه.
ويشكر - سبحانه وتعالى - على إنعامه فقط، ويكون الشكر بالقلب

واللسان والجوارح.

٦- أن الشكر يكون به تحقيق العبادة لله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وهذه الجملة الشرطية - التي يرد مثلها كثيراً في القرآن - تفيد معنى التحدي، أي: إن كنت صادقاً في عبادة الله، فاشكره، ولا تكفر نعمه.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾: التحريم بمعنى المنع، والجملة هنا فيها الحصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾، يقول العلماء: الحصر هو: إثبات الحكم في المذكور، ونفيه عما عداه.

فقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ بمنزلة قول القائل: ما حرم عليكم إلا الميتة.

و«الميتة» عند أهل العلم: كل ما مات بغير ذكاة شرعية؛ فيشمل ما مات حتف أنفه، وما مات بغير ذكاة شرعية.

﴿وَالْدَّمَ﴾، وهو ذلك السائل الأحمر الذي يخرج من الحيوان ذي الروح، وهو معروف، لكنه هنا مطلق، وفي سورة الأنعام مقيد؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا

لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾
[الأنعام: ١٤٥]؛ فالمراد بالدم هنا: الدم المسفوح.

﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾، والخنزير: حيوان معروف، ولحمه حرام؛ لأنه رجس وخبث.

﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾، أي: ما ذبح لغير الله، أو ذكر عليه اسم غير الله؛ فما ذبح للصنم - مثلاً، فهو حرام، وإن سمي عليه أو لم يسم عليه، وما ذبح للأكل وسمي عليه اسم غير الله، فهو حرام، وإن كان الإنسان لم يقصد به التعبد، لكن أهل به لغير الله. وما سمي عليه غير اسم الله، فمثل أن يقول: باسم المسيح، باسم الرئيس، باسم الشعب، ويذبح على هذا الاسم، فهذا أيضاً حرام لفقد تسمية الله عليه، ولأنه ذبح علي وجه الإشراف بالله - عز وجل -.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ﴾، أي: من أجبته الضرورة إلى أكل هذه الأنواع الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله. واضطر أصلها: «اضتر»، وأدغمت التاء في الضاد، فصارت طاءً، وهي من الضرر، أي: من حصل له ضرر بترك الأكل، وخاف على نفسه المرض أو الهلاك.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ هذا شرط للضرورة:
﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾، أي: غير باغ للحرام، وغير طالب له.
﴿وَلَا عَادٍ﴾، أي: ولا معتد، بحيث يأكل بدون حاجة، بل يأكل

منه ما تدعو الضرورة إلى أكله فقط.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أي: لا عقوبة: فإن كان باغيًا أو معتديًا فأكل،

فعليه الإثم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور: ذو مغفرة، فيتجاوز عن عباده

السيئات.

رحيم: رحيم بهم، فلا يحرم عليهم ما اضطرروا إلى أكله وكان لهم

فيه انتفاع؛ فمن أجل مغفرته ورحمته، رفع الإثم عن من كان مضطرا،

كذا معنى الآية:

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أن التحليل والتحریم إلى الله - عز وجل - لا يملك أحد أن

يحرم شيئًا حلالًا، ولا أن يحل شيئًا حرامًا، إلا الله - سبحانه وتعالى - بل

قد جاء في الحديث ما يدل على أن من أطاع العلماء والأمرء في تحليل ما

حرم الله، أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله^(١)؛ ولهذا

لما قيل يوم خيبر: إن البقول من البصل والثوم والكراث وما أشبهها قد

حُرمت، قال النبي ﷺ: «إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي»^(٢)؛ فإذا كان

النبي ﷺ يبرأ من تحريم ما أحل الله، فغيره من باب أولى؛ فالتحريم

والتحليل، والإيجاب والكراهة، كل ذلك إلى الله - عز وجل - وحده؛

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم (٣٠٩٥).

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً...، رقم (٥٦٥).

لقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ﴾ والضمير - كما هو معلوم - يعود على الله - عز وجل -.

٢- أن الميتة حرام، وظاهر الآية العموم، لكن قد دل الدليل أن من الميتات ما هو حلال، ومن ذلك صيد البحر؛ فإن ميتته حلال؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صيده ما أخذ حيا، طعامه ما أخذ ميتا». وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالطحال والكبد^(١)؛ وعلى هذا فميتة السمك: حلال، وميتة الجراد: حلال. والحكمة في حل ميتة الجراد مع أنه صيد بري، أنه ليس فيه دم، والعلة في تحريم الميتة: احتقان الرطوبات والدم فيها؛ ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوا إلا السن والظفر»^(٢).

فدل ذلك على أن الحكمة من إباحة المذكي: كونه قد نزف دمه، ولم يحتقن، ولم يبق في العروق.

(١) رواه أحمد (٥٦٩٠)، وابن ماجه كتاب الأطعمة، باب الكبد والطحال، رقم (٣٣١٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الشركة، باب قسمة الغنم، رقم (٢٤٨٨)، ومسلم كتاب الأضاحي باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر، رقم (١٩٦٨).

٣- أن الدم حرام، وقد بينا في تفسيرها أن المراد به: الدم المسفوح الذي يخرج من الحيوان عند ذبحه وتذكيته، فأما الدم الذي يبقى بعد التذكية في العروق، فإنه حلال وليس بحرام؛ كدم الكبد، ودم القلب والطحال، وما أشبه ذلك؛ وذلك لأنه من مذكاة، فيكون حلالاً كاللحم، أي: اللحم المذكى.

٤- تحريم لحم الخنزير، والخنزير: حيوان معروف خبيث، من خصائصه: أنه يأكل القاذورات كالعذرات، وأنه لا غيرة فيه على أنثاه، وأن في لحمه جراثيم مضرّة، مهلكة، مفسدة للطبائع؛ ولهذا حرمه الله - عز وجل - فقال: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾.

٥- أنه لا يحل من الخنزير أي جزء من أجزائه؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾؛ فلا تحل كبده، ولا أمعائه، ولا كلاه، كل ما فيه فهو حرام.

وننتقل من هذه الفائدة إلى فائدة أخرى تتعلق بالوضوء، وذلك: أن النبي ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبل؛ فقال: «توضؤوا من لحوم الإبل»^(١)، وسئل ﷺ: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نعم»، قال: أتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «إن شئت»^(٢)؛ فكونه ﷺ يرد الوضوء من

(١) رواه أحمد (١٨٦١٧) عن أسيد بن حضير، ورواه ابن ماجة كتاب الطهارة وسننها، باب ما جاء

في الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٤٩٧) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم كتاب الحيض، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

لحم الغنم إلى المشيئة، ويجزم بالوضوء من لحم الإبل، دليل على أن الوضوء من لحم الإبل واجب، وأن الوضوء من لحم الغنم ليس بواجب، وهو كذلك.

ولكن ما المراد بلحوم الإبل؟ المراد: جميع أجزائها، كما قلنا في لحم الخنزير؛ فإذا أكل الإنسان شيئاً من لحم الإبل: من الكبد، أو الأمعاء، أو الكرش، أو القلب، أو الفخذ، أو من أي موضع كان، فإنه يلزمه أن يتوضأ، سواء أكل اللحم نيئاً أو مطبوخاً. ولكن لا حرج عليه إذا أكل أن يتوضأ وضوءاً فقط، دون أن يغسل الفرج، بل لا يغسل الفرج؛ لأن غسله في هذه الحال تعنت وبدعة؛ فإن غسل الفرج إنما يجب من بول أو غائط، وإذا لم يكن بول ولا غائط فليس هناك شيء يغسل.

٦- تحريم ما ذبح لغير الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾.

٧- تحريم ما ذكر غير اسم الله عليه، وإن كان القصد منه ليس لغير الله؛ لقوله: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾. فإذا قال الرجل إذا أراد أن يذبح الذبيحة: باسم الوطن، باسم الرئيس، باسم فلان، أو فلان، فإن الذبيحة لا تحل، حتى وإن كان قد قصد بها شيئاً مباحاً، كما لو قصد بها الأكل، فإنها لا تحل؛ لأنه أهل بها لغير الله.

٨- سعة رحمة الله - عز وجل - حيث أباح هذه المحرمات عند

الضرورة؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

فإن قال قائل: هل تجيزون أن يتداوى الإنسان بالمحرم قياساً على

أكل هذه الأربعة عند الضرورة؟

قلنا: لا، لا نجيز ذلك؛ وذلك لأن الدواء قد يحصل به الشفاء، وقد لا يحصل، بخلاف أكل الميتة وما عطف عليها للمضطر، فإنه يحصل به الشبع قطعاً، والوجه الثاني من الفروق بين هذه وهذه: أن الشفاء لا يتعين بتناول هذا الشيء المحرم، بل قد يشفى بدون تناوله، أو بتناول شيء مباح، وأما المضطر فيتعين زوال ضرورته بأكله من هذه المحرمات؛ لأنه ليس عنده شيء سواها.

٩- إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم، وهي: أن الضرورات تبيح المحظورات، كما أن الواجبات تسقط بالعجز؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرُّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٠- اعتبار النية والمقاصد؛ لقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. وهذا أمر معلوم من الشريعة فتجد الرجل يأكل هذه الأكلة ليستعين بها على محرم، فتكون حراماً، ويأكل هذه الأكلة، ليستعين بها على مأمور، فتكون مأموراً بها، نعم، الأعمال بالنيات، تجد هذا الرجل يبيع السلاح، يكون مرةً بيعاً حراماً، إذا باعه في حال فتنة بين المسلمين، على رجل يقتل به مسلماً، ويكون حلالاً إذا باعه على من يستعمله في الحلال،،، وهلم جرا.

هذه القاعدة المفيدة، مأخوذة من قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾

١١- أن هذا التخفيف على العباد من مقتضيات كونه تعالى: غفوراً

رحيمًا؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

١٢- إثبات هذين الاسمين لله - عز وجل -: «الغفور» و«الرحيم». و«الغفور»: هو الساتر لذنوب عباده، المتجاوز عنها؛ فالغفر، بمعنى: الستر والتجاوز، يدل على ذلك اشتقاقه؛ لأنه مشتق من المغفر، والمغفر: ما يوضع على الرأس عند الحرب، لالتقاء السهام أن تقع على الرأس؛ ففيه ستر، وفيه وقاية، وليس الغفر مجرد الستر، فالغفور: هو المتجاوز عن سيئات عباده، الساتر لها. و«الرحيم»: ذو الرحمة، ورحمة الله: عامة، وخاصة. فالعامة: هي التي تشمل المؤمنين والكافرين، والخاصة: هي التي تختص بالمؤمنين؛ ومنها قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٣- الصفة الكاملة التي تحصل من اجتماع هذين الاسمين: الغفور الرحيم؛ لأن بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب، فبمغفرته - سبحانه وتعالى - يحدث العفو، وبرحمته يحصل الفضل؛ ولهذا نجد الله - سبحانه وتعالى - يقرن بين هذين الاسمين كثيرًا.

١٤- جواز أكل هذه المحرمات للمضطر الذي اضطر إلى أكلها، بحيث يخاف التلف إذا لم يأكل.

١٥- بيان رحمة الله تعالى بعباده، حيث أحل لهم هذه المحرمات عند الاضطرار، لدفع ضرورتهم.

١٦- أنه لا يحل لمن أبيح له أكل هذه المحرمات للضرورة، إلا ما

تدعو الضرورة إليه؛ بحيث لا يتجاوز أكثر ما يحتاج إليه، ولا يزيد عليه. وعلى هذا فلا يأكل إلا ما يسد حاجته فقط، ولا يملأ بطنه بذلك.

ولكن إذا خاف أن تبقى ضرورته، فله أن يتزود من هذه المحرمات، حتى يضطر إلى أكلها مرة ثانية.

١٧- الرد على المشركين فيما حرموه من بهيمة الأنعام، وهو ما رده الله عز وجل عليهم في قوله: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

* * *

ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَشْتَرُونَهُ بِمِثْلٍ قَلِيلٍ أَوْ لَتَبِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

هذه الجملة مؤكدة بـ ﴿ إِنَّ ﴾، فـ ﴿ إِنَّ ﴾ أداة توكيد، و﴿ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ﴾ اسمها، وجملة ﴿ أَوْ لَتَبِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ خبرها. ﴿ يَكْتُمُونَ ﴾ أي: يخفون.

﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾: الكتاب هنا مفرد، والمراد به الجنس، أي: الكتب، فيشمل ما أنزل الله من القرآن، والتوراة، والإنجيل،

وغيرها من الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَدَشَّرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: يأخذون به ثمنًا قليلًا؛ لأنهم

يخفونه لينالوا الجاه، أو لينالوا المال، أو ينالوا الخطوة عند الزعماء.

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ وهذا متعين فيما إذا

كتموه من أجل المال، فإنهم لا يأكلون في بطونهم إلا النار؛ لتحريم هذا

المال عليهم؛ لأن هذا المال حرام عليهم من وجهين:

الوجه الأول: أنهم أخذوه بغير حق.

والوجه الثاني: أنهم كتموا من أجله الحق.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: تكليم رضاء، ولكنه يكلمهم تكليم

إهانة؛ كقوله تعالى حين يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا

فإِنَّا ظَلِمُونَ﴾ (١٧) قَالَ أَحْسَسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴿ [المؤمنون: ١٠٧-١٠٨].

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهرهم من آثامهم؛ لأنهم ليسوا أهلاً

لذلك.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم كتم ما أنزل الله من الكتاب، وهذا يستلزم وجوب بيان

ما أنزل الله من الكتاب، ولكنه لا يلزم إلا إذا اقتضت الحال بيانه، إما

بسؤال سائل بلسان المقال، أو بسؤال سائل بلسان الحال: أما لسان

المقال: فإن يأتي رجل إلى عالم من العلماء، ويقول: ما تقول في كذا

وكذا؟ فيفتيه. وأما لسان الحال: فأن يرى الإنسان شخصاً يتعبد لله تعالى عبادةً على غير وجه صحيح، فيجب عليه في هذه الحال أن يبين له الحق في ذلك.

٢- إثبات علو الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

الْكِتَابِ﴾.

٣- أن الكتب التي جاءت بها الأنبياء منزلة من عند الله.

٤- تحريم أخذ العوض على كتمان الحق؛ لقوله: ﴿وَبَشِّرُوا بِهِ

ثُمَّ قَلِيلًا﴾.

فإن قيل: وهل يحرم العوض على بيان الحق؟ بمعنى: أن يعطى

العالم أجره على بيان الحق؟

والجواب على ذلك أن نقول: إن تعين عليه بيان العلم، حرم عليه

أخذ العوض عليه، وإن لم يتعين، فله أخذ العوض، ولكن يكون من

بيت المال، لا على سبيل الاستئجار.

٥- أن كل ما يكون من متاع الدنيا، فإنه قليل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ

قَلِيلًا﴾، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ

لِمَنْ اتَّقَى﴾ [النساء: ٧٧].

٦- أن كتم ما أنزل الله من الكتاب ليشتري به الإنسان ثمناً قليلاً،

من كبائر الذنوب؛ لوجود الوعيد عليه في قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ

فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾.

٧- إثبات كلام الله - سبحانه وتعالى - لأن نفي تكليمه لهؤلاء، دليل على أنه يكلم غيرهم. وأهل الحق من السلف والخلف يثبتون أن الله تعالى يتكلم بحرف، وصوت مسموع، ومن ذلك: القرآن الكريم، فإنه كلام الله تعالى، منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، كما قرر ذلك أهل السنة والجماعة.

٨- إثبات يوم القيامة، وهو اليوم الذي يبعث فيه الناس من قبورهم. وسمي يوم القيامة؛ لأن الناس يقومون فيه من قبورهم لله - عز وجل - ولأنه يقام فيه العدل؛ كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

٩- أن الله تعالى يزكي من يشاء؛ فإن نفي التزكية لهؤلاء، دليل على ثبوتها لضدهم.

١٠- أن هؤلاء ﴿ إِنَّا الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَدَشَرُوا بِهِءً مِمَّا قَلِيلًا ﴾ لا يزكيهم الله يوم القيامة، بل هم أهل الفسق والجور.

١١- أن هؤلاء - مع إعراض الله عنهم، وعدم تكليمه إياهم، وتزكيتهم لهم - لهم عذاب أليم، أي: عذاب مؤلم، وذلك عذاب النار؛ لشدته وعظمته - نعوذ بالله من النار - فإن النبي ﷺ أخبر أن: «نار

جهنم فضلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستين جزءاً^(١) أي: أن نار الدنيا كلها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم. أعاذنا الله وإياكم منها، وجعلنا وإياكم من أهل النعيم المقيم في جوار رب رحيم، إنه على كل شيء قدير.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].
 ﴿أُولَئِكَ﴾ يشير إلى الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً.
 ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: اختاروا الضلالة على الهدى.

﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ اختاروا العذاب بالمغفرة. وهم قد يختارون ذلك عمداً، وقد يختارون ذلك عمى؛ لأنهم زاغوا، فأزاع الله قلوبهم.
 ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يعني: أن النار عذابها أليم، وحرها شديد، وهؤلاء يصبرون على ذلك؛ لأنهم يتمادون في طغيانهم وصلاحهم.

(١) رواه البخاري كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥). ومسلم كتاب الجنة، باب في

شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣).

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أن هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، ويشترون به ثمناً قليلاً، اختاروا هذا اختيار رغبة؛ لأنه شبه اختيارهم إياه، بالاشتراء، والمشتري يرغب ما اشتراه.

٢- أن الجزء من جنس العمل؛ لأنهم لما اشتروا الضلالة بالهدى، صاروا كالذين اشتروا العذاب بالمغفرة، أي: مغفرة الله - عز وجل -.

٣- إظهار التعجب في كلام الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢]. وهل يعجب الله - سبحانه وتعالى - من شيء؟ الجواب: نعم، العجب: صفة من صفات الله تعالى، أثبتها الله تعالى في كتابه، على قراءة من قرأ قوله - تعالى - بل عجب ويسخرون، وكذلك النبي ﷺ قال: «ضحك ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره»^(١)، وفي حديث آخر: أخبر النبي ﷺ أن الله - تبارك وتعالى - «يشرف عليكم - يعني: عباده - آزلين آدلين مشفقين، فيظل يضحك، قد علم أن غيركم إلى قرب»^(٢).

والعجب الصادر من الله - عز وجل -، ليس هو كالعجب الصادر من الإنسان؛ لأن العجب الصادر من الإنسان، منشؤه استغراب الأمر، وعدم العلم بمقدماته، أما الله - عز وجل -، فإنه لا يخفى عليه

(١) أخرجه ابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨١).

(٢) رواه أحمد (١٥٧٧٣).

خافية، ويكون عجبه من أجل خروج الشيء عما ينبغي أن يكون عليه.
٤- إثبات عذاب النار؛ لقوله: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾.

* * *

ثم قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ
أَخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦].

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ما أشار الله إليه من العذاب لهؤلاء، والعقوبات
التي ذكرها الله تعالى في الآيات السابقة.

﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وإذا كان نزل الكتاب بالحق، فإن
الذين يضلون عن الحق سوف يكونون في شقاق بعيد؛ ولهذا قال:
﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

- ١- إثبات أن الله نزل الكتاب.
- ٢- إثبات علو الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾،
والتنزيل لا يكون إلا من أعلى.
- ٣- أن الكتب نازلة من الله حقا؛ لقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، وأنها نازلة
بالحق أيضًا، فقد جاءت بالحق، وهو: الصدق في الأخبار، والعدل في
الأحكام.

٤- أن المختلفين في الكتاب، المخالفين له، في شقاق بعيد، أي: في
مشاققة بمعنى مباحدة عن الحق. «بعيد»؛ لأنهم يجادلون في الحق بعدما تبين.

٥- أن جميع ما تتضمنه كتب الله، فهو حق؛ لأنها أخبار صادقة، وأحكام عادلة.

٦- أن نزول الكتب من عند الله، نزول بالحق الثابت، الذي لا مرية فيه.

٧- خطر الاختلاف في الكتاب، وأن الإنسان قد يبتلى عند الاختلاف في الكتاب، بالمشاقة البعيدة لله ولرسله.

* * *

ثم قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ «البر» هو: الخير، و«التولي» بمعنى: الاتجاه. و«قبل المشرق» أي: جهة المشرق والمغرب.

يعني: أنه ليس البر في أن يولي الإنسان وجهه قبل المشرق أو قبل المغرب، وإنما البر هو الإيمان بالله - عز وجل -، والقيام بطاعته - سبحانه وتعالى - سواء أمر بالاتجاه إلى المشرق أو المغرب، أو إلى

الجنوب، أو إلى أي جهة كانت؛ لأن المقصود هو الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: أن البر بر من آمن بالله واليوم الآخر.

و«الإيمان بالله» هو: التصديق، وهو الإقرار المستلزم للقبول والإذعان.

و«الله»: اسم من أسماء البارئ جل وعلا، وهو الاسم الخاص به، الذي لا يسمى به غيره، ولا يستحق أن يوصف بمدلوله أحد سواه. و«اليوم الآخر» يعني: يوم القيامة، وسمي بـ«اليوم الآخر»؛ لأنه لا يوم بعده.

و«الملائكة»: جمع ملك، وهم العالم الغيبي، الذين وصفهم الله - سبحانه وتعالى - بأوصاف وأفعال جاءت في الكتاب والسنة، فالملائكة: عالم غيبي، وعباد لله تعالى، يفعلون ما يؤمرون، ولهم أعمال وأوصاف مذكورة في الكتاب والسنة.

و«الكتاب»: اسم جنس، والمراد به: جميع الكتب المنزلة على الرسل.

﴿وَالنَّبِيِّنَ﴾: جمع نبي، وهو شامل في هذه الآية للأنبياء والرسل.

﴿وَأَتَى الْمَالَ﴾: أي: أعطى المال.

﴿عَلَىٰ جُذَيْءٍ﴾: أي: على محبته له، وحاجته إليه.

﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾: أي: أصحاب القرابة.

- ﴿وَالْيَتَامَى﴾: جمع يتيم، واليتيم هو: الذي مات أبوه ولم يبلغ.
- ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: هم الفقراء الذين أسكنهم الفقر.
- ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾: أي: صاحب السبيل، و«السبيل» هو: الطريق.
والمراد بـ«ابن السبيل»: المسافر الذي انقطع به السفر.
- ﴿وَالسَّالِفِينَ﴾: أي: المستجدين، الذين يسألون الناس.
- ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾: أي: وآتى المال في الرقاب، وهم: الأرقاء،
يشتريهم ويعتقهم.
- ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾: أتى بها مستقيمة، و«الصلاة» هنا: شاملة
للفريضة والنافلة.
- ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾: أي: أعطاهما، ومفعول آتى «الثاني محذوف،
أي: أتى الزكاة مستحقها.
- ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾: أي: الذين إذا عاهدوا أحداً
من الناس أوفوا بعهدهم، أي: أعطوه وأفيًا لا نقص فيه.
- ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.
﴿الْبَأْسَاءِ﴾: الفقر.
- ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: المرض.
- ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾: القتال والحرب.
- ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾: أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات،
هم الذين صدقوا، أي: صدقوا مع الله - سبحانه وتعالى - بإخلاصهم

له، وقيامهم بطاعته.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: هم الذين قاموا بالتقوى على حسب ما جاء في كتاب الله تعالى، وما جاءت به رسله.

هذه الآية الكريمة اشتملت على فوائد عظيمة وأحكام جملة، منها:

١- أن البر ليس بالأعمال المطلقة، وإنما هو - أي: البر - بالأعمال الصادرة عن الإيمان بالله، واليوم الآخر... إلخ.

٢- أن الإيمان بالله من البر. والإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء: الأول: الإيمان بوجوده، والثاني: الإيمان بربوبيته، والثالث: الإيمان بألوهيته، والرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته. فمن أنكر وجود الله، فليس بمؤمن، ومن أقرب به - أي: بوجوده - ولكنه انتقص شيئاً من ربوبية الله - سبحانه وتعالى - بأن زعم أن - الله - سبحانه وتعالى -، مشاركاً في الخلق، أو الملك، أو التدبير، فليس بمؤمن بالله. ومن آمن بذلك، ولكنه لم يؤمن بألوهيته، بل صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله، فليس بمؤمن بالله. ومن آمن بذلك ولكنه أنكر أسماءه وصفاته، فليس بمؤمن بالله. فلا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بالأمور الأربعة.

٣- الإيمان باليوم الآخر - وهو يوم القيامة - وهو يشمل الإيمان بوجود هذا اليوم، وأن الناس سيبعثون يوم القيامة، وكذلك الإيمان بما سيكون في هذا اليوم من الأهوال العظام، وما يكون من نشر الكتب:

كتب الأعمال، وإقامة الوزن، والصراط، وحوض النبي ﷺ، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة.

٤- ومنه - أي: من الإيمان باليوم الآخر - الإيمان بما يكون بعد الموت، من فتنة القبر، وعذاب القبر، ونعيم القبر؛ فإن الناس يفتنون في قبورهم، فيسأل المرء عن ربه، ودينه، ونبيه؛ ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ونبيي محمد ﷺ، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿[إبراهيم: ٢٧].

وأنت ترى أن الله تعالى دائماً يقرن بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، هو الذي يحدد الإنسان إلى العمل؛ وهو الذي يحدد المرء إلى الاستقامة على دين الله، وعلى شرع الله - عز وجل -؛ لأنه إذا كان يؤمن بأن هناك عقاباً في ترك الواجب، وفعل المحرم، وثواباً في فعل الواجب، وترك المحرم، فإنه سوف ينهض ويعمل لهذا اليوم العظيم.

٥- الإيمان بالملائكة، والملائكة لهم أعمال، ولهم أوصاف، على حسب أمر الله تعالى لهم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّىٰ وَتَلْكَ وَرُبَعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

ومن أجل الملائكة وأشرفهم الملائكة الثلاثة: جبريل، وميكائيل،

وإسرافيل. وكان النبي ﷺ يستفتح صلاة الليل فيقول: «اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدي لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١)؛ فجبريل موكل بالوحي، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة موكل بما فيه الحياة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يستفتح في صلاة الليل بما ذكرنا.

ومن الملائكة: ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وقد ورد في بعض الآثار أن اسمه: عزرائيل، ولكنه لا يصح عن المعصوم ﷺ؛ ولهذا يكفينا أن نقول: ملك الموت، دون أن نسميه باسم آخر.

ومن الملائكة المعينين: «مالك»، خازن النار؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].
ومن الملائكة: الملائكة الذين يكتبون ما يقوله الإنسان وما يفعله، بل وما يهم به؛ يقول الله - تعالى -: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠).

الشَّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ [ق: ١٧، ١٨].

ومن الملائكة: الملائكة الموكلون بحلق الذكر، يتبعونها.

ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى كتاب البداية والنهاية لابن

كثير - رحمه الله.

٦- الإيمان بالكتب التي أنزلها الله - سبحانه وتعالى - على الرسل

التي نعرف منها: القرآن الكريم، وهو أشرفها وأجلها، وهو المهيم

عليها، والتوراة التي أنزلها الله على موسى، والإنجيل الذي أنزله الله

على عيسى، والزبور الذي آتاه الله داود، وصحف إبراهيم وموسى،

والباقى نؤمن به إجمالاً.

٧- الإيمان بالنبين، وقد ذكرنا في تفسير الآية الكريمة، أنه يشمل

الرسل؛ وذلك أن الله - سبحانه وتعالى - جعل من عباده رسلاً وأنبياء.

والرسل أشرف من الأنبياء، وأشرف الرسل أولو العزم؛ وهم:

إبراهيم، ومحمد، ونوح، وموسى، وعيسى. وترتيبهم في الأفضلية:

محمد، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى. فمن علمنا رسالته

بعينه، آمننا به بعينه، وإلا فنؤمن بهم إجمالاً.

٨- الشاء على من أتى المال على حبه لمن يحتاج إليه؛ لقوله - تعالى -:

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، وهذا كقوله في آية أخرى: ﴿وَيُطْعَمُونَ

الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

٩- إعطاء ذوي القربى - أي: القرابة - من المال الذي يؤتاه الله من

يشاء، يعني: أن لذوي القربى عليك حقاً: أن تعطيتهم مما أعطاك الله. ثم إن حق ذوي القربى قد يكون واجباً: وهو فيمن تجب عليك نفقته، وقد يكون تطوعاً: فيما سوى ذلك.

١٠- الإحسان لليتامى - وإن كانوا أغنياء - وذلك جبراً لما حصل لهم من انكسار القلب، بفقد أبيهم.

١١- الإحسان إلى المساكين مطلقاً، وهم الفقراء؛ لحاجتهم إلى ذلك.

١٢- الإحسان إلى ابن السبيل؛ لحاجته إلى ذلك.

١٣- الإحسان إلى السائل، وإعطاؤه ما سأل، ما لم يسأل محرماً، وهذا يحتاج إلى تفصيل: فمن علمنا أنه محتاج، كان إعطاؤه بوصف واحد وهو: السؤال، ومن علمنا أنه إنما يسأل استكثاراً، فهذا ننصحه ونحذره من السؤال؛ لأن من سأل الناس أموالهم تكثراً، فإنها يسأل جهرًا^(١)، ولا تزال المسألة بالرجل، حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم^(٢)، نسأل الله العافية.

٤- فضل بذل المال في إعتاق الرقاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾. وهذا يشمل أن يشتري الرجل عبداً فيعتقه، أو أن يعين

(١) انظر: مسلماً كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤١).

(٢) انظر: البخاري كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثراً، رقم (١٤٧٤)، ومسلماً كتاب الزكاة،

باب كراهية المسألة للناس، رقم (١٠٤٠).

مكاتبًا في كتابته، وغير ذلك من صور الإعانة.

١٥- الشاء على إقامة الصلاة، وأنها من البر؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾.

١٦- الشاء على إيتاء الزكاة؛ لقوله: ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾، ولكن لا بد أن تكون الزكاة في محلها، أي: في أهلها الذين أمر الله تعالى بصرفها إليهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فلا يجوز أن يجابي الإنسان بها قريبًا أو صديقًا، أو غير ذلك. بل يعطيها من هو أحوج وأحوج، وإذا اجتمع شخصان مستحقان للزكاة: أحدهما قريب، والثاني غير قريب، فإنها تعطى للقريب؛ لأن صدقتك على القريب صدقة وصله.

١٧- الشاء على الموفي بالعهد، سواء كان العهد مع مسلم، أو مع كافر.

وإن شئت فقل: إنه يدخل في العهد: القيام بحق الله - عز وجل -؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - عهد إلينا - بما أعطانا من العقول، وبما أرسل إلينا من الرسل - ألا نعبد إلا إياه، وأن نقوم بطاعته على الوجه الذي أمرنا به.

١٨- الشاء على الصابرين في الفقر والمرض والحرب؛ لقوله تعالى:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾؛ فالصبر في البأساء والضراء: صبر على أقدار الله، والصبر في حال الحرب: صبر على طاعة الله، وعلى أقدار الله أيضًا.

١٩- الثناء على هؤلاء السادة الذين اتصفوا بهذه الصفات العظيمة الكاملة، في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتصفين بهذه الصفات، وأن يهب لنا من أمرنا رشدًا.

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ابتداءً الله - سبحانه وتعالى - هذه الآية بنداء المؤمنين: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وابتداءً الخطاب بالنداء، يدل على أهميته؛ إذ إن النداء يقتضي تنبيه المخاطب، ثم إن توجيهه إلى المؤمنين يدل على أن امثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان. وقد قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فأرعها سمعك، فإما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه».

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ أي: فرض، ويحتمل أن يكون المعنى:

شرع؛ لأن الله تعالى ذكر في هذه الآية العفو، أو يقال: إن «كتب» أي: فرض فيما إذا طلبه صاحب الحق، فإنه فرض على ولاية الأمور تنفيذه.

﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾: «القصاص» في الأصل: تتبع الأثر، والمراد به هنا: أخذ الجاني بمثل جنايته، أي: قتله إن كان قد قتل، أو قطع عضو منه إن كان قد قطع عضوًا، أو ما أشبه ذلك.

﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ يعني: أنه يقتل الحر بالحر، ويقتل العبد بالعبد؛ لتتام المكافأة؛ فالحر مكافئ للحر، والعبد مكافئ للعبد، والأثني مكافئة للأثني.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: فمن عفي له في القصاص من أخيه شيء - قليلاً كان أو كثيراً - فإنه يتبع طريقين:

الأول: اتباع بالمعروف، يعني: أن صاحب الحق يتبع من عليه الحق بالمعروف، فلا يمن عليه، ولا يشاقه.

الثاني: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ هذا بالنسبة للمعفو عنه: يجب عليه أن يؤدي بإحسان.

مثال ذلك: إذا عفا عن القصاص إلى الدية، فإن على العافي أن يتبع القاتل بالمعروف في طلب الدية، وعلى القاتل أن يؤدي إلى العافي الدية بإحسان.

﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ أي: إن هذا الحكم يتضمن شيئين: التخفيف، والرحمة. فكان تخفيفاً؛ لأن القصاص في بني

إسرائيل كان مفروضاً لا يمكن أن يعفى عنه، وأما في شريعة عيسى - عليه السلام - فقد قيل: إن العفو واجب. ففي التوراة: العفو ممنوع، وفي الإنجيل: العفو واجب، أما هذه الأمة فإنها بالخيار: تخفيف من الله - سبحانه وتعالى - بإسقاط القتل عن القاتل. ورحمة: بكونه يعطي هؤلاء الذين يطالبون بالحق عوضاً عن ذلك، وهو الدية.

﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد تمام القصاص، أو العفو إلى الدية، أو العفو مجاناً.

﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك أن بعض الناس إذا عفا عن القاتل، حمله الشيطان على أن يأخذ بالثأر مرة أخرى، فيعتدي على القاتل مرة أخرى.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- فضيلة الإيمان؛ حيث نوه بفضله بتوجيه الخطاب إلى من اتصف به، في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٢- وجوب القصاص في القتلى، ولكن له شروط معروفة، وجاءت بها السنة، وتكلم عنها أهل العلم، ببسط واسع، مذكور في المطولات.

٣- أن الحر يقتل بالحر، ولو كان القاتل أفضل من المقتول في علمه ودينه وخلقه. وظاهر الآية الكريمة: أنه عام في قتل المسلم بالكافر، والكافر بالمسلم. أما قتل الكافر، فالصحيح: أنه لا يقتل بالكافر، ولو

كان للكافر عهد؛ لأن النبي ﷺ قال: «لا يقتل مسلم بكافر»^(١).
 ٤- أن العبد يقتل بالحر؛ لأنه إذا كان يقتل بالعبد، فقتله بالحر من
 باب أولى.

وأما عكسه - وهو قتل الحر بالعبد - ففيه خلاف بين أهل العلم:
 فمنهم من قال: إن الحر يقتل بالعبد؛ لقول الله تعالى: ﴿الْنَفْسَ
 بِالْأَنْفِ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقول النبي ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا
 بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق
 للجماعة»^(٢)، ولقول النبي ﷺ: «المؤمنون تكافأ دماؤهم، ويسعى
 بذمتهم أدناهم»^(٣).

ومن العلماء من قال: إن الحر لا يقتل بالعبد؛ لأن العبد متقوم،
 بخلاف الحر.

والصحيح: أن الحر يقتل بالعبد، إذا علمنا أنه قتله عمداً؛ للأدلة
 التي ذكرناها.

٥- أن العبد يقتل بالعبد؛ لقوله: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾، وظاهر عموم

(١) رواه البخاري كتاب العلم، باب كتابة العلم، رقم (١١١).

(٢) رواه البخاري كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالْأَنْفِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ رقم (٦٨٧٨)، ومسلم كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

(٣) رواه النسائي كتاب القسامة، باب سقوط القود من المسلم للكافر، رقم (٤٧٤٦)، وأبو داود كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، رقم (٢٧٥١)، وابن ماجه كتاب الديات، باب المسلمون تكافأ دماؤهم، رقم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤، ٢٦٨٥)، وأحمد (٩٦٢، ٦٩٧٣).

الآية: ولو اختلفا في القيمة، يعني: لو كان المقتول لا يساوي إلا عشرة، والقاتل يساوي ألفاً، فإنه يقتل به؛ لعموم قوله: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾.

٦- أن الأثني تقتل بالأثني، وهنا مسألة: هل تقتل بالرجل؟ الجواب: نعم، تقتل بالرجل، أي: إن الأثني إذا قتلت رجلاً، فإنها تقتل به. ومسألة أخرى: هل يقتل الرجل بالأثني؟ الجواب: نعم، يقتل الرجل بالأثني؛ لعموم قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾، ولكن الله تعالى ذكر في الآية: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُتَى بِالْأُتَى﴾؛ لتتام المكافأة من كل وجه.

٧- يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، أنه إذا عفا أحد من الورثة عن القصاص، فإنه يسقط القصاص في حق الجميع؛ تغليباً لجانب الرحمة. ولا فرق بين أن يكون نصيب العافي كثيراً أو قليلاً. مثال ذلك: لو فرضنا أن المقتول له عشرة إخوة، وهم ورثته، فطالب تسعة منهم بالقصاص، وعفا واحد منهم عن القصاص، فإن القصاص يسقط، وتجب الدية للجميع. ووجه ذلك قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾؛ فإن كلمة «شيء» نكرة في سياق الشرط فتعم القليل والكثير.

٨- أنه يجب على العافي عن القصاص أن يتبع القاتل بالمعروف، بحيث لا يشق عليه ولا يضره؛ لأنه عفا عن القصاص، فلم يبق إلا الدية ديناً في ذمة القاتل.

٩- وجوب أداء القاتل للدية بإحسان؛ لأن الذي عفا عنه أحسن إليه بإسقاط القصاص عنه، فكان الأداء إليه بإحسان من مكافأته على هذا العمل الجليل.

١٠- جواز النسخ في شرائع الله، وهو رفع الحكم الثابت بدليل شرعي، بمقتضى دليل شرعي. وقد سبق الكلام في ذلك [عند الكلام] على قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾^(١) [البقرة: ١٠٦].

١١- محبة الله - سبحانه وتعالى - للتخفيف على عباده؛ لقوله: ﴿ ذَلِكُمْ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾. وهذا أمر ظاهر في جميع الشريعة، فالشريعة مبناها على اليسر؛ لقول النبي ﷺ: «إن الدين يسر»^(٢)، ولقوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقول النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم»^(٣).

١٢- محبة الله - عز وجل - لرحمة العباد؛ فإنه جل وعلا أرحم الراحمين بعباده، كما قال يعقوب لبيه: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ

(١) الجزء الأول من كتاب الأحكام، (ص ٣٨٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الإيثار، باب الدين يسر، رقم (٣٩).

(٣) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٨).

الرَّحِمِينَ ﴿يوسف: ٦٤﴾.

١٣- تحريم اعتداء أولياء المقتول على القاتل إذا عفوا عنه، وأنهم إذا اعتدوا بعد ذلك، أخذوا بما يقتضيه عدوانهم. فلو أن أحداً من ورثة المقتول لم يقتنع بالعتفو، فذهب وقتل القاتل، فإنه يقتل، إذا تمت شروط القصاص.

١٤- جواز التعبد لله خوفاً من عذابه وعقابه؛ لأن الوعيد بالعذاب، يؤثر في كمال العبادة والتعبد. ويتفرع على هذه الفائدة: غلط من قال من بعض الناس: إن كمال العبادة أن تتعبد لله تعالى حبا فيه، لا طمعاً في ثوابه، ولا خوفاً من عقابه؛ فإن هذا قول ليس بصحيح؛ فقد قال الله تعالى عن أشرف الخلق محمد ﷺ وأصحابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ أي: لكم في قتل القاتل المتعمد - إذا تمت الشروط - ﴿حَيَوةٌ﴾؛ وذلك أن القاتل إذا علم أنه إذا قتل قتل، فإنه سوف يمتنع عن القتل، فتكون الحياة له، ولمن هم بقتله. ﴿يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يا أصحاب العقول.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: فرضنا عليكم القصاص؛ لأجل أن تتقوا
القتل الموجب للقصاص.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- بيان الحكمة من وجوب القصاص، وهي الحفاظ على حياة
البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾.

٢- الإشارة إلى أن قتل القاتل: عدل، أي: من العدل؛ حيث سماه
الله تعالى: قصاصًا، وهو: أخذ الجاني بمثل جنايته.

٣- أن القصاص سبب للحياة، وليس سببًا للموت، خلافًا للظالم
المعتدي الذي يقول: «إن القصاص زيادة في الموت؛ فإن القاتل إذا قتل،
انضم قتله إلى قتل المقتول، فيكون المقتول نفسين»، فيقال: لكننا إذا
قتلنا القاتل، امتنع عن القتل آلاف الناس، فكان في ذلك حياة البشر،
ولولا العقوبات التي قدرها الله - عز وجل - في بعض المعاصي،
لانتهك الناس هذه المعاصي، ولم يبالوا بها.

٤- فضيلة العقل؛ لقوله: ﴿يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ﴾؛ فجعل الله - تعالى -
العقل: لبًا، ومعلوم أن اللب هو المقصود، وأن القشور ما هي إلا غطاء
لحفظ اللب.

٥- أنه يجوز الاستدلال بالعقل في بيان حسن الشريعة، فيما أمرت
به، وفيما نهت عنه؛ ولهذا قال بعض أهل العلم: إن الله تعالى لم يأمر
بأمر، فيقول العقل: ليته لم يأمر به، ولم ينه عن شيء، فيقول العقل: ليته

لم يینه عنه.

٦- إثبات التحسين والتقبيح العقليين، بمعنى: أن العقل يشهد بأن هذا حسن، وهذا قبيح، لكن ليس للعقل أن يحلل أو يحرم أو يوجب؛ لأن هذا إلى الله وحده.

٧- إثبات العلل والحكم، فيما شرعه الله؛ لقوله تبارك وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأن «لعل» هنا للتعليل.

* * *

قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

يقول الله - عز وجل -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فرض. ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي: إذا حل به الأجل، وهو كناية عن قرب أجله، بما يشاهده في نفسه من المرض. ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ «الخير» هنا، هو: المال الكثير.

﴿الْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل، وعامله: كتب، أي: كتبت عليكم الوصية، وحذفت تاء التأنيث من «كتب»، لوجهين: الوجه الأول: أن الوصية تأنيثها غير حقيقي، والثاني: طول الفصل بينها وبين عاملها. ﴿لِلْوَالِدَيْنِ﴾ وهما: الأم والأب.

﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وهم: الإخوة وبنوهم، والأبناء وبنوهم، وإن شئت

فقل: الأبناء والبنات وأولادهم. المهم أن المراد بالأقربين: من كان أقرب فأقرب.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ متعلق بالوصية، أي: أن يوصي بالمعروف، لا يتجاوز فيسرف، ولا يقصر.

﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿كُتِبَ﴾.

﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ أي: على من اتصفوا بتقوى الله - عز وجل - ومعنى الآية: أن الله - سبحانه وتعالى - فرض على من ترك مالا كثيرا، أن يوصي لوالديه وأقاربه، بالمعروف، وأكد ذلك بأنه حق على المتقين.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- وجوب الوصية للوالدين والأقربين، بالمعروف، بشرط أن يترك خيرا. ولكن هذا العموم مخصص بقوله ﷺ: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث»^(١)، أي: أنه مخصص بآيات الموارث. فإن آيات الموارث، جعل الله فيها لكل وارث ما اقتضت حكمته أن يكون له. وعلى هذا: فالورثة لا يوصى لهم؛ لأن الوصية للوارث، تعد لحدود الله - عز وجل - فمثلا: إذا أوصى الرجل لأمه

(١) رواه الترمذي: كتاب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، رقم (٢١٢١، ٢١٢٠)، والنسائي كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية لوارث، رقم (٣٦٤١، ٣٦٤٣)، وأبو داود كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية لوارث، رقم (٢٨٧٠، ٣٥٦٥)، وابن ماجه كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم (٢٧١٣، ٢٧١٤)، وأحمد (١٧٢١٣، ١٧٦١٧، ٢١٧٩١).

بمال زائد على نصيبها من الميراث، فهذا تعد لحدود الله؛ لأن الله جعل للأمم السدس، أو الثلث، حسب ما هو معلوم في علم الفرائض. إذا هذه الآية عامة، لكنها خصت بالورثة، فلا يوصى لهم. وقيل: إن هذه الآية منسوخة وأن الوصية لا تجب للأقارب الذين لا يرثون. ولكن النسخ يحتاج إلى شرط لا يتحقق في هذه الآية، وهو ألا يمكن الجمع بين النصين، فإن أمكن الجمع بين النصين، فإنه لا نسخ؛ لأن النسخ يقتضي إبطال أحد النصين - وهو أمر ليس بالسهل - فإذا أمكن الجمع بين النصين فلا نسخ وهنا يمكن الجمع، فنقول: يجب على الإنسان أن يوصي للأقارب غير الوارثين، إذا ترك مالا كثيرا، وأما الوارثون فهم على ما فرض الله لهم من الميراث. مثال ذلك: رجل مات عن أمه وأبيه وأخيه الشقيق. أخوه الشقيق لا يرث؛ لأن أباه يحجبه، فيجب على هذا الرجل أن يوصي لأخيه الشقيق بشيء من المال قليلا كان أو كثيرا، إن ترك مالا كثيرا. أما إذا لم يترك إلا مالا قليلا، فإنه لا يجب عليه أن يوصي له. وهذا القول ذهب إليه جماعة من أهل العلم، ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، أي: أنه يجب على الإنسان إذا ترك مالا كثيرا أن يوصي لأقاربه غير الوارثين، بما يشاء، لكن جمهور الأمة على أن الوصية للأقارب غير واجبة.

٢- اعتبار قول من حضره الموت، يعني: أن المحتضر يعتبر قوله، لكن بشرط: أن يكون معه عقله، فإن لم يكن معه عقله؛ فلا عبرة بقوله.

٣- أنه إذا اعتبر قول من حضره الأجل، فإن توبته تقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله - تعالى - يقبل توبة العبد، ما لم يغرغر»^(١).

٤- أن الأحكام منوطة بأسبابها؛ لقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾، وهذا كما يقال: على الإنسان الزكاة، إن ملك النصاب.

٥- أن الله - تعالى - أرحم من الأولاد بوالديهم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - أوصى الأولاد، بل فرض على الأولاد أن يوصوا لوالديهم، وهذا يدل على أنه - سبحانه وتعالى - أرحم من الإنسان بوالده. وفي قوله - تعالى - في سورة النساء: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:

١١]. دليل على أن الله أرحم بعباده من الوالدين بأولادهما. فيكون الله - سبحانه وتعالى - أرحم بالأصول من فروعهم، وبالفروع من أصولهم.

٦- اعتبار العرف؛ لقوله - تعالى -: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذا في

مواضع كثيرة. وقد قال أحد الناظمين:

وكل ما أتى ولم يحدد بالشرع كالحرز فبالعرف احدد^(٢)

فالعرف يكون مناطاً للأحكام في مواضع كثيرة؛ لقوله:

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

(١) رواه الترمذي كتاب الدعوات، باب رقم (٩٨) حديث (٣٥٣٧)، وابن ماجه كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، رقم (٤٢٥٣)، وأحمد: (٦١٢٥، ١٥٠٧٣، ٦٣٧٢، ٢٢٥٥٩).

(٢) هو للمؤلف - رحمه الله - انظر منظومته في أصول الفقه (ص ١٦).

٧- أن التقوى توجب للإنسان أن يقوم بأمر الله - عز وجل -؛ لقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ولا شك أن التقوى تحمل الإنسان على فعل الطاعات وترك المحرمات، بل إن فعل الطاعات وترك المحرمات هو التقوى حقيقةً.

٨- تأكيد الوصية للوالدين والأقربين؛ حيث قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ﴾، ثم قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾.

٩- أن من لم يقيم بهذه الوصية؛ فإنه يفوته من التقوى بقدر مخالفته.



قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: غيره، أي: غير الوصية التي فرضها الله - عز وجل - في الآية السابقة.

﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ أي: علم به، بواسطة السمع.

﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وليس على الموصي؛ لأن الموصي قام بما يجب عليه، فصار الإثم على المبدل المغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: يسمع قول من غير الوصية بقوله، ويعلم حال من غير بقوله أو كتابته أو غير ذلك.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تحريم تغيير الوصية؛ لقوله: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، ولأن تغيير الوصية؛ تصرف في حق الغير بغير حق، إلا أنه يستثنى من ذلك ما سيأتي في الآية التالية.

٢- أن الإنسان إذا عمل الخير، ثم تصرف فيه الغير، بما ليس بخير، فلا إثم على الأول، وإنما الإثم على الثاني؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾.

٣- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عز وجل - وهما: «السميع»، و«العليم». وقد ذكر العلماء - رحمهم الله - أن السميع له معنيان: المعنى الأول: إدراك المسموع، والمعنى الثاني: استجابة الطالب السائل. ومثلوا للأول بقوله - تعالى -: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ومثلوا للثاني بقوله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]: أي: لمجيبه. وقد سبق لنا تفصيل القول في ذلك. وأما العليم، فيستفاد منه وصف الله - تعالى - بالعلم. وعلم الله - تعالى - محيط بكل شيء، جملة وتفصيلاً، فيما كان من فعله - عز وجل -، أو من فعل عباده، فيما كان ماضياً، [وما كان حاضراً]، وما كان مستقبلاً. ولهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]، قال موسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا

يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يتصف بالجهل ولا بالنسيان.

٤- أن الإيمان بكون الله سميعاً عليماً، يستلزم ألا يقول الإنسان قولاً يغضب الله - عز وجل -؛ لأنه إن قال، فقد سمعه - عز وجل -، وألا يعمل عملاً يغضب الله - عز وجل -؛ لأنه إن عمل، فقد علمه - عز وجل -، فيوجب الحذر من المخالفة. وبهذه المناسبة، أذكر إخواني المسلمين أن يتبها إلى هذه المسألة، وهي: أن أسماء الله - سبحانه وتعالى - يراد بها الإيمان بها وبمقتضاها، وأن يتعبد الإنسان لله - تعالى - بذلك.

ثم قال - تعالى -: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا﴾ أي: ميلاً عن الحق.

﴿أَوْ إِثْمًا﴾ أي: تجاوزاً للحق.

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الموصي، ومن وراءه من الورثة.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. وهذه الآية كالاستثناء من الآية السابقة في

قوله: ﴿فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨١].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة ورحمة، فيغفر لمن

فعل جنفاً أو إثماً، ويرحم من عدل إلى الصراط المستقيم.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ، ما يلي:

١- أن من غير الوصية لكونها تتضمن الجنف أو الإثم، فإنه لا إثم عليه. ونفي الإثم هنا لا يقتضي أنه ليس له أجر، بل له أجر، لكن لما كان في مقابلة ما سبق من الوعيد على من بدل، قال: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. ونفي الإثم هنا: ليس المراد مطلقاً نفي الإثم، بل المراد أنه يؤجر على ذلك؛ لأنه مصلح.

٢- أنه إذا حصل في الوصية جور أو إثم، فإنه يجب أن يعدل. مثال ذلك: رجل أوصى لأحد الورثة، فيجب أن تلغى هذه الوصية؛ لأنها جنف. ومثال آخر: لو أن رجلاً أوصى بأكثر من الثلث، فإنه يجب أن تعدل الوصية إلى الثلث، إلا أن يشاء الورثة.

٣- فضيلة الصلح؛ لقوله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾، ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، كما قال الله - عز وجل -.. ويدخل في جميع المعاملات والحقوق، فمتى أمكن الإصلاح، فهو خير، وإذا لم يكن الإصلاح، رجعنا إلى المحاقاة والمطالبة ورفع الأمور إلى الحاكم الشرعي.

٤- أن الصلح لا بد فيه من رضا الطرفين؛ لقوله: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا يجوز أن يفرض الصلح على أحد الطرفين دون الآخر.

٥- إثبات هذين الاسمين الكريمين لله - عز وجل - «الغفور»، «الرحيم». فالغفور: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه. فيستر الله على عبده فلا يعلم به العباد، ويعفو عنه، فلا يعاقبه عليه؛

لأن «المغفرة» مأخوذة من المغفر، وهو: ما يوضع على الرأس لتوقي السهام. والمغفر فيه الستر والوقاية. وأما «الرحيم»: فهو ذو الرحمة. ورحمة الله - سبحانه وتعالى -: رحمة واسعة، كما قال - تعالى -: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقالت الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وقد سبق لنا تفصيل القول في الرحمة، وأنها تنقسم إلى [قسمين]: عامة، وخاصة، فليرجع إلى ذلك^(١).

نسأل الله - تعالى - أن يعمننا بمغفرته ورحمته، وأن يجعلنا من عباده الصالحين، وأوليائه المتقين؛ إنه سميع قريب.

* * *

قول الله - تعالى -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].
يقال في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ما قيل في سابقها من أن ابتداء الخطاب بالنداء، يدل على أهميته، وتوجيهه إلى المؤمنين يدل على أن امثاله من مقتضيات الإيمان، وأن مخالفته نقص في الإيمان.

وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أي: فرض.
﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: كما فرض على الذين

من قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: لأجل التقوى.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- وجوب الصيام؛ لقوله - تعالى -: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾. ومرتبة صيام شهر رمضان من الدين، أنه أحد أركان الإسلام الخمسة التي بني عليها.

٢- أهمية الصيام، وأنه عبادة لا تصلح الأمم إلا بها؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، ولا يلزم من كتابته على من قبلنا، أن يكون مماثلاً أو مساوياً لما كتب علينا، قد يختلف في العدد والزمن.

٣- تسلية هذه الأمة، بأن هذا الصيام الذي فيه شيء من المشقة، قد كتب على من قبلنا، ومن المعلوم أن الإنسان يتسلى بغيره فيما يناله من مشقة.

٤- فضيلة هذه الأمة، حيث التحقت بمن سبقها في الفضائل والأعمال الصالحة؛ لقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

٥- أن الصيام سبب للتقوى؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وأن من لم يظهر عليه أثر التقوى بالصيام، فصيامه ناقص؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل، فليس لله حاجة في أن يدع

طعامه وشرابه»^(١). ففائدة الصيام وحكمة الصيام: تقوى الصائم لله - عز وجل -، فلا يرفث، ولا يفسق، بل لوقاتله أحد أو شاتمته فليقل: «إني صائم»^(٢).

٦- إثبات الحكمة في شرع الله - عز وجل - وأنه - جل وعلا - لا يشرع شيئاً إلا لحكمة، سواء علمناها أم لم نعلمها، فإن علمناها، فهذا من فضل الله علينا؛ حيث نعرف به كمال الله - عز وجل -، وكمال شريعته، وتطمئن نفوسنا أكثر، وإن جهلناها، فما علينا إلا التسليم؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٧- أن الصيام من مقتضيات الإيمان، حيث وجه الخطاب فيه إلى المؤمنين بقوله: ﴿ يَتَائِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ إلخ.

* * *

ثم قال - تعالى -: ﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۖ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۗ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤].

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم (١٩٠٣).
(٢) وذلك كما ورد في الحديث الذي رواه البخاري كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ يعني: أن الصوم المفروض ليس شهورًا، ولا سنوات، ولا أيامًا طويلة. بل هو أيامًا معدودات.

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا ﴾ يعني: وشق عليه الصوم.

﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ عدة: مبتدأ خبره محذوف،

والتقدير: فعليه عدة من أيام آخر.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ يعني: على الذين

يستطيعونه.

﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ أي: إذا لم يريدوا الصوم.

﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ يعني: فمن تطوع خيرًا ببذل

الفدية، فهو خير له.

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: إن كنتم من

ذوي العلم.

ثم بين هذه الأيام المعدودات في قوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- تصوير الأمر الشاق بأمر سهل، حتى تنشط النفوس وتقبل عليه؛ لقوله: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾. فإن الله - تعالى - عرض الصوم هذا المعرض الذي يسهل على المرء أن يقوم بالصيام.

٢- أن المريض لا يلزمه الصوم أداءً، بل له أن يؤخره حتى يبرأ؛ لقوله: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ والمرض هنا مطلق، فيقتضي أي مرض

كان، سواء كان المريض في عضو من أعضائه، أو في كل بدنه، وسواء كان بالحمى أو غيرها. لكن هل يشترط أن يكون المرض شاقاً؟ يقال: نعم. لا بد أن يكون هذا المرض شاقاً على الإنسان أن يصوم مع وجوده، فأما إذا كان لا يشق عليه، فلا وجه لكونه عذراً. هذا هو الذي عليه جمهور الأمة.

٣- أن من كان مسافراً، فإنه لا يلزمه أداء الصوم، بل له أن يؤخره إلى وقت آخر. وقد دلت النصوص على أن السفر إن كان لا توجد فيه مشقة بالصوم، فالأفضل أن يصوم؛ إقتداءً برسول الله ﷺ، وتعجبلاً لإبراء الذمة، ولأنه أسهل من القضاء - كما هو معروف - وأما إذا كان فيه شيء من المشقة، فالأفضل الفطر، وليس من البر أن يصوم. وأما إذا كان فيه مشقة شديدة، فإن الصوم يحرم؛ لأن النبي ﷺ شكى إليه ما يجده الناس من الصوم، فأفطرو والناس ينظرون إليه، ثم قيل له: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»^(١١).

فيكون الصوم في السفر على هذه الوجوه الثلاثة. وللمسافر أن يفطر وإن لم يشق عليه الصوم؛ لأن الصحابة مع النبي ﷺ كان منهم الصائم، ومنهم المفطر، ولا يعيب بعضهم على بعض.

(١) رواه مسلم كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية...، رقم (١١١٤).

٤- أن الصيام أول ما فرض، كان الناس فيه مخيرين بين الصوم والإطعام؛ لقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وهذا هو الصحيح من تفسير الآية الكريمة: أنها دالة على التخيير الذي كان في أول الأمر، وقد دل على ذلك حديث سلمة بن الأكوع، الثابت في الصحيحين، قال: (لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾، كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها^(١)).

وقال بعض أهل العلم: إن معنى قوله: ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ ﴿يطوقونه﴾ أي: يبلغ طاقتهم، ويتكلفون به، فعليهم فدية، لكن هذا القول ينقضه قوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾، فإن هذا يدل على أن المخاطب قادر على الصيام. وقال بعضهم: إن معنى ﴿يُطِيقُونَهُ﴾ أي: لا يطيقونه. وهذا أبعد وأبعد. فالصواب ما ذكرنا: أن الآية دالة على التخيير بين الإطعام والصيام الذي كان جائزاً في أول الأمر، ثم تعين الصيام.

٥- بيان حكمة الله - عز وجل - في التشريع. وأنه - سبحانه وتعالى - يشرع الأحكام شيئاً فشيئاً خصوصاً فيما يشق على الناس، ألا ترى أنه

(١) رواه البخاري كتاب التفسير، باب ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ رقم (٤٥٠٧)، ومسلم كتاب الصيام، باب بيان نسخ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ رقم (١١٤٥).

- سبحانه وتعالى - حين أراد أن يحرم الخمر، جعل تحريمه متدرجًا، وهكذا الصوم، لما أراد - عز وجل - أن يفرضه على العباد، جعل فرضه متدرجًا. ففي أول الأمر يخير الإنسان بين أن يصوم أو يفدي، ثم تعين الصوم.

٦- أن التطوع بالعبادات خير، سواء كان في أعلى المقامات، أو فيما دونه؛ لقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٧- أن الأعمال تتفاضل جنسًا ونوعًا؛ لقوله: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٨- محبة الله - تعالى - للصوم؛ لقوله: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

٩- توجيه الخطاب لذوي العلم؛ لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

١٠- فضيلة العلم، وأن الإنسان يدرك به ما يخفى على غيره.

* * *

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ۖ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ هو الشهر الذي بين شعبان وشوال،

وسمي بذلك؛ لأنه كان - حين التسمية - موافقًا لشدة الرمضاء والحر.

﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: أنزله الله - عز وجل - فإن الله - تعالى - أنزل القرآن في ليلة القدر، أي: ابتداء إنزاله، وليلة القدر في رمضان.

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ هدى: مفعول لأجله، أي: أنزل القرآن لأجل هداية الناس.

﴿وَبَيَّنَّتْ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أي: علامات واضحة من الهدى والفرقان؛ لأن هذا القرآن الكريم يشتمل على التفريق بين الحق والباطل، وبين أهل الخير وأهل الشر.

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ شهد، بمعنى: شاهد، ويحتمل أن تكون بمعنى: حضر.

﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وسبق القول فيها.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي: يجب أن ييسر عليكم، ولا يجب أن يعسر عليكم، فالإرادة - هنا - شرعية.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾. «الواو»: حرف عطف، والمعطوف عليه محذوف يعلم من السياق، فكأنه قال: لتقوموا بطاعته وتكملوا العدة. أي: عدة الشهر.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْنَكُمُ﴾ أي: من أجل هدايته إياكم.
﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أن الصوم الذي كتبه الله علينا، معين في وقت معين، وهو شهر رمضان.

٢- أن القرآن نزل في رمضان، أي: ابتداء الله إنزاله على محمد ﷺ في رمضان.

٣- إثبات علو الله؛ لقوله: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾؛ لأن من المعلوم أن القرآن كلام الله، فإذا كان منزلاً، كان الذي تكلم به عاليًا، جل وعلا.

٤- أن القرآن هدىً وبيان وفرقان؛ لقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾.

٥- الحث على تدبر القرآن؛ حيث جعله الله - عز وجل -: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾، ومعلوم أن الإنسان يطلب الهدى من أي مكان كان، وهذا يحصل بالتدبر - أي: تدبر القرآن - فمن تدبر القرآن طالبًا الهدى منه، تبين له طريق الحق.

٦- وجوب صوم رمضان بمشاهدة - أو شهود - هلاله؛ لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وقد تبين بالسنة أن دخول شهر رمضان يثبت بشهادة واحد من الناس، فإن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وأخبره أنه رأى الهلال، فقال له: (أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؟) قال: نعم. فأمر بلالًا أن يؤذن في الناس أن يصوموا

غداً^(١). وكذلك ابن عمر - رضي الله عنه - قال: تراءى الناس الهلال، فأخبرت النبي ﷺ أني رأيتَه، فصامه، وأمر الناس بصيامه^(٢).

٧- أن الهلال إذا شوهد في مكان، ولم يشاهد في مكان آخر، فإنه لا يجب على من لم يشاهده أن يصوم؛ لأن الله - تعالى - علق وجوب الصوم بشهود الهلال. وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، فمنهم من قال: إنه إذا ثبتت رؤية هلال رمضان، وجب على جميع الأمة الإسلامية أن تصوم في أي قطر كانت، ومنهم من قال: إذا كان الناس تحت ولاية واحدة، وشوهد في هذه الولاية، وجب على كل أهل الولاية أن يصوموا، ولا فرق بين من رآه ومن لم يره، ومنهم من قال: من رآه وجب عليه الصوم، ومن لم يره لم يجب عليه. قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: تختلف مطالع الهلال، باتفاق أهل المعرفة.

فإن اتفقت المطالع وجب الصوم، وإلا فلا.

وعمل الناس - غالباً - اليوم أنهم يتبعون من ثبت الشهر عنده على

(١) رواه الترمذي كتاب الصوم، باب ما جاء في الصوم بالشهادة، رقم (٦٩١)، والنسائي: كتاب الصيام، باب قبول شهادة الرجل الواحد على هلال رمضان، رقم (٢١١٢، ٢١١٣)، وأبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان، رقم (٢٣٤٠)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الشهادة على رؤية الهلال، رقم (١٦٥٢)، والدارمي (١٦٩٢).

(٢) رواه أبو داود كتاب الصوم، باب في شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان رقم (٢٣٤٢)، والدارمي (١٦٩١).

وجه يثقون به.

٨- أن الإنسان إذا فاته الشهر كاملاً، وكان الشهر ناقصاً - أي: كان تسعةً وعشرين يوماً - فإنه لا يلزمه أن يقضي ثلاثين يوماً، بل لا يقضي إلا تسعةً وعشرين يوماً؛ لقوله - تعالى -: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. وظاهر الآية الكريمة: أنه لا فرق بين أن تكون هذه الأيام في العام الذي حصل فيه الفطر، أو فيما بعدها، ولكن قد دلت السنة أنه لا يؤخر القضاء إلى ما بعد رمضان الثاني، قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان يكون علي الصوم من رمضان، فما أستطيع أن أقضيه إلا في شعبان»^(١). وهذا يدل على أنه لا يؤخر إلى ما بعد رمضان الثاني، وإلا لكان ما بعد رمضان الثاني وما قبله سواء.

٩- أن الله - سبحانه وتعالى - كتب على عباده ما كتب من الفرائض، لا للإشفاق عليهم، ولا لإلحاق الحرج بهم، ولكنه - عز وجل - يريد بذلك التيسير والتسهيل؛ لقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾، وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل للمريض الذي يشق عليه الصوم، أو المسافر الذي يشق عليه الصوم، أن يفطر؛ لأن هذا هو الأيسر في حقه.

١٠- أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام، ولم يتبين

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب متى يقضي قضاء رمضان، رقم (١٩٥٠)، ومسلم: كتاب

الصيام، باب قضاء رمضان في شعبان، رقم (١١٤٦).

رجحان أحدها على الآخر، فإن مقتضى إرادة الله اليسر على العباد أن يؤخذ باليسر. وهذا هو القول الراجح، أنه إذا تعارضت الأدلة في حكم من الأحكام - يعني: بعضها يفيد التحريم، وبعضها يفيد الحل - واشتبه الأمر، فإننا نأخذ باليسر؛ لأن ذلك هو الموافق لقوله - تعالى -: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾.

١١- الحث على إكمال العدة على الوجه المطلوب؛ لقوله: ﴿وَلْتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾.

١٢- تكبير الله - سبحانه وتعالى - عند انتهاء العدة، على هدايته لنا وتسهيل الصوم علينا؛ لقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلْتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾. وهذا يكون بعد غروب الشمس من آخر يوم من رمضان إلى أن يحضر الإمام لصلاة العيد، فيكبر الناس في الأسواق والمساجد والبيوت، يجهر بذلك الرجال، وتسرب به النساء. وصفة التكبير أن يقول: الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، والله الحمد، أو يقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر. الله أكبر، الله أكبر، والله الحمد، كل هذا جائز.

١٣- أنه يجب أن نعتزف لله بالفضل على هدايته إيانا؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلْتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

١٤- الحث على الشكر، والشكر هو: القيام بطاعة المنعم، عقيدة وقولاً، وعملاً. نسأل الله أن يعيننا جميعاً على ذكره، وشكره، وحسن

عبادته، وأن ييسر لنا الأمور، رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.
اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل
بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

* * *

ثم قال الله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾
[البقرة: ١٨٦].

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ﴾ الخطاب في هذه الآية لرسول الله ﷺ.

والمراد بالعباد هنا: عباد الشريعة، يعني: العباد الذين يتعبدون لله -
تعالى - بما شرع، فهي العبودية الخاصة.

وقوله - تعالى -: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ هذا القرب حقيقي، ولكنه لا
ينافي ما ذكر من علوه جل وعلا. فإنه قريب في علوه، علي في دنوه؛ لأنه
- جل وعلا - عال فوق خلقه، مستو على عرشه.

﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ يعني: أن الإنسان إذا دعاه ربه،
فإن الله - تعالى - يجيب دعاءه. ولكن لإجابة الدعاء شروط:

منها: الإخلاص لله - عز وجل - بألا يشرك معه أحدًا في دعائه.
ومنها: حسن الظن بالله، أن يجيب دعاءه.

ومنها: شعور الإنسان بالافتقار إلى الله تبارك وتعالى.

ومنها: اجتناب أكل الحرام؛ لأن أكل الحرام من موانع إجابة

الدعاء، فقد ذكر النبي ﷺ: «الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب. ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام. فأنى يستجاب لذلك!!»^(١). فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لمن يأكل الحرام، ويتغذى به.

وقوله: ﴿فَلَيْسَتَجِيبُوا إِلِيَّ وَلِيُؤْمِنُوا إِلَيَّ﴾ أي: فليستجيبوا لأوامري، فيقوموا بها، وليستجيبوا المقتضى نهيي، فيتركوا ما نهيت عنه.

﴿وَلِيُؤْمِنُوا إِلَيَّ﴾ أي: ليحققوا إيمانهم، بالاستجابة لله - عز وجل - .
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾: (لعل) - هنا - : للتعليل، أي: من أجل أن يرشدوا، والرشد: حسن التصرف. ويفسر في كل موضع بما يناسبه.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- أن الله - سبحانه وتعالى - عالم بما يستقبل، كما هو عالم بما مضى، وبال حاضر. ووجه الدلالة: قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ و«إذا» لما يستقبل من الزمان، وهي تفيد وقوع الشرط.

٢- حرص الصحابة - رضي الله عنهم - على الأسئلة النافعة.

٣- فضيلة من تعبد لله بشرعه، ووجه ذلك: إضافة عبوديتهم إلى الله، فقال - تعالى -: ﴿عِبَادِي﴾. وإضافة العبودية إلى الله - تعالى - شرف لا يساويه شرف؛ ولهذا يذكره في مقام التشریف كقوله - تعالى -:

(١) رواه مسلم كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب، رقم (١٠١٥).

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان: ١]، وقوله - تعالى - :
 ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١].
 والعبودية لله - عز وجل - هي الحرية الحقيقية، وأما من تحرر من عبودية
 الله، فقد استرق للشيطان. قال ابن القيم - رحمه الله في النونية:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

٤- قرب الله - تعالى - لمن دعاه، ولهذا يشعر الداعي بقرب الله -
 تبارك وتعالى - كأنه يراه. وهذا من تمام الإحسان. فإن قال قائل: هل
 قرب الله - تعالى - ينافي علوه؟ قلنا: لا، لا ينافي علوه؛ لأنه - سبحانه
 وتعالى - ليس كمثله شيء، في جميع صفاته، كما قال شيخ الإسلام ابن
 تيمية - رحمه الله - في العقيدة الواسطية: (فإن الله - تعالى - ليس كمثله
 شيء، في جميع نعوته، فهو قريب في علوه، على في دنوه).

٥- إجابة الله - سبحانه وتعالى - للداعي؛ لقوله: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ
 الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾. وهذا الإطلاق مقيد بألا يدعو بإثم أو قطيعة رحم،
 كما جاءت بذلك السنة. ومن الدعاء بالإثم: أن يدعو الإنسان على
 شخص لا يستحق الدعاء عليه. فإن قال قائل: ما أكثر من يدعون الله،
 ولا يجدون إجابة؟ فالجواب: أن ذلك إما لفوات الشرط، أو لوجود
 مانع، أو أن الله - سبحانه وتعالى - ادخر ذلك لهم؛ ليكون مثوبةً وقربةً
 إلى الله تعالى.

٦- اشتراط الإخلاص في الدعاء؛ لقوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ يعني: ولم

يشرك معي أحداً.

٧- وجوب الاستجابة لله، والإيمان به؛ لقوله - تعالى :-
﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾.

٨- إثبات العلل، وأن أحكام الله - تعالى - وأفعاله معللة بالحكمة البالغة التي قد ندرکہا، وقد لا ندرکہا.

* * *

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَشِّرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ المحلل والمحرّم هو: الله - عز وجل - ولا أحد

يجلّل أو يجرّم من دون الله - عز وجل -. والحلال ضد الحرام.

وقوله ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ يعني: الليلة التي تصومون من غدها.

﴿الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعني بذلك: الجماع ومقدماته.

ثم علل هذا الحكم - وهو الإحلال - بأنهن لباس للأزواج، والأزواج لباس لهن. وذلك لأن الزواج ستر للزوج وللزوجة،

بتحصين الفرج، وغض البصر، وغير ذلك، مما يترتب عليه من الستر، فقال - تعالى -: ﴿ هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ .

ثم بين - عز وجل - أنه أحل ذلك؛ لأنه يعلم أن الإنسان يختار نفسه، ويخدعها، ويملي لها، [فقال - تعالى -: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ . وسبب ذلك] أن في الإنسان نفسين: نفس أمارة بالسوء، ونفس مطمئنة.

فالنفس الأولى تأمره بمخالفة أمر الله ورسوله، والثانية تأمره بطاعة الله ورسوله.

ثم قال - تعالى -: ﴿ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ . تاب عليكم أي: على ما سلف من فعلكم. وعفا عنكم: عما أوجبه عليكم.

وكان الناس في أول الأمر، إذا نام الإنسان قبل صلاة العشاء، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى أن تغرب الشمس من الغد، أو إذا تعشى، حرم عليه الرفث إلى امرأته إلى غروب الشمس من الغد فشق ذلك على المسلمين، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية رخصة لهم، وتسهيلاً عليهم. وبين - سبحانه وتعالى - أنه تاب عليهم فيما فعلوا قبل التحليل، وعفا عنهم، فأسقط عنهم وجوب الإمساك إذا ناموا أو صلوا العشاء.

ثم بين - جل وعلا - أنه أباح لنا أن نباشر النساء، وأن نبتغي ما كتب الله لنا.

والمراد بالمباشرة هنا ما دون الجماع، والمراد ب﴿ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾

المراد بها الجماع؛ لأن المراد بقوله: ﴿وَأَبْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: من الولد، وهذا لا يحصل إلا بالجماع. فأباح الله - تعالى - أن نباشر النساء ليلة الصيام بما دون الفرج، وبالجماع.

وأباح أيضًا الأكل والشرب، فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود: سواد الليل.

وقوله: ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ بيان لوقت تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ثم أمر الله - تعالى - بإتمام الصيام - وهو: الإمساك عن المفطرات تعبدًا لله - عز وجل - من حين أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى الليل، وذلك غروب الشمس.

ثم نهى - سبحانه وتعالى - أن نباشر النساء ونحن عاكفون في المساجد، فقال: ﴿وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ﴾ وهذا يشمل الجماع وما دونه.

﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ يعني: والحال أنكم عاكفون في المساجد. والعاكفون: هو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله - عز وجل -.

ويبين - عز وجل - أن هذا الذي شرعه لنا من حدود الله، ونهانا

عن قربانها

فقال - تعالى -: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾.

وليعلم أن الله - تعالى - يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾،

وأحيانًا يقول: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ قال العلماء: والفرق

بينهما أنه إن كان الحد في المأمورات، فالنهي عن الاعتداء - أي: عن تعديها، والخروج منها - وإن كان من المنهيات، فالنهي عن قربانها؛ لأن المنهي عنه منهي عن القرب منه؛ لثلاث تسول له النفس أن يقع في الحرام الصريح.

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: مثل هذا البيان يبين الله للناس آياته، أي: آياته الشرعية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله - عز وجل -.

في هذه الآية من الفوائد والأحكام، ما يلي:

١- إباحة الجماع، والأكل، والشرب، في ليالي رمضان؛ لقوله: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ إلى أن قال: ﴿فَالْعَنَ بَشْرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

٢- بيان ما يحصل بالنكاح من ستر أحد الزوجين للآخر؛ لقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾.

٣- إثبات علم الله - عز وجل - بما في نفوسنا؛ لقوله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَحْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾. وعلم الله - تعالى - عام شامل، للظاهر والباطن، والخفي والجلي، والماضي والمستقبل والحاضر، كما قال الله - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل

٤- سعة عفو الله - تعالى - وحلمه، حيث تاب علينا وعفا عنا، حين علم ما يقع منا من اختيان النفوس.

٥- أنه ينبغي للإنسان في جماعه أن يتبغى ما كتب الله له من الولد. ويتفرع على هذه الفائدة: أن من حكمة النكاح كثرة النسل، لتزداد الأمة؛ لأن زيادة الأمة القوة والخير، والاستغناء عن الغير.

٦- جواز الأكل والشرب والجماع، إلى أن يتبين الفجر؛ لقوله - تعالى -: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، ويتفرع على ذلك: أنه يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب ويجامع، مع الشك في طلوع الفجر؛ لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ولأن الأصل بقاء الليل.

٧- جواز صوم الجنب، ووجهه: أن الله إذا أباح للإنسان أن يجامع إلى أن يطلع الفجر، لزم من ذلك ألا يغتسل إلا بعد طلوع الفجر، فيكون صوم الجنب صحيحًا. وقد ثبتت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يصبح صائمًا وهو جنب من جماع أهله^(١) - صلوات الله وسلامه عليه -.

٨- أن الأصل الثابت لا يزول إلا بيقين؛ لقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ﴾. وهذه الفائدة قد دل عليها ما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن زيد، وأبي هريرة - رضي الله عنهما -

(١) رواه البخاري كتاب الصوم، باب الصائم يصبح جنبًا، رقم (١٩٢٥)، ومسلم كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، رقم (١١٠٩).

فيمن أشكل عليه هل أحدث أم لا؟ فأمر النبي ﷺ ألا يخرج من المسجد، ولا ينصرف من صلاته، حتى يسمع صوتًا، أو يجد ريحًا^(١).

٩- أنه لا يجوز الفطر قبل تحقق غروب الشمس؛ ولهذا لا يجوز للإنسان أن يأكل ويشرب مع الشك في غروب الشمس، ويجوز أن يأكل ويشرب مع الشك في طلوع الفجر. ووجهه من هذه الآية أنه هناك قال: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾، وهنا قال: ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾؛ ولأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، فالأصل في مسألة الفجر بقاء الليل، والأصل في مسألة الفطر بقاء النهار.

١٠- الإشارة إلى مشروعية الاعتكاف؛ لقوله: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾.

١١- أنه لا اعتكاف إلا في مسجد؛ لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾. والمساجد: تشمل جميع المساجد، من حل أو حرم؛ لأن «أل» فيها: للعموم، وليست للعهد، وعلى هذا فيصح الاعتكاف في كل مسجد، سواء كان من المساجد الثلاثة أو من غيرها. وما روي عن

(١) ورد ذلك في حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَجَدَ أَحَدُكُمْ فِي بَطْنِهِ شَيْئًا، فَأَشْكَلَ عَلَيْهِ، أَخْرَجَ مِنْهُ شَيْءٌ أَمْ لَا، فَلَا يُخْرِجَنَّ مِنَ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا». وهذا الحديث رواه مسلم كتاب الحيض، باب الدليل على أن من تيقن الطهارة ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦٢).

حذيفة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: « لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى^(١)، فهو حديث ضعيف، وإن صح، فالمراد الاعتكاف التام، وأما الاعتكاف الجزئي، فيصح ويجزئ في كل مسجد.

١٢- أن مباشرة النساء من المعتكف، تبطل الاعتكاف؛ لأنه منهي عنه في نفس الاعتكاف، والمنهي عنه في نفس العبادة، يفسدها كما أفسد الكلام الصلاة؛ لأنه نهي عن الكلام في الصلاة.

١٣- مشروعية الاعتكاف، ووجهه أنه أنيط به أحكام، وهذا يدل على أنه من شرائع الله - عز وجل - . ولكن ما هو الاعتكاف المشروع المسنون، الذي هو من سنة الرسول ﷺ؟ الجواب: هو الاعتكاف في العشر الأواخر، كما اعتكف النبي ﷺ .

١٤- أن الله - سبحانه وتعالى - حد لعباده حدوداً، ونهاهم عن قربانها إذا كانت من المحرمات؛ لقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ . وإنما حدد الله - عز وجل - شريعته لعباده؛ لأن ذلك أضبط وأيسر على المكلف، وأبلغ في امتحان المكلف؛ لأن بعض المكلفين قد يهون عليه شيء من الشريعة دون الشيء الآخر، وبعض المكلفين يصعب عليه كل

(١) أخرجه البيهقي (٤ / ٣١٩)، وابن أبي شيبه (٢ / ٣٣٧) (٩٦٦٩)، وعبد الرزاق (٤ / ٣٤٧)

(٨٠١٤)، والطبراني في الكبير (٩ / ٣٠١) (٩٥٠٩) و(٩ / ٣٠١) (٩٥١٠) و(٩ / ٣٠٢)

(٩٥١١)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥ / ٨١).

أحكام الشريعة، وبعض المكلفين يهون عليه الأحكام الشرعية كلها، ويقوم بها أوجب الله عليه فيها. فكان في هذا امتحان للعباد.

١٥- الحذر من قربان محارم الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «فمن اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه»^(١).

١٦- أن الله - تعالى - يبين لعباده الأحكام؛ ليتقوه؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

١٧- أن في الآية إشارة إلى أن الإنسان لا يكلف قبل العلم، وعلى هذا فلا تقوم الحجة عليه، إلا بعد العلم بالحجة.

١٨- أن آيات الله - تعالى - تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، كما في هذه الآية. وآيات كونية، كما في قوله - تعالى -: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧].

١٩- عظم شأن التقوى، حيث جعلها الله - تعالى - غاية، لبيان عباده؛ لقوله - تعالى -: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٢٠- جواز النسخ في الشريعة. والنسخ: هو رفع حكم النص، أو لفظه، بدليل. ووجهه من الآية: أن الله - تعالى - أباح لعباده مباشرة

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم كتاب المساقاة،

باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩).

النساء، بالجماع وما دونه، والأكل والشرب، حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، بعد أن كان ذلك ممنوعاً إذا صلوا العشاء أو ناموا. والنسخ هنا: نسخ من أصعب إلى أسهل؛ لأن إحلال هذا الشيء للعباد لا شك أنه من التسهيل عليهم.

وقد ذكر العلماء - رحمهم الله -: أن النسخ يكون من أخف إلى أشد، ومن أشد إلى أخف، ومن مساو لمساو.

فمثاله من الأخف إلى الأشد: أن الله - تعالى - نسخ التخيير بين الصوم والفطر مع الإطعام، ثم عين الصيام، ومعلوم أن العبادة - إذا كان فيها تخيير - تكون أيسر من التعيين.

ومثاله من الأصعب إلى الأسهل: هذه الآية.

ومثاله من المساوي لمساويه: نسخ استقبال بيت المقدس، إلى استقبال الكعبة. فإن هذا بالنسبة لعمل المكلف لا فرق بين أن يستقبل بيت المقدس، أو أن يستقبل الكعبة.

والحكمة من ذلك: ابتلاء العباد، وبيان المنة عليهم. فإن كان من أخف إلى أشد، أو من مساو لمساو، فالحكمة فيه: الابتلاء، وإن كان من أشد إلى أخف، فالحكمة فيه: بيان فضل الله - عز وجل - على العباد، حيث خفف عنهم.

ثم قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

في هذه الآية ينهى الله - عز وجل - عباده أن يأكلوا الأموال بينهم، حين يتداولونها بالباطل، وهو ما كان ضد الحق، وينحصر ذلك في شيئين: إما بجحد ما يجب على الإنسان بذله، وإما بدعوى ما ليس من حقه.

فمثال الأول - أعني جحد ما يجب على الإنسان بذله -: أن يكون في ذمة شخص لغيره ألف درهم، فيدعيه صاحبه، فينكر المطلوب، ويقول: إنك لا تستحق علي شيئاً. ويكون الطالب ليس عنده بينة، ففي هذه الحال: سوف يحكم القاضي ببراءة المدعى عليه، إذا حلف؛ لقول النبي ﷺ: «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر»^(١).

ومثال الثاني - وهو ادعاء ما ليس من حقه -: أن يدعي شخص على آخر أن في ذمته له مائة درهم، ويأتي ببينة زور، تشهد بذلك، فيحكم القاضي على المدعى عليه بالباطل، بناءً على هذه الشهادة الباطلة. ومن المعلوم أن القاضي سيحكم بما يظهر؛ لقول النبي ﷺ: «إنكم تختصمون

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، رقم (١٣٤١)، ولفظه: «واليمين على المدعى عليه». واللفظ المذكور أخرجه البيهقي في الكبرى (١٢٣/٨)، والدارقطني (١١٠/٣)؛ وعبدالرزاق في المصنف (٨/٢٧٣).

إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له، وإنما أقضي بنحو ما أسمع»^(١).

وقوله - تعالى -: ﴿وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ بيان طريق ما يأكل الإنسان به الباطل، أن يدلي بالأمر إلى الحكام، فيأتي بدعوى باطلة ويؤيدها بشهادة زور، وما أشبه ذلك.

وقوله - تعالى -: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ يحتمل أن تكون اللام للتعليل، أي: تفعلون ذلك لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم.

ويحتمل أن تكون للعاقبة، أي: أن أكلكم المال بالباطل يؤدي إلى هذه العاقبة الوخيمة، وهي أكل فريق من أموال الناس بالإثم.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه لا حق لكم في ذلك، وأن أكلكم المال بهذه الطريق أكل بالباطل.

في هذه الآية من الأحكام والفوائد، ما يلي:

١- حماية الأموال، وأن الله - سبحانه وتعالى - قد حمى أموال الناس أن يعتدي بعضهم على بعض فيها؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

(١) رواه البخاري كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم (٢٤٥٨)، ومسلم كتاب الأفضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، رقم (١٧١٣).

٢- أن الحاكم إذا حكم بما لا يستحقه المحكوم له، فإن ذلك لا ينجيه عند الله؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾ بعد قوله: ﴿وَتُدْأُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾.

٣- الإشارة إلى أن الحاكم إذا أخطأ، وحكم بالباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لأنه ليس له إلا الظاهر. ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأخطأ، فله أجر، وإن أصاب فله أجران» (١).

٤- أن من أكل مال غيره يظن أنه أكله بحق، ولم يعلم أنه أكله بباطل، فإنه لا إثم عليه؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ولكن متى علم أنه لا حق له فيه؛ وجب عليه رد الحق إلى صاحبه، أو استحلاله منه.

مثال ذلك: رجل ادعى على شخص بمائة ريال، فقال المدعى عليه: إني قد قضيتكها. ومن المعلوم أن دعواه القضاء غير مقبولة إلا بينة.

ولكن إذا لم يكن له بينة، فإنه سوف يقضى عليه بدفعها إلى صاحبها، ويلزم بذلك. فإذا قدر أن المطلوب قد قضاه، ولكن الطالب نسي، فلا إثم على الطالب؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. لكن متى ذكر أن المطلوب قد أوفى، وجب عليه أن يرد ما أخذ منه.

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام باب أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (٧٣٥٢)، ومسلم: كتاب الأفضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد، رقم (١٧١٦).

٥- أنه قد يؤخذ منها أن أكل مال المعاهد والمستأمن والذمي بالباطل محرم؛ لقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ﴾. وهذا قد جاءت به السنة، بل قد جاء به القرآن، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَا آمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦]، وقال - تعالى -: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِيبُ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].



فهارس أحكام من القرآن الكريم

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٧	نبذة مختصرة عن العلامة محمد بن صالح العثيمين
١٥	المقدمة
٢١	(١) سورة الفاتحة
٢٢	قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
٢٥	قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾
٢٦	قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾
٣٢	قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
٣٤	فوائد الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
٣٨	قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾
٣٩	فوائد وأحكام
٤٥	قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية
٤٦	فوائد وأحكام الآية الكريمة
	(٢) سورة البقرة
٦٢	قوله تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ الآية
٦٣	فوائد وأحكام هذه الآيات الكريبات

- ٦٦ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ الآيتان
- ٦٧ فوائد الآيات الكريمات
- ٧٤ من فوائد وأحكام قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الآية
- ٧٥ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية
- ٧٦ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٧٩ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآيتان
- ٨٢ فوائد وأحكام هذه الآيات
- ٨٦ قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الآية
- ٨٦ من فوائد هذه الآية الكريمة
- ٩١ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا﴾ الآية
- ٩٢ من فوائد وأحكام هاتين الآيتين
- ٩٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ الآية
- ٩٦ من فوائد الآية الكريمة
- ٩٨ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ الآيتان
- ٩٩ من فوائد الآيتين الكريمتين
- ١٠٢ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ الآية
- ١٠٣ من فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ١٠٣ قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ الآيتان

- ١٠٥ فوائد الآيتين الكريمتين
- ١٠٦ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الآيتان
- ١٠٨ فوائد الآيتين الكريمتين
- ١١٢ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية
- ١١٣ فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ١١٦ قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ الآية
- ١١٧ فوائد وأحكام هذه الآية
- ١٢٠ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ الآيتان
- ١٢٢ فوائد الآيتين الكريمتين
- ١٣٣ قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية
- ١٣٦ فوائد هذه الآية
- ١٤٠ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ الآية
- ١٤٣ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٤٥ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ الآية
- ١٤٧ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٤٩ قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية
- ١٤٩ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٥٢ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ الآية

- ١٥٢ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٥٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً﴾ الآية
- ١٥٧ فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ١٦١ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ اٰدَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ الآيتان
- ١٦٢ فوائد هاتين الآيتين
- ١٦٤ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَتَّخِذُمْ اُنۢبِيَآءُهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ﴾ الآية
- ١٦٤ من أحكام وفوائد هذه الآية
- ١٦٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسۡجُدُوْا لِاٰدَمَ﴾ الآية
- ١٦٨ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٧٢ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ اَسۡكُنَ اَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الآية
- ١٧٣ من فوائد هذه الآية
- ١٧٥ قوله تعالى: ﴿فَاَزَلَهُمَا الشَّيۡطٰنُ عَنْهَا﴾ الآية
- ١٧٨ فوائد وأحكام هذه الآية
- ١٨١ قوله تعالى: ﴿فَتَلَقٰٓى اٰدَمَ مِنْ رَّبِّهٖۙ كَلِمٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الآية
- ١٨١ فوائد وأحكام هذه الآية
- ١٨٥ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهۡبِطُوْا مِنْهَا جَمِيْعًا﴾ الآية
- ١٨٦ من فوائد هذه الآية
- ١٨٨ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَكَذَّبُوْا بِغَايَتِنَا﴾ الآية

- ١٨٨ فوائد وأحكام هذه الآية
- ١٩١ قوله تعالى: ﴿يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ الآية
- ١٩٢ فوائد هذه الآية الكريمة
- ١٩٤ قوله تعالى: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ الآية
- ١٩٦ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ١٩٨ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية
- ٢٠٠ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٢٠١ قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ الآية
- ٢٠٢ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٢٠٣ قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية
- ٢٠٤ فوائد الآية الكريمة
- ٢٠٦ قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية
- ٢٠٦ أحكام وفوائد هذه الآية
- ٢٠٨ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ الآية
- ٢٠٩ أحكام وفوائد هذه الآية
- ٢١٠ ما يستفاد من هاتين الآيتين من صور
- ٢١٢ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية
- ٢١٤ من فوائد هاتين الآيتين

- ٢١٧ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴿٢١٧﴾ الآية
- ٢١٩ فوائدهاتين الآيتين
- ٢٢١ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴿٢٢١﴾ الآية
- ٢٢٢ أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة
- ٢٢٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً ﴿٢٢٦﴾ الآيات
- ٢٢٩ أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة
- ٢٣٥ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴿٢٣٥﴾ الآيتان
- ٢٣٧ ما يُستفاد من هذه الآية الكريمة
- ٢٣٩ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴿٢٣٩﴾ الآية
- ٢٤١ فوائده وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٢٤٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ ﴿٢٤٦﴾ الآية
- ٢٤٨ فوائده هذه الآية الكريمة
- ٢٥٤ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرِيَّةَ ﴿٢٥٤﴾ الآية
- ٢٥٧ فوائده هذه الآية الكريمة
- ٢٦٢ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴿٢٦٢﴾ الآيتان
- ٢٦٣ فوائدهاتين الآيتين
- ٢٦٨ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ آعَدَدُوا مِنْكُمْ فِي النَّبْتِ ﴿٢٦٨﴾ الآيتان
- ٢٦٩ فوائدهاتين الآيتين

- ٢٧٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخَبُوا بَقْرَةَ﴾ الآيات
- ٢٨١ فوائد الآيات الكريمة
- ٢٩٩ قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ الآيات
- ٣٠٠ من فوائد هذه الآيات الكريبات
- ٣٠٥ قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ﴾ الآية
- ٣٠٦ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٠٧ قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ الآية
- ٣٠٨ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٠٩ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ الآية
- ٣١٠ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣١١ قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية
- ٣١٢ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣١٤ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية
- ٣١٦ فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣١٧ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ الآية
- ٣١٩ فوائد وأحكام هذه الآية
- ٣٢٣ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ الآيات
- ٣٢٥ فوائد وأحكام هاتين الآيتين

- ٣٢٩ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ الآية
فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ٣٢٩ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الآية
فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ٣٣١ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ الآية
فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ٣٣٦ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية
فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٣٩ قوله تعالى: ﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا﴾ الآية
فوائد وأحكام الآية الكريمة
- ٣٤٠ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية
فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٤٤ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الآية
فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٤٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الآية
فوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٤٨ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ الآيات
فوائد وأحكام هذه الآيات الكريمات
- ٣٥٠
- ٣٥٢

- ٣٥٥ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الآيات
- ٣٥٧ فوائد هذه الآيات الكريمة
- ٣٥٨ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ الآية
- ٣٥٩ من فوائد هذه الآية
- ٣٦٠ قوله تعالى: ﴿أَوْ كَلَّمَا عَنْهُمْ وَأَوْ عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ الآية
- ٣٦٠ أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٦٤ قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ﴾ الآية
- ٣٦٧ أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة
- ٣٧٢ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ﴾ الآية
- ٣٧٢ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٧٤ قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ الآية
- ٣٧٥ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٧٧ قوله تعالى: ﴿مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الآية
- ٣٧٨ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٨٢ قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ الآيتان
- ٣٨٤ فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين
- ٣٩٠ قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ الآية
- ٣٩١ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة

- ٣٩٦ قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ﴾ الآية
- ٣٩٧ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٩٩ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ الآيتان
- ٤٠٠ فوائد وأحكام هاتين الآيتين
- ٤٠٦ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْنَّصْرِيُّ عَلَى شَيْءٍ﴾ الآية
- ٤٠٧ أحكام وفوائد هذه الآية الكريمة
- ٤٠٩ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ الآية
- ٤١٠ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤١٢ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية
- ٤١٣ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤١٥ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الآيتان
- ٤١٦ فوائد وأحكام هاتين الآيتين الكريمتين
- ٤١٩ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ الآية
- ٤٢١ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٢٣ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية
- ٤٢٤ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٣٢٧ قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرِيُّ﴾ الآية
- ٤٢٩ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة

- ٤٣١ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ﴾ الآية
- ٤٣٣ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٣٥ قوله تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ الآية
- ٤٣٧ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٣٨ قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَيَوْمًا لَا تُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ الآية
- ٤٣٩ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٤١ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ الآية
- ٤٤٢ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٤٤ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية
- ٤٤٦ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٥٢ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ الآية
- ٤٥٤ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٥٦ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية
- ٤٥٧ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٦٠ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ الآية
- ٤٦١ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٦٦ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية
- ٤٦٧ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة

- ٤٧٤ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الآية
- ٤٧٥ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٧٧ قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ﴾ الآية
- ٤٧٧ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٧٨ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الآية
- ٤٧٨ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٧٩ قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ﴾ الآية
- ٤٨٠ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٨٣ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ الآية
- ٤٨٤ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٨٥ قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية
- ٤٨٨ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٩١ قوله تعالى: ﴿فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُ بِهِ﴾ الآية
- ٤٩٢ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٩٤ قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ الآية
- ٤٩٥ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٤٩٥ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الآية
- ٤٩٦ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة

- ٤٩٧ قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية
- ٤٩٩ فوائد وأحكام هذه الآية الكريمة
- ٥٠٠ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ الآية
- ٥٠١ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية
- ٥٠٢ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٠٥ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية
- ٥٠٨ وفي هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥١٣ قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآية
- ٥١٥ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٢٠ قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ الآية
- ٥٢٢ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٢٥ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الآيتان
- ٥٢٦ في هاتين الآيتين من الفوائد والحكم ما يلي
- ٥٢٩ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ الآية
- ٥٣٠ وفي هذه الآية الكريمة من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٣١ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية
- ٥٣٣ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٣٣ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية

- ٥٣٦ في هذه الآيات الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٣٨ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ الآيتان
- ٥٣٩ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٤١ قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ الآية
- ٥٤١ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٤٣ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ الآية
- ٥٤٤ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٤٧ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ﴾ الآية
- ٥٤٨ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٤٩ قوله تعالى: ﴿وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآية
- ٥٥٢ في الآيات السابقة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٥٧ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ الآية
- ٥٥٨ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٥٩ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ﴾ الآيتان
- ٥٥٩ في هاتين الآيتين الكريمتين من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٦٤ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ الآيتان
- ٥٦٥ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٦٦ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَاحِدٌ﴾ الآية

- ٥٦٦ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٦٨ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية
- ٥٧١ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٧٣ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا﴾ الآية
- ٥٧٥ في هذه الآية من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٧٧ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ الآيتان
- ٥٧٩ في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٨٠ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتان
- ٥٨١ في هاتين الآيتين من الحكم والفوائد ما يلي
- ٥٨٨ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية
- ٥٨٩ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٩٢ قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾ الآية
- ٥٩٣ في هذه الآية الكريمة من الفوائد العظيمة والأحكام ما يلي
- ٥٩٤ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوًا مِّن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ الآية
- ٥٩٥ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٥٩٧ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ الآية
- ٥٩٩ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٠٥ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الآية

- ٦٠٦ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٠٩ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ الآية
- ٦١٠ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦١١ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الآية
- ٦١١ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦١٢ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ الآية
- ٦١٥ هذه الآية الكريمة اشتملت على فوائد عظيمة
- ٦٢١ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ الآية
- ٦٢٣ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي:
- ٦٢٧ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ الآية
- ٦٢٨ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٢٩ قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية
- ٦٣٠ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٣٣ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ الآية
- ٦٣٤ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٣٥ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ الآية
- ٦٣٦ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٣٧ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الآية

- ٦٣٨ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٣٩ قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ الآية
- ٦٤٠ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٤٣ قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ الآية
- ٦٤٥ في هذه الآية الكريمة من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٤٩ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ الآية
- ٦٥٠ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٥٢ قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَّكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ﴾ الآية
- ٦٥٥ في هذه الآية من الفوائد والأحكام ما يلي
- ٦٦١ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ الآية
- ٦٦٢ في هذه الآية من الأحكام والفوائد ما يلي

dar-alwatan



100185

SR.33.00